الواسطة

في معرفة احوال مالطة

و

كشف المخبا

عن

فنون اوربا

تأليف

احمد فارس افندى

صاحب الجوائب

الطبعة الثانية

طبع فى مطبعة الجوائب

قسطنطينية

سنة

١٢٩٩

الواسطة

في معرفة احوال مالطة

و

كشف المخبا

عن

فنون اوربا

تأليف العلامة الرحلة امام الارب * محيي لغة العرب * النحرير
المحقق * الجهبذ المدقق * الشاعر المفلق * سحاب الفضل
المغدق * احمد افندي فارس صاحب التآليف
المأثوره * صاحب الجوائب المشهوره *

الطبعة الثانية

طبع في مطبعة الجوائب

قسطنطينية

سنة

١٢٩٩

الواسطة فى معرفة احوال مالطة وكشف المخبا عن فنون اوربا

لصاحب الجوائب

بسم الله الرحمن الرحيم

لحمد لله الذى احصى كل شئ كتابا * واعد للمتقين جزآء حسابا * والهم ابن
دم ان يضرب فى الارض ويكدح لنفسه كدحا * ويجوب مناكب البلاد ويسعى
يدرك نجحا * والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذى بهرت آيات نبوته
لناظرين * وبزغت شمس دينه فافل منها سها الكافرين * ونادى بالحق فزهق
لباطل ومحى ظلمه * وانذر فارهب وبشر فارغب وطاب مقاله ومقوله ومقوله *
خير من دعا وامر * ونهى وزجر * ووعد فانجز * وقال اطنب او اوجز *
ارشد فهدى * واجدى من اجتدى * صلاة وسلاما دائمين * متلازمين متلائمين *
على آله وعترته * واصحابه وعشيرته * ما سرى السارى * وطلعت الدرارى *
اما بعد فان الاسفار طالما ذكرها الذاكرون * وبالغ فى وصفها الواصفون *
فمدحها من علت مروءته * وسمت همته * وذمها من قصر عنها * ولم يجن
منها * فمنهم من شبه صاحبها بدر ان لم ينقل لم يكن فى التبجان منضودا *
وبهلال ان لم يسر لم يصر بدرا مشهودا * ومنهم من زعم انها الحاملة على
الذل * المضيعة لحسب المرء والموقعة له فى الضل * والخمول وعدم الشكل *
وان الشئ انما يزن اذا كان فى مستقره * حتى عرفوا الظلم انه وضع الشئ

فى

في غير مقره * ومعلوم ان محل العرب مباين لمحل العجم * فكأن احد الفريقين
اذا جاوز محله فقد ظلم * الى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات *
كما جرت بذلك عادة البلغاء في المحاورات * اذ كل حكم وقضية من القضايا
الجارية اطالوا فيها المقال * وجالوا فيها من حيث لا مجال * كاعتزال الناس
والانفراد عنهم * والمخالطة لهم والاخذ منهم * فبعضهم آثر الاول * وود لو
يقضي عمره على قنة جبل * وبعضهم شبه الزحام * بمنهل عذب لذي الاوام *
وامثال ذلك لا تحصى * ولا تعد ولا تستقصى * فكان الركون الى ما قالوا *
والمعول على ما فيه جالوا واطالوا * غير هاد وحده سبيلا قويما * ولا شاف
كليما * الا اذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه اي الفريقين اصدق قيلا * واهدى
سبيلا * واطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح * والثناء والمدح * وماز
المعلم من المجهل * والحالي من المعضل * فهو حينئذ خبير واي خبير * غير
مفتقر الى ناصح منهم ومشير * والحاصل ان لكل امرئ شأنا يعنيه * ومطلبا
هو مقتفيه * وان ما قضى الله يكون * سواء اذم الذامون ام مدح المادحون *
هذا وقد كنت في عنفوان شبابي * وجدة جلبابي * وازهار سني * وازدهار
ذهني * لهجا بالسفر والاغتراب * والترحل عن الوطن والاصحاب * الى بلد
ينضر فيه غرسي * وتطيب فيه نفسي * واقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا *
والفي اذ الدهر لي موحش خليلا يصادقني مونسا * حتى ادتني اعمال حابطة *
الى جزيرة مالطة * فالفيتها لا كما املت * وكابدت منها ما لا يفي بما عنه
ترحلت * فعن لي ان اظهر ما بطن منها * واكشف مخبأها لمن رغب فيها
او عنها * فالفت فيها كتابا سميته « الواسطة في معرفة احوال مالطة » ثم لما رأيت
ان هذا الشرح لا يروي غليلا * ولا يشفي عليلا * لكونه مقصورا على وصف
الجزيره * وهي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من ان يطيل فيها من
القول مأثوره * او يضيف اليه فوائد تاريخية خطيره * ظل خاطري حائما
على مورد التأليف * وقلبي هائما بسفر طريف * الى ان مكنتني التقادير
الممكنة * بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة * نحو اربع عشرة سنة * من
السفر الى بلاد الانكليز المتمدنة * فاغتنمت هذه الفرصة عجلا * وظننت اني

ادركت املا * وعولت على ان اشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها * ويعم نفعها * فصرت اقيد ما عن لى من الخواطر فى وصفهم وسنح * وتارة انقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح * وللطرف اليه مطمح * فان شؤونهم متشعبة * واحوالهم مستغربة * وانحاءهم شتى * ومقاصدهم تستغرق وصفا ونعتا * ويعلم الله انى مع كثرة ما شاهدت فى تلك البلاد من الغرائب * وادركت فيها من الرغائب * كنت ابدا منغص العيش مكدره * كمن فقد وطره * ولزمته معسره * لا يروقنى نضار ولا نضرة * ولا نعمة ولا مسرة * ولا طرب ولا لهو * ولا حسن ولا زهو * لما انى كنت دائم التفكر فى خلو بلادنا عما عندهم من التمدن * والبراعة والتفنن * ثم تعرض لى عوارض من السلوان * بان اهل بلادنا قد اختصوا باخلاق حسان * وكرم يغطى العيوب ويستر ما شان * ولا سيما الغيرة على الحرم * وصون العرض عما من هذا الصوب يذم * ثم اعود الى التفكر فى المصالح المدنية * والاسباب المعاشية * وانتشار المعارف العمومية * والى اتقان الصنائع * وتعميم الفوائد والمنافع * فيجفل ذلك السلوان * واعود الى الاشجان * وكذا كانت حالة السيد الاكرم المونس * امير الامرآء حسين باشا من امرآء تونس * فانه لبث فى باريس مدة طويلة * وخواطره ببلاده ابدا مشغولة * فكان يلازمه الارق * والهم والقلق * حتى مكنه اليوم البارى تعالى من تحسين تلك الحاضرة * وامدادها بالمرافق الوافرة * فلله الحمد على بلوغ اربه * وحصول مطلبه * فان تبهية الامصار الاسلامية * اشهى الىّ والله من كل امنية * كيف لا وعن المسلمين كان اخذ التمدن والفنون فى الاعصر الغوابر * وكانوا قدوة فى جميع المناقب والمفاخر * والمحامد والمآثر * وهذا التفكر والاسف * والتفكن المستأنف * كثيرا ما حملنى على الاضراب عن التأليف * لعلمى ان كلامى فيه لا يكون الا دون التاريف والتعريف * وانى لمثلى ان يدرك جميع ما عند اولئك الناس من الاختراع * والاحداث والابداع * الا ان رغبتى فى حب اخوانى على الاقتدآء بتلك المفاخر * هى التى سهلت علىّ هذا الخطب واطالت باعى القاصر * فامسكت القلم من بعد القائه مرارا * وتوكلت على البارى المعين ان يكشف لذهنى ما عنه توارى * ويدنى الى فكرى ما شط عنه مزارا * وحررت هذه الرحلة وسميتها

كشف

« كشف المخبا عن فنون اوربا » وذلك لانى لم اقتصر فيها على شرح ما عند الانكليز وحدهم من الفنون * بل استطردت الى وصف غيرهم ايضا والحديث ذو شجون * وليكن معلوما عند القارى * والسامع والدارى * انى فى كل ما وصفت به الانكليز والفرنسيس وغيرهم من اهل اوربا * لم يمل بى هوى ولا غرض بغضا او حبا * اذ ليس لى حذل مع احد منهم ولا ضاع * ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع * وانما رويت عنهم ما رويت * وحكيت ما حكيت * بحسب ما ظهر لى انه الصواب * فلا ينبغى ان يحمل قولى على ضغن او اغضاب * واعوذ بالله من ان ابخس الناس اشياءهم * فاتعمد القول فيما شانهم وساءهم * الا انه لا ينكر ان الانسان محل النقص والمعيب * وانه قل من ينظر الى نفسه بعين المصيب * وكذا كنت اقول للانكليز * فلم يكن احد منهم ينكر قولى او ينسبه الى التعجيز * ثم انى بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار اليها عرضت عوارض كثيرة * واحوال خطيرة * كحرب اميريكا و بولاند مثلا * وكزيادة فى عدد سكان الممالك او فى اعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلا * من جملة ذلك ما جرى فى الممالك الاسلامية من التحسين والتنظيم * والترتيب والتتميم * الا انى رأيت ايداعها فى الرحلة نصبا مستأنفا * وشغلا لا ينتهى ولا يستوفى * فصرفت عنه صفحا * وصدفت كشحا * اذ حوادث الدهر * اكثر من ان يحصرها ذكر * او يحيط بها زبر *



الجزء الاول

﴿ فصل فى تخطيط مالطة معربا ﴾

اعلم ان تخطيط مالطة هو فى ٣٢ درجة و ٤٤ دقيقة من الطول وفى ٣٥ درجة و ٥٤ دقيقة من العرض اما موقعهـا فى الكرة فان بعض الجغرافيين الحقوه بافريقية بالنظر الى المكان وبعضهم الحقه بجزائر ايطاليا بالنظر الى عادات اهل مالطة واحوالهم وديانتهم والمراد بذلك انها من اوربا فمن الحقها بافريقية بشوارمى ومن الحقها باوربا بلينوس وسطرابوس ودليلهما على ذلك كونها على بعد ستين ميلا من رأس باسرو وعلى مائتين من كابيه نوميا اركولى والمحل الاول اقرب الى اوربا والثانى اقرب الى افريقية • قال فاما عرضها فاثنا عشر ميلا وطولها عشرون ودورتها ستون وقاعدتهـا الآن هى المدينة المسماة فالتة فاما فى الاعصر السالفة فكانت نوتابيلى ويقـال لها الآن المدينة وموقعها فى وسط الجزيرة فى ارفع موضع منها وكأن الجزيرة منقسمة بها الى شطرين احدهما يمتد جهة الشرق والآخر جهة الغرب والذى بنى فالتة كان احد امرآء الافرنج وسماها باسمه وذلك سنة ١٥٧٦ وهى على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس • قلت زعم بعض المالطيين ان اصل هذه الكلمة شبر الراس وبعضهم انها جبل رأس وعندى انها شعب الرأس قال فى الصحاح شعب الرأس شانه الذى يضم قبائله اه وهو كناية عن اصل الشئ ومجتمعه كما ان قبائل الرأس مرجعها الى الشعب ويحتمل انها سميت بشيب الرأس لان اهل مالطة اذ ذاك كانوا يناصبون المسلمين الحرب والثار وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس • وذكر بوليه المؤلف الفرنساوى ان قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الامير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ولد فى سنة ١٤٩٤ ومات فى سـنة ١٥٦٨ وكان شهيرا بالبأس والاقدام واول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج صانت المو ثم قوى عليهم واخرجهم منها • قال المؤلف ثم خلفه باولودل مونتى فاتم بناءها فى الثامن عشر من ايار وذلك فى سنة ١٥٧١ وقبل بنائها كان مقـام الزعماء المنتسبين الى طريقة مار يوحنا فى برملة والبرغو بشرقى فالتة ويقـال للثانية فيتوريوزا اى المنصورة لحرب انتصر فيهـا اهل مالطة على المسلمين وذلك فى

سنة

سنة ١٥٥٦ قال وفى ضواحى هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة وهى اعمر جميع قرى الجزيرة وجملتها اربع وعشرون قرية وهى جديرة بان تسمى امصارا لكثرة سكانها وحسن بنائها وكنائسها • وعدد اهل الجزيرة كلهم نحو ١٢٠،٠٠٠ نفس • ولمالطة مرسيان احدهما كبير يعد من اعظم المراسى وذلك لسعته بحيث يسع عدة بوارج مع الامن ولكونه فى وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار اعظم محل للتجارة على ان تلك المخازن العديدة والشؤون الرحيبة المبنية عند هذا المرسى تغرى الظاعن والمقيم بتعاطى التجارة فيها والثانى صغير وهو مرسى المراكب التى ترد من البلاد المشوبة بالوبآء ويقال له مرسا منسطو محرفة عن مرسى الشط اما هوآء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير ان ارضها صخرة لا تصلح من اصلها للحرث ومع ذلك فان السنبلة الواحدة تخرج فى تربتها التى ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سنبلة او عشرين وفى عام الخصب ثمانى وثلاثين وفى الجيدة احدى وستين واخص اصناف غلالها التى يتجر بها القطن وقد يبعث منه الى جهات مختلفة فى اوربا مقدار جزيل الا ان بخس ثمنه رغب الاهلين عنه الى غيره فصاروا يصرفون همتهم فى تربية التوت فان فيه نفعا كبيرا وقد علم بالتجربة انه يتحصل منه حرير اعلى من حرير ايطاليا • قلت وقد علم بالتجربة ايضا ان دود القز لا يعيش فى هذه الجزيرة والمؤلف انما كتب هذا عند الشروع فى تربية التوت • قال وفى هذه الجزيرة تنمو الاشجار المثمرة لاصناف الفاكهة الطيبة كالرمان والتفاح والعنب والاجاص واعظمها الاترج • فاما عدد الاهلين الآن بالنظر الى صغر الجزيرة فانه عظيم جدا ولم يعهد من قبل قط انها كانت تحوى هذا المقدار وانما يعلم انها كانت مأهولة باسرها الا ان بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من الآثار الباقية وما وصل الينا من اسمآء بعض قرى لا وجود لها وسبب ذلك فيما قيل ان المالطيين حين كانوا تحت سلطة الارجونيين وجدوا انفسهم عرضة لغزو المسلمين المتتابع ولهجوم لصوص افريقية فجعلوا مقرهم شرقى المدينة صيانة لعرضهم ومالهم واخلوا الجهة الغربية • وذكر بعض الجغرافيين ان مالطة كانت تسمى فى القديم هيبرية وقال بعض انه لم يوجد فى بلاد اوربا جزيرة عرفت بهذا الاسم وانما هو اسم مدينة قديمة فى صقلية ثم

حرف بحير باسم كامرينة ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها اوجاجية وسماها اليونانيون مليتة واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد وسماها المسلمون مالطة ومعنى ميليسة او ميليتة في لغة اليونان النحل وزعم قوم انهــا سميت باسم ميليتة ابنــة دوريس على جهة التعظيم وهو مشتق من ميلت في السريانية وهو اسم الله ويعرف في غيرها بجونو ولا يبعد ان يكون ذلك ايضا في اللغة الفينيقية قال وروى بعض المؤرخين ان بناء مدينة فوتابيلى كان بعد الطوفان بنحو ١٤٠٠ سنة واعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصارى هياكل جونو وابروسربين وهركوليس وابولو • فموقع الاول هو بين فيتوريوزة وصانت انجلو ويحكى ان ملك نوميدية الذى كان دأبه غزو مالطة كان قد اخذ منه قطعة بديعة من العــاج واهداها الى استاذه ففرح بها اولا غاية الفرح و لكن لما علم انها اخذت من الهيكل ردها الى الملك والتمس منه ان يعيدها في محلها • وموقع هيكل ابروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيــه آثار • وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سير وكو (اى مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين وقد وجد فيه آثار كثيرة • وموقع هيكل ابولو عنــد نوتابيلى وهو بنــاء الاغريقيين وكان ذا رونق عظيم ويقال ان جملة ما انفق في بنــائه بلغ سبعمـائة وتسعين سترسيا وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام ووجد ايضــا آثار حمام في محل اسمه قرطين • وممن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الاقدمين اوميروس واوفيديوس ويفهم من كلام الاول ان القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم اول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهــات صور وصيدا وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد وكانوا اهل سعى وكسب وتجــارة فلبثوا فيها نحو اربعمائة وخمسين سنة حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها للقرطاجنيين وذلك نحو ســنة ٥٢٨ قبــل الميلاد ثم جاء من بعدهم الرومانيون في سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور فاقروا فيها احكامهم وسننهم واعظم ما حدث في دولة الرومانيين مما لا ينبغي ان يهمل ذكره قدوم مار بولس وانكسار السفينة به وبمن كان معه وذلك سنة ٥٨ للميلاد في عهد القيصر طيباريوس في موضع يقال له الآن خليج مار بولس ومنذ ذلك الوقت تنصر اهل الجزيرة ثم بعد انقراض دولة

الرومانيين

الرومانيين منهــا استولت عليهــا قبيلة الفندلس ثم القوث ثم تغلب على هؤلاء البليساريون وطردوهم منها والحقوها بحكومة البلاد الشرقية و بقيت كذلك إلى سنة ٧٨٠ فاخذوا فى هضم الرعية فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلين ◆ قلت ذكر فى كتاب الجمع والبيــان فى اخبــار القيروان ان مالطة فتحت فى ايام ابى الغرانيق محمد بن احمد بن محمد بن الاغلب توفى سنة احدى وستين و مائتين وانمــا لقب بالغرانيق لانه كان مشغوفا بالصيد روى انه بنى قصرا فى السهلين لصيد الغرانيق انفق فيه ثلاثين الف دينار فكنى بهــذه الكنية وكان فى غاية الجود الا انه غلب عليــه اللهو والطرب والاكل والشرب ولم يزل مقيمــا على لذاته طول عمره انتهى فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف وسلموا الجزيرة للمسلين قال ثم قام الامير روجر النورمانى بعدهــا بمائتى سنة واسترد الجزيرة والحقهــا بصقلية فبقيت كذلك نحو سبعين سنة ولمــا تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطه فى حكومته و ذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنه وفى اثنآء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنســا حكم صقليه ومالطه معــا وبعد سنتين تغلب عليــه الامير بطرس الاراجونى ثم آل امرهــا الى الملك كرلوس ملك صقليه فولى عليها الفرسان من نظــام مار يوحنا برضى الاهلين واتفاق دول اوربا وكان قد جرى هذا النظام عندهم اولا ثم لما نبغ نابوليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على ان يرخص للاهلين فى التصرف بحقوقهم الا ان الفرنسيس لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة و انتهكوا حرمة الكنائس فتحزب عليهم المالطيون تحزبا لم يخل عن سفك دم كثير منهم وعن تلف اموالهم الى ان اتت الانكليز فسلموها لهم وكان ذلك فى سـنة ١٨٠٠ ◆ قلت لما دخلهــا نابوليون وجد فيهــا الفــا و مائتى مدفع ومائتى الف رطل من البــارود و اربعين الف بندقيــة و عــدة بوارج و ٤٫٥٠٠ اسير من المسلين فاطلقهم و ذلك فى سنة ١٧٩٨ ◆ قال فاما اخذ المسلين لهــا فانه كان من باب المصادقة اولى منه من المغالبة وعاملوا الاهلين اولا بالرفق والمياسرة و وقروا سننهم و احكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأن الجيلين واحدا كما يتبين ذلك من بقــاء لغتهم فيهم ◆ قال اما لغة مالطة فذهب بعضهم الى انها عربيــة فاسدة و ذهب آخرون الى انهــا فنيقية لان اليونانيين بعد ان

فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيهـا آمنين محافظين على لغتهم وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليهـا و انهـا لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لان لغة هؤلاء ايضـا كانت فينيقية ومع ان داب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق باخلاقهم و السلوك بسننهم اينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم والدليل على ذلك ان الرومانيين الذين كانوا مع مار بولس سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هـذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية قال ثم بقيت فى دولة المسلمين ايضا و لم تتغير و انما دخل فيهـا بعض الفاظ اجنبية و يؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض الفاظ منها للغتنا نحو بير وصيد فانهما فى الفينيقية بر وصد و غير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين و الحاصل ان مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية ارجح من ان يكون من العربيـة و ان كانت قريبة من هذه ايضا ◆ قلت دليله هذا اوهى من بيت العنكبوت فان البير و الصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سوآء ما عدا موافقتهما فى تصريف الافعال و الاسماء وفى الضمائر وغير ذلك من اساليب الكلام كما سيأتى بيان ذلك ◆ ومن الغريب ان المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية و لا المالطية و ان كانت لغتـه و يتعرض للحكم و الاستدلال فكيف يحكم على الشئ وهو يجهله وكيف يقول اولا ان لغة المسلمين بقيت فى اهل مالطة لشدة الالتحام الذى كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها و انما حمله على هذا بغضته و بغضة اهل بلاده للعرب وتبرئة انفسهم انهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اذ كان هؤلاء كما ذكر ارباب جد و تجـارة و العرب عند اهل مالطة كناية عن الهمج وذلك لجهلهم التواريخ ولانهم لا يرون الآن الا صعاليك المغـاربة والظاهر ان المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من اهل العلم و التمدن كالذين كانوا فى صقلية وغيرها فانى لم اجد فيما قرأت قط من كتب الادب و التواريخ قال المالطى و السيوطى رحمه الله لم يغادر فى كتاب الانسـاب الذى سماه لب اللباب احدا من اهل العلم الا وذكره ما خلا المنسوب الى مالطة ◆ قال اما جزيرة غودش و تسمى بالافرنجية كوتزو فزعم بعض ان هذه اللفظة يونانية و معناها مركب مستدير و هى كأنهـا ذيل انقطع من مالطة وطولهـا اثنا عشر ميلا فى عرض سـتة و اهلها نحو خمسة عشر الفـا و جملة قراها ست

ومدينتها

و مدينتها تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) و فيها آثار قلعة قديمة و بقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جدا وكذا عسلها حتى ان الاقدمين كانوا يفضلونه على عسل جبل هبلا و يرد منهـا الى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة والبقل والسمك وحكومتها ملحقة بمالطة وكذا كانت فى الزمن القديم وزعم بعض ان مالطة و غودش وكونة كانت فى الاصل جزيرة واحدة وحدث لها من الزلازل ما فرقها

(انتهى المنقول من كتاب مختصر الفه مكلف فى تاريخ مالطة)

و اقول قد رأيت جزيرة غودش غير مرة اما اسمها فاظنه محرفا عن لفظة الهودج سماها به المسلمون لشدة شبهها به كما سموا الجزيرتين الاخريين كونة و فلفلة لصغرهما الا ان اهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به اهل مالطة ولا اعلم فى لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهاء غينا فاما قلب الجيم شينا فكثير اما ارضها فاحسن من ارض مالطة ولا سيما كون حقولهـا مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وانكلترة لا كحقول اهل مالطة كما يأتى وهى ازكى ثمرا ونباتا واهلها اخلص طوية وفيها الحمير والبغال ضليعة لكنها غير فارهة وربما بيع الحمار منها باربعين ليرة اما شجرها فان التفـاح لا يكاد يكون اكبر من العليق فى الشام و شجر التين منبسط على الارض وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة و فيهـا ايضا نخلة لكنها لا تثمر واسماء قراها ومواضعها كلها عربية محضة ومما اضحكنى من خرق اهلهـا انهم يدرسون القمح على البهـائم من دون نورج وذلك بان يربطوا مثلا كل زوج منهـا فى قرن ويمشوهما على السنابل فيثور هذا ناحيـة و ذاك اخرى وكذا هى فى مالطة ومن غرابة ارض غودش ان جميع محالهـا مزروعة محروثة الا ما قابل مالطة فكأنه من قبيل مراعاة النظير اما كونة فليس فيهـا سوى بيت واحد وكنيسة وارضها قليلة الجدوى

﴿ فصل فى هوآء مالطة ومنازهها وغير ذلك ﴾

انما قدمت هذا الفصل من كلامى لاهميته فان العـافية خير ما ملك الانسـان وان ارضا لتأكل من نازلها لجديرة بان لا يؤكل منها فاقول قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة و بقى الآن الكلام على هوآئها من حيث هو هو فان الهوآء لا يعرف غالبا من مجرد نسبة الموقع اما اشتقاق اسمها ان كان عربيا فمن م ل ط

ومعظمه يدل على التجرد والخلو او التجريد والاخلاء فتكون قد سميت بذلك لخلوها عن الغياض والجبال والانهار وغيرها وفى القاموس ومالطة كصاحبة د (اى بلد) وكان عليه ان يذكر خصوص كونها جزيرة فانه كثيرا ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك فاما قوله اولا ملط شعره حلقه ثم قوله بعد فاصل والاملط من لا شعر على جسده وقوله فى اول المادة الملط الخبيث لا يرفع له شئ الا سرقه ثم قوله عند الآخر وامتلطه اختلسه فمن اختلاط الترتيب فى التركيب • وممن ذكر مالطة ايضا المطران جرمانوس فرحات فى كتابه المسمى «باب الاعراب عن لغة الاعراب» قال ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر • قلت لعل تأليفه هذا الكتاب كان قبل سفره الى رومية والا لما قال متقاصية او انه جاء بها للمجانسة اما قوله سكانها لصوص البحر فينبئ بما كان لاهلها حينئذ من الشهرة الذميمة عند اهل المشرق وكأن هذه الصفة كانت غالبة عليهم حتى انسته ان يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية فاما الصحاح فذكر ملطية فى بلاد ارمينية والآن تعد من الممالك العثمانية • اما هواء مالطة فلا يحمده من الف البرور الواسعة لانه كثير التقلب فيختلف فى الليل والنهار عدة مرار فقد يكون فى الصباح صحو فلا تشعر الا والغيم قد طبق اعنان السماء فيكفهر الجو ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح فترقص لها الابواب بل قد يكون فى النهار برد وفى الليل حر هذا فى الشتاء فاما فى الصيف فلا ترى فى الجو لطخة سحاب ولا غادية اصلا وفصل الشتاء يبتدئ فيها من شهر تشرين الاول و ينتهى الى ايار والباقى صيف شديد وان وقع فى خلال ذلك يوم معتدل فتأتى فيه نفحة من الريح باردة واخرى حارة او تكون النعور وهى من الرياح ما فاجأك ببرد وانت فى حر او عكسه وفى الجملة فانها جديرة بان تسمى مخزن الرياح فهى لا تخلو منها باردة كانت اوحارة واكثر رياحها فى الصيف السافياء تأتى بغبار وتراب دقيق تطيره على وجوه الناس وتدخله فى الديار من خصاص الزجاج • ومن الغريب ان الريح الشرقية التى تكون فى الشتاء زمهريرا تصير فى الصيف سموما فتنشق بها اخشاب المنازل وهى مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف ويجف بها الزجاج ويتصلب فيكسر بادنى مس ويتقرعد بها الجلد والورق بل يتأثر بها

الحديد

الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينتن شمع الشحم فتكون الشمعة فى البيت كالجيفة وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيقضى الومد حينئذ باللباس الخفيف من الكتان وبالنوم من دون غطاء واكثر اهل مالطة ينامون ليلا على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنمة بخلاف الديار فى اوربا واذا مشى الانسان خطوات فى الصيف يعوم فى عرقه ثم لا يلبث ان تلفحه لفحة من الريح فينبغى ان يكون احذر من غراب هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبال والانهار اذ هى عبارة عن صحن فى وسط البحر فتى اصابتها الشمس مسحتها مسحا على السواء فلا ملطفا فيها من شئ وربما زاد حرها ايضا بسبب النار التى تخرج من جبل صقلية ومع قربها من ايطاليا فليس فى ديارها رخام كديار تونس وليس فى شئ منها مياه جارية كديار الشام • ومن جملة الاسباب التى تجعل شتاءها عارما مكروها كون بنائها من حجر رطب لو جعل فى مقمأة بضع سنين لاكلأ وحين يستخرج اولا من مقطعه يكون اخضر مائيا ولا يبيض الا اذا نصب للهواء والشمس سنين ومن خواصه انه قابل للنقش فلهذا ترى منه فى الديار والكنائس نقوشات شتى وقد يبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد وكثيرا ما تتوارى الشمس فى فصل الشتاء فلا تطل فيه ولا من شباك فاين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة وفى الصيف يطفو نيلها فيرطب الارض وينتظم به شمل الاحباب وعقود المسرات • واذا اتفق فى مالطة يوم صحو فى الشتاء رأيت الناس جميعا يعددون محاسنه ويصفونه ويلهون عن سوء ايامهم الاخرحين اذ الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل من انف كل سحاب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على الحلقوم واشد ما يسوء منها استمرار الرياح اياما متوالية من دون مطر فانه قد يأتى عليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ اصلا وقد احتاجوا فى بعض السنين الى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم اسقفهم دعاء للاستمطار فى الكنائس مع الصيام والريح مع ذلك تزيد عصوفا فقلت

* ولما لم يطق كانون قطرا * تولى وهو يحبق بالرياح *
* فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه * وجوهكم وصوموا عن سفاح *

وفى الجملة فان صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بغتة فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف ذليست كمصر والشام فان الانسان فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئا فشيئا وليس من علامات الربيع شئ بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهى آفة من الآفات ولا من علامات الخريف سوى تناثر اوراق الشجر المعدودات ومع ذلك فان كثيرا من الانكليز يأتون اليها ليقضوا فيها الشتاء اما عدم المطر فيها فى الصيف فسببه قلة الشجر والغياض فان السحب اذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة ولعل الادوية والعقاقير التى تبقى مدة طويلة فى مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة فان التبغ والنشوق والخمر اذا بقيت فيها زمانا يزول طيبها رأسا لان مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ند كما مر فاذا وضعت مثلا ملحا فى خزانة لا يلبث ان يندى كأنه خلط بالماء وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات اذا وضعت فى مخدع من خشب مصبوغ فان النداوة تسرى الى الصبغ ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعا فى مالطة وقل من يسلم منه وقد اصبت به اول سنة فكنت اقوم فى الصباح موجع الاعضاء لا انشط الى شئ وما زال ذلك يتزايد بى حتى لزمت الفراش فلما عادنى الطبيب ورأى مبلط المنزل اخبرنى بالسبب فعظم علىّ ذلك ثم لما سمعت بان اكثر الناس ممنيون به هان علىّ ما لاقيت وتأسيت بهم ودوآء هذا الدآء الاقامة فى محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعلو كتبى من اثر النداوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع او وجع اسنان ومن يكن ذا علة فى صدره فاعظم خطر عليه التعرض للريح بعد ان يكون فى محل دفئ مع ان الغالب على اهل مالطة الشدة والقوة غير انهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان ومما توصى به الاطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفا وشتاء اما فى الشتاء فللدفئ واما فى الصيف فلتنشيف العرق ومنع ضرر الريح النافذة فى المسام حتى انهم يخشون من الريح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان فى سيره اداروا وجهه الى غير جهة الريح وقس على ذلك • اما ارض مالطة فانها ملطة صخرة جردآء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شئ الا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها اكثر

اصناف

اصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم اكثر من اربعة اشهر والباقي يجلب اليهم من بلاده فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد الترك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والبقر والضان والزيت من افريقية وهلم جرا وزعم بعض ان ترابها مجلوب فى الاصل من صقلية وترى شجر الخرنوب والصبار التى لا تتوقف على كثير من الثرى اعز من شجر الجوز فى الشام اما شجر الخرنوب فيكون لاصقا بالارض كأنما هو ازرار واما الصبار فتراه محوطا بالجدران العالية كأنما هو حديقة وينوطون بكل منها ورقة من النوم منعا لاصابة العين مع انها مما تنبو عنه العين واذا سألت احدهم عن قلة الغياض عندهم قال نحن معاشر الافرنج لا نصرف همنا الا الى زرع الارض فما اقل ظلهم واكثر ظلمهم • واذا ضحيت الى الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارا عاليا لحجز رؤية ما دونه فاين هذا من سهول فرنسا وانكلترة البادية للعين على نضرتهما وريعها وعلى كثرة ما فيها من اكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها او حائط يسترها • ويوجد فى مالطة اكثر اصناف الاشجار المثمرة والبقول المأكولة وفاكهتهم طيبة فى الجملة الا الليمون الحلو وقصب السكر والخيار فاما الصبار فاكثره نوى وكذا الرمان واكثر الفاكهة يباع فجا وقلما يدعونها تنضج خوفا من اللصوص ان تسرقها وجميع اصنافها ارخص منها بمصر والتين على اصناف متنوعة والعنب لا يدوم اكثر من ثلاثة اشهر اما البردقان فانه يدوم نحو سبعة اشهر ويرسل منه الى بلاد الانكليز وغيرها كالطرفة واما ما يأتيها من التمر من صقلية فانما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة اصناف لا توجد فى بلادنا منها صنف يقال له الفراولى وهو حب احمر صغير بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر وآخر يقال له نصبلى وهو شبيه بالمشمش او بعين البقر ونواه كبير وآخر اسمه زربى وهو اشبه بالزعرور شديد الفجية يجعلونه اعذاقا كاعذاق التمر فينضج منه كل يوم حبات ويدوم العذق بجملته اشهرا ولا يعرفون حفظ الفاكهة الى اوان الشتاء كما يفعل فى بلاد الافرنج فان العنب والتفاح فى فرنسا وانكلترة لا ينقطعان اصلا اما بقولهم فغير طيبة وذلك لكثرة مائيتها فاذا رأيتها فى السوق سرك نضارتها ولكن متى طبخت جاءت مسيخة حتى ان الهصل والفجل

وما اشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل اذا جلبت من بلاد اخرى يتغير طعمها وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع منها الا ويغلظ ويجسو ومن الغريب ان نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها فى غاية الجودة ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والقثاء والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وانما يجلبون نفاية هذا احيانا من طرابلس الغرب واهل مالطة جميعا يتقززون منه ويطبخون ادامهم بشحم الخنزير • اما ماؤها فانه ماء المطر مخزونا فى الآبار غير سائغ فما شربه ذو تعب او ظمأ الا واصابه سعال وكثيرا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فشتان بينه وبين ماء النيل الذى يطيب شربه على التعب والظمأ ولا يزيد الشارب الا صحة ونماء جسم فلا ينبغى لاحد ان يشرب من ماء مالطة الا ترشفا ونقل عن ارسطو ان الماء الراكد الذى لا تقع عليه الشمس لا يكون الا ثقيلا وتتولد فيه مادة طينية • اما حدائقها فاشهرها حديقة صانت انطونيو مقر الحاكم فى الصيف وهى التى نزل بها الامير بشير شهاب باهله اخلاها له الحاكم اجلالا لشأنه وهى نضيرة حسنة الوضع الا انها فى منخفض من الارض وليس فيها مقاعد او مواضع ليأكل فيها المتفرج او يشرب وليس للمالطيين عادة ان يأخذوا الى مثل هذه المتنزهات طعاما لا فى الاعياد ولا فى غيرها اتباعا لعادة الانكليز اذ لا يمكن لهم الجلوس الا على كرسى فغاية حظهم من ذلك انما هو المشى او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخيلاء او ان يمشى وحده وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم او روضة فلا يعرفون كيف ينبسطون عندهما سوى بالمشى واعرف رصفا يسمى البياتا انيقا جدا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسى يجلس عليه ولو كان مثله فى باريس او فى مصر او الشام لرأيته من اوله الى آخره مرصوفا بالكراسى والمتكآت ومشتملا على كل ما تطيب به النفس وفى الجملة فان الانكليز والمالطية جميعا لا ذوق لهم فى مثل هذه الامور • ثم البوسكت ومعناه الغيضة وهو على بعد ثلاث ساعات من فالتة وهو سيء المنحدر قليل الجدوى فانه عبارة عن شجيرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة فى تنبيتها الا ان فيه قبوة فيها عين نضاحة وحولها مائدة ومقاعد

من حجر يقعد عليها الآكلون فهذا الموضع انزه موضع فى الجزيرة و ذلك الماء اعذب ماء بها وبقربه برج كان فى القديم سجن يعذب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت العادة ايضا فى اسپانيا وغيرها • ثم المطحلب وهو انضر من البوسكت وابعد لكونه عند اقصى مالطة طولا • وفيه بركة يعلو مآءها طحلب وكأن الموضع سمى به • ونواعيرهم نحو نواعير الشام ومصر • واهل تونس وطرابلس يستعملون السانية وهى فى اللغة الناقة يسقى عليها و يطلقونها على البستان • و الحاصل ان جزيرة مالطة لا تعجب من الافرنج الا القليل و ذلك لانهم اذا جاؤها لم يجدوا فيها شيئا غريبا لا يوجد فى بلادهم فان كل ما فيها ان هو الا نفاية ما عندهم • هذا وليس منهم من يرغب فى علم اللغة المالطية اذ كانوا يعلمون انها عربية فاسدة وليس فيها من الصنائع و الفنون ما يجهله اهل الرستاق منهم فضلا عن المتمدنين و انما هى مجاز يجوزون منها الى الشرق نعم ان بعضا من المظلومين فى ايطاليا وخصوصا صقلية يأتون اليها للاستئمان و انها لما كان موقعها بين عدة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة و لا سيما الآن فانه قد يتعذر السفر الى بعض جهات الشرق من دون المرور بها • فاما العرب فربما لا تعجب منهم احدا و ذلك لان اهل مالطة جميعا يكرهون جنس العرب و المسلمين على الاطلاق ومنتهى الذم عندهم ان يقولوا عربى بسكون الرآء على انها فى جميع لغات الافرنج بالفتح و لا يمكن ان يخطر ببالهم ان من العرب من هو ذو ادب وكياسة بل لا يكادون يظنون ان اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين و حيث كانوا يعلمون ان الافرنج ينسبونهم الى العرب زادت بغضتهم له فما احد ممن الف الحظ فى الحمام والبساتين و الغياض و المواسم والتأنق فى المطاعم يترك بلاده ويأتى الى هذه الصخرة الصمآء • هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان يسمع الكلام المالطى على فساده و مع كون هذه الجزيرة قريبة جدا من تونس وطرابلس فما بها احد منهما الا عابر طريق قال الشاعر

* واصعب ما يلقى الفتى فى زمانه * اذا حل نجم السعد فى برج نحسه *
* اقامته فى ارض من لا يوده * وصحبته مع غير ابناء جنسه *

﴿ فصل ﴾

﴿ فى فالتة قاعدة جزيرة مالطة ﴾

هذه المدينة هى مقر الحاكم الانكليزى واعجب ما فيها حصانة اسوارها و حسن مرسيها ◆ اما الاسوار فربما كان نصف احدها من صخر و تمامه مبنى بناء ◆ و اما المرسى فقد مر ذكره و الغالب عليها الرونق و البهجة حيث كان بناؤها من الحجر كما مر وطيقانها مزججة ولا سيما اذا عرضتها من بعد غير انها خالية من المنابر و نحوها فهى بدونها كالهامة القرعاء و احسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا ترى فيها دارا خارجة عن الخط اصلا غير انها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة فى وضع الغرف والمساكن فان الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للانسان ان ينفرد بواحدة منها دون الاخرى فاما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهى خالية عن الترتيب اصلا ومجورها يصبغ غالبا فى كل سنة وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما فى بلاد اوربا الا ان طاقاتها لا تفى بالمراد فان بين الاهلين حقوقا فى المطال فلا يمكن فتح الطيقان فى جميع الحيطان وما عدا ذلك فان لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء وهى عالية لا يمكن لمن يكون فى الحجرة ان يرى منها شيئا الا اذا كان واقفا فيها او جالسا على كرسى وهى اشبه بما يسميه اهل الشام كشكا ويقال ان وجود هذه الرواشن بمالطة هو احد الادلة على كونهم عربا اذ هى لا توجد فى بلاد الافرنج الا فى ما فتحته العرب منها وربما كان فى الدار الواحدة ثلاثة رواشن وقل ان تجد دارا ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى والاغلب اثنتان وان وجد فالثالثة انما تكون للوازم الدار وقل ان ترى فيها دارا مبلطة بالرخام حتى ان قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وانما المستعمل فى ديار كبرائهم البلاط المعروف ولكن يدهنونه بالزيت مرارا بعد ان يكشط وجهه فيصير لونه كالكهرباء وكذلك قل ان ترى فى الديار التى تكرى خزائن

خزائن او مخادع او رفوف وانما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج واقل من ذلك المهارات فانهم يشترون مؤنتهم يوما فيوما بل ربما اذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفا للكلفة فان صاحب العيلة اذا ربى في منزله الحيوان وخزن المؤنة واتخذ الخبز كان له ولاهله شغل شاغل ولعل سبب ذلك في الاصل عدم اشتغال الاسعار * ومما يقبح ذكره هنا ان اكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض فيرفع اهلها اقذارهم في وعاء ويقذفون بها في الطرق ليلا فيأتي الكناسون للطرق صباحا ويزيلونها وقد كانت العادة من قبل ان المحبوسين لجرائرهم هم الذين ينظفون الطرق بان يخرج بهم شرطي وهم مقيدون والظاهر ان المالطيين قبل مجيء الانكليز الى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض وانما كانوا يستغنون عنها بثقوب ينقبونها في اسفل الدار وكانوا غير محتاجين اليها اصلا كما قال الشاعر

* من يكن عيشه كعيشك هذا * فلتكن داره بغير كنيف *

وقل ان توجد دار باثاثها وفرشها كما في مدن الافرنج ومن شروط الايجار ان يستأجر الانسان الدار على ثلاثة اشهر فما فوق ذلك ويعطي الاجرة سلفا وقبل انقضاء المدة بايام يؤذن المستأجر ربها بانه يريد ان ينتقل منها او يجدد استئجارها فاذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه اعطاء الاجرة غير انه لا يسوغ للمالك ان يرمي بامتعة المستأجر او يخرجه كرها وانما عليه ان يضرب له اجلا ولو شهرا واذا عرضت دار للكراء كتب صاحبها ورقة تؤذن بذلك والصقها ببابها اذ ليس عندهم شيخ حارة تجمع عنده المفاتيح كما في مصر * ومن استأجر دارا فلا بد وان يدخلها مبيضة مصبوغة المنجور وصبغ الخشب عادة جيدة فانه ابهى للنظر وابقى للخشب وقد تظهر به الدار بهية في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي عكس العادة عندنا فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية مع ان داخلها منقوش مزخرف وسبب ذلك ان الحكام في السابق كانت ايديهم ممتدة لاخذ اموال الناس فلم يكن احد من الرعية يتظاهر بالغنى لا في بناء ولا في لباس اما صبغ الزجاج في مالطة فغير مستعمل * ثم ليس على عزب اراد ان يسكن بين المتزوجين من حرج ولا حرج عليه ايضا في الصعود

الى سطحه ولا يطلب منه ضامن من حيث ادبه وحسن تصرفه ولكن من حيث كونه قادرا على الاداء • وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر فاذا نفد التمس صاحب الدار من ناظر الاقنية فامده بماء من عين جارية وسوآء فى ذلك القريب والغريب ومن لا بئر له استسقى من العين المشاعة • وكثيرا ما تجعل المطابخ تحت الارض ولها خروق فى سطح الطريق ليدخل منها الضوء فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق وكذا هى مطابخ لندرة غالبا • ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له فى بلادنا • وفى الديار الكبيرة ولا سيما التى يتبوأها الانكليز اجراس صغيرة مدلاة باسلاك حديد نافذة فى الغرف ويتصل بها شرائط من حرير فاذا اراد المخدوم احضار الخادم جبذ الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار وهذا اوفق من التصفيق باليدين وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب او اطن الجرس وكذا العادة فى بلاد الانكليز ولكن ليس فى الابواب هنا خروق لوضع المكاتيب كما فى ديار لندرة • اما طريق المدينة فان الماشى فيها ابدا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة فى الامواج غير ان لها درجا يهون من صعبها ويمكن المشى على حافاتها تحت المطر ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ومرور الخيل والعجلات فى الوسط وقد كانت جميعها سابقا مبلطة فكانت قرقعة العجلات عليها لا تطاق فاقتلعت الانكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله ترابا وحصى فقال اهل مالطة ان الانكليز دابهم ان يخربوا بلادهم كما خربوهم من قبل باخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها اخرى من حديد والحق يقال ان فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها فى الصيف مثارا للنقع وفى الشتاء مناقع للوحل وانما فعلت الانكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الاعيان الذين لهم عواجل فانتفع هؤلاء وحدهم اغضوا عن نفع العامة وهذا دأبهم من انهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور والباقى من الحجر على الحافتين متى تصبه الشمس فى الصيف يصر مسدرا • هذا ولما كان اهل مالطة احرص الناس على ملابسهم واحذيتهم كان خروجهم فى الطرق ولا سيما فى الشتآء قليلا فتبقى الطرق دائما نظيفة فاما فى لندرة فان النسآء يخرجن صيفا و شتآء و يلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسخة جدا وقد رأيت

كثيرا

كثيرا من الافرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة و يفضلونها على كثير من طرق المدن العظيمة باوربا غير ان زوايا كل منها ممتلئة قذرا ونجاسة و منها ما لا يمكن لاثنين ان يمشيا فيه معا و فى كل زاوية فانوس مركوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله و مثل هذه الفوانيس لا يوجد فى لندرة و باريس الا فى اضيق الطرق واردأها وقد بلغنى بعد تحرير هذا الكتاب ان انوار فالتة تستعمل الآن من الغاز • ثم لا يخفى ان الافرنج دأبهم ان يشنعوا على العرب و الترك ان بلادهم غير نظيفة الطرق و لا مرتبة الاسواق وقد ملأوا الكتب بذلك ولم ار منهم من مدح مدينة ما الا انهم قد افرطوا فى ذلك فان اكثر هؤلاء يذهب الى بلادنا مستوفزا و يرقد فى الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحيبة و المنازه الفسيحة النضيرة فيتأذى مما عانى ويحمل ذلك على مناكب البلاد جزافا و يغض النظر عن سيئات بلاده فان حوانيت اهل الحرف والصنائع فى فالتة وغيرها ايضا متفرقة فى جميع اطراف المدينة فربما كان دكان الحداد تحت دار قاض او مطران ولا تزال اصوات المطارق بالغة مسامعه وكذا الزوانى ففى كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام قصرى الحاكم والمطران وكثيرا ما يتفق ان صاحب العيلة يستأجر دارا بجانب زانية تكون اذ ذاك غائبة فلا يدرى بها حتى اذا تبوأ محله اقبلت تجر ذيول عهرها فتى قدمت البحرية سمعت لهم و لهن ضجيجا منكرا و لا تزال تسمع سفلة اهل البلد هنا يغنون فى الليالى و يزأطون ولا وازع لهم فهل هذا يعد من الترتيب اما اصوات الاجراس من الكنائس فبلية كبرى وبالجملة فانه قلما يتهنأ الانسان هنا فى سكنى دار • ثم انه ليس فى فالتة حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فاذا اضطروا الى كشط الوسخ عن ابدانهم استحموا فى البحر نعم انه يوجد محل اطلق عليه لفظ الحمام ولكنه ليس فى صفة الحمامات التى فى بلاد المسلمين اذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكييس و لا تكبيس و لا عرق على انه غال جدا ونحوه حمامات بلاد الافرنج غالبا من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء و المتنكلزون من المالطيين يقلدون مواليهم فى اتخاذهم مغاطس من قصدير او خشب فى ديارهم و يدعون ان ذلك اسلم للجسم وانظف ولعمرى ليس السبب فى عدم الحمامات هنا الا رداءة الهواء فان من كان فى محل دفئ وخرج منه مقابلا للريح لا يأمن ان يمنى بداء

وكنت قد ذكرت يوما لبعض الاطباء عادتنا على الحمام وتنغصت لفقده فقال لى لو كان عندنا حامات لما كان من يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فاما ان يكون قد اراد ان المالطيين لا يستعملون ذلك او ان الحمام يميت الناس حتى لا يعود احد يدخله وهذا دأب هؤلاء فى الاعتذار عما لا يوجد فى بلادهم فانهم يقولون انه غير نافع او غير موافق بجواب آخر و قد سألته عن وجود رفائين للجوخ و الشال الكشميرى فقال نحن الافرنج لا نعنى بمثل هذه الصنائع مع انهم اعظم الناس اقتصادا وتوفيرا واكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر و يمشى كذلك من دون رداء يستر رقعته * و ليس فى هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للانسان الجلوس الا فى بيته او فى محل قهوة نعم انه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم و لكن لا يقعد عليها الا الاوباش فان القعود عند الانكليز على هذه الصفة عيب و تابعهم المالطيون على هذا ويقال انه كان فى المدينة سابقا عدة مصاطب فازالها الانكليز الحاقا لها بلندرة * فاما محال القهوة فى فالتة فانها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر او على حديقة واذا اطلت الجلوس جاءك الساقى ومسح المائدة قدامك اشارة الى انه ينتظر غيرك او كأنه يقول بلسان الحال لقد ابرمت بى فتى تفارق * ولا يمكن لاحد ان يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لانها جميعها قذرة و لا يمكن له فى المطال المرتفعة الكاشفة على البحر ان يأكل او يشرب او يدخن احتراما لنساء الانكليز * وفى شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة اشهر لن ترى كنا او عرشا او خيمة و انما ينصب السابح حر وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء * وفى الحقيقة فان الانكليز جعلوا مالطة خالية عن المتازه والمثابات السارة اصلا * ومن اعظم اسباب الحظ عند المالطيين الذهاب فى القوارب ليالى الصيف ليغتسلوا فى البحر فتذهب الرجال والنساء معا و يقضون هزيعا من الليل بالسباحة والغناء * والقوارب فى مرسى فالتة كثيرة جدا وكلها مصبوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرابى او زخرفة كقوارب الاستانة الا ان هذه خطر على راكبها فانها لخفتها تميد من ادنى شئ * ولقائل ان يقول ان المالطيين هم مثل الانكليز فى كونهم لا يلاحظون فى لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه

والطلاوة

والطلاوة فان متكآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست مجعولة الا لقضاء الحاجة فقط • واغرب من ذلك حوانيتهم فان التاجر لا يزال واقفا من الصباح الى المساء وقل من كان عنده كرسى له او للمشترى وفى هذا الأخير خالفوا الانكليز • ويقولون للشارب « دعيصة » وكأنه تصغير دعصة الرمل شبهوه بها لاستدارته وصغره وهذا داب العرب فى انهم يسمون الاشياء الغريبة عنهم بما الفوه فى بلادهم • فان قلت اذا كان هذا داب العرب فمن اين للمالطيين ذلك قلت لا ينكر احد ان اللغة المالطية هى عربية وان المسلمين حين استولوا على الجزيرة كما مر هم الذين سموا هذه الاشياء وانما لم يقولوا قاربا مع كونها عربية فصيحة لان فى اللغة المالطية اشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الاصلى واستعير لها اسماء مشابهة لها او مجاورة فيقولون مثلا للقليل فتيت وللكثير وسق وللحصان زامل بالامالة وهو ما كأنه يظلع من الدواب لنشاطه وللعربة رحل وهو فى اللغة مسكن الرجل وما يستصحبه من الاثاث وغير ذلك • ومن ذلك اى الحظ عندهم التماشى امام قصر الحاكم حين يعزف بآلات الطرب العسكرية فيذهب الى هناك جميع المتسبعين المتكيسين فترنو الرجال الى النساء وتدل النساء على الرجال • ومن ذلك الاعياد الكنائسية وهى كثيرة جدا فان لكل قديس عيدا مختصا به فى زمن مخصوص ومكان معلوم فيرحل اليه عند اقترابه المتلهون ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما اشبه ذلك ولا بد للاوباش فى هذه الاعياد ان يسكروا ويفحشوا ما امكن • ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون فى الخيل والحمير والقوارب والسابق يفوز بالخطر • ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها الوف من الناس وهى انهم يربطون خشبة طويلة كصارى المركب الى سفينة ويدهنونها بما تزل عنه القدم وينصبون امامها غرضا ثم يمشون اليه على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع فى البحر • ومن ذلك ثلاثة ايام فى المرفع ويعرف بالكرنيفال وهى الاحد والاثنين والثلاثا يلبس فيها الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل ويتزيون بهيئات متنوعة واشكال مختلفة ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه ويطوفون فى المدينة حيارى سكارى ويسمون هذا التشكل مسكرة

وكأنه محرف عن المسخرة ولا يتحاشون فى هذه المدة شيئا من الخلاعة والقصف والمنكرات و يومئذ تغص الطرق بالناس والمراكب فاذا اصبح يوم الاربعاء ذهبوا الى الكنائس ونثروا الرماد على رؤسهم اشعارا بالانابة ومن ثم يقال لهذا اليوم اربعاء الرماد وهذا الاسم باق عند الانكليز مع الغاء هذه العادة عندهم ومعنى الكرنيفال رفع اللحم اى ازالته ومما جرت به العادة فى هذه الايام ان الحاكم يولم وليمة فاخرة و يدعو اليها وجوه اهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدومهم بملابس مسخرية فيلبونه و يستأجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم فى غرفة فى قصره وكلما قدمت عليه عيلة انحنت له فاحتفل بها فاذا انقضى السلام شرعوا فى الرقص وكلما رقصت النساء قليلا اخذهن الرجال الى المائدة ليأكلن او يشربن ما شئن ثم يعدن الى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الاصحاب وربما اتخذ بعض جشعى السالطيين من تلك المائدة خبنة وهى ما يحمل من الطعام فى الكم وكنت اذهب الى تلك الدعوة بزيى المألوف فيخالوننى من الساخرين وكانوا يسألوننى هل فى بلادكم مثل ذلك فاجيب مغالطا ان لم يكن عندنا هذا فخير منه ولعمرى قبيح بالرجل الفاضل ان يرى راقصا كالواد • ومن اعظم مواضع الحظ واللذات الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة الشاطر او الشاطرو وليس فى فالتة كلها سوى ملهى واحد وجل اللاعبين فيه من ايطاليا ولكن ليسوا من الطراز الاول وسيأتى الكلام بالتفصيل على ذلك ان شاء الله تعالى فانى التزمت ايجاز الكلام على هذه الامور فى مالطة ليكون مناسبا لاحوالها اذ جميع ما فيها ان هو الا مختصر من بلدان اوربا والظاهر ان المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب ما نصه انى فتحت مدينة المغرب ولا اقدر ان اصف ما فيها غير ان فيها اربعة آلاف حمام واثنى عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر واربعة آلاف يهودى يؤدون الجزية واربعمائة ملهى اه غير ان هذا القدر كثير على اى مدينة كانت فان باريس وما ادراك ما باريس لا تحوى الا ثلاثين ملهى ويحتمل ان المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشى والاجتماع ونحو ذلك واما قول بقال فى القاموس فى ب ق ل

والبقال

والبقال لبياع الاطعمة عامية والصحيح البدال ونحوه قوله فى ب د ل غير انه فسر القربق فى باب القاف بانه دكان البقال فليحرر ◆ ومن الغريب ان احد المشعوذين الطليانيين ابدى فى ملهى فالتة من التمثيل والتخييل امورا غريبة ثم ارآهم ايضا منشورا من البابا بالرخصة له فى هذه الحرفة فصدقه كل من رآه فهلا كان هذا المنشور ايضا من جملة شعوذاته ◆ ومن المبانى العظيمة فى هذه المدينة الكنائس وهى حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل والصور مزينة بالارجوان والاستبرق وادوات الفضة والذهب وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق واعظمها كنيسة صان جوان وهى مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور اعيان مالطة الاقدمين المدفونين فيها وفى صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعا يده فوق رأسه (اى رأس المسيح) يعمده وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب اكبر من الرجل الجسيم وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يعلم منها الساعات والايام والشهور والسنون واذا ضرب جرسها سمع صوته كل من فى المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها وفى هذه الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يغنى جميع صعاليك مالطة ولكل يوم من الاسبوع بدلة للقسيس خصوصية وقس على ذلك ايام الاحاد والاعياد والاحوال الطارئة كالزواج والمعمودية والموت وفى الحقيقة فان كثرة الكنائس الحسنة فى جزيرة مالطة على نحسها لمما يعجب منه وفى كل قرية ترى ثلاث كنائس فاكثر واول افتخار المالطيين انما هو بكثرة كنائسهم اذ ليس عندهم شئ آخر يتباهى به والتفاخر صفة قائمة فى النفوس واذا سرت الى قرية ما متنزها فلا تكاد تصل الا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم وجملة ما يصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثين الف ليرة فى العام ولا يعرفون ضرب الاجراس بالحبال كما يفعل الانكليز وانما يصعدون الى قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع ◆ ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات وفيها كنت اعلم اللغة العربية الا ان المالطيين يتعلمون كل شئ ما عدا لغتهم وفى مدة الصيف يعطل المعلمون نحو ثلاثة اشهر واجرهم غير ممنون وعند انقضائها يعين يوم لاجتماع التلامذة ومشائخهم فى حجرة فى المدرسة وفى الصدر مائدة عليها كتب ثم

يقوم احد المشائخ وهو فى الغالب صاحب المعانى و البيان فيلقى على الحاضرين خطبة ثم تقرأ اسماء من نبغوا فى العلم من الطلبة و يعطون من تلك الكتب ما يليق بهم و ربما حضر الحاكم بنفسه لهذا و لا بد من ان يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه اسماء الطلبة وما يحصلونه من الفنون و يشترط عليه ان لا يعلم تعليما مغايرا للديانة الكاثوليكية الرومانية • ومن الغريب ان اهل مالطة مع كون لغتهم فرعا عن العربية فليس منهم من يحسن قرآتها والتكلم بها و اذا شاء احد ان يفتح مكتبا بمالطة تمتحنه علماء هذه المدرسة اولا فاذا رأوه اهلا لذلك اعطى رخصته من الديوان فيه وجملة ما يصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب اخرى فى القرى فى كل سنة نحو ثلاثة آلاف و ثلاثمائة ليرة • ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الافرنجية فمن شاء ان يطالع كتابا منها ذهب اليها واستوعبه وان كان من الوجوه يحضره الى منزله وعدة ما فيها ثلاثة و ثلاثون الف سفر وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل • وفى المدينة ايضا عدة حوانيت مشحونة باصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ويمكن ان يقال ان الكتب باوربا ارخص ما يكون لا جرم ان المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لاسعد الناس لانه اذا شاء ان يتعلم اى فن كان وجد له فيه شيخا ولان الكتب والادوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها باهون سعى ولا يخشى فى الكتاب خرما كما ذكرنا ولا تحريفا فكل كتبهم مصححة ولان المدارس الوقفية تعلم فيها العلوم مجانا او يعطى فى مقابلة ذلك شئ زهيد فطالب العلم فى مالطة يعطى فى الشهر شلينين و نصفا وطالب اللغة شلينا واحدا ولعمرى ان طالب العلم فى لغتنا لو لم يصده عن المطالعة الا تعذر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذرا فضلا عن نصبه وحرمانه و خموله • وفى فالتة سبع مطابع احداها للميرى تطبع فيها الاوامر والنواهى التى تصدر من ديوان الحكم والباقى للاهلين وفيها ايضا دار لصحف الاخبار الواردة من اوربا وداران للصرف توضع فيهما الاموال و منارة فيها فانوس كبير لهداية السفن وعدة مكاتب للصبيان و البنات يعلم فيهما القراءة و الكتابة و الحساب و التطريز و الخياطة وغير ذلك غير ان الاولاد تغلب عليهم لغتهم و تمنعهم عن التكلم بغيرها اذ كانت هى اللغة الغالبة و الى الآن لم يعلم من نساء مالطة من نبغت فى المعارف و التأليف فغاية ما يتعلمن انما هو ان

يقرأن بعض كتب كنائسية وقد كان فى السابق دار معدة لتلقى النغول و تربيتهم و قد بطلت الدار و بقيت عادة النغول وعادة التبنى من اليتـامى وفيهـا ثلاثة مستشفيات احدها للعسكر و الثانى للرجال و الثالث للنساء ومن لم يكن لها مأوى تأوى الى هذا المستشفى و تمكث فيه ما شاءت و بخارجها ايضا اربعة اخرى احدهـا للمجانين واكثر جنون اهل مالطة يكون عن وسـاوس فى الدين وقد رأيت فيه عجوزا تهذى و تقول اليوم عيد كما امر بذلك القسيس و الثانى للمرضى من العسـاكر البحرية و الثالث للفقراء و الرابع للطاعنين فى السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدا والمغمضين عن درنها و نعيمها عينا قد اصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب و يتعظ بهم المتهتر فى حب هذه الدنيا الغرور اذ تراهم كالاغرار من الاولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عنـدهم داعى الاجل و اظلمت منهم الابصار بعد ان اضاء فيهم صبح المشيب وانحلت منهم القوى بعد ان غلت منهم الافكـار و النهى فثم يقضون ما بقى من ظمء حياتهم بكان و صار • و فى فالتة عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفروشة عتيدة اجرة كل منها فى اليوم نصف شلين فى الاقل • و فيها من الذكور اكثر من اثنى عشر الفا وخمسمائة نفس و من الاناث اكثر من احد عشر الفا وثمانمائة و سبعين جملة ذلك اربعة وعشرون الفـا وثلاثمائة و سبعون نفسا ومن القناصل اربعـة عشر ومن القسيسين نحو مائتـين و خمسين و سبعة اديار للرهبان والراهبات • وجملة ما فى الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعون و من الصغار مائتـان و اربع واربعون و من الاديار واحـد وعشرون و من الاطباء مائة وتسعة وعشرون ومن الدوائية و العقاقيرية تسعة و اربعون و من كتاب الصكوك و العقود مائة و اربعون و من اصحـاب الموسيقى مائة و ثلاثة و ستون ومن المعلمين فى المكـاتب مائة و اثنان واربعون ومن المصورين مائة وثلاثة و تسعون ومن المتوظفين فى خدمة الميرى خمسمائة وواحـد و ثلاثون و من المرتب لهم عمريات و لا شغل لهم ثلاثمائة و ستون و من التجار ستمائة و سـتة و ثلاثون ومن السماسرة مائة و اثنان و سبعون و من اصحاب الحوانيت الفـان و ستمائة و اربعون و من المزارعين ثلاثة آلاف و ثلاثمائة و ستة وعشرون ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة و ستون و من صاغة الفضة و الذهب مائتـان

و اثنان وثلاثون و من النجارين الف ومائتان و ثلاثة و ثمانون و من الاساكفة الفان واربعمائة و من الغزالين و الغزالات ثمانمائة و اربعون ومن النساجين والنساجات ثلاثة عشر الفا وستون و من الخياطين تسعمائة واثنان و ثمانون ومن لفافى ورق التبغ تسعمائة و ثلاثون ومن الخدام ثلاثة آلاف ومائة وعشرون ومن اصحاب القوارب ستمائة واثنان و اربعون و من الساعاتية ستة وعشرون ومن المتعلمين فى المدرسة الجامعة وفى غيرها ثلاثة آلاف وثمانمائة و ثلاثة و ثلاثون و من الديار الكبار احدى وعشرون الفا ومائتان و اثنتان وستون ومن البيوت الصغار الفان ومائتان و واحد و سبعون ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلاث واربعون ومن الدكاكين ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرون ومن المخازن خمسمائة وستون ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون و من الذين لاعمل لهم من الاعيان ستة آلاف ومائتان و تسعة وستون ومن العامة نحو اربعين الفا وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة و ثلاثة وسبعون وجملة ما يولد فيها فى السنة اربعة آلاف واربعمائة وجملة اهل الجزيرة نحو مائة الف نفس منهم احد عشر الفا و خمسون من الانكليز وسبعمائة و سبعون من الغرباء

* كثيرون ان عدوا قليلون ان رجوا * فهم دون عد العشر ان تو خيرا *

وجملة ما يرد اليها فى السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر وما يصدر عنها تسعة آلاف وخمسمائة وثلاثون • وفى فالتة سوق تباع فيها سائر اصناف المأكول فتجد فيها جميع انواع السمك واللحم كالبقر والضان والعجل والدجاج والطير اما السمك فانه لذيذ جدا واما اللحم فاطيب انواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة اشهر فيكون الذ من لحم الطير وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها فى لندرة ولا فى باريس اما الطير فانه قليل جدا ولا عيب على من يشترى نصف دجاجة بل ربعها او جناحيها او راسها بل مصارينها كل ذلك من اقتصادهم فانهم اعظم الخلق خبرة به ولا عيب ايضا على من يذهب بنفسه ويشترى مؤنة يومه وان يكن قاضيا بل النساء السيدات يفعلن ذلك ايضا ومتى اشترت شيئا تحمله احد الاولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون وكذلك لا عيب على من

يشترى

يشترى من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط وليس فى المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر وانما يذهب الناس فى عواجل وهى ليست كعواجل الافرنج وليس لسائقها مقعد فيها وانما يمشى بجانبهـا على رجليه الحـافيتين ومتى راى اصحابها احدا مقبلا ازدحموا عليه ولا ازدحام حمارة مصر • وليس فى مالطة كلها مصانع للساعات او الزجاج او الادوات الحربية والاقمشة وغيرهـا فاشهر الصنـائع عندهم النجارة والخيـاطة والسكافة والحدادة والنساجة والصيـاغة واخص اعمال النجارين الكراسى والمتكآت والموائد والخزائن والصناديق والاصونة ونحو ذلك وقد يحسنون ايضا انشـآء المراكب وعمل الحدادة مقصور على سرر النوم وما يلزم للبنـآء وعمل الصياغة من الذهب انمـا هو الشنوف والخواتم والسلاسل والاسورة واشكال طيور وزهور والابازيم والابر ونحوهـا ومن الفضة الملاعق والمغـارف واباريق القهوة والشاى والاقداح والاطبـاق والمسارج واوعية السكر ونحوه فاما النسـاجة فلا تتعدى شقق الفوط واغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا الاخير يبعث الى بلاد المسلمين مقـدار جزيل وليس من اهل هـذه الصنائع من يصل الى درجـة الانكليز والفرنسيس فى الجودة والاتقان الا ان عمل المـالطية يبقى متينا فاذا اشتريت مثلا حذآء او ثوبا مخيطا بقى مدة لا يحتاج الى تصليح اما عمل الانكليز منها فحسن فى الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال وعمل الفرنسيس ما بينهمـا ومن الرسوم الحسنة فى مالطة انه اذا اراد احد شراء شئ من الفضة والذهب ذهب الى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك فاما الجعل فموكول الى التراضى والغالب فى مشترى الجواهر ان يكون انقص من الثمين • ومما يكره بمالطة كثرة الشحاذين والحافهم بالسؤال حتى انهم يقرعون الابواب وقت الغداء ويجرون مع المـاشى ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشئ وهم يرون ان حقا على الموسرين ان يواسوهم باموالهم واذا اعطيت احـدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك فى الدستور فانما يرك يلزمك واول كلامهم فى الاجتـداء قولهم « عن روح مسيرك » اى ابيـك او « عن ارواح البوركاتوريو » اى المطهر وكان بعضهم يقول لى عن روح المحمد تبعك والاجتدآء فى باريس ولندرة ممنوع • ومما يكره ايضا ما عـدا طنطنة اجراس الكنـائس المتتابعة اصوات الباعة الذين

يطوفون فى الاسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء فان فغر افواههم ومط اصواتهم وفظاعة لحنهم على اختلاف معنييه لما يستعاذ منه ✦ كيف لا وهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح (بالحاء المهملة) وللخيار حيار (بالحاء المهملة ايضا) وللاجاص لنجاس وللدلاع دليع وللخبز حبس وللماء للما وللخوخ حوح (بالحائين المهملتين) وما اشبه ذلك ✦ فلا يمكن للعربى استماع ذلك ولا سيما اذا كان فى اليوم مرارا من اشخاص ذوى شراسة وفظاظة ✦ وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا ايراد ما قاله بعض الادباء وفى الناس من يبدل الخاء المعجمة حاء مهملة فيقول فى خوخ حوح وفى خلخال حلحال وهى مستحسنة من الغلمان والجوارى وكذلك ابدال السين ثاء وعليه قول الشاعر

* واهيف كالهلال شكوت وجدى * اليه بحسنه واطلت بثى *
* وقلت له فدتك النفس منى * تحز فى النواب فقال بث *

قلت هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فقال و بس بمعنى حسب او هو مسترذل واهل مالطة يبدلون سينها زايا ويكسرون اولها واهل تونس وطرابلس لا يعرفونها ويستعملون بدلها لفظة بركة وهى قبيحة جدا ✦ وقلت انا فى مليحة مالطية

* بدت فى الثياب السود والوجه زاهر * وماست بقد يخجل الغصن الغضا *
* لها منطق عذب على قبح لحنه * وفى حسن من تهواه عن لحنه اغضا *

الا ان هؤلاء الباعة ليسوا من هذا الطراز لا جرم ان النطق يؤثر فى ذى الذوق السليم اكثر من الحسن وانه من خصوصيات الانسان والحسن يوجد فى جميع المخلوقات ✦ ولقائل ان يقول ان النظر الى ذى جمال رائع بغتة يدهش له ويتأثر به اكثر من استماع متكلم بليغ من اول وهلة قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه فلو فرضنا ان الناظر يرى جميلا معتقدا انه اخرس وقبيحا منطيقا لتأثر بالثانى دون الاول ✦ واشد ما يكره فى هذه الجزيرة هو ان الاوباش والاوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقلما رأيت مكانا خاليا منهم واذا لقوا احدا من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولمزوه فعلى الكريم ان يجتنب محضرهم ويتباعد

عن مثابتهم واسوأ من ذلك ان القضاة يعتبرون هؤلاء الانجاس عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس وهذا الذى جرأهم على التمادى فى القبائح وهؤلاء الاراذل اذا شربوا قدحا واحدا من الخمر طافوا الاسواق وهم زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الانفاق وفى ليالى الاحاد والاعياد تغص بهم المسالك فلا يطيق احد سماع غنائهم ولغطهم • هذا وكثيرا ما ترى الملاحين والبحريين سكارى فى الاسواق حيارى واذا صرعتهم الخمر فى الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون وربما سرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقى لهم من الحانة او جردوا عن ثيابهم وهم لا يشعرون وربما تقاضى احدهم ثم عاد الى الشرب الا ان منزلة السكارى من عسكر المدينة اجل من العسكر البحرية فان اولئك يجررون الى مقامهم تجريرا وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين • ومما يحمد فى مالطة عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة وان وجدت فلا سم لها واهل مالطة يزعمون ان ذلك من كرامة مار بولس حين القى الثعبان من يده فى النار واخبرنى ثقة بان الحيات فى جزيرة كريد ايضا لا سم لها واهل ايطاليا يقولون ان مار بولس ازال السم من افواه الحيات فانتقل الى افواه اهل مالطة وزعم بعض من الانكليز ان مار بولس لم يمر بمالطة وانما كان مروره بملطية الا انه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شئ ابيض والعناكب تلقى لعابها بين كل شيئين اما العثة فانها لا تلحس الصوف لحسا كما يقول صاحب القاموس وانما تسترطه استراطا وفى معنى العناكب قلت

* غدا بيتى كثير الفرش لما * تزلهل فيه نسج العنكبوت *
* فلا عجب اذا ماقلت يوما * لكيد الناس انى ذو بيوت *

فصل

فى عادات المالطيين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم

عادة اهل مالطة المتشبعين فى اللباس كعادة الافرنج الا ان نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الاسود وعلى رؤسهن غطاء منه ايضا من دون برنيطة

واقبح شئ في الصيف رؤية هذه الثياب السود وقد يحاكى بعضهن نساء الانكليز في الزي ولكن متى ذهبن الى الكنيسة لبسن زيهن الاصلي توهم ان اللون الاسود اليق بالكنيسة واولى بالتنوت وهو كوهم الجهلة من نصارى الشام ان من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به ان يتقدم الى محراب الكنيسة • اما اهل القرى فان الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرطون باقراط من الذهب ويرخون سوالف مجعدة من افوادهم الى طلاهم وهاتان صفتان من صفات الاناث ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على اكتافهم وهي شبيهة بالاجربة ويمشون حفاة ويتحزمون باحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدريته منه او من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشي حافيا مشية الفراح البطر وان الجزار منهم او الحمار ونحوهما ليخرج في الاعياد وفي اصابعه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته وفي صدريته ازرار كثيرة من الذهب او الفضة اما النساء فان من كان لها حذاء لا تلبسه الا اذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى اذا خرجت منها تأبطته وجميع الاعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اردية تستر ادبارهم خلافا لعادة الافرنج في اوربا والمكيس الغيساني منهم هو الذي يزنق سراويله على فخذيه واليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شئ من الارض فاذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنعد من دبر واكثرهم يفخم فخذيه ومؤخره بحشو في السراويل ويستر كل عظم ناتئ في بدنه ويبدي ما ينبغي ان يستر فاذا مشى احدهم على هذه الصفة نظر الى عطفيه كالزوزك والى سراويله وحذائه معجبا بما لديه • وللنساء زهو وعجب اذا مشين اكثر من زهو الرجال فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء راسها باليمنى فتكون على هذه الحالة اشغل من ذات النحيين فتى اوين الى بيوتهن لبسن اخلق ما عندهن من الثياب وسواء في ذلك الفقراء والاغنياء والرجال والنساء وهذا هو احد الاسباب التي حببت الى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة وربما عدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات واذا زرت احدهم فلا يستحي ان يقول مهلا فان زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك ومنهن من تبقى في بيتها بغير حذاء ثم اذا

خرجت

خرجت فى يوم الاحد لبست جوارب من حرير وكفوفا منه وتبهرجت غاية ما يمكن فان المالطيين يتخلون فى الاعياد كل التخل بخلاف الانكليز هنا فانهم يبقون على حالة واحدة • وفى الجملة فان هم هؤلاء الناس كله مصروف فى التفاخر بالرياش وهو شان حديث النعمة • ومتى كانت احدى نسآء مالطة حاملا مشت الخيلاء ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها ومتى ابصرت ذا شوهة رسمت شكل الصليب على بطنها تعوذا من سريان الشوهة الى الجنين واذا شمت فى الطريق رائحة طبيخ وتوحمت عليه بعثت تستهدى منه • اما حلى النسآء فالذهب غالبا للاغنيآء والفضة للفقراء الا انه قل ان ترى امرأة من دون حلى من ذهب واصناف الحلى الشنوف ويقولون لها مسالت وفى لغة اهل الغرب مصالت والاسورة يلبسنها فوق الاكمام والابر والخواتم والسلاسل والساعات ويندر جدا تحليهن بالجواهر النفيسة وانما تحلى بها الخواتين فى الرقص والولائم وقد يجزى عنها الجزع وفى الجملة فليس لنسآء مالطة ولا لنسآء الافرنج جميعا كثير من الحلى كما لنسآء مصر والشام وانما اعجابهن مقصور على نظافة الثياب واتخاذها بحسب الزى وكما ان لباس رجال الافرنج لا يخلو من اخلال بالحيآء كذلك كان لباس نسائهم ادعى الى الحشمة والتصاون من لباس نسائنا فاما تغيير الزى عندهم فانه نافع لاصحاب التجارة ومضر بعامة الناس فانه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ومنشأ هذا التغيير يكون فى باريس فتطبع صورته على اوراق وترسل الى جميع البلاد وهذا داب الناس من انهم اذا رغبوا عن رذيلة اقبلوا على غيرها فان الافرنج لما رغبوا عن المزركش والمرقش من الثياب وعدوها من داب الصبيان اولعوا بتغيير الشكل هذا ولما كان لباس الافرنج فى الشتآء لا يتعدى اللون الاسود من الجوخ وغيره وفى الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لاسواقهم ومواسمهم بهجة وليس ما تسر رؤيته الا ملابس العسكر وبعض النسآء ولا شك ان حب الالوان الزهية طبيعى لانا نراه فى الاولاد وهم يقولون ان الميل اليه من طبع الهمج وانما ميلهم الى الالوان مقصور على فرش ديارهم واثاثها والحق يقال ان ملابس الافرنج اوفق للعمل وادعى الى قلة المصروف فانها ما عدا كونها مزنقة وهو اصل فى الاقتصاد فهى عارية عن كلفة الرقم والوشى وربما كانت ادعى الى النظافة ايضا

ومن عادة الانكليز هنا الاكثار من الثياب البيض والاقلال من الجوخ ونحوه فان الغنى منهم لا يكون له اكثر من ثلاث جبات او اربع ولكن قد يكون له ستون قيصا وعشرون سروالا من الكتان وعشرون ملاءة للفرش وقس على ذلك • وقد رأيت كثيرا من الاعيان هنا لهم جبب قد تلبد على ازياقها الوسخ والعرق لا سيما ان منهم لمن يرخى شعر راسه حتى يصل الى قذاله فتراه اذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة ومن الانكليز من يلبس كل يوم قيصا ويحلق فى كل صباح وربما فعل ذلك فى النهار مرتين وذلك مطرد سواء كانوا فى البر او البحر ومنهم من يجعل صدر القميص او طوقه واطراف كيه منفصلة عنه فيغيرها فى كل يوم ومما يحمد عند الافرنج استعمال النشا فى الثياب البيض حين تغسل فانها تأتى بها جديدة والغسالات فى مالطة لا يغسلن الا بالماء البارد فان وضع اليد فى الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررا وصابونهم احسن من صابون فرنسا ودونهما صابون الانكليز وعندى ان احسن صابون فى بلاد اوربا هو صابون قسطيلية فى اسبانيا والظاهر انه من صنعة العرب فان اهل تونس لا يزالون يصنعون شيئا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما واجرة غسل القميص بمالطة صادى واحد وفى باريس ثلاثة وفى لندرة اربعة او خمسة • اما عادة المالطيين فى الاكل فللموسرين الشوربة فى الغداء واللحم والخضر والخمر وفى العشاء السمك والسلطة وافخر شئ عندهم لحم الخنزير الا انهم لا يكثرون منه ومن غيره كما يكثرون من اكل الخبز بخلاف عادة الانكليز اما الفقراء فان احدهم ليأكل رطلا من الخبز من ارطالهم بخمس حبات من الزيتون اوبقطعة من الجبن او بحنناة والرطل المالطى هو نحو رطلين من ارطال مصر وثمنه نحو قرش ولهذا كان المالطيون جميعا كثيرى اللهج بذكر الخبز فاذا زارك احد مثلا وسألته عن اهله قال لك كلهم طيبون يأكلون الخبز او كأن يقول الطيب هو من ياكل الخبز واذا اردت ان تشترى شيأ من احد التجار ولم توفه ثمنه قال لك انا قائم بمؤنة عيلة تاكل الخبز واذا رايت احدا ياكل بعيدا عنك رفع اليك ما فى يده وقال لك يعجبك اى ان يك يعجبك وان كان يعلم ان اقترابك منه محال ثم لا يخفى ان خبز الافرنج يكون

كبيرا

كبيرا جاهضا يقطعونه بالسكين والحكمة فى ذلك الاقتصاد فان الآكل اذا قطع منه شيئا و ابقى منه ما ابقى فلا يكون الحرص على الباقى عيبا و ربما جئ بالفضلة منه الى المائدة مرات بخلاف عادة الشرقيين فان الرغيف اذا قطع منه شئ فلا يؤتى به الى السفرة وهو ناقص فذلك يعد لؤما و بخلا غير ان جعل الرغيف كبيرا يوجب عدم نضج لبه فخبز اهل مالطة يكاد لبه وهو الجزء الاكبر منه ينعصر فلا يمكن اكله الا بعد يوم وهو اردأ خبز فى بلاد الافرنج فانه ما عدا كونه معجونا بالارجل حامض وغير مرئ غير انه فيما اظن ليس مخلوطا باجزاء كثيرة كخبز الانكليز • وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الفطاير وياكلونه على نوع التفكه وقد سالت عن سبب قلته وعدم بيعه فى جميع الحوانيت فقالوا انه موجب لزيادة المصروف لطيبته وهم اذا جاعوا اكلوا منه ما يكسر الجوع فقط • وعامة المالطيين يطبخون الدم و يستبقون الى اكله وكنا اذا اردنا ان نذبح دجاجة اخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين وهم وجميع الافرنج ياكلون السلاحف البحرية وحيوانات اخر مما نتقزز نحن منه • وقد بلغنى ان من المالطيين من اذا فجع بشئ فجأة اكل فارا او ضفدعا لازالة الدهشة وكيف كان فان اخس الفلاحين بمالطة يعرف من انواع الطبائخ ما لا يعرفه اكبر تاجر فى بلاد الانكليز فانهم يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب ان الافرنج لا نظافة لهم فى الطبخ من حيث كانت خداماتهم ابدا مكشوفات الرؤس فيتناثر شعرهن فى الطبيخ ولانهم قليلا ما يبيضون آنية الطبخ حتى ان هذه الصنعة فى مالطة تكاد ان تعد من المفقود واكثر آنية الطبخ عند الانكليز من الحديد وهو اسلم عاقبة واهل مالطة مثل غيرهم من الافرنج فى كونهم ياكلون المخنوق وزادوا عليهم فى اكلهم الميتة من الدجاج ونحوها واذا دعوت احدا منهم الى مأدبة لم يكن منه فى خلال التهامه ما بين يديه الا الثناء على نفسه بانه قليل الاكل وعلى ذلك قولى

* لئام اذا ما زرتهم فى بيوتهم * كرام اذا زاروك ما امكن اللحس *
* ولو وسعت افواههم غير ما بها * لكان لكل بين انيابه فاس *

﴿ وقلت ايضا ﴾

* لجارى ثغر للهم القرى * وذم الورى منتهى حمده *

* فلا شئ اسهل من فتحه * ولا شئ اصعب من سده *

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلا تزال رائحة افواههم منتشرة • اما مراقدهم فانهم يرقدون غالبا على سرر من حديد والمتكلزون منهم يتخذون فى الصيف سررا منه وفى الشتاء من الخشب وفرشهم متعددة وثيرة وقد سمعت ان غير الاغنياء يتخذون فرشا عالية ولكن لا يرقدون عليها وانما ينضدونها للفاخرة والمباهاة والاطباء هنا يقولون ان الرقود على فرش القطن مضعف للجسم وان حبل الليف او التبن اذا نفش كان خيرا منه وفرش الاغنياء من الصوف • وعامة المالطيين يجعلون اقذارهم فى وعاء تحت السرير فلا طاقة لاحد على ان يدخل مراقدهم فى الصباح ولا بد من ان يرقد الرجل مع زوجته وان تقادم عليهما الزواج وهرما فيه واروحا فاما الاوباش والسفلة فتراهم راقدين فى الهاجرة على حافات الطرق كبا على وجوههم وقد جاء فى الحديث نوم الشياطين على وجوههم واذا زرت موسرا منهم بادر الى ان يريك ما عنده من الفرش والاثاث وقبل كل شئ يريك فراشه ولم تجر العادة عندهم ان يتخذوا فرشا للزائرين كما فى بلادنا • ومما حرم منه اهل مالطة من اسباب الترفه والاستراحة الاستواء على الارائك والزرابى الوثيرة فلا يقعدون الا على الكراسى نعم انهم يتخذون متكآت من خشب ولكن من دون نمرقة عليها ولا حشية وناهيك بمن يقعد يومه كله على كرسى خارج منزله او يظل واقفا كالتجار ثم يأتى منزله ليقعد على كرسى فكأنما لسان حالهم يقول ما قال ابو نواس * وداونى بالتى كانت هى الداء * او ما قال الاعشى

* وكاس شربت على لذة * واخرى تداويت منها بها *

او ما قال ابن دريد فى مقصورته

* حينا هى الداء واحيانا بها * من دائها اذا يهيج يشتفى *

او ما قاله البحترى

* تداويت من ليلى بليلى فى الهوى * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر *

فائدة يحسن استطرادها هنا وهى « ان مداواة الشئ بنظيره لا بنقيضه ليس من مخترعات اطباء اوربا كما شاع فقد ذكر العلامة الدميرى فى كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابى سعيد الخدرى رضى

الله

الله عنهم قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال يا رسول الله اني سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال عليه السلام اسقه عسلا ثم جاء الثانية والثالثة والرابعة فقال عليه السلام اسقه عسلا فقال قد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فبرئ ؞ قال الدميري؞ اعلم انه قد اجتمعت الاطباء في مثل هذا العلاج على ان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال اعينت ما دامت القوة باقية واما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض اه ؞ اما عادتهم في الزواج فهو ان يعاشر الرجل المرأة قبل ان يتزوجها مدة طويلة وربما اقام على ذلك ثلاث سنين فاكثر ؞ وعندي ان الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة احوالها من اضر ما يكون ولا سيما عند النصارى لعدم اباحة الطلاق عندهم غير ان طول العشرة ايضا لا خير فيه لان البنت لا تزال مع خطيبها على احسن الاخلاق حتى اذا تزوجت وعرفت ان لا فراق تخلقت بالاخلاق التي تحبها ولا يخفى ان النساء في بلاد الافرنج هن اللواتي يمهرن الرجال فالاغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة والذين هم من الوسط يؤثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ ويقدمونه شيئا من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك وعلى الزوج ان يهادي حماه باحذية ؞ وعندي ان لكل من الغربيين الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وجها وذلك ان الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج ابو البنت الى ان يأخذ من الزوج مهرا ثقة بانه قادر على القيام بما تعرض له ولان الرجال هم قوامون على النساء ؞ اما الافرنج فلأن رجالهم غالبا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لان مؤنتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال اخلاقا ولاستغنائهم عنه بكثرة الواجرات فوجب على المرأة في هذه الحال ان تساعد الرجل ؞ واهل مالطة اشد الخلق تهافتا على الزواج فان الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان وهما لا يشبعانه خبزا واداما وانما يثق بان زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله ؞ وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فان المرأة تجري وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب

فلا يهمها كون الرجل فقيرا او جاهلا او شريرا غير ان النساء هنا لا يحترمن ازواجهن فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها و تخطئه و تسفهه بحضرة الناس وكلهن اذا تكلمن يرفعن اصواتهن الى حد يبقى الغريب عنده مبهوتا وكانت عادتهن فى القديم ان لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن فى الطرق ولا يتعلمن القراءة و الكتابة و متى خطبن احتجبن عن الاخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتا بواسطة امه و اخته من دون ان يراها اما الآن فقد تخلقن باخلاق نساء الانكليز فى مخالطة الرجال وماشاتهم و الذهاب معهم الى المراقص و الملاهى وكثيرا ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع من تهوى و كثير من النساء الغنيات الطاعنات فى السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طاعما كاسيا والذى عليه حكمة النساء هنا ايثار الاقارب على الزوج فانهن يقلن ان الزوج اذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الاقارب و هن كنساء الانكليز فى انهن لا يتزوجن الا من كان فى سنهن الا انهن يخالفنهن فى كونهن يتزوجن على صغر واذا مشى الرجل مع زوجته مشيا متحاذيين لا متماسكين بالاذرع كالافرنج اذ لا بد للمرأة ان تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفا • وكثيرا ما تخرج الرجال وحدهم و يغادرون نساءهم فى البيوت • واكثر اهل الحانات بمالطة متزوج و اللبيب منهم من يتزوج حسناء لتسقى الشرب وتنادمهم فيجتمع عندها من العساكر البحرية و البرية زمر شتى • والفجار من اهل مالطة الذين دابهم كسب المال باى وجه كان يتظاهرون بانهم طالبون للاحصان حتى اذا حصلوا على المهر فروا به الى البلاد البعيدة ثم ان المتعة او التسرى امر مستفيض عند جميع اهل مالطة وقد تترك المرأة المتزوجة بعلها و تهوى فى اثر من تهوى وكذا الرجال واعرف كثيرا من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته واقام مع اخرى واقامت هى مع آخر و تسرى ابوه بنساء واقامت بناته مع رجال او صرن بغايا والبغايا فى هذه الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جمال رائع الا ما ندر فلا تجد لاحداهن دارا على حدتها او خادما لكنهن فى الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال بل هن لعمرى اصون لسانا من المتزوجات واكثر ماء وجه اذ لا يحدقن فى الرجال كالمتزوجات ولا يتقعدن السحنة والزى ولا يتشبهن مثلهن بالنميمة و يترددن على الكنائس كثيرا وليس منهن من تريد ان تموت

فى الذنوب كما هى عبارتهن وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التى فى حجرهن او يقلبنها تأدبا و تورعا • وفى الجملة فان اهل مالطة جميعا رجالا ونساء يغلب عليهم الشبق و السفاح • اما عاداتهم فى آداب الجنازة فكعادة الافرنج فى انهم لا يقيمون المآتم على الميت فلا تعرف ان احدا من الاهلين مات الا من صحف الاخبار وهى عادة جيدة فان العويل والنحيب فضلا عن كونهما لا يحييان ماتا ولا يردان فائتا او كما قال الشاعر * ولم يرجع الموتى حنين المآتم * يلقيان الهم والرعب فى قلوب السامعين وانما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفنونه بعد اربع وعشرين ساعة وربما ارسلت الجيران الى اهل الميت وضيمة كما فى بر الشام اما عملة الانكليز هنا فلا يدفنون الميت الا بعد اسبوع فى الاقل كما فى بلادهم واذا مات لاحد المالطيين طفل صغير اقبلت عليه الاصحاب تهنئه قائلين نفرح لك بالجنة ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح واذا مات احد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها فاذا فرغوا من دفن الميت اطلقوا البنادق دفعة واحدة اشارة الى انه مات بعز دولته وسلطانه • اما خلق المالطيين فالغالب عليهم السمرة والربعية فى القوام وسواد الشعر والعيون وغلظ الحواجب وشدة البنية وهم فى الغالب اجمل من النساء وكثير من النساء هنا لهن شوارب او عوارض او عنافق ومنهن من تحلقها ومن الافرنج من يستحب ذلك فيهن • وقد اسلفت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلين به من اللباس والحلى • اما اخلاقهم فالغالب على اعيانهم لين الجانب والبشاشة فاذا سألت احدا منهم عن شئ اجابك وهو باش بك مستأنس اليك • ومن طبعهم جميعا الكدح والتدبير والاقتصاد فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة • ولا يتجشم احدهم استخدام نفر اظهر لشانه ورفعته ولا النفقات الزائدة فى الاعياد والزواج ولا تتقلد نساء الاغنياء منهم قلائد من الالماس وغيره وان الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال والغنى يذهب الى السوق صباحا ويشترى مؤنة يومه وان الماجدة تزور صاحبتها ولا تلهى احداهما عن الشغل وذلك بان تأخذ معها شيئا تشتغل به وهى التى تقوم بتدبير البيت فلا تكل اموره الى الخادمة

واكبرهم من عنده خادم وخادمة وقد شاهدت رئيس اطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها فى محل مصون ورايت ايضا بعض القناصل ينصب رايته بيده والفقراء منهم لا يوقدون سراجا فى الليالى المقمرة واكثر الرجال يسلمون مصروفهم ليد نسائهم حتى انهم يحتاجون بعدها الى ان يطلبوا منهن ثمن التبغ ونحوه وجميع نسائهم مقتصدات ونشيطات الى العمل وقل منهن من تتعاطى التجارة • ومن طبعهم جملة وتفصيلا الفضول والتناهى بالاسفاف من القول والعمل فاذا اكب احد مثلا لالتقاط شئ من الارض ازدحمت عليه زمر ولا يزال احدهم يجرى من جهة وآخر من اخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشئ يحدث اياما حتى يجد غيره ومتى جرى امر عرفت اصله ومبدأه وغايته من الجائين والذاهبين ولا بد لكل من طعامهم ان يقص قبل رقوده كل ما جرى له اثناء النهار وربما اخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقا وان يتطلع وهو سائر فى الطريق الى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال وكثير منهم دابهم الحضور فى المحكمة لاستماع الدعاوى فاذا خرجوا بثوها فى كل موضع ولا يمكن ان ينقلوا حديثا الا ويزيدون فيه فاذا الم بعين انسان قذى قال انه عمى ويبدهون الرجل بان يقولوا له قد رأينا زوجتك تنظر من الشباك او تحدث فلانا او فلانة ويقولون للمرأة فى حق زوجها مثل ذلك واذا اشتريت من احدهم شيئا يخبر اهلك به ومتى رأوا غريبا نظروا اليه متفرسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليعرفوا باى لغة يتكلم ويصفون حاله فى وجهه بان يقول احدهم للآخر « هذا الرجل من بلد كذا وقد اطال المكث هنا ولعله لا يمكث بعد فانه كان اولا سليما وكأنه الآن مريض » فيقول الآخر « والى اين يذهب أعساه يجد بلدا خيرا من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين » وربما دعت احدى النساء صواحبها لرؤيته وهى تلكزها وتومى اليه ولا تكاد تخاطب احدا فى الطريق الا وترى زمرة قد احدقت بك ولا يكاد احد يأتى امرا الا وتتناقله الرواة ويسيئون الظن فى متزوج عاشر عزبا او فى

عزب

عزب دخل دار متزوج ولا غرو فان هذا شان من لا يرى فى بلده شيئا يشغل الخاطر من الامور الخطيرة ويكون محصورا فى صخرة قرعاء راسبة فى البحر فان حصر الفطن يكون من حصر العطن • ومن طبعهم التكشف وبث ما هم فيه من الاحوال والاستقصاء عن حال المخاطب فاذا صحبت منهم احدا لا يلبث ان يطلعك على كمية دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول ليت لى مال فاتنعم به ولو كنت من المثرين لأكلت اطايب المأكول ولبست افخر الملبوس فيا سعد من عاش عيش المترفهين فاخبرنى انت ما دخلك وكيف عيشك ومن اين تشترى ثيابك وحاجتك ومن يزورك وهلم جرا • فاما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشئ سواه قيمة ومنهم من يسافر الى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى اذا احرز المال رجع الى وطنه متبذخا متشبعا يمرح فى الاسواق مرح من ازدهته النعمة وابطره الحظ • ولا شئ يعجبهم فى الدنيا مثل بلادهم ولا تزال تسمعهم يتبجحون بها وباحوالها واذا سألت احدا منهم عنها اجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وآلت اليه من سوء الحظ وهم فى محبتها كاليهود فى محبة صهيون • ومن الغريب مع هذا التفاخر انك اذا ذكرت لاحدهم افراد قومه لم تلقه راضيا عن احد منهم فاول نعت ينعته به قوله هو ابله او شحيح فكان قوله نحن السالطيين شاننا كذا يريد به وحدة نفسه • اما مفاخرتهم بالالقاب فاكسى لهم من اللباس فقل ان ترى احدا منهم ممن يقرأ ويكتب الا وله لقب دابيب او فقيه او بارون او مركيز او دكطور على انهم لا يملكون به مسكة من العيش • ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاغتياب فيتعتبون الناس فى مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحنتهم فلا يكاد يعجبهم شئ وما من خصلة حميدة الا ويجعلونها قبيحة فاذا كان الانسان كريما قالوا انه مبذر وان كان مقتصدا قالوا انه شحيح • ولا يبرحون مبربرين على الانكليز ومتظلمين منهم ويدعون بانهم من بعد قدومهم الى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الاسعار حتى اضطروا الى ان يهاجروا من بلادهم التى يصفونها بانها حنينة مع ان لدولة الانكليز فى هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل منها فى اليوم نحو مائتى ليرة وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون اخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى

صار معلوما عند الجميع ان الاسعار انما تغلو بوجود هذه السفن ثم اذا سافرت اخذ الذين الفوا البيع لها فى الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم فان الاهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها هذا وان الانكليز قد انشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين فى حسبان فقد كان بعض اصحابى بالاسكندرية كلفنى بان اسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفى بمالطة وهل كان تحت حماية الانكليز او لا فلما سألته اجابنى بعد البحث بان ديوان مالطة قبل قدوم الانكليز لم يكن له دفاتر مصححة يرجع اليها وانما كانت عبارة عن اوراق يومية غير منظومة على ان المالطيين انفسهم يقرون بان حكامهم فى القديم كانوا ينالون من عرضهم لانهم كانوا قد حرموا الزواج على انفسهم حتى انه تجمع فى دار معدة للنغول نحو الف ولد زن فى كونهم اولادهم فكانوا يقولون فيهم انهم على قسيسين يورون بذلك ان الحكام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم او ان الاولاد يصيرون قسيسين ولكن دأب اهل الجهالة ان يستطيبوا الماضى على الحاضر ويطمعوا فى ان الآتى يكون خيرا منهما ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب ولن يقدر احد ان يستخلص منهم عشيرا وما يكون له بين ظهرانيهم صديق الا اذا كان يربى جرو كلب ولعمرى لو ان مالطيا افترى على غريب وخاصمه لتألبوا على الغريب من كل اوب من دون ان يعلموا السبب وهم مائلون بالطبع الى البطش والفتك وان كثيرا منهم لا يمشون الا ومعهم سكاكين يخفونها فى ثيابهم ومدخل العتاب بينهم مسدود فاول سبهم قولهم يحرق دين القديس تيعك ومن جهلهم انهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فان مرادفه عندهم فى غير السب منقول من الطليانى والظاهر ان المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية فتداولوها هم من بعدهم ومنهم قوم يتنصتون الى ما يجرى بين المرء وصاحبه او زوجته من الحديث فاذا صح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا واختلقوا عليه اكذوبة وللمالطيين جميعا لهجة واحدة واشارات واحدة فالرجال اذ وقفوا يهزون افخاذهم من الورك الى القدم واذا وصفوا احدا بالنحول رفعوا السبابة واما لوها يمينا وشمالا واذا اشاروا الى امر معتدل سوى رفعوا الكف اليمنى ورجفوها واذا ارادوا الكثرة ضموا الاصابع على الابهام وحركوها عليه

واذا

واذا ارادوا النفي امروا الانامل من تحت الذقن واذا اشاروا الى حسن امرأة جمعوا الكف وامروها على الصدغ اشارة الى تجعيد سوالفها واذا ارادوا وصف شيء بالطيبة ارخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات واذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له كيف المرة واذا زار احدهم صاحبه فاول ما يحيي به صاحب المنزل ويجعل تحية الست الاخيرة واذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه واذا اوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية المساء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلا اربعون وعشرة ولعل ذلك واصل اليهم من اليهود فان العدد عندهم فيما اعلمه مكروه ♦ ومن العجب هنا ان الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والرذائل الا في العمر ولا يتحاشى احدهم اذا زارك ان يجيء معه بواحد او اثنين جريا على عادة العرب ويبادرون الى تهنئة النفساء حال وضعها وتزدحم عليها الجيرة حتى العذارى وتأتي اصحاب الآلات و يعزفون امام البيت وهي آخذة في الطلق و يزأطون عندها كما يزأطون في الاعراس ♦ اما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس اهل ارلاند وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية وكما ان اهل ارلاند يسكرون ويفحشون في عيد صان پاترك كذلك المالطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان پاولو بل في سائر الاعياد واذا استأجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها الا اذا رش عليها القسيس الماء المبارك وكذلك لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم او انكليزي الى ملك احدهم فلا بد وان يعمده وهم يعمدون ايضا اجراس الكنيسة جميعها وكذا الاجراس الصغيرة التي يقس بها امام القربان ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء مما عرف بالاشابين وقد عمدوا مرة جرسا في كنيسة صان پاولو وكان كفيله الحاكم وزوجته لكونه كان كاثوليكيا ويقولون ان دعوة الجرس مستجابة فاول ما يحدث رعد او برق يبادرون الى الضرب به ويعمدون المولود من اول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير ولا بد من ان يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت ومن يقف ينظر الى القربان وهم طائفون به من دون ان يسجد له فقد عرض نفسه للخطر وقيل انهم قتلوا مرة رجلا من بحرية الانكليز وكان قد مر بهم ولم يسجد له فتناولوه ضربا ووخزا فحمل قتيلا ومرة اخرى وقف بهم احد

ضباط العسكر وظل واقفا فهجم عليه قسيس ورمى بغطاء رأسه فشكاه للحاكم فاخبر الحاكم الاسقف بذلك فحبس القسيس فى داره مدة ثم اطلقه فذهب القسيس الى رومية فاكرمه البابا واعاده الى الاسقف وامره باعلاء درجته فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلد ويقولون ان شكل الصليب مخلوق فى جثة كل انسان وذلك بان يبسط يديه وهو رافع رأسه وان اسم مريم العذراء مرسوم ايضا فى كل كف فان خطوط الكف الاصلية تشبه حرف الميم باللاتينية ونحو من هذا ما وجدت فى بعض الكتب العربية من ان اسم النبى صلى الله عليه وسلم مكتوب فى كل جثة فان الميم تشبه الرأس والحاء تشبه الصدر والميم تشبه السرة والدال تشبه الساق • وفى ايام الصيام وفى يومى الاربعاء والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه وانما يقولون هون تا الابيض ولفظة تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب كما يستعملها اهل تونس وطرابلس وفى غير هذه الايام يقولون حليب ومع شدة تحمسهم هذا فانهم يبيعون و يشترون ايام الاحاد والاعياد كما فى غيرها والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه الى الظهر فقط وقد رأيت كثيرا من مدن ايطاليا ولم ار فيها تماثيل عديدة فى الطريق كما يرى فى مدينة فالتة • وقد كانت هذه التماثيل فى الزمن القديم ملاذا يعتصم به اهل الجنايات فكان القاتل اذا فر ولطئ تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع وقد بطلت الآن هذه العادة وينبغى هنا ان نذكر ان المالطيين يأنفون من ان يطلقوا اسم النصارى على الانكليز واذا تزوج انكليزى مالطية على يد قسيس انكليزى فان زواجه غير شرعى

﴿ فصل ﴾

﴿ فى الانكليز وحكومتهم بمالطة ﴾

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الانكليز لموقعها فى بحر الروم كما لا يخفى كان لهم فى حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما ليس فى بلادهم ويمكن ان يقال ان الحكم هنا مالطى وان يكن الحاكم انكليزيا فان القضاة وفقهاء الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين فى الدواوين وشرطة الديوان جميعهم مالطيون وليس على الناس مكس ولا ضريبة ولا يدفع مكس فى الكمرك

الا

الا على الحنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جدا ◆ ومن اقتنى مركبا او خيلا او استخدم خدمة فلا يؤدى على ذلك شيئا وكذا الذين يبيعون بقول الارض وثمرها وليس لخزنة الدولة من ايراد هذه الجزيرة ولا فلس واحد وانما يصرف جميعه فى لوازمها وجملته تبلغ تقريبا ١٠٤٫٢٠٠ وتفصيلها من ديوان الكمرك نحو ٦٥٫٧٠٠ ومن الدكاكين ١٫٦٠٠ ومن المحاكم ٢٫٧٠٠ ومن بوسطة المكاتيب ١٨٠ ومن تقييد الصكوك ١٣٠ ومن خراج الارض ٢٣٫٧٠٠ ومن المزاد ٢٠٠ ومن الكرنتينة ٣٫٣٥٠ ومن المراكب ٣٫٩٠٠ ومن مصالح اخر ١٫٧٠ ◆ يصرف منها مرتب وظائف وسنويات ٤٣٫٠٠٠ منها ٥٫٠٠٠ للحاكم ولحديقته ٤٠٠ ولكاتب سره وهو من الانكليز ١٫٠٠٠ وللكاتب الثانى ٥٠٠ ولناظر الخزنة ٣٥٠ ولمدير الحسابات ٦٠٠ ولمستوفى الاموال ٥٠٠ ولناظر الكمرك مثلها ولكبير القضاة ٦٠٠ ولكبير الشرطة ٤٥٠ ولناظر المرسى ٤٠٠ ولناظر الكرنتينة ٣٠٠ ولقسيس الحاكم ٥٠٠ ولاسقف مالطة ٢٫٠٠٠ وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الافعال الخيرية ٤٫٤٠٠ وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها ٢٫٧٠٠ وعلى المرتزقين والمتقاعدين ١٣٫٢٥٠ اما مصاريف عسكر الانكليز وهم ثلاث كتائب فمن خزنة الدولة وللعسكرى فى اليوم نحو شلين ويقال ان ايراد مالطة منقسم الى ثلاثة اثلاث الثلث الاول للميرى والثانى للكنائس من الوقف والتسبيل والثالث لاصحاب الاملاك ◆ فقد تبين لك رفق دولة الانكليز بحال المالطيين جير ولو ان جزيرتهم كانت اكبر مما هى الآن بمائة مرة لما كان ايرادها كله مكافئا لمكس صنف واحد فى انكلترة وحسبك ان مكس الملح وحده هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة ◆ ومن تساهلهم معهم انهم يرخصون لهم فى التطواف بالقربان وتماثيل القديسين سواء كانت من خشب او جص او غير ذلك مع انه مغاير لعقائد كنيسة الانكليز لا بل يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون بآلات الطرب امام التمثال ولا غرو فان الدولة فرضت لصنم فى بلاد الهند اسمه جوجرنوت ٥٦٫٠٠٠ روبية وهى عبارة عن ٢٦٫٠٠٠ ريال ولغيره ايضا من الاصنام مرتب وافر ولكهان الهنود وظائف يرتزقونها من الديوان فى كل عام ◆ قبل ويوجد فى الهند نحو

١٤٫٨٥١ محلا مخصصا لعبادة الهنود يبلغ مصروفها من طرف الدولة المذكورة نحو ٣٥٫٠٠٠ لبرة وقد صرف مرة على اقامة عيد من اعيادهم ٤٠٫٠٠٠ روبية. مما لزم لهيكل الصنم وفى هذه الاعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والقلاع ويمشى امام الصنم طائفة العازفين من الجيش ٭ وفى عيد القساء جوز الكوكو فى نهر الهند ينزل ذووا الامر والحكم من الدولة ويأخذونه من الكهنة بعد ان يصلى عليه ثم يلقونه فى النهر وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلونة وتطلق المدافع منها ومن الابراج وكذلك يفعلون فى الاهلة اظهارا لشعائر الاسلام وكل ذلك دليل على ان الدولة لا تبالى بمباينة المذاهب والاديان فى ممالكها اذا كانت هذه الاديان غير مانعة من اداء ما يلزم اداؤه للخزنة من المال وللتاج من الطاعة وقد حاول مرة حاكم مالطة وكان على مذهب البروتستانط ان يبطل عادة المسخرة يوم الاحد فى المرفع على ما تقدم ذكره فان الانكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه واذا بالمالطيين جميعهم تألبوا عليه وماجوا يطوفون وهم يسبونه ويقبحون عليه بالقاب سمجة واشارات منكرة حتى ان بعضهم حاكاه فى زيه وهيئته وجعل على رأسه قرونا ثم احدقوا بكنيسة الانكليز وهم عاكفون على العبادة وزاد ضجيجهم ولغطهم هنالك حتى لم يسع الحاكم وحشمه غير الفرار الى حديقته خارج المدينة وما زالوا مذ ذلك الحين يلحفون فى طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر امر من الدولة بعزل الحاكم المذكور فجاءهم حاكم من اهل ارلاند اكثر تحمسا منهم وهو الذى وقف شاهدا على معمودية الجرس ومن سنن الانكليز فى بلادهم ان تغلق جميع الحوانيت فى يوم الاحد الا دكاكين العقاقرية والحانات التى تباع فيها الجعة والشراب الا ان هذه تغلق ايضا عند اقامة الصلاة فاما فى مالطة فلا حرج على احد منهم ان يبيع ويشترى فيه اى شئ كان ثم انى لست ممن يتصدون الى تبديل القوانين والاحكام ولا ممن يتحرشون بالحكام مخافة ان يعزلونى عن ولاية قلمى ولا يتأتى لرجل مثلى ان يصلح شريعة دولة قديمة ولاسيما شريعة الانكليز فانها عندهم لا تقبل التبديل ولا التحريف وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام سنة الا ان بيدآة اصولهم واحكامهم تظهر لبصرى الكليل القاصر فى غاية البعد عن الادراك اما اولا فلان قصاص كثير من الاساآت

والجنايات

والجنايات يفتدى عندهم بغرامة للميرى فاذا افترى مثلا لئيم على كريم ولطمه بحضرة الناس او هتر عرضه غرم شيئا من الدراهم للخزنة وخرج من بين يدى القاضى على اشر خلق مما كان عليه فتكون مصلحة الحكام على هذا ازدياد الخصام والشر بين الناس لان خيرهم انما هو من شر الطغام فيا ليت شعرى ما نفع الكريم بعد ان يسب ويفترى عليه ان يرى غريمه مؤديا للميرى ثمن عرضه وشرفه وكيف تصح التسوية بين العباد والله تعالى لم يسو بينهم بل فضل بعضهم على بعض فجعل اللئام يبذلون ماء وجوههم ويمتهنون انفسهم فى تحصيل معيشتهم وجعل ذوى الادب والعرض ينزهون انفسهم عن الشين والمنكر فهل من العدل ان لا يجعل بينهما فرق فى الاحكام والمعاملة والا لزم ان نقول ان من يساوى بينهما وهو الحاكم ينبغى ان يكون مساويا لمن فرض عليه الحكم فلو تعمد رجل مثلا للطم الحاكم على وجهه وهو جالس على كرسى الحكم أفعساه كان يغرم دريهمات لخزنة الدولة وهل من العدل ان ترى لئيما ينازع كريما على شئ هو ادنى من ان يخطر بباله نعم تصح التسوية بين غريبين تجهل حالهما فاما الحاكم الشرعى الذى يعرف اهل بلاده ويخبر فاضلهم من مفضولهم فلا ينبغى له ان يسوى بين كل مدع ومدعى عليه كما انه لا ينبغى ان يوزن الذهب فى ميزان الحشب وفضلا عن ذلك فان من ضرب مثلا مرة لا يصح ان يجرى عليه حكم من دابه وديدنه الضرب والا لزم ان نقول ان اهل اللغة اعقل واحكم من اهل الشرع حيث فرقوا بين الضارب والضراب والضروب هذا ولما كان الظاهر من حكم الانكليز انه مبنى على التسوية كانت الاوباش من اهل مالطة مثل اهل الفضل منهم فى انه لا يقبل للفاضل كلام على المفضول ولا يفصل بين اللئيم والكريم منهم غير الشهود وان كان اللئيم معروفا بلؤمه ورذائله وربما طلبت باعة المأكولات فى شئ قيمته درهم عشرة دراهم فلا يمكن للمشترى ان يعارضهم بشئ واذا ابى ان يشترى لم يخل من تطاول البائع عليه وقس على ذلك اصحاب القوارب والحمالين وغيرهم من السفلة فاى انصاف هنا ان يرخص لهؤلاء فى هذا التعدى والطغيان ثم يقال ان ذلك تسوية ثم اى انصاف ان يرخص للباعة فى ان يخلطوا الموائع وان يضعوا السمك واللحم الذى نشم فى الحموم فى الثلج حتى يتطرى وفى ان يبيعوا الفج من الاثمار وان يجعلوا سعر

الشيء الواحد متفاوتا على قدر تفاوت الساعات وان تطوف السكارى في الاسواق ضاجين زائطين بالغناء واللغط ثم يقال ان ذلك حرية لعمري ان فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لان الحرية انما تكون جيدة مفيدة ما اذا روعى فيها مصلحة عمومية على اخرى خصوصية لا بالعكس فتبا لحرية تفضي الى تسويد اللئيم على الكريم وهذا الفساد الحاصل في البيع والشرآء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله وسببه انه لما كان ذووا الاحكام هنا وهنالك لا يأكلون سوى اطيب المأكول ولا يشربون سوى افخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وظنوا ان سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله ومن فساد الاحكام هنا ايضا انه اذا كان لاحد حق على آخر واراد سجنه لزمه ان يقوم بمؤنته وان يكن المديون لصا او متعديا وكان المحق عالما فاضلا ولا يخفى ان في ذلك حظرا للثقة والائتمان لان حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئا وان السجن لكثير من الاشقياء المناحيس خير لهم من خصاصهم ولما كان هؤلاء السفلة مفرطين في القبائح والشرور على ما ذكرنا كان من اهم الاشياء على الحر ان يجتنبهم ما امكن وليس عليه ان يحترز من الاعيان وذوى الامر والنهى فانهم لا يتطاولون على احد لما يعلمون من قضية التسوية بخلاف العادة في البلاد الشرقية فان اصحاب المناصب هم الذين يخشى باسهم وشرهم ومن فساد الاحكام ايضا ان القضاة تقبل شهادة اى شاهد كان سواء كان سكيرا او شريرا وكذا شهادة النساء والاولاد مقبولة فمتى قبل الشاهد الصليب مضت شهادته والانكليز يحلفون على الانجيل ومتى اقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وان تكن من الامور التي كتمها اولى من اذاعتها وهنا ايضا انكر التسوية لانه اذا حدث مثلا امر مرة بين والد وولده او رجل وامرأته وكانوا من ذوى الفضل وافضى ذلك الى المحاكم لا ينبغي ان يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بانه سرقه او شتمه ثم ان من الاصول المقررة عند الانكليز ان كل من يدخل ارضا تحت حكومتهم يصير حرا وتجرى عليه احكامهم وقد جاء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد واماء فاجبروا على تحرير رقيقهم ومن يقم خمس عشرة سنة ويعلم انه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له ان يطلب الحماية الجنسية ولكن يلزمه اداء نحو عشرين ليرة وهذه الحماية هي انفع من

حماية

حماية الانكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك وللحاكم عشرة مشيرين من اعيان الاهلين يشاورهم فى المصالح العائدة الى بلادهم وفى كل خمس سنين يعزل وربما اقام اكثر اذا طلبت الرعية ذلك وفى قصره ستة عشر الف بندقية وعشرون الف مزراق واربعة آلاف درع والفا طبنجة اما اخلاق الانكليز هنا فهى مغايرة لاخلاق جنسهم فى بلادهم فلا يصح لمن رآهم ان يحكم بان جميع الانكليز مثلهم فان هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والشح وبئس الكبر والشح اذا اجتمعا وما احد منهم الا ويظن بانه هو فاتح هذه الجزيرة ببأسه وسيفه ولا سيما ضباط العسكر فانهم على قنة الصلف والتبذخ واذا دخلت على احد من هؤلاء الفاتحين وهو يأكل فلا يتكلف ان يدعوك الى طعامه بل ربما غضب على جميع اهل داره على عدم منعهم اياك من الدخول كما قلت

* اذا زرت ارحبهم دارة * توهم غولا قد اغتالها *
* يغلق ابوابه ان نوى * فطورا ويحكم اقفالها *
* ومن كان فيهم له خادم * يظن المعالى قد طالها *
* اذا تبوأ كرسيه * وبنت من زوجه حالها *
* يرى انه محسن مفضل * وان المآثر قد نالها *

واذا زرته واتفق عنده الى وقت غدائه واردت الذهاب فلا يدعوك الى الطعام معه ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة فان احدهم ربما اقام شهرا تاما من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع و بقراءة صحف الاخبار اما عندنا فالاخبار لا تعرف الا بالنقل والرواية فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلا ومن سوء ادب بعضهم هنا انهم يجعلون فى اعناقهم شريطة فيها زجاجة فكلما لحوا امرأة فزعوا الى الزجاجة ليستثبتوها بها وفى ليالى الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة وهو ناظر الى ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها وكما ان الرجال هنا ليسوا براموز حسن على اهل انكلترة كذلك كانت النساء مخالفات لمن فى بلادهن فانهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال واكثرهن فقم وشوه ومن الغريب انه مع ترفههن وركوبهن الخيل فى كل يوم غالبا فلسن يرى فيهن بادنة ولا فضيلة لهن الا فى كونهن يحسن القراءة

والكتابة ويؤسسن العلم فى اولادهن على صغرفان الولد لا يبلغ هنا خمس سنين الا ويكون قادرا على القراءة اما عندنا فيذهب سن الصبا باطلا فتى اخذ بعد ذلك فى التعلم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى واشهد لو ان نسآء بلادنا يترشحن فى المعارف على صغر لفضلن نسآء جميع الافرنج فضلا باهرا فانهن ارق اذهانا واسرع فهما والحاصل ان الانكليز هنا رجالا ونسآء ليسوا من خيرة بلادهم وان كبرهم وعتوهم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطيين فما من مالطى تسنح له فرصة لاذى انكليزى الا وينتهزها فاما المتوظفون منهم فى خدمة الحكومة فانما هم راضون عن اصحاب السيادة لا عن افراد الانكليز المجاورين لهم

﴿ فصل ﴾

﴿ فى موسيقى اهل مالطة وغيرهم ﴾

قبل الدخول فى هذا الباب الحرج ينبغى ان استأذن اصحاب اهل الفن فى التطفل على هذا النحو وان كنت لا اعد من جملتهم غير انى علمت منه ما يمكننى ان اعرف المستقيم منه من غير المستقيم فاقول قال بعض الفلاسفة ان فن الموسيقى فضله من المنطق اخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن اخراجها بالقياس فن اول المنطق بالاصطلاحى قال معناه ان اركان هذا الفن ذهنية بنآء على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع والذوق فيرسم السامع ما يسمعه من الاصوات فى مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التى ترسخ فى مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعول عليه فى تحصيل هذا الفن ملكة الذوق اما الافرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وايقاعه داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعانى فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وعظيم معاناة كما فى السابق فمن كان منهم عارفا بمخارج النغم ورأى تلك العلامات امكن له ان يخرج عليها اى صوت كان من دون ان تتقدم له سابقة فيه واذا اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة ويرد على هذا التأويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط على

ان

ان الناس متغايرون فيها تغايرا شديدا فان الحان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء ايضا مختلفون فان اهل مصر لا يطربون لالحان اهل الشام والحان الافرنج لا تطرب احدا من هؤلاء وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوى وهو المراد هنا فقد جاء فى شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدبين ابن نباتة ما نصه «النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان عن اخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحن اليه القلب اه والمراد بالترجيع لا التقطيع ان يكون الصوت ممتدا يحتى به لا متقطعا كاصوات الهجاء فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من المنطق على هذا التأويل لزم ان نقول ان لكل جيل من الناس محاسن فى الغناء مقصورة عليهم فقط فان لكل لغة محاسن وعبارة لا توجد فى غيرها والواقع بخلاف ذلك فان لغتى الصين والهند مثلا تشتملان على محسنات لا توجد فى غيرهما الا ان انغامهم خالية من ذلك اما الحان الافرنج فلا يطرب لها منا الا من الفها وهى عندهم على اربعة انواع الاول وهو احسنها ما يتغنى به فى الملاهى مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتفخيمه وترجيفه وفيه تدخل حماسة وتحريض وتدمير والثانى وهو يشبه ما يرتل به فى الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف والثالث ما يغنى به فى المحزنات والبث وفى هذا النوع يستعملون غناء رقيقا اشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان يكن جاهلا باللغة كما اذا رايت شخصا مجهشا للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه والرابع ما يتغنى به فى المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يصلونه باشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها وفى كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهى مطربة جدا واكثرها فى النوع الاخير ويوفقون عليه الفاظا مولدة غريبة وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص يحمل الثكلى على القهقهة اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجى والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان والحجازى ينعش وينغش وهلم جرا والفرق بين الفريقين من عدة وجوه ﴿ احدها ﴾ ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تقييد بتلك النقوش فلو

اقترحت على احدهم مثلا ان يغنى بيتين ارتجـالا كما يفعل عندنا فى القصـائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة الى براعتهم فى هذا الفن لان الانشاد على هذا النوع طبيعى وقدكان عندهم من قبل ان تكون النقوش والعلامات فيا ليت شعرى كيف كانوا ينشدون قبل ان نبغ غويدو داريتسو فى ايطاليا ﴿الثانى﴾ انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنين وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم فى بعض اركانه من مقام و بعض فى البعض الآخر من مقام غيره فان كانت الاغنية مثلا من الرصد غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءا من النوى بصوت رقيق وآخر جزءا من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقـامات ويسمى ذلك عندهم هرمونى اى ان الاصوات تتألف على الغنـاء وفى هـذه الطريقة فوائد ومخـاسر اما الفوائد فلان السـامع يسمـع فى وقت واحد موشحـا واحدا من عدة مقامات باصوات مختلفـة فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض واما المخاسر فلأن السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخـارج تلك الاصوات المتغايرة وهـذه الطريقة عندى على الآلات احسن منهـا على الاصوات ﴿الثالث﴾ ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم فى انه لا يخلو عن حماسة وتهييج فضلا عن التشويق والتطريب والترقيص فغنـاء الحماسة والتهييج هو الذى يكون به ذكـر القتال واخذ الثار والذب عن الحقيقة فاذا سمعه الجبان ولا سيـما من الآلات العسـكرية هانت عليـه روحه اما الغناء العربى فكله تشـويق وغرامى واجدر به ان يكون جامعـا لمعنيى الطرب وهو خفة تصيب الانسـان من فرح او حزن فاذا سمع احد منا صوتا او آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى الفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحا ولا غرو ان صعد منه الزفرات واذرف العبرات فان السرور اذا تفاقم امره وتكامل بدره دب فيه محاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صـاحبه فى بحر من الوجد ويشـتغل بنار من الهيام وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاه من الاضداد ﴿الرابع﴾ ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد نعم ان جميع الانغـام يوجد لها مقامات فى آلاتهم بل توجد انصافها وارباعهـا الا مقامين منها لا انصـاف لهما الا انهم لا يقرون الا على المقـام الاول وقد سمعت منهم الرهاوى والبوسليك والاصفهانى اما غيرهـا فلم اسمعه قط بل قد سمعت منهم

بعض

بعض اغان من اغانينا اوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصدا وقد والله طالما وقفت السمع على ان اسمع منهم انغامنا فخبت حتى اعترتنى الحيرة فانى من جهة كنت ارى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وافكر فى ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم فى هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره ومن جهة اخرى ارى ان براعتهم كلها انما هى من مقام الرصد نعم ان هذا المقام هو اول المقامات وانه يغنى منه فى مصر وتونس اكثر مما يغنى من غيره الا ان فضل الصبا والبيات والحجازى لا ينكر ايضا ثم اعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم ايضا بدائع فى هذا الفن كما فاتهم فى غيره اشياء اخرى وذلك ككثرة بحور العروض عندنا وكبعض محسنات الكلام وكالسجع فى الكلام المنثور اذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو فى الانشاء كالصوت المطلق فى الغناء فان السجع مقدم على النظم وكعجزهم ايضا عن لفظ الاحرف الحلقية وقد سألت مرة احد اهل الفن منهم فقلت ان المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوى وكذا انصافها فبقى الكلام على استعمالها فانا لو استعملنا مثلا نصفا من الانصاف مع مقامه وانتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن اين تعلم الحقيقة فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندهم على اصول هندسية لا يمكن خرمها فلا يصح ان يستعمل مقام الا مع مقام آخر على انى كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على شغفى بالحانهم وقد شاقنى يوما وصف المادحين الى سماع قينة بلغ من صيتها انها غنت فى مجلس قيصر الروس فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها وطول نفسها فى الغناء الا انى سمعت منها خروجا بحسب ما وصل اليه ادراكى ولو تيقن ان الحان الروم التى يرتلون بها اليوم فى كنائسهم هى كما كان يتغنى به فى ايام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحان الافرنج فان انغام الروم مقاربة لانغامنا ❊ الخامس ❊ ان اكثر اصحاب الآلات عندهم لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم الا صاحب الكمنجة فاما الناى ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منهما طباقة اذا سد منها منخر جاش منخر غير ان الصنعة فى احكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الاصابع عندنا وهذه

الانصاف والارباع فى النغم مثل الروم والاشمام فى النحو وفى الجملة فان للافرنج حركات فى هذا الفن خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاتهم بهــا ومما مر تفصيله تعلم ان انشادهم فى الحماسـة والفخريات غير معروف عندنا وان مطلق الصوت عندنا غير معروف عنـدهم ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الآلات والادوات فقد فاتهم العود على محاسـنه والناى من القصب فان نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا على ان اكثر العلمـاء قرر ان اصل الموسيق مأخوذ عن صوت الريح فى القصب وقال بعض انه عن صداح الطير وغيره انه عن خرير المآء وآخرون انه عن اصوات مطـارق طوبال قين واول من ضبط اصول هـذا الفن يوبال وذلك فى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وكان اختراع الناى فى سـنة ١٥٠٦ ونسب الى هيجنيس وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد فى شرح مقـامات الحريرى فى ترجمة الخليل ان اول من استخرج العروض وحصر اشعـار العرب به الخليل بن احمد ابو عبد الرحمن الفراهيدى الازدى وكان سـببه انه مر بالبصرة فى سـوق القصارين فسمع الكدنيق اى المطرقـة باصوات مختلفـة سمع من دار « دق » وسمـع من اخرى « دق دق » وسمع من اخرى « دقق دقق » فعجبـه ذلك فقـال والله لاضعن على هـذا المعنى علمـا غامضا فوضع العروض على حـدود الشعر الخ وانجى آلة من الآلات الافرنجيـة هى « الكنشرتينة » وهى فرع من فروع الارغن ونحو من المنفخ يفتح ويطبق وهى من مخترعات وينسطون ومن المعلوم انه كلما رقت طبـاع النـاس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة فى مضمار الطرب اسبق ولشـذا عبيره انشق فان المولع بغر المعـانى ونكات الكلام لا يسمع الالحـان الا ويتصور معهـا من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبى بمجرد معرفة كونهـا غنآء ولاسيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا وقد جاء فى شرح لامية العجم للعلامة الصفدى من لم يحركه العود واوتاره والربيع وازهـاره فهو فاسد المزاج بعيد العلاج وقال افلاطون من حزن فليسمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد نورهـا فاذا سمعت ما يطربهـا ويسرها اشتعل منهـا ما خمد وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى شر الغنآء والشعر الوسط لان الاعلى منها يطرب والدنى يضحك ويعجب والوسط فلا يطرب ولا يضحك اه ومن الغلط البين ان

يقول

يقول احد انى لم اطرب لهذه الالحان لجهلى باللغة فان اصل الطرب انما يكون عن الصوت لا عن الكلام المتغنى به • اما اهل مالطة فانهم فى الغناء مذبذبون كما في غيره ايضا فلا هم كالافرنج ولا كالعرب فاهل القرى منهم ليس لهم الا اغانى قليلة واذا غنوا مطوا اصواتهم مطا فاحشا تنفر السامع منه فخضاهاتهم للافرنج هى فى اقتصارهم على الرصد وللعرب فى انهم اذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم يخرجوا اصواتهم الا من مقام واحد ويقوم احدهم ينشد ويرد عليه الباقى اما الاعيان منهم فانهم يتعلمون الالحان الطليانية • واكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالآلات فتى قدم احد من سفر او ولد له ولد او تزوج او عمد ولده او ترقى الى رتبة او كسب مكسبا جزيلا بادروا الى تهنئته ولا يخفى عنهم شئ مما يحدث فى بلدهم ويقال ان احدى بنات الاعيان فجرت مرة وكتمت حبلها عن اهلها ثم غابت اياما حتى وضعت ولدها فلما رجعت الى بيتها اقبلت زمرة منهم يعزفون امام الدار فسألهم ابوها ما سبب ذلك فاخبروه بوضع ابنته ففطن حينئذ لغيابها • والذى يظهر لى ان الانغام التى كان يتغنى بها فى ايام الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة واللازمة التى تستعملها المغاربة فى غنائهم هى دى دى كقول اهل مصر والشام يا ليل وكقول الترك امان وفى القاموس ما كان للناس حداء وضرب اعرابى غلامه وعض اصابعه فمشى وهو يقول دى دى اراد يا يدى فسارت الابل على صوته فقال له الزمه وخلع عليه فهذا اصل الحداء اهـ • واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا وهم يزعمون انهم نقلوا هذا الفن عن اهل الاندلس واهل تونس اكثر ترسلا منهم والظاهر ان الموالى من خصوصيات اهل مصر والشام وكذلك الناى والقانون والغالب فى من غنى صوتا واجاد ان يظن ان لم يبق ذو اذن واعية الا وسمعه واذا لم يجد المغنى لنفسه عذرا وذلك بان يتنحنح او يسعل فيحيل القصور على شئ طرأ عليه هذا اذا كان المغنى غير متخذ الغناء له صنعة فاما من درب فيه فقل ان يعرض له خروج لان الصوت كالآلة كلما زاد استعمالا زاد جلاء • وكما ان غناء اهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين اعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما فى لغتهم من الحركات فهى مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون اصواتهم صادرة عن صدورهم •

اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذى فيه مد وترجيع الا بتحويل الالفاظ عن وجهها وخرم قواعد النطق بها وانما يحسن بها الاغانى المضحكة واصواتهم كلها من ازوارهم وكأن المغنى منهم يغنى وقد غص بلقمة وجميع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيا للاشجاء والتطريب فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها الا مع الغنة وهى مع ذلك اشجى لغات الافرنج جميعا وربما طرب لها من سمعها اول مرة من عمره وقد رأيت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث بمصر وكان فى اول امره يأنف منها ويقول انها محزنة ولا يخفى ان للعادة تأثيرا فى جميع الاحوال وخصوصا فى المنطق والالحان وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه مذ الصبى فاذا امتزج بامزجتها كان سماع غيره ضد المألوف واهل مالطة يرقدون اطفالهم على ما هو اشبه بنواح الندابات فى بلادنا ولولا العادة لما عجزت الافرنج مع حكمتها عن النطق باحرف الحلق وهى التى وفت حق نسائهم جزافا وبخست نساءنا حقهن

﴿ فصل ﴾

﴿ فى لغة اهل مالطة ﴾

اعلم صانك الله عن الزلل * وسددك الى صواب القول والعمل * ان اللغة المالطية فرع من دوحة العربية وشيصة من تمرها وهى يتكلم بها فى جزيرتى مالطة وغودش وسوآء فى ذلك العامة والخاصة غير ان هؤلاء يتعلمون ايضا الطليانية والانكليزية لاحتياجهم الى الاولى فى المعاملات والتجارات وكتب الشرع وغيرها ولتنافسهم فى الثانية لكونها لغة ارباب الحكم وذلك لان اللغة المالطية لم تدون فيها علوم ولم يشتهر فيها كتب فهى عبارة عن الفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الاحوال الساقطة دون ان تفى بحاجتهم فيما يقصدونه من وصف او نسيب او وعظ فاذا ارادوا ذلك فزعوا الى الطليانية وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من اللغة الا على المبتذل واذا اخذوا من الطليانية ما مست الحاجة اليه ملطوه والحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلا « ما يرنشيش » اى ما يوافق و « كونشيته » اى عرفته ففى الاول ياء المضارعة والشين

والشين التي يزيدونهـا بعد النفي كما تزاد ايضا في اللغـة المتداولة الآن في مصر والشام وهي مختصرة من لفظة شئ وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب وكقولهم «عندي بياشير» اي سرور فيجعلون الظرف خبرا مقدما والنكرة مبتدأ مؤخرا فهو جار على قواعد العربية وقد قلت فيها

* تبا لها لغة بغير قرآءة * وكتابة عين بلا انسان *
* تتبلبل الالباب في تركيبها * ويكل عنها كل حد لسـان *
* اذنابها ورؤوسها عربية * فسدت واوسطها من الطلياني *

فان قيل ان الاذناب والرؤوس هنـا كناية عن اوائل الالفاظ واواخرها كاداة المضارعة وال التعريف ونون الوقاية وهـذه باقية على الاصل فلم وصفتهـا بالفساد قلت ان اداة المضـارعة مكسورة عندهم على كل حال وكذا اداة التعريف والضمير غير ظـاهر فانهم يلفظون به كالواو ويحتمل ايضا ان يكون «فسـدت» دعاء في المعنى ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجملها وتأليفها ولا سيما في الامور المتعارفة كما ذكر فقد ذهب عنهم مرادف الاب وانمـا يقولون «مسار» بالامالة وكأنها محرفة عن «موسيو» بالفرنساوية فان حق التلفظ بهـا ان يكون «مونسيور» وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحا ومساء فيقولون «بون جورنو عليك» ولعل سبب ذلك ان المسلمين لما افتحوا جزيرتهم كانت التحية بينهم «السـلام عليكم» وكان استعمالهـا مقصورا عليهم كما هو في بلادنا فلم تعرف بين الاهلين وليس هـذا باعجب من ذهـاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين وقولهم الآن «صباح الخير» الظـاهر انه مولد ومن الغريب ان بعض اعيـان المـالطيين يحاكون الافرنج في اطوارهم وهيئاتهم حتى اذا نطقوا بلغة انفسهم زال عنهم ذلك الرواء وانجلى ذلك الابهـام واذا تكلموا خلطوا جملة ايطاليـانية باخرى من لغتهم لكن هذه هي الغـالبة فانهـا لغتهم في الطفولية وقد اخبرني احد فضلائهم انه اقام مدة طويلة في ايطالية فكان حينئذ يقدر خواطره وافكاره بلغة اهلها ثم لما رجع الى مالطة لم يلبث ان عاد الى تقديرهـا بلغته فصدق عليـه قول الشـاعر

* كل امرئ راجع يوما لشيمته * وان تخلق اخلاقا الى حين *

واغرب منه ان المالطيين يأنفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينهـا وبين لغتهم

وهو عين السبب الذي يوجبه عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء ومع ان الذين يعاملون منهم اهل العربية كثير والقاطنين في بلادهم هم اكثر فما احد منهم يهمه ان يتعلم العربية قرآءة وكتابة على انك تجد في جميع بلدان اوربا افرادا يدرسونها حق دراستها • ثم ان ارآء الناس لما كان من شانها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق ولا سيما اذا كان محل البحث غير متسق على وتيرة واحدة وكانت اللغة المالطية تشتمل على الفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الاقوال والاحكام فزعم بعضهم انها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما البير والصيد كما مر بك في اول هذا الكتاب وزعم آخرون انها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهي المنبر فان معناها عندهم الكرسي الذي تلد عليه المرأة كما هو في الحبشية وهو وهم على ما تحققته من اهل اللغة المذكورة وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر ان كثيرا من الكلام العربي الذي بقي في اهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم وارادة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا وحلت للوقوع في الامر الصعب واصله الوقوع في الوحل خاصة ونحو الطلاب للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل امر ونحو معلوب للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالبا وفتيت اي قليل وهو من فت الشيء اذا كسرته وصغرت جرمه واشباه ذلك مما لا يحوج الى برهان فيكون المنبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوزا كما انه عدل به ايضا في العربية الفصحى من التعميم الى الخاص فان معنى النبر في اللغة الارتفاع فالمنبر على هذا آلة الرفع او محله ثم خصص عند قوم بمحل الخطابة وعند غيرهم بكرسي الولادة وانما قلت آلة الرفع او محله فقد قال الامام الخفاجي في شرح درة الغواص ما نصه هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها فيتعين كسر الاول الا شذوذا فيفتح بعض من الثاني كمرقاة ومنارة لانه من وجه آلة ومن وجه مكان وهو فرق لطيف قل من تنبه له او نبه عليه اه والحاصل انه لا شك في كون اللغة المالطية عربية ولكني لست ادري اصل هذا الفرع أشامي هو ام مغربي فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية غير ان الالفاظ الدينية من الاولى فيقولون مثلا القداس والقديس

والتقربن

والتقر بن والاسقف وما اشبه ذلك مما لا يفهمه اهل المغرب ومن المالطيين من يقر بان لغتهم غير فينيقية ولا حبشية ولكن لا يكادون يقرون بانها فرع العربية مكابرة وعنادا ولا يخفى ان كل لغة فى العالم لا بد وان يدخلها بعض الفاظ اجنبية اما للحاجة اليها او لتقارب اهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلا والرومانيين واليونانيين فى الزمن السابق وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارة موادها وكثرة تصاريفها لم تخل عن الفاظ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية ولم يقل احد ان العربية فرع عن هذه اللغات فكيف لعقلاء مالطة ان يقولوا ان لغتهم فينيقية بسبب وجود كلتين منها فيها واقبح من ذلك انهم يظنون ان فساد لغتهم وانعكاسها عن اصلها العربى ليس من العيب فى شئ قياسا على ان الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الاصل وهو مدفوع بان العربية لم تنقض دولتها كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها وبان المالطية لم يؤلف فيها شئ الى الآن من كتب العلم والادب ولم يتكلم بها اقوام فالفرق واضح والحاصل انهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة انهم لم يطلقوا على محاسن اصلها الذى حلئوا عنه نعم ان اهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق باهل العربية الفصحى ولكن ما منهم الا من يشعر بقصوره عنها ويدرى عظم التفاوت بين الطرفين وكل يود لو يصل الى درجة الكمال فى معرفتها وكنت ذات يوم سائرا مع جماعة منهم فاخذ احدهم يصف لغتهم وجعل من محاسنها اجتماع الالفاظ العجمية فيها كأنه يقول انها انتفت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التى رأت زوجها يزنى • ولشدة تعصب المالطيين على اهل اللغة العربية وتشنيعهم عليهم اذ كان منتهى السب عندهم ان يقولوا عربى كان الانكليز وسائر الافرنج اقرب منهم الى تعلمها غالبا ولوكان عند اولئك ركن منها عظيم وذلك ان المالطى العنيد اذا سمع فى العربية مثلا لفظة خرج وكانت عادته منذ نطق ان يقول حرج فلا يرى فى ذلك كبير فرق ولا يرى ان نقطة صغيرة تقوم المعنى او تفسده بخلاف من يتعلم من اول الامر ان يقول الكلمة على حقها وكانوا اذا سمعونى وصاحبى نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين الا عجمة

فى لغتهم يعنونها ولا يخطر لهم ببال ان لغة لم تضمن بطون الاوراق ولم تضبطها الاحكام النحوية لا تكفى النوع الانسانى وقد تصدى مرة احد مؤلفيهم الى تأليف كتاب نحو فيها فكتب بعد طالعته الفا بتو اللغة المالطية ثم ذكر العين بعد الالف فكان خلفا لان جميع اللغات التى تبتدئ بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الالف فلما وقفت على ذلك كتبت له

* يا قائلا الفا بتو وبعدها الف عين * ان كان ذا البدء مينا فكل ذا النحو مين *

ويقال ان جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالالف الا الحبشية فانه فيها الحرف السابع عشر والظاهر من ترتيب حروف المعجم فى العربية والسريانية والعبرانية انها اى العربية لا ارتباط بينها وبينهما ◆ واهل مالطه يلفظون الغين ايما وقعت عينا والخاء حاء والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة ويشمون الالف فى نحو قال وباع الضمة وهو غريب فان الضم ايضا عند الهمج من اهل الشام وينطقون بالضاد دالا وبالطاء تاء ولا يلفظون العين اذا كانت متطرفة اصلا فيقولون تلا اى طلع وسما اى سمع ويقال انهم كانوا فى القديم يلفظون الثاء على حقها ◆ ومما يضحك منه ان الفلاحين اذا خدموا اهل فالتة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عينا والخاء حاء توهم ان لغة هؤلاء هى الفصحى ◆ واهل غودش يميلون الالف فى نحو فيها ومنها والجميع ينطقون بالجيم نطق اهل الشام الا فى قولهم جدى فانهم يلفظونها كاهل مصر والظاهر ان حق النطق به ان يكون قريبا من مخرج الشين كما فى لغة اهل الشام ◆ فى المزهر فى الفائدة الخامسة من النوع التاسع وهو معرفة الفصيح ما نصه قال الشيخ بهاء الدين فى عروس الافراح قالوا التنافر يكون اما لتباعد الحروف جدا او لتقاربها فانهما كالطفرة والمشى فى القيد نقله الخفاجى فى سر الفصاحة عن الخليل بن احمد وتعقبه بان لنا الفاظا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والفم وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد ثم رأى الخفاجى انه لا تنافر فى البعد وان افرط بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة اه وقال الاشمونى عند ذكر الابدال الشين ابدلت من ثلاثة احرف الكاف والجيم والسين فالكاف نحو اكرمتك قالوا اكرمتش وهى كشكشة تميم كما تقدم والجيم كما فى قوله اذ ذاك حبل الوصال مدمش اى مدمج قال ابن عصفور ولا يحفظ غيره وسهل ذلك

كون

كون الجيم والشين متفقين في المخرج اه الا انه يظهر ايضا ان الجيم كثيرا
ما تبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب اهل مصر فمن ابدالها من
القاف قولهم قف العشب وجف والمقذاف والمجذاف وقله وجله والقشم
والجشم وشق وشج والقرقس والجرجس وقص وجز وتلقف الحوض وتلجف
والشرق والشرج ونظائر ذلك كثيرة ومن ابدالها من الكاف قولهم كد
وجد وكهد وجهد واكن واجن وكرع وجرع وكابة الزمان وجلبته والمكالحة
والمجالحة وعكر به وعجر والركس والرجس وما اشبه ذلك ◆ فعلى هذا يكون
استعمال اهل مصر له صحيحا ويؤيده ما ورد في المزهر في النوع الرابع عشر قال
المهمل على ضربين ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة وذلك
كجيم تؤلف مع كاف او تقديم كاف على جيم وكعين مع غين او حاء مع هاء اه
وايضا فانهم يعربون مرة بالجيم واخرى بالقاف مثال الاول الديزج والنيرنج
ومثال الثاني الرستاق والفرزدق وربما ابدلت من الحرفين معا كقولهم سهجه
وسهكه وسحقه والذي يظهر لي ان ذلك لغة لبعض العرب غير ان اهل الصعيد
والمغاربة واهل الحجاز ينطقون بالجيم كاهل الشام ◆ ثم ان اهل غودش ينطقون
بالاحرف الحلقية على حقها الا انهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور
ومفتوح ويضمون ما قبل الالف نحو قاعد وهاجرا ويقولون منكم وعليكم بكسر
الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهر في النوع الحادي عشر
وتسمى الوكم ويقولون ايضا منهم وبينهم وهي ايضا لغة كلب ومن سفهاء المالطيين
من يدعي النظم بلغتهم هذه الفاسدة ويقال له عندهم التقبيل فمن ذلك قولهم

* ين حنينا ساير نسافر * ساير نسافر ما ناحدكش معي *
* مور وهيا بالسلامه * الله يظمك في المحبسه تيجي *

وبقي هنا حل ما انبهم من الالفاظ المنكرة قوله ين بمعنى انا وحنينا بمعنى حبيب منادى
محذوف منه حرف النداء ومن الغريب هنا ان المنادى اذا كان عظيما خطيرا
يدخلون عليه اداة النداء من الطليانية فيقولون أو مولاي واذا كان حقيرا ادخلوا
عليه اداة النداء من العربية فيقولون يا تفاح يا عنب وقوله ساير نسافر هو مثل قول
عامة مصر والشام رايح اسافر وما الطف هنا عبارة الامام الزمخشري في شرحه
لامية العرب اذ قال واما المستقبل وان كان معدوما في الحال ولكن هو مار الى الوقوع

والنون فى نسافر علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فانه نسافرو وهى لغة اهل المغرب والشين فى ناحدكش لازمة عندهم بعد النفى والاستفهام كما فى العربية الدارجة ومن اهل الشام من يراها ايضا لازمة ولو بعد الجملة فيقولون ما هو كثيرش فكأن ابرازها ضربة لازب وميى وميى اصله معى ومور فعل امر من مار اى ذهب وهو فى اللغة كذا وهيا اسم فعل بمعنى اقبل وذكره صاحب القاموس مكررا وفسره بانه زجر وهو غريب ولا يبعد ان يكون اصله حى ويطربنى ما روى عن ذلك الاعرابى الذى سمع رجلا يدعو آخر بالفارسية يقول له زوذ فقال لاصحابه ما يقول قالوا يقول عجل فقال ألا يقول حى هلك وعلى حى هلك تخرج اجية بديعة ويظمك اصله اما يزمك او يضمك وما قبل الضمير المنصوب مضموم وهذا من بعض آثار محاسن العربية القديمة فى هذه البلاد والباء من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة وكذا فى كل مكان به علامة التأنيث نحو طيبة وكبيرة وهى ايضا من تلك الآثار واحسن من الامالة فاما تيى فقد خبط فيها بصرآؤهم خبط عشوآء وذلك لانهم يدخلون بين المضاف والمضاف اليه لفظة تا فيقولون مثلا الدار تا الطبيب فمنهم من زعم انها من الطليانية فان المضاف فيها يفصل عن المضاف اليه بلفظة دى ومنهم من زعم انها من السريانية فانها فيها كذلك ثم اذا اضافوا تا الى الضمير برزت معه العين فيقولون تاعنا فلهذا لم يدركوا اصلها والصحيح انها محرفة من متاع فان اهل المغرب يدخلونها كثيرا فى الاضافة ويبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتدآء بالساكن وتقصير اللفظ وربما قالوا نتاع بالنون ساكنة ايضا فاما العين فان المالطيين لا يكادون ينطقون بها اذا وقعت آخر الكلمة فيقولون تلا وقلا فى طلع وقلع كما ذكرنا آنفا ويحذفونها ايضا اذا اتصل بها ضمير فيقولون طليت وقليت جريا على حذفها بغير اتصال الضمير وقلب العين الفا اوهمزة من اساليب العرب كما فى تفصى وتفصع واقنى واقنع والثأ والثع وتكأكأ وتكعكع وزقآء الديك وزقاعه وزأزأ وزعزع اى حرك وبدأ وبدع وامرأة خبأة وخبعة اى تختبئ تارة وتبدو اخرى والخبآء والخباع والخبء والخبع ونظائر ذلك كثيرة حتى انهم قلبوها متوسطة كما فى نأرض وتعرض ودام الحائط ودعمه فاما تليين الهمزة الفا فاشهر من البينة عليه وممن حرف

ايضـا لفظة متاع اهل مصر فقلبوا الميم بآء وهى لغة لبعض العرب كما فى درة الغواص فيقولون با اسمك فى ما اسمك و اعلم ان فصل المضاف عن المضاف اليه باداة اسلوب حسن يفيد التنصيص وذلك ما اذا كان المضاف منعوتا بنعت صالح لان يعود على المضاف اليه ايضـا كما فى عذاب الله العظيم بخلاف ما لو كان بينهما فاصل والارجح رجوعه الى المضاف كما فى المغنى ومن نظم المالطيين ايضا وهو معنى حسن ولكنه مكسو قبيح اللفظ والسبك

* المحبوب تا قلبي سافر * ليلى ونهارى نبكيح *
* جعلتلو بدموعى البحر * وبالتنهيدات تا قلبي الريح *

وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب

* والبحر قد خفقت عليك ضلوعه * والريح تبلع الزفير وترسل *

ومثله قول القاضى الفاضل

* كأن ضلوعى والزفير وادمعى * طلول وريح عاصف وسيول *

وقول ابراهيم بن سهل الاشبيلى

* اذا انست ركبا تكفل شوقها * بنار قراه والدموع بورده *

ومثله ما ذكره على بن ظافر فى بدائع البدائه * شراعها من فؤادى وبحرها من دموعى * و بقى هنا اصلاح فاسد اللفظ فنقول قدم شرح تا انها تكون بين المضاف والمضاف اليه و نبكيح الحاء مبدلة من الهاء وهى لغة للعرب ايضا فيقولون المليه والمليح والهاضوم والحاضوم والمده والمدح وتاه وتاح وشقه النخل وشقحها وقوله البحر محركة جار على القياس من ان الاسم الثلاثى الذى اوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو شعر وشعر ونهر ونهر قال الامام الخفاجى فى شرح درة الغواص قال ابن جنى فى المحتسب قرأ سهيل بن شعيب السهمى جهرة وزهرة فى كل موضع محركا ومذهب اصحابنا فى كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك الا على انه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر ومذهب الكوفيين انه يجوز تحريك الثانى لكونه حرفا حلقيا قياسا مطردا كالبحر والبحر قال وما ارى الحق الا معهم اه ومما انشدنيه احدهم بحضر جماعة

* بنا اشتقت نجى فوق سدتك * نجى شبيهه تا عصفور *
* نطنى المصباح بجوانحى * فطيك بوسه ونرجع نور *

فقلت له لو قلت نأخذ بوسه لكان اولى لان من ياخذ هنا خير ممن يعطى فلم يفهم واستعادنيهـا فاعدتها عليه فلم يفطن لهـا لا هو ولا هم ايضا لان المعـاريض والمطارحات عندهم فى كساد عظيم والمراد بالسدة عند المالطيين نفس الفراش وهو فى اللغة باب الدار وعندى ان قدماء المالطيين كانوا هجعـا يرقدون على الابواب فسموا كل مرقد سـدة كما انهم سموا كـل مكنسة مسلحة وهى فى الاصل آلة للسلخ وهكذا كانوا يستعملونهـا ثم اطلقوهـا على كل ما ينظف به المكان ولهذا نظائر كثيرة الا ان اهل طرابلس الغرب يستعملون السدة ايضا بمعنى الفراش وقد ذكـرت يوما لاحد من يتوسم فيه الادب من اهل مالطة سعة العربية فى البديع وخصوصـا التورية فقـال وكذا هى المالطية وذكر هذه الجملة وهى عندك تينا تا اللحم فقـال تينا هنا يحتمل ان تكون مضـارعا من تينه يريد من آتيته او اعطيته وتا اللحم يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اى عنده وعندك هنا اغراء وعلى المعنى الثانى يحتمل ان تكون لفظة تينـا مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اى تينة لحم والمعنى عندك تينة لحم كناية عن الاست واغراؤهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على الافعـال خاصة ومن سخف تورياتهم ايضـا قولهم علاه من غير ماء يوهمون به غلاء السعر ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية وحقهـا ندية ولكنهـا افصح من قول اهل مصر والشـام ناطية وقابلة اى داية وخطر ومخاطرة اى رهان وغرفة اى علية وقولهم فى الدعاء عمروا وثمروا وبدا لى اى عن لى وتطـاول ويشرف وصديد وبطحاء وتجالدوا وهو افصح من تعـاركوا وزفن اى رقص وبوقال وهى افصح من قول اهل الشـام شربة او نعارة وعيـارى اى لا يقنع بالحق ويشرق بالماء ويستقصى وفرصـاد للتوت وسفود واهل الشـام يقولون سيخ وشيش وقد ورد فى كلام النـابغة الذبيانى بقوله سفود شرب نسوه عند مفتـاد وتقرز اى تباعد من الادناس وعسلوج للقضيب وجلوز وهو البندق الذى يؤكل ولكن هذه الالفاظ كلها مستعملة فى الغرب وبهذا يترجح عندى ان اصل المالطيين من المغاربة ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيـانا نحو يحسبك ويبدلك وقولهم وعدة وزنة وهما اسمـان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سـلم فاؤهما كما قال الحماسى

واذا

* واذا اتى من وجهة بطريفة * لم اطلع مما ورآء خبآئه *

قال الشارح ومن روى من وجهه فعناه من سفره الذى توجه اليه و يروى لم اطلع ماذا ورآء خبائه ومعنى البيت لم اعرض نفسي عليه متعرفا ما جاء به من سفره ليشركني فى طرفه ويجعلني اسوة نفسه • ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب وامرأة من الحمير يعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف لهما فيضطرون الى هـذا التعبير القبيح ويقولون عمل اللحية اى حلق وجهه وكذلك اذا حلق شعر عانته ايضا ويقول احدهم للآخر عند الابانة والافصاح بن نكلمك بالمالطي فكأنه يقول ان هـذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل للشك فيـه ويكثرون من جملة قال لى يكررونها فى اثنآء الكلام مرارا واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثر فيقولون ما ريتوش قط قط قط قط وما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز اى بس وخاده اى اخذه كله كله كله كله وما يسوى شى شى شى شى شى ونحو ذلك ومن اوزان كلامهم فاعلة للمصدر فيقولون عملته بالواقفة او بالقاعدة قال شارح الشافية اعلم ان مجئ المصدر على وزن فاعلة اقل من مجيئه على وزن مفعول كالعافيـة نحو عافاه الله عافية والعاقبـة نحو عقب فلان مكان ابيه عاقبة وكالباقية كقوله تعالى فهل ترى لهم من باقية اى بقآء وكالكاذبة كقوله تعالى ليس لوقعتها كاذبة اى كذب اهـ واهل الشام يقولون يطلع بالطالع وينزل بالنازل ومن ذلك وزن فعل بالضم نحو سـدد وصرر وهو نادر والاسمآء الثلاثة التى اوائلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو عمر وشغل وهو ايضـا جار على القياس وكذلك التى اوائلها كسرة يتبعونها كسرة اخرى نحو عجل ورجل ومن قبيح عادتهم فى الكلام هم وسـائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشـاة فيقولون مثلا انى احبك ما دمت انت حيا وهذا الحريقتلك وهذا النبات يقطع لك مصارنك اى مصارينك وهذا التراب يعميك و اذا مت جآء الطبيب وشرح جسمك عضوا عضوا او يقول لك العائذ لا تله عن دائك فانه قتال وغير ذلك مما يقتضى فيه الاطلاق ألا ترى ما قاله سيد الفصحآء والبلغآء حبك الشئ يعمى ويصم ولم يقل يعميك ويصمك وان يكن المعنى عليه • فاما امالة صوتهم عند الكلام وهى التى تسميها الافرنج امفازس فغريبة على من لم يتعود سماعها فان لهم مدا فى

الصوت وخفضا غير مألوف لاهل العربية حتى ان الانكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الامالة فى لغة انفسهم انعدآء من المالطيين وقد يعد هذا النوع عند الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذى يجريه المالطيون فانهم فيه مشطون وهو يكاد ان يكون فى العربية مفقود الاسم والمسمى او لعله هو اللهجة وقد لاحظت فى اثناء قراءة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلون فكأن هذا المد ضرب منه • ومما يضحك ايضا ان للمالطيين لازمة فى الكلام يكررونها وهى سميتش محرفة عن سمعت فعلا ماضيا والشين لازمة عندهم بعد الاستفهام كما هى بعد النفى ولما كان الانكليز يسمعونها منهم مرارا جعلوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء وعلى الولدان الذين يخدمون على الطعام ثم ان بقاء اللغة العربية فى جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الاجيال ألا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون اهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف وهؤلاء الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما تهيأ لهم ان يعمموها عند المالطيين نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فان محاوراتهم بين اهليهم انما هى بالمالطية لا غير وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل كالتكحل و يقال ان الذى تحصل عند اهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة مع ان الذى جمع ذلك جرى على طريقة الافرنج من انهم يقيدون فى كتب اللغة جميع الالفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والآلة والاسم المنسوب ونحو ذلك والا لكان هذا القدر باعتبار انه مواد كافيا فى المحاورات للافصاح عما فى الخاطر فاما فى الكتب فلا ولا احسب الكلام المستعمل الآن فى بر مصر والشام يزيد على هذا القدر غير

* ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل *
* مصر كما ان هؤلاء احسن منهم *
* نسق عبارة والله اعلم *

* تم الجزء الاول المسمى بالواسطة الى معرفة احوال مالطة *

* ويتلوه الجزء الثانى المسمى بكشف المخبا عن تمدن اوربا *

الجزء

الجزء الثاني

﴿ المسمى بكشف المخبا عن تمدن اوربا ﴾

اقول بعد الحمد لله انه فى الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثانى يوم من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة الى انكلترة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضى

* وتلفتت عينى فمذ خفيت * عنا الطلول تلفت القلب *

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفى نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا فى مرسى مسينه وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولى لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة فلذلك لم نقم بها الا بعض دقائق * ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسپانيا وكان يقال لهم سيكانى ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطاليا فى سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون وفى سنة ٨٣١ للميلاد فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة فى بالرمو ولبثوا فيها مائتى سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر الرومانى وفى تاريخ الرومانيين لغيبون انها فتحت فى زمن المأمون فى سنة ٨٢٣ وزعم بعض المؤخرين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية وفى نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولى وهى مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهى والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة * وفيها عدة كنائس حسنة واحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو * ولولا ان مملكة نابولى عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها واعتدال هوائها * ثم سافرنا منها فى ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكيه فى صباح الثلاثا فاقمنا فيها ساعات وليس فيها شئ يقر العين * ثم سافرنا منها يوم الثلاثا وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليفورنو فى صباح الاربعاء * وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولى لكنها من داخل اكبر وطرقها اوسع وبناؤها من الاجر

المحكم وديارها شاهقة الا انها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس وكذا هى مدينة ناپولى ومرسى ليفورنو حسن وفيها ملهى وعدة اعلام ومدراس لليهود يقال انه اعظم مدراس لهم فى اوربا ومكتبة موقوفة وهى ذات اشغال وتجارة واهلها نحو ٧٦٫٠٠٠ وفى القرن الثالث عشر لم تكن الا قرية حقيرة • ثم سافرنا منها الى جينوى فبلغناها فجر الخميس وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جدا • وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة وهى فى نجوة من الارض متفاوضة الوضع وطرقها اضيق من طرق ليفورنو ولهذا كانت عواجلها اقل من تلك الا ان الشمس لا تستحكم فى مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة فكأنها مبنية من اصلها لحجب الشمس • وفيها حوانيت بهجة ولاسيما حوانيت الصاغة ولها قنطرة قديمة شاهقة جدا اذا نظرت منها الى الحضيض هالك ارتفاعها • وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة فى غيضة انيقة وهى فى الحقيقة نزهة للناظرين وما اشبهها الا بدمشق وليس على من يدخلها ان يدفع شيئا كان تأسيسها فى سنة ٧٠٧ قبل الميلاد وكانت فى زمن دولة الرومانيين حافلة غناء وفى القرن الحادى عشر امتدت تجارتها بحرا وبرا وفى مدة الحرب الصليبية وذلك نحو سنة ١٠٦٥ صارت مضاهئة لفينيسيه فى الغنى والثروة حيث كانت موردا للعساكر التى كان يراد تجريدها الى البلاد المشرقية ثم وقع فيها من الفتن والتحزب ما اضعف دولتها فدخلت فى حماية دولة فرنسا ثم فى عهدة شارلكان (اى كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنسيس وصارت تتحزب مع اسبانيا عليهم وفى سنة ١٧٩٦ استولى عليها الفرنسيس ايضا وفى سنة ١٨٠٠ حاصرهم فيها الانكليز والروس وعساكر اوستريا حصارا شديدا فاضطروا الى تسليمها ثم رجعت الى عهدة فرنسا وفى سنة المهادنة وهى سنة ١٨١٤ سلمت للملك سردينية • ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة واهذه المدينة مرسى عظيم يسع الفا ومائتى سفينة ولا يزال مشحونا بالبواخر ولكثرة ورود المراكب اليها قطعوا خليجا من البحر ووصلوه به وفيها عدة مكاتب وملهى يعد من احسن ملاهى اوربا وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح اعنى البورس وفى ضواحيها

ضواحيها اكثر من خمسة آلاف دار ولها تجارة واسعة مع المشرق وافريقية واميريكا وانكلترة والبحر الاسود كان تأسيسها فى سنة ٥٩٩ قبل الميلاد وكانت فى الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا الى فتح فرنسا وفى هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل وامامها مصاطب يقعد عليها الناس وان لم يشتروا شيئا منها واهل المدينة يصرفون فيها اكثر اوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلا خاصا وفى بعضها ترى قيانا حسانا يغنين وهن كاشفات الصدور وعند ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يدعون الغادى والرائح وهى وسخة الحارات والاطراف لكنها بهية الحوانيت والديار مبلطة الطرق وليس فى ديارها مراحيض وانما يجمعون اقذارهم فى وعاء الى ان يأتى رجل معه عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه فى البرميل وما يجمعه فيه فانه يبيعه لتدميل الارض ولا اعرف مدينة اخرى بهذه الصفة ومنهم من يقذف بالاقذار امام البيوت ليلا فلهذا يشم الماشى فى اكثر طرقها رائحة كريهة وماؤها فى بعض الديار اجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا اليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستين ميلا فاحوج ذلك الى ان ينقبوا له بعض الجبال ثم بنوا عليه جسرا عظيما يشتمل على ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض وفى كل صف خمسون قنطرة وارتفاع اعلاها من الحضيض نحو مائة وعشر اذرع وعرض الماء الجارى فيه تسع اذرع ونصف فى علو مثلها وجميع احجار هذا الجسر ضخمة جزيلة وبعد اجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبقول وصارت بساتينها فى غاية الريع والنضارة وفى هذه المدينة عدة عرصات محفوفة بالشجر يمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية وفى احد هذه المماشى حوانيت تفتح خمسة عشر يوما فى السنة تجمع اليها جميع التحف والطرائف واكثر الباعة فيها بنات حسان فاذا مررت بحانوت حرت بين ان تنظر الى البائعة او الى البياعة وفيها يوجد ايضا محال للعب والغناء واللهو ومشاهدة غرائب الاشياء مصورة على خارج المحل دليلا على وجود اعيانها فى داخله وقد اخبرنى من يوثق به انه شاهد فيها امرأة ورجلا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا تبصر الحاضرين ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتما ونحوه ويجعله فى

كفه مطبقة عليه ثم يسأل المرأة عما بيده فتجيبه ولا تخطئ وانه اخذ مرة درهما قيمته عشرون فرنكا وسألها فقالت فى يدك درهم قيمته عشرون فرنكا فقال ويحك ليس فى هذه البلاد درهم على هذا الضرب فقالت بلى ولكنه من ضرب الصين وكان كذلك وسألها مرة اخرى عن درهم فرنساوى فاجابته بانه يساوى كذا وقد ضرب فى عام كذا فلما سمعت ذلك اعظمته لما انه كان اول مرة طرق سمعى ثم لما شاهدته عدة مرار برأى العين فى باريس ولندرة سقط اعتباره من بالى اذ تحققت ان مع السؤال الذى يلقيه الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع ذلك الشئ المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه الا هو وعلى كل حال ففى التلقين والتلقن حذق ودربة • وفى الجملة فان مرسيلية انما يستحسنها من قدم اليها من البلاد المشرقية لا من باريس ولندرة • ثم سافرنا من هذه المدينة فى الساعة الرابعة يوم الاحد فى سكة الحديد فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا فلم يكن منظر ابهج منه واظن ان بلاد فرنسا اكثر بلاد الدنيا غياضا وحدائق وكثيرا ما كنا نسير فى حافلة المجد نحو ساعة ونصف بين الاجم والسبب فى تكثيرها احتياجهم الى الوقود بخلاف بلاد الانكليز فان اكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر وفى فرنسا الجنوبية تنبت جميع الاشجار المعروفة عندنا وذلك كالتين والبرقان والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم فى بلاد الانكليز غير ان كروم العنب عندهم لا تبلغ فى النمو والكبر كروم الشام وفى مسافة الطريق دخل الرتل فى قبوة مظلمة منقورة فى الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان امرا عظيما لمن لم ير مثله من قبل ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو اربع ساعات لم يغب فيها عن ابصارنا ذلك المنظر الانيق وهذه المدينة وسخة الطرق والازقة غير انها حسنة الموقع وحوانيتها واسعة عظيمة وفيها معامل لثياب الحرير والقماش وحريرها مشهور فاما الشريط ونحوه فانه يصنع فى صنت اتيان ولها مماش حسنة وملهى عظيم ومكاتب عديدة ومدرسة ملوكية ومحكمة جليلة هى من فاخر البناء ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات وعدد اهلها نحو ٣٣٠٫٠٠٠ وفيها يجتاز نهران احدهما يقال له رون والثانى صون تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة وتمر على جملة مدن من بلاد فرنسا ثم يلتقيان ويصيران نهرا واحدا

ممتدا

ممتدا الى بحر مرسلية ولا تكاد تمضى سنة من دون ان تزخر شواطئه على الارضين وقد طغى فى هذه السنة حتى كانت الناس تسير فى شوارع المدينة فى قوارب فهدم كثيرا من البيوت والجسور واهلك كثيرا من الماشية والناس واتلف الغلال فيما جاوره فانتحى سائر سكان فرنسا الى امدادهم واغاثتهم واقتدى بهم الانكليز ايضا وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء • ثم سافرنا منها فى الساعة الرابعة من يوم الثلاثا فى حافلة المجد المعروف بالدليجانس فبلغنا برجا فى الساعة السادسة من اليوم الثانى ومنها سافرنا فى سكة الحديد الى باريس فوصلنا اليها فى الساعة الرابعة من صباح الخميس وسياتى وصف هذه المدينة بعد فراغى من وصف انكلترة ان شاء الله وانما اقول هنا انا لما وصلنا اليها كانت السياسة جهورية اذ كانوا قد خلعوا الملك لوى فيليب عن الملك ففر بنفسه واهله الى بلاد الانكليز ملجأ الفارين ومأمن القارين ومعما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء فلم يكد الانسان يميز المفجوع من اهلها من المغبوط فان منتزهاتها بقيت غاصة بالناس ثم بعد ان لبثنا يومين فى باريس سافرنا فى سكة الحديد الى كالى او كاس وذلك فى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاربعاء الواقع فى السابع والعشرين من ايلول فبلغناها بعد الساعة السابعة مساء وكالى هذه احدى فرض فرنسا المقابلة لانكلترة وهى دون بولون وكانت سابقا تحت استيلاء الانكليز ايام حروبهم مع الفرنسيس وبقيت فى ايديهم مائتين وثلاث عشرة سنة ثم استرجعها الفرنسيس فى عصر الملكة مارى سنة ١٥٥٨ فلما بلغها الخبر اظهرت من الحزن الشديد ما قيل انه كان سبب موتها وقالت اموت وفى قلبى اسم كالى مكتوبا فكانت كالى عندها اخت حتى عند الفراء وبقيت نورماندى وانجو ومين وطورين وبواتو وبريتانى وغيرها بيد الانكليز نحو سنة ٢٩٢ واوفق لنا ان وجدنا باخرة معدة للسفر الى لندرة فركبنا فيها وسارت ماخرة بنا واول ما دخلت فى نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحابا وكان يوما ماطرا مظلما يقضى بالاسف على شمس مالطة وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه الشمس نحو خمس ساعات الى لندرة والسفر فيه بهيج من جهة ان السفينة تسير فيه سيرا خفيفا لا اضطراب فيه وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر وله عند الانكليز شان عظيم • ويحكى عن الملك جامس الاول الذى الحق حكومة

مملكة سكوتلاند بانكلترة انه لما نقم على اهل لندرة اشياء انكرها اراد ان ينتقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد ويقال له بلغتهم مير اذا كان لا بد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك وهو كلام بليغ يشير الى ان اهل المدينة ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر لانه من اعظم الاسباب الميسرة للتجارة ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة * والماكول والمشروب فى هذه السفن التى تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا واكثرها للانكليز غاليان جدا فان قنينة الشراب فى تلك الفرض تساوى فرنكا وفى السفن ستة فرنكات وقس على ذلك ثم لما بلغنا لندرة اخذت اثقالنا الى الكمرك وفتشت فلم يجدوا فيها ما يوجب الاداء الا انا ادينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين ثم تبوأنا محلا فى احدى الديار و بعد ان استرحنا سافرنا منها فى سكة الحديد الى بلدة وير بقصد المسير منها الى القرية التى يسكن فيها الدكطور لى الذى اعتمدته الجمعية لان يكون معارضا ترجمتى بالاصل الذى اترجم منه وكان للمذكور شهرة عظيمة عند الانكليز فى معرفة اللغات الشرقية وكان فى مبدأ امره نجارا لكنه اكب على العلم وقد فات الثلاثين سنة فحصل معلومات غير يسيرة غير انه لم يتمكن من اللغات التى حاولها وسياتى ذكره بعد هذا وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبا على اثقالنا فلما بلغ الرتل اليها وضعوها فى الموقف ونحن لم نشعر بذلك و بقينا سائرين فيها حتى اذا وقف الرتل مرة ثانية سألنا عنها فاخبرنا بانا تجاوزناها بنحو ثلاثة اميال فرجعنا اليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة فسرت فى طلب شئ للاكل فلم اجد فيها مطعما فقلت لاحد الوقوف الا نجد طعاما هنا قال هلم معى فاخذنى الى الجزار وذلك لان مرادف لفظة الطعام عندهم يستعمل غالبا فى اللحم قلت انى اريد شيئا آكله فدلنى على حانوت بقربه فتوجهت فلم اجد الا الخبز قلت ما الخبز وحده اريد فدلنى على دكان آخر فذهبت فوجدت به الفطير فقط فعدت خائبا ولقيت بعض الشرطة فقلت له ألا تهدينى الى محل للاكل فدلنى على موضع زعم انه شهير يقصده جميع المسافرين فتوجهت فوجدت صاحبته امرأة ضخمة فظة تحاول اظهار السيادة و الامارة فى وجه قاصديها فسألتها هل عندك ما يؤكل قالت ما عندى سوى البيض فتبلغنا بما عندها ورجعنا الى الموقف حتى جاء الرتل الذى يسير الى رويستان وهى قرية جامعة وقد ذكرت هذه الحادثة

هنا

هنا دليلا على ما يرى من الفرق بين بلاد الانكليز وفرنسا فان القرى الحافلة في هذه ولاسيما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الانسان من المأكول والمشروب وحين كنا نسافر فيها و تقف حافلة المجد كنا نرى النساء يتسابقن الينا حاملات لاطباق الفاكهة الطيبة و يعرضنها على السفر وكنا نجد ايضا في المطاعم كل ما تشتهيه الانفس ثم سرنا الى روبستان ومنها الى قرية بارلى وهي على بعد ثلاثة اميال منها فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلا فتوجهت الى دار الدكطور لي فوجدته مستعدا لتلقي الاحلام السعيدة فقال لي قد كتبت الى الجمعية تخبرني بقدومك فينبغي ان تذهب الليلة لتبيت في خان القرية فبتنا فيها وفي الغد كتب الى الجمعية يخبرهم بانه اكرم مثواي وعني بانزالي منزلا مريحا فشكروه على عنايته وكانت مدة سفري من مالطة الى هذا المنفى ثمانية وعشرين يوما

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شيء من احوالي ينبغي هنا ان اقدم كلاما في احوال انكلترة على وجه الاختصار فان تفصيل ذلك مرجعه الى كتب التاريخ والجغرافية فاقول ان الرومانيين كانوا يسمونها بريتانيا وفي اللاتيني المتعارف تسمى انكليا وفي لغة اهلها انكلاند ومعنى لاند ارض وحين يذكرون بريتانيا فانما يعنون بذلك انكلترة ووالس وارلند وهي منقسمة الى اثنين وخمسين كونيا اي ولاية منها اثنتا عشرة ولاية هي الاصول واشهر مدنها دوفر ونرويش وهل ونيوكاستل وليفربول وبرستول وفلموث وبليموث وبورتسموث واكسفورد وبرمنهام ومنشستر وشفيلد ونوتنهام وكمبريج ويورك وباث وشلتنهام * وهي كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس وحيواناتها ضليعة حسنة الصورة وبها مراع واسعة ومروج نضيرة وفيها نحو خمسين نهرا تصلح للسفر اشهرها التامس وجبالها قليلة لا يبلغ اعلاها اكثر من مائة ذراع وطول الجزيرة كلها لا يزيد على ثمانمائة ميل وعرضها في بعض الجهات ثلاثمائة وفي بعضها اقل * وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته وقد غزوها مرتين وذلك في سنة ٢٦ و٥٥ للميلاد وكان عدد اهلها حينئذ نحو مليون وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم ١٧٫٤٥٣٫٣٦٢ وعن غيبون ان الرومانيين كانوا يحسبون بريتانيا

مغاصاً للؤلؤ وهو الذى دعاهم الى فتحها و بعد حرب اربعين سنة استولوا على اقصى اطراف الجزيرة • وعدد من ولد فيها وفى والس فى سنة ١٨٥٤ بلغ ٦٣٤ر٥٠٦ انفس وعدد من مات ٢٣٩ر٢٣٨ وفيها ١١ر٠٧٧ ابرشية • ويقال انها كانت فى الزمن القديم متصلة بارض فرنسا • ونقلت من جرنال التيمس انه يوجد فى انكلترة وارلاند اربعة وخمسون قاضيا فى المحاكم العليا تبلغ وظيفتهم ٢٤١ر٨٠٤ ليرة وثلاثمائة وخمسة وتسعون قاضيا فى المحاكم الادنى تبلغ وظيفتهم ٢٩٢ر٦٦٣ ليرة فتكون جملة القضاة ٤٤٩ وجملة وظائفهم ٥٣٤ر٤٤٧ ليرة قال ولكبير القضاة عشرة الاف ليرة فى كل سنة ولقاضى محكمة الاستدعاء ستة آلاف • ويوجد فى بريتانيا ١٨ر٥٨٦ من القسيسين المنتمين الى الكنيسة المتاصلة و ٥٨ر٥٢١ من قسيسى الكنيسة المتفرعة وسيأتى بيان الفرق بينهما و ١ر٠٩٣ من قسيسى الكنيسة البابوية و١ر٤٧٧ من طلبة علم اللاهوت والمدرسين فيه فتكون الجملة ٣٠ر٦٤٧ وعدد فقهاء الشرع ١٨ر٤٢٢ ما عدا ١٦ر٧٦٣ ما بين وكيل دعوى وكاتب صكوك ونحو ذلك وعدد الاطباء ١٨ر٧٢٨ ما عدا التلامذة الذين دخلوا فى سلك المتطببين و ١٥ر١٦٣ ما بين جراح ودوائى ويضاف اليهم اكثر من الف ومائة من معالجى الاسنان و ٤٣٠ صانعا لآلات الجراحة فاصحاب هذه الحرف الثلاث اعنى القسيسية والفقهية والطبية ومن يتعلق بهم وينضم اليهم يبلغون ١١٠ر٧٣٠ وعدد المؤلفين واهل الادب ٢ر٨٦٦ منهم اربعمائة وستة وثلاثون مؤلفا يكتبون لنا شرى الكتب و ١ر٣٠٢ ما بين كاتب وناشر • وعدد اهل الصنائع الظريفة ٨ر٦٠٠ من جملتهم الرسامون وعدد المدرسين فى العلوم اربعمائة وستة وستون وعدد المهندسين ٣ر٠٠٩ وجملة المشتغلين بالتعليم والتخريج ١٠٦ر٣٤٤ منهم ٣٤ر٣٧٨ رجالا و٧١ر٩٦٦ نساء وفى عداد الاول ٢٣ر٤٨٨ يعلمون فى المكاتب و ٤ر٣٧١ يعلمون مطلق التعليم و ٣ر١٤٩ يعلمون الموسيقى و ١ر٥٣٠ يعلمون اللغات و ٥٥٤ يعلمون الهندسة وفى القسم الثانى اعنى النساء ٤١ر٨٨٨ يعلمن فى المكاتب و ٥ر٢٥٩ يعلمن مطلقا و ٢ر٦٠٦ يعلمن الموسيقى ويوجد اكثر من الفين من اللاعبين واللاعبات فى الملاهى فمن الرجال ١ر٣٩٨ ومن النساء ٩٤٣ ومن اهل الموسيقى الرجال ٣ر٦٦٨ ومن النساء ٤٣٢ وعدد الذين هم فى

الخدمة

الخدمة المدنية ١٩١ر٧١ من سن عشرين سنة فصاعدا منهم ٦٩٨ر٣٧ فى خدمة الادارة المدنية و٧٨٥ر٢٩ فى خدمة دواوين الميرى و ٧٦٨ر٣ فى خدمة دولة الهند ومقامهم فى بريتانيا • ثم انى اخذت فى ان اذهب الى الدكطر لى فى كل يوم لاترجم التوراة ثم اعود الى منزلى ملازما له فلم تمض علىّ ايام حتى عيل صبرى لان هذه القرية التى قدر الله ان اسعد الناس بترجمتى فيها كانت من انحس قرى الانكليز على ان جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سيأتى • ولم يكن فيها للاكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبطاطس والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب وذلك يغنى عن ذكر ما هو معدوم فيها على ان هذه اللوازم انما كانت نفاية ما يوجد فى المدن ومن عادة الانكليز ان يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والاثاث فيذهب اليها الفلاحون مرة فى الاسبوع ويشترون ما يلزمهم وقد يمر على البيوت ليلا رجل ينفخ فى البوق تنبيها على ذهابه الى تلك البليدة فمن شآء ان يشترى شيئا كلفه به وجزاه على ذلك وقد يمر ايضا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاى والسكر او يكون معهم راموز هذه الاشياء ليبعثوا منها للمشترى من حوانيتهم وبمثل هذه الاسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الانسان ما لا بد له لقوام عيشه • اما محار البحر والسرطان والانكليس وهذا الذى يسمونه البسترا وهو اطيب ما يؤكل عندهم وهو فى شكل البرغوث واكبر من السرطان فلا وجود لها البتة واما السمك فلا يرد منه الا مرة فى كل ثلاثة اشهر على ان جميع اصناف سمكهم مسيخة الا صنفا منها يقال له سمن وهو طيب لكن لا بالنسبة الى سمك بلادنا وقد يضعونه فى الثلج ليلا ويعرضونه للبيع نهارا فربما كان عمر السمكة بعد صيدها اطول منه قبله ولكن ريبب الثلج هذا لا وجود له الا فى المدن ومن قدم الى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والاشغال الجمة والغنى والثروة حكم على جميع الانكليز بانهم اغنياء سعدآء ولكن هيهات فان اهل القرى هنا كاهل القرى فى الشام بل هم اشد قشفا وكثيرا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع فى بلاد اخرى • فمن ذلك حكاية عن حائك شكا حاله إلى احدى النسآء المخدومات فقال يا سيدتى انى حائك وان لى امرأة وثلاثة أولاد بقوا من

عشرة فجعت بهم ودخلي من كدى الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الاسبوع ولكن على ان اعطى منها شلينا واحدا لاجل النول واربعة في الشمع الذي اسهر عليه فقالت له وكيف تعيش على هذا الدخل القليل قال على قدر الامكان ألا وقد مضى علينا ستة اشهر لم نشتر فيها رطلا واحدا من اللحم بل لا نقدر على مشترى الحليب الا بالجهد فجل طعامنا انما هو الشعير وحساء الماء وقد يكون لنا في بعض ايام الآحاد ادام من البطاطس اما انا فلا ابالي فاني قد الفت البؤس والضنك ومذ سنين عديدة لم اعرف شيئا من الدنيا سوى الكد والكدح المبرح على قلة الاجرة ولكن همي بالاولاد وبامهم النحيفة اه فقوله انه لم نقدر على شرآء الحليب مع كونه في الريف ارخص الاشيآء بالنسبة الى غيره يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس وكثيرا ما تقرأ ايضا في صحف الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق او ماتوا من الجوع والبرد او النوم على الاماكن الندية القذرة او اعتفدوا فماتوا جوعا نعم انه يوجد مستنفيات وملاجئ يقوم بها الاهلون امدادا للفقرآء والعاجزين ونحوهم الا انها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة او كان اللبث فيها ضنكا او الدخول اليها صعبا ونحو ذلك • وقد يبلغ من فقرهم انهم يتركون اطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها • واعرف في القرية المذكورة اولادا كثيرين لم يتعمدوا مع انهم من اتباع الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية ولا تأذن لمن مات غير معمد ان يدفن في مدافنها فتنزله منزلة المنتحر • وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لان تكون ملك الامرآء والاشراف فقط فيستأجرها منهم اناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها فلهذا لن تجد في القرية احدا ذا روآء ورياش الا مستأجر الارض وقسيس القرية على انه لا يلي شيئا من امور اولاده الروحيين سوى الخطبة فيهم يوم الاحد لانه يستخدم تحت يده قسيسا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ويلقي عليه احمال الكنيسة وهذا المبلغ هو دون وظيفة طباخ الاسقف في بلاد الانكليز فعلى هذا القسيس ان يعمد اولاد الرعية وان يدفن الموتى منهم ويزوج احداثهم ويعود مرضاهم وغير ذلك • وعدد ملاك الارض في انكلترة نحو ستين الف عيلة لا غير وقلما يذوق هؤلاء

المساكين

المساكين اللحم فجل اكلهم الخبز والجبن فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعه واذا ذبح شاة فلا يسلخها ويجزر لحمها الا بعد يوم والبقرة بعد يومين او ثلاثة نعم انه قد يربي احدهم خنزيرا في دويرته ويذبحه و يتخذ لحمه كالقورمة التي تتخذ في بر الشام و يطعم منه في ايام الاحاد ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الاسبوع باردة اذ ليس تسخين الطعام مألوفا عندهم فهم احرى ان ياكلوه بائتا مذ ايام من ان يسخنوه ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلا عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم تكد تفهم مني الا بعد شرح وتفسير وراح كل منا يتعجب من صاحبه • وليس في القرى مواضع للهو والحظ و اذا ارادوا اللهو عمدوا الى اجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب ومن الحظ عندهم ان يجلس الرجل مع امرأته ينظران الى الخنانيص التي يربيانها او الى ما يزرعانه من خسيس البقول في عرصته فان لكل منهم في الغالب بضع اذرع من الارض امام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما اشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرا من عيشة البهائم وقد ترى في القرية دكانا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي وبيتا حقيرا يباع فيه شئ من البصل والبطاطس والحلاويات الرديئة والتفاح المسيخ تنظرها من طاقة البيت ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشا وفي اوان الشتاء لا يمكن للانسان ان يخرج من منزله لاستنشاق الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدة ايام رهين بيته وليس في القرى خيل او حمير او بغال او عواجل تكرى فليس الا ركوب النعل وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بارجلهم اذا ارادوا ان يذهبوا من قرية الى اخرى فتجري بهم من دون حصان ولا حمار وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فمثل ذلك لا يدفع عليه شئ للميري. فاما العواجل المعتادة والخيل فلا بد من الاداء عليها كما سيأتي بيانه في محله وكنت كلما اضطررت الى المؤنة ذهبت الى البليدة ماشيا ومرة اضطررت الى ان اذهب في التابوت الذي ينقل فيه الدمان لكنه كان فارغا وعلى فرض ان يسكن غني احدى هذه القرى فلا يمكنه ان يتنعم بغناه اذ لا يجد فيها الا ما يجده الفقير الا ان يجلب مؤنته من

لندرة وغيرهـا و يعلم الله انى مدة اقامتى فى تلك القرية المشئومة لم يكن لى هم الا بتحصيل لوازم المعيشـة فكنت اجلب بعض القطـانى من كمبريج و بعض النقل من رويستان والمزر من لندرة فى سكة الحديد ولكن لمـا وجدته غاليـا اقتصرت عن جلبه فاستولى عـلىّ ضعف المعدة ووهن فى ركبي لم احس به فى عمري قط فان مزر القرى ردئ اذ ليس منه الا ما يذبط بالسبطة دون المرعى فى زجاج وهو كالدواء سواء الا انه غير نافع وقد غشى علىّ مرة فى دار الدكطور لى وانا اترجم فامر خادمته بان تتداركنى بكسرة خبز مشوية • اما الصيف فانه وان يكن غير مزهق الا انه منغص لعدم وجود البقول المرطبة فيه ولعوز الفاكهة كما ستعلم ولاسيما ان اكثر شرب اهل الريف انما هو من مناقع من ماء المطر واكثرها يعلوه الطحلب فاذا نشفت عمدوا الى الآبار وهي قليلة يدخرونها الى الحاجة وهى ايضا من المطر الا ان الانكليز قلما يشربون الماء فانهم يستغنون عنه بالجعة وقد مضى علينا فى الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئا من الفاكهة والخضرة الا ما ندر وفى شهر نيسان انقطع عنـا المذيق الذى كنا نشتريه لاجل القهوة لانهم كانوا يسقونه الخنازير ولا يبيعونه فاضطررنا الى ان نتوسل باحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة فى امدادنا كل يوم بما يكفى للقهوة فقط ففعلت ثم جاءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها فى المذيق وان صـاحبة البقرة رضيت بان تبيعنا كل يوم بنصف بنى تفضلا وتكرما فاوسعناهـا شكرا وثناء ومطأطأة رأس وانحناء وفى هذا الشهر المبـارك لم يكن يوجد شئ من الفـاكهة ولا من البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع ببنى مع ان الحقول كلها كانت ناضرة زاهية فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامئ واكثر ما يزرع الانكليز فى حقولهم انما هو القمح والشعير واللفت والبطاطس واصل جلب هذه اليهم من اميريكا فى سنة ١٥٨٦ فاما البقول فيزرعونها فى عرصـات الديار لمؤنتهم فقط وهى قليلة جدا ولما كان جل علف البقر من اللفت كان لحمها ولبنهـا لا يخلوان من طعمه واذا زرعوا البقول فلا بد وان يضعوا معها شيئا من الملح والجير و يكثرون من تدميلها فلهذا لا تكون زكـية الا انها تنمو نموا فاحشـا فان الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة وكـذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ اطول من ذراع ونحو ذلك الخس والنعنـاع والكرفس وقد تبلغ الكـرنبة قدر الجرة الكبيرة

الكبيرة وتكون التفاحة او الاجاصة نحو البطيخة الصغيرة وقس على ذلك البصل والكراث حتى ان الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر فان السرطان يكون في قدر رأس الآدمي وقد وزن مرة ديك حبشي فبلغ اربعين رطلا ورطل الانكليز نحو ١٥٠ درهما وكان ارتفاعه ثلاثة اقدام واصل جلب الجزر الى هذه البلاد كان من هولاند ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠ ولكنه لم يكن اولا في هذا الكبر واصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس وكان منذ ستين سنة يرسل منه من هنا الى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة ويحرثون على الخيل والبقر جميعا وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطا من اول الحقل الى آخره حتى تأتي الاتلام مستقيمة وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه حشيشا سميا ليقتل الدود فاذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش ايضا وباعوه على حدته وربما اغفل فبقي مختلطا بالقمح وطحن معه فقد قرأت في كثير من صحف الاخبار ان كثيرا ماتوا من الخبز وهذا هو ايضا سبب وضعهم الملح مع البقول فاعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويملحون مزروعاتهم ويسمونها ومما لا ينبت عندهم شجر البردقان والليمون الحلو والحامض وقصب السكر والموز واللوز والفستق والتين والمشمش والخوخ والدراق والصنوبر والتمر والرمان وهذا الاخير لا يعرفون ماهيته والصبار والآس والزيتون والبطيخ والقثاء والباذنجان والباميا والملوخية والحمص والعدس والماش وقل وجود الخرشف والخيار والسفرجل وشجر التوت لا يرى الا للفرجة والطيب من فاكهتهم انما هو الاجاص والتفاح وقد يكبران حتى تملأ الواحدة منهما الكف وهذا الاخير يدوم الشتاء كله في المطاعم ولكن يباع في القرى على قلة واصل جلبه اليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢ فاما البردقان فيرد الى المدن الكبيرة من اسبانيا والبرتوغال وكذا العنب وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونها بالنار لان حرارة هوائهم لا تكفي لانباتهما ولكن يكون سعره اغلى من سعر المجلوب اليهم وما ينبت في غير هذه البيوت من العنب فانه يبقى حصرما وهو ما لا يونع ويبقى حامضا صلبا وعندهم ثلاثة اصناف من الثمار او اربعة كحب الآس عندنا وهي قليلة الجدوى ولا سيما كونها لا تقوى على الرياح فاقل نسمة تذهب بها وكذلك عندهم ثلاثة اصناف

او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهى ايضا تافهة • ويحق لى ان اقول بعد الاختيار والتحرى ان جميع ما ينبت فى بلاد الانكليز هو دون ما ينبت فى فرنسا فى الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت فى هذه هو دون ما ينبت فى بر الشام وما ارى العلة فى ذلك سوى كثرة السرقين فى الارض وقلة الحرارة فى السماء نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون فى كل شئ ضخم • اما انواع الرياحين والزهور والاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول المأكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له غير انى رأيت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو فى مالطة لا رائحة له اصلا وكثيرا ما يذكرها المؤلفون منهم فى كتبهم وتلهج بها النساء فى محاوراتهن حتى ان احداهن سجنت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر وفى اعياد ميلادهن يطرفن به فيغنى ذلك عن طرف القماش والجواهر فهى فى الواقع صلة الرحم وسبب الوداد واذا رقصت امرأة فى ملهى واعجبت الحاضرين نقطوها بباقة وعلى ذكر التنقيط يعجبنى قول ابن المعتز فى مليح جدّر

* يا قمرا جدّر لما استوى * فزاده حسنا فزدنا هموم *
* كأنما غنى لشمس الضحى * فنقطته طربا بالنجوم *

قلت واهل اللغة اهملوا هذا الحرف بهذا المعنى والضمير فى زاده يرجع الى التجدير المفهوم من الفعل وهو رد على الحريرى حيث منع ان يقال جدر بالتشديد لكونه ليس للتكثير • اما ارض انكلترة فكلها سهل محروث مزروع تشبه ارض البقاع فى الشام فلن ترى فيها بقعة واحدة بورا فكأنها جميعها لرجل واحد ذى عيال فى كونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة فلا ترى الا غياضا وحقولا ومزارع ومروجا وديارا والظاهر ان بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد فرنسا وكل شئ فيها من نام وحيوان تراه فى غاية الريع والنمو وكنت قبل حضورى اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هى قاع صفصف وقرأت فى بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها فى سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة وقس على ذلك سائر السنين واحسن بقعة فى الارض يغادرونها مرعى للضان ومسرحا فلهذا كان لحم الضان عندهم

فاخرا

فاخرا جدا ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من الروسية والغرب الاقصى وثمن ما يجلبونه منها يبلغ فى السنة ١٥٠٠٠٠٠ ليرة يذهب نحو نصفها فى عمل الاحذية والباقى فى غير ذلك وفى بعض الصحف ان فى كل من انكلترة وفرنسا يربى نحو خمسة وثلاثين مليونا من الغنم ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساو الا ان غنم فرنسا يحصل من لحمها اقل مما يحصل من تلك وقد يبلغ الحاصل من اقليم شستر من الجبن مبلغ وافر وما يحصل من لبن البقر فى فرنسا يبلغ مليون ليتر ثمن كل ليتر نحو عشرة صنتيم وما يحصل من لبن البقر فى انكلترة يبلغ ضعفى هذا القدر ويباع بضعفى قيمة ذلك والانكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية فى احد وثلاثين مليون جريب والفرنسيس يربون عشرة ملايين فى ثلاثة وخمسين مليون جريب • وجزاروا فرنسا يذبحون فى السنة غالبا اربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلوغرام والانكليز يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند اولئك • والحاصل فى فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ومن اللحم اربعمائة مليون ومن الحرث مائتا مليون والحاصل فى انكلترة من الحليب اربعمائة مليون فرنك ومن اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة فى انكلترة من اللبن واللحم فقط اكثر من الحاصل من البقرة فى فرنسا من اللبن واللحم والحرث معا هذا ما نقلته وفيه نظر ومع خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفا فانهم يجلبون كثيرا من المأكول والمشروب من البلاد الاجنبية فقد قرأت انه فى مدة ستة اشهر جلبوا من البقر ١٢٢٣٧ رأسا ومن الغنم ٢٩٢٦٨ ومن البيض ٥٦٤٥٤٧٤٥ بيضة وفى سنة ١٨٥٠ جلبوا من الجبن ٢٧٠٠٠ طن وفى سنة ١٨٤٨ جلب من ارلاند من البقر اثنان وثمانون الفا وخمسمائة واثنان وتسعون رأسا ومن الغنم مائة الف وثلاثمائة وستة وستون ومن الخنزير ثلاثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون وقيمة ما جلب من البطاطس فى عام واحد بلغت نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطانى وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالى هؤلاء القوم واسافلهم وفى الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها فى كل سنة نحو مائتى الف وخمسين الفا واحسن اقاليمها فى النضارة والريع اقليم كنت وفى كثرة اشجار الفاكهة دوفنشير واذا دخلت حمى شيستر فهرول •

اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهى نوعان ضليع ضخم وهو ما يستعمل فى جر الانقال فترى الحصان كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم وغذاء مائة ليرة والثانى خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظماء وربما سار فى الساعة ثمانية عشر ميلا ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان يكن اصل بعضها من تلك ويقال انه فى زمن الملكة اليصابت لم يكن فى جميع مملكة انكلترة اكثر من الفى فرس وبقرهم تعظم فى عظم جواميس مصر ولحمها طيب الا انه كثير الدم وهى حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمنا فاحشا وهى ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كغنم الشام ولعلها هى النوع الذى يقال له القهد والهر عندهم ظريف وهو احرى بان تحلق الحواجب على فقده من هر قدماء المصريين اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبغال عندهم وندر رؤية المعزى • ومما من الله به على هذه البلاد ان ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوى فى الليل ولا نمس يأكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث فى الربيع الا نادرا ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهى تجرى تحت مخشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح فى منازلهم • قال فى ابجدية الاوقات هذا الجرذ الاسمر الذى يسمى جرذ نوردى غلطا هو اعظم رزيئة فى ديارنا واصل مجيئه الينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية فى اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه فى سنة ١٧٢٩ زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البرارى الغربية الى اسطراخان حتى لم يمكن ردها بوجه ما وفى اوسط القرن السادس عشر زحفت حتى دنت من باريس الا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية

﴿ فائدة فى عمر الحيوان ﴾

قال بعض ان الحصان يعيش من ثمانى سنين الى اثنين وثلاثين سنة والثور ٢٠ والبقرة ٢٣ والحمار ٣٣ واصل نتاجه فى بلاد العرب والبغل ١٨ والشاة من الغنم ١٠ والكبش ١٥ والكلب من ١٤ الى ٢٥ والخنزير ٢٥ والعنز ٨ والحمام ٨ والقط ١٠ والوز ٢٨ والببغا من ٣٠ الى ١٠٠ واليمام من ٥٠ الى ٢٠٠ •

هكذا نقلته وهو غريب فان الحمام واليمام من جنس واحد • وقال آخر الدب يعيش ٢٠ سنة ونحوه الكلب والذئب والثعلب من ١٤ الى ١٦ والاسد نحو ٧٠ والقط فى الجملة ١٤ والارنب ٧ سنين والفيل قد يعيش ٤٠٠ سنة والخنزير ٣٠ والكركدن ٢٠ والفرس من ٢٥ الى ٣٠ والجمل نحو ١٠٠ والبقرة ١٥ والضان قلما يجاوز ١٠ سنين والوعل يعمر طويلا والدلفين ٣٠ والنسر قد يعيش ١٠٤ سنين والغراب ١٠٠ والسلحفاة ١٠٧ ونوع من الحيتان اسمه والس ولعله الدخس يعيش ١٠٠٠ سنة

اما بناؤهم فمن الاجر الاحمر والابيض وقد يصبغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديه كأنه حجارة مربعة متساوية لا يدركها الا من دنا منها ورسمها وتبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان تسود كما سنذكر ذلك ان شاء الله ولهم فى تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا هدم دار هدموا اولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا الاسفل فربما نجز الهدم والبناء فى وقت واحد وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت تلك الاخشاب قديمة وفى الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندسة غير ان القديم منها ربما يكون اصغر من سطحه فان السطوح عندهم على ثلاثة انواع الاول من الواح المكاتب التى يتعلم عليها الخط وهى للديار الكبيرة والثانى من الخزف وهو للبيوت الوسط والثالث من التبن فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما يرقع الثوب ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه فى الشتاء يمنع البرد وبرد الثلج وفى الصيف يمنع الحر ولا يكون السطح عندهم الا مسنما والفاصل بين الواح الزجاج فى الشبابيك اكثره قضبان رصاص بدلا من الخشب وربما كان الزجاج قطعا صغارا كالكف مربعة ومخمسة فيكون للعين انيقا وحيث كان فى السابق ضريبة للميرى على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا القدر ولكنه الآن ابطل تمتعا بنور الله وهوائه ولكن قام مقامها ضريبة اخرى وكل دار لا بد وان يكون فيها عدة مواقد للنار واسرتهم كلها من خشب لا من حديد والغالب ان ارض منازلهم تكون مفروشة باللبد او البسط من الزرابى وانائهم بين بين وقل ان ترى عندهم من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل

فى السباق او صورة ارانب وكلاب اما بيوت الاغنياء والمترفهين فلا شئ اجمل منها لاحكام بنائها وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش وطيقانها محكمة الوضع كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور فى الصفا والبريق ودرجها وارضيتها من الخشب المتين واهم اسراف زائد فى الاثاث فان اسرتهم وموائدهم واصونتهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالماهيكون وقد تبلغ قيمة ذلك فى الجملة نحو ٥٠٠ ليرة ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حليا من الالماس او شالا من الكشميرى وهى عكس عادتنا • ومن اسرافهم ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش او الزرابى الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه • ومراحيضهم فى غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيس اذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة قالوا انه مرحاض انكليزى وكنت مرة ضيفا لاحد بخلائهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو فى غاية الزخرفة والاحكام حتى انى احجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالى حينئذ ما قاله بعض الظرفاء فى بخيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها ليت شعرى ما الذى يريد ان يخرأ فيه • واجارة المسكن للغريب انما تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع فاذا علموا ذلك تهاونوا فى خدمته واذا استأجر احد مسكنا فى دار من مستأجر الدار وفرشه وكان المستأجر لا يؤدى غلة الدار الى مالكها حق للمالك ان يستولى على كل شئ فى الدار ثم ان البناء فى الاصل كان من الخشب والطين ثم من الاجر ثم من الحجارة غير المهندمة فلما تمدن الناس وتبحروا فى الصنائع صار من المرمر والبناء من الحجر عرف عند اهل صور من القديم ثم اشتهر عند جميع الاجيال ولم يعرف فى انكلترة قبل سنة ٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه بناديكتوس واول جسر بنى منه فى هذه البلاد كان فى سنة ١٠٨٧ اما البناء من الاجر فانما عرف عن الرومانيين وفى سنة ٨٨٦ امر الفريد ملك الانكليز باستعماله وفى سنة ١٥٩٨ استحسن تعميمه وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب غالبا واما الزجاج فيقال ان اول من تعلم صنعته اهل مصر فانهم اخذوها عن هرمس وقال بلينيوس بل كان اختراعه فى سورية وكان له معامل فى صور من القديم وقد ذكره الرومانيون فى عهد طيبيريوس وعلم من انقاض بمباى ان الزجاج

كان

كان فى طيقانها سنة ٧٩ قبل الميلاد واول ما اشتهر اتخاذه فى اوربا كان فى ايطاليا ثم عرف فى فرنسا ثم فى انكلترة وفى سنة ١١٧٧ استعمل فى ديار بعض الاعيان ولكنه كان مجلوبا ويفهم من كلام فلدير ان اول من شهره فى بلاد الانكليز رجل من فرنسا وذلك فى سنة ١١٨١ وفى سنة ١٥٥٧ انشئ له معمل وفى سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفاء وفى زمن وليم الثالث اتقن الى الغاية ومن سوء التدبير فى بلاد الفلاحين انه لا يقام فى القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق و السرقة فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم مستأجر الارض يبقون معطلين مترعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى احراق اكاديس القمح و الحشيش المكدسة فى الحقول فى ليلة ذات ريح فتسرى النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلاشيه بالكلية و تسرى الى غيره فربما احترقت القرية كلها فى ليلة واحدة وفى مدة شهرين من اقامتى بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقة فى اكداس الغلال وكان سبب ذلك من هؤلاء المعطلين عن الشغل تشفيا من غيظهم من مستأجر الارض ورأيت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت باجمعها فى ليلة واحدة بل ان كثيرا من هؤلاء الفجار ينهبون الكنائس وقد يدخلون الديار من مداخن المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما قدروا عليه وفى كل ليلة قبل النوم يوصى المخدوم خادمه والمخدومة خادمتها باطفاء النار والنور اما العاجزون و السقط فانهم يمكثون فى المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية فان الحكومة لا تنفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا الا ان اكثر الناس يستنكفون من المكث فى المستشفى كما ذكرنا سابقا وقد تقرر عند الانكليز جميعا ان التصدق على الفقراء يحملهم على الكسل والتوانى فما يعطون فقيرا اذا مروا به و لو كان عريانا اعتمادا على وجود هذه المستشفيات ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم فى شرب المسكرات فانك ترى منهم فقراء كثيرين باخلاق من الثياب ومهما يكسبوه ينفقوه فى الجمعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد السنتهم عن الكلام ولا يزالون يلهجون بذكرها فهى عندهم فى الشتاء للتسخين وفى الصيف للترطيب ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم

والكرم وهذه خطة عامة فى جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية اكثر كان الكرم فيهم اقل وذكر الطبيب بوخان انه عرف فى زمانه نساء يعن اولادهن بالجعة • ثم ان الانكليز طالما افتخروا بهناء العيش داخل ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان فى معيشته والثانى ترتيب وضع الاشياء المتمتع بها وهو ان يكون لكل شئ موضع خاص به ولكل موضع شئ فمن غسل يديه مثلا فى طست على مائدة ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون ان يغادر موضعه و يفتش عليها فقد اتصف بانه متهنئ وقس على ذلك والحق يقال ان الانكليز فى ذلك اعظم الناس ترتيبا واحكمهم وضعا للاشياء وكأنهم انما ورثوا هذه الخلة كابرا عن كابر ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكنه ان يتهنأ بعدها فى معيشته فى البلاد المشرقية قالوا وعلى هذا الاصل بنيت بيوتنا بحيث اذا تبوأها احد لا يحب ان يخرج منها ولا سيما وضع مواقدهم فانها تسع من الفحم ما شئت وبذلك يحصل لهم الدفء فى الشتاء وهو من الزم ما يكون وعندهم نحو ثمانمائة الف دار مفردة يقال لها كوتاج لا يمكن لغيرهم من الناس ان يعيش فى مثلها حالة كونها منفردة فاما دعواهم بان مباقلهم مريعة غضة بحيث تكفى لكل ما يلزم لهم وان آنيتهم وادواتهم وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهوانى ان يقترح شيئا زائدا عليها فليست فى محلها فقد مر بك ان كثيرا من البقول والفاكهة لا ينبت عندهم ويمكن ان يقال ان ذلك غير ضائر من لم يتعود عليه فاما من جهة الآنية فان جميع سكان اوربا المتمدنين مشتركون فيه على انهم محرومون من كثير من الملاهى والفرج هذا وكما ان ارض انكلترة كلها محروث عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالمناير والاعلام لهداية السفن فان فى سواحلهم مائتى منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجملة المناير التى فى سواحل فرنسا الشمالية والغربية ٨٩ والتى فى هولاند ٢٦ ومصاريف منايرهم تؤخذ من رسم يجعل على السفائن المشحونة التى تمر بها وهو يختلف وقد يبلغ فى السنة مائتين وخمسين الف ليرة ينفق نحو ثلثيه فى لوازمها ويدخر الباقى لاجل ترميمها واعظم منارة بنيت فى انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ادسطون وذلك فى سنة ١٦٧٠ ولكن طم عليها الماء فى احدى السنين فابادها رأسا فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة

من

من حديد واول منارة عرفت فى ازمان القديم المنارة التى بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من المرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك فى عهد بطليموس فيلادلفوس ملك مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكان النور يوقد فى قنتها دائما لهداية السفن الى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مائة ميل وهو مظنة للانكار ويقال ان مصاريفها بلغت ٣٠٠٫٠٠٠ ليرة انكليزية بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر وقد عدت من عجائب الدنيا السبع وبلغت من الشهرة والعجب بحيث ان اسمها اطلق على كل منارة بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا وفى تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادى ان بعض ذوى العناية ذكروا ان طولها ٢٥٠ ذراعا وان بعضهم قاسها فوجدها ٢٣٣ ذراعا وهى ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهى مائة ذراع والطبقة الثانية مثمنة وطولها ٨١ ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها ٣١ ذراعا ونصف ذراع قال وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع ◆

وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكر هى اهرام مصر والموزليوم وهو قبر بناه ارطميسيا لموزلوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر فى افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية وصنم الشمس من نحاس فى رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر وقيل ان جوبيتر هو هبل عند جاهلية العرب قلت ومن العجب فى هذه العجائب انهم لم يعدوا منها سد الصين فقد قال فلتير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على جبال شامخة ومنحدرا فى اماكن وعرة المرتقى وعرضه فى جميع هذه المواضع عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلاثين وهو اعظم من اهرام مصر فى القدر والمنفعة بناه اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك فى سنة ١٣٧ قبل الميلاد ◆ اما هوآء انكلترة فانه كثير التقلب يختلف فى اليوم الواحد مرات وبينما يكون الجو مصحيا والسمآء نقية اذا بالغيم قد طبق الافق وتراكم حتى تحسب انه لم يكن شمس قط وقد يبلغ درجات الهوآء فى يوم ثلاثين وفى غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم ولا سيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الضلاعة والسدة وان كثيرا منهم يعمرون فوق المائة سنة وفى مدة ثلاث سنين مات فى انكلترة وولس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل فى كورة هولى وود وقد بلغ من العمر مائة

وثلاث عشرة سنة وبقى ممتعا بجميع حواسه واوصى وصية مبينة ولم يعرف المرض الا قبل موته بساعة واحدة ومتى تم لهم صحو يوم تام رأيت الناس جميعا يلهجون بمحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم وفى الحقيقة فانه اذا انجلى الغيم وظهرت الشمس لم يكن شئ ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقا وقد ترى فى الاشجار المتصافة الوانا مختلفة وترى الحقول كأنها بسط من سندس اخضر ولا يخفى ان هوآء الرستاق والريف اصح واسلم من هوآء المدن الكبار التى يكثر فيها الدخان والعفونات والاقذار الا انه لا يمكن الخروج فى الريف شتآء حين تكون المسالك وحلة فلهذا يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياف وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هوآء هؤلاء ووخامته عند اولئك وقد سبقت الاشارة اليه فاما من ابتلى بالسل والربو او ضيق الصدر فلا يصح له مقام فى هذه البلاد ابدا كان وكما ان لياليهم فى الشتآء تكون طويلة جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثمانى ساعات كذلك تكون فى الصيف قصيرة جدا فان النهار فى شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفا فيكون الليل كله كالشفق الا ان يلبس الجو الغيم والدكنة ولنذكر لك جملة من الكلام على الهوآء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه فى الثانى عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا ترى الا لمحا وكانت تطلع فى الساعة السادسة وتغرب فى الخامسة ولا يكاد يكون بعد غروبها شفق وفى الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم ينشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولا سيما اذا كانت ذات لهب وقد بلغت منهم الفتهم بها بحيث اذا جلسوا فى الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد ويؤثرونه على الجلوس عند الشبابيك الا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه فى اليوم مرارا حتى ان غلالته تتسخ من اثر الفحم من تحت ثيابه وفى الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع فى الساعة السابعة وتغيب قبل الساعة الخامسة وفى السادس من تشرين الثانى كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعد الرابعة وفى هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم اذ المشى فيه

لا

لا يخلو من بعض اذى بالبصر ويسمون هذا الشهر نحار الاعناق وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح لرؤيتها كما هى عادتهم وفى السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جمدت منه المياه حتى فى الآنية فلم يكن كب السلحفاة مانعا له كما قال صاحب القاموس وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه فى موضع خاص به وحين يتزحلقون يلبسون نعالا كالقباقيب وهو عندهم من الامور الرياضية وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كأنه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ان يجمد ايضا اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد الا رذاذا وقلما ينزل فى غيره ايضا سحا كما ينزل فى بر الشام ومالطة واذا انقطع عنهم شهرا فاكثر لا يستسقونه بالايدى كما يفعل المالطيون لان ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق واكثر وقوعه فى الخريف والربيع فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه فى ايار والشمس حارة وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفى اواسطه سقط ثلج وبرد شديد وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس اياما متوالية وفى اوائل العام الثانى غطى الثلج وجه الارض والسطوح ورؤوس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع ويقال ان كثيرا يهلكون فى الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون فى مهواة على حين غفلة فيعطبون وربما سقط الثلج على الشاء فى الحقول فتضل الطريق وقد سمعت ان امرأة سقط عليها الثلج وهى تحت شجرة تستذرى بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت فيه بضع ايام حتى جاء من اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية ويقال ان بقاء الثلج فى المزارع اياما نافع للزرع ولا شئ اشق على الماشى من المشى عليه حين يذوب بخلاف ما اذا كان متلبدا • وللانكليز لهج

عظيم فى محاوراتهم وكتبهم بمحاسن ايار لانكسار حدة البرد فيه الا انه فى الواقع من انحس الشهور وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه الا ما ندر وفى اوله تدور الصبيان والبنات يغنون و يجتدون من اهل البيوت والمارين فى الطرق وكان قدماء الانكليز يرقصون فيه فى الحقول و المزارع و يجعلونه يوم مسرة وطرب حتى ان السفلة فى لندرة يعيدونه الى الآن فيتخذون نحو شجرة و يرقصون حولها فى الشوارع وفى اوائل شباط يطوف الاولاد ايضا يغنون لفالن تين وهو يوم تزاوج الطيور وفيه تتهادى الشبان والشواب بالرسائل والاشعار على طروس مزخرفة ٭ ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة فكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره ثم اكفهر الجو ودهم البرد ووقع المطر الغزير وحين يشتد الحر يبلغ ثمانين درجة (انكليزية) وغاية البرد عشرون وابرد الرياح عندهم هى الشرقية ثم الشمالية اما الغربية فلا تكاد تاتى من دون مطر والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه دفء مغر بالكسل والعجز حتى يود الانسان ان تعود الريح الباردة وان اطارت عنه الثياب و بما مر بك من تقلب الهوآء عندهم تعلم انه لا يحسن ان يترجم الى لغتهم قول بعضهم من قصيدة يمدح بها الملكة وهو

٭ تلوى الرياح مثانى الرمل عاصفة ٭ حتى تصيب اراضيها فتعتدل ٭

وهو نظير قول المتنبى

٭ اذا اتتها الرياح الهوج من بلد ٭ فما تهب بها الا بترتيب ٭

لكن بيت المتنبى سالم من الضرورات وقلت انا من قصيدة طويلة

٭ ما ان يحيل حؤول فى هوائهم ٭ هوى نفوسهم عن مذهب الخير ٭

اشارة الى ان تقلب الهوآء عندهم لا يغير طباعهم عن فعل الخير والخير بالكسر الكرم والشرف والاصل والهيئة ٭ وفى الحقيقة فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان الا فى الاصطلآء ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد واذا تفوه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما النسآء حتى انهم ربما قالوا ذلك فى يوم لا برد فيه فكأن السنتهم مرنت على ذلك وكثيرا ما ترى ايضا وصف البرد والنار فى كتبهم و يسمون المرأة رفيقة

الموقد

الموقد والاضافة بتقدير عنده وقد جرت العادة عندهم بانه لا يحرك النار الا من كان من اهل البيت او من طالت الفته بهم وفي الجملة فان النار اليفهم مدة ثمانية اشهر في السنة و بهذا تعلم انهم لا يرون في وصف الجنة نعيما لان الانسان اذا كان مقرورا لا يشتهي ان يسمع بذكر المياه والظلال والاشجار بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة ومواقدها محتدمة وحضبها معتد وحطبها منضد وفحمها مؤبد ومسعرها مخلد فهنيئا للمصطلين وطوبى للمستدفئين أليس ان عبادة النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد كما قال ابن صاره في المعنى

* احل لنا ترك الصيام بارضكم * وشرب الحميا وهو شئ محرم *
* فرارا الى نار الجحيم فانها * ارق علينا من شاير وارحم *
* لئن يك ربي مدخلي في جهنم * ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم *

ثم انه لا يخفى ان اهل البلاد الحارة يكونون اذكى ذهنا واسرع فهما من اهل البلاد الباردة الا انهم لا يكون لهم جلد على الاعمال الشاقة لغلبة الترهل عليهم ولا عظم همة لمباشرة المساعي الخطيرة ولا يمكن ان يلحقوا اهل البلاد الباردة في العز والغنى الا ان يكون لبعض البلاد مزية خاصة بوجود المعادن وغيرها كبلاد الهند مثلا اما سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الاعمال و يستطيعون ادمان السعي و يعمرون اكثر ولهذا كان جل الفاتحين والغازين من الشمال وكأن جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم الا ان ايامهم في الشتاء تكون قصيرة جدا فيضطرون الى العمل ليلا وربما كتبت ايديهم من شدة البرد وفي كتاب منسوب الى ارسطو ان اهل البلاد الحارة يعمرون اكثر من اهل البلاد الباردة لان الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها في الاولى اكثر من الثانية ولا ارى قوله مطابقا للواقع الا ان يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة في البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة ◆ ولنختم الكلام على ميزان الهواء بما لا يخلو من فائدة فنقول ان اصل اختراعه فيما علم كان في ايطاليا وفي سنة ١٦٢٦ الف صنطوريا الطبيب في پدوى كتابا وادعى فيه انه مخترعه وادعى ايضا هذه الدعوى رجل من هولاند اسمه كرنيليوس دريبل وبعد البحث والتدقيق علم ان الاول سبق الى الدلالة على اتخاذه وان الثاني عرف خواصه من قبل ان يسمع شيئا عن ذلك ◆ ونقلت من بعض الكتب

انه حسبت ايام السـنة فى مدينة ويانه على مدة خمس وسبعين سـنة فكان فى خلال السـنة من ايام الصحو ١٢٧ يوما ومن ايام الضباب ٧٥ ومن المطر ١١٠ ومن الثلج ١٣٥ ومن الرعد والبرق ١٩ واقول ان هذا القدر من ايام الضباب هو اكثر مما يقع بلندرة فان جله هنا انما يقع فى شهر تشرين الثانى • اما معادن انكلترة فاشهرهـا القصدير والصفر والحديد والفحم وهذان الاخيران اقنى وانفع لهم من سـائر المعادن النفيسة اذ لولاهما لم يتأت لهم انشآء الوف من البواخر ومن سكك الحديد ومن الغاز وغير ذلك وليس كل البـلاد التى فيهـا معادن الذهب والفضة اغنى من غيرهـا فان من المعادن ما تقوم نفقة استخراجه بفائدته فلا يحصل منه نفع الا مجرد الافتخار بوجوده وانما العمدة على سهولة ايشائه وقلة مصروفه • واكثر ما يوجد الذهب فى افريقية وياپان وجنوب اميريكا وهذا الاخير عثر عليه الاسپانيول فى سـنة ١٤٩٢ ومن ذلك التاريخ الى سـنة ١٧٣١ جلب منه الى اوربا سـتة الآف مليون شذرة قيمة كل منهـا ثمانية ريالات اميريكانيـة ويكثر وجوده ايضـا فى جبال اورال بالروسـية ويوجد منه معدن فى كورنول وفى وكلو بارلاند واكثر ما يأتى الانكليز من الذهب فانمـا هو من اوستراليا وكاليفورنيا قيل انهم يجلبون منه فى كل سـنة عشرين مليون ليرة واول من اطلع عليـه فى الاولى ادورد هرغافس وذلك فى سنة ١٨٥١ فاطلع ارباب الحكم على ذلك طمعا فى الجائزة فاجازوه وولوه خولية ارض الميرى ومن جملة ما وجد فيه قطعة ذهب ابريز بلغت مائة وسـتة ارطال ووجد ايضا فى موضعين منها الى غاية تشرين الاول سنة ٥٢ ٢٫٥٣٢٫٤٢٢ اوقية انكليزية اومائة وخمسة اطنان اى طنلاته وبلغت قيمة الذهب الذى بعث منها الى الخارج نحو تسعة ملايين ليرة ومن ذلك الوقت تتابع وروده الى بلاد الانكليز ويحتمل ان فى اوستراليا معادن اخرى كثيرة وكنوزا جزيلة لم تكشف الى الآن فتى كشفت تكون داعية لعجب اهل الدنيـا وهذه الجزيرة هى اكبر جزيرة فى المسكونة واصغر ارض قارة فانهـا دون اميريكا بنحو سـتة اضعاف وكان استعمار الانكليز اياها بعد انفصال اميريكا عن بلادهم وفى سـنة ١٨٥٤

بلغ

بلغ عدد اهلها ٢٣٦٫٧٩٨ نفسا وهى اقل بلاد الدنيــا اناثا (١) • فاما إميريكا فاول من كشفها رجل من جينوى اسمه كرستوفر كولمبوس وذلك فى سنة ١٤٩٢ قيل اذا صارت مملكة الدول المتحدة باميريكا مأهولة كهولاند فتكون تسع تسعمائة مليون من الناس وهذا القدر هو نصف قدر سكان المسكونة واهلها الآن سبعة وعشرون مليونا (٢) وحين كان الانكليز يبنون مجلس الشورى بلندرة كان الاميريكانيون مشتغلين بتمدين بلادهم فانشــأوا سبعة وعشرين الف ميل وخمسمائة ميل لسكة الحديد (٣) بلغت نفقتها نحو ثلاثمائة مليون ليرة وفى غضون ذلك انشــأ الانكليز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور والذى ورد الى خزنة الدول المتحدة فى سنة ١٨٥٧ من جميع موارده بلغ نحو ثمانيــة وعشرين مليون ريال ونصف مليون وكان المبلغ الفاضل فيهــا نحو عشرين مليونا وبلغت مصــاريف الدولة سبعين مليونا وكانت محال البوسطة فى سنة ١٨٢٧ سبعة آلاف فصارت فى سنة ٣٧ ١١٫١٧٧ وفى سنة ٤٧ ١٥٫١٤٦ وفى سنة ٥٧ ٢٦٫٥٨٦ وكان مواضع امتدادها طولا فى سنة ٢٧ ١٠٥٫٣٣٦ ميلا وفى سنة ٣٧ ١٤١٫٢٤٢ وفى سنة ٤٧ ١٥٣٫٨١٨ وفى سنة ٥٧ ٢٤٢٫٦٠١ • وفى المملكة المذكورة تسعة آلاف رتل لسكة الحديد وهو عبــارة عن اجراء رتل واحد لكل ثلاثة اميــال ووجدت فى كتاب آخر ان طول سكك الحديد فى اميريكا كان فى سنة ٥٧ ٢٤٫٤٦٦ ميلا وانه فى سنة ١٨٢٨ وهى اول سنة ابتدأوا فيها بهذه المصلحة لم يكن عندهم الا ثلاثة اميال فانظر الى هذا الفرق • اما كاليفورنيا

---

(١) وفى سنة ١٨٨٠ بلغ عدد سكانها نحو ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس

(٢) فى هذه السنين تقدمت اميريكا تقدما غريبــا حتى بلغ عدد سكانها الآن ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس

(٣) وفى سنة ١٨٨٠ صــار طول سكك الحديد فى اميريكا ٩٠٫٠٠٠ ميل وايراد الدولة فى السنة المذكورة بلغ ٣٣٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال والمصاريف بلغت ٢٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال وعدد دواوين البوسطة بلغ ٤٠٫٨٥٥ فانظر الى هذا الفرق وتعجب

فكان كشفها فى سنة ١٥٣٥ وكانت فى سنة ١٨٤٦ تابعة لاعمال مكسيكو تحت استيلاء دولة اسپانيا ثم استولت عليها الدول المتحدة وكان كشف الذهب فيها سنة ١٨١٧ وقيل انه كان معروفا قبل هذا التاريخ لبعض اشخاص ولكن كانوا يكتمونه وهذه اللفظة محرفة عن لفظتين فى اللغة الاسپانيولية معناهما الفرن الحامى ولا يبعد ان يكون ذلك عربيا فان كالى محرف عن قالى من قليت اللحم ونحوه وفورنيا من الفرن وقيمة ما يخرج من هذا الصقع فى السنة يبلغ خمسة ملايين وبلغت قطعة الذهب من ذلك الى خمسة وعشرين رطلا فكان الرجل يسعد من كده وقيصه لم يتسخ ويحكى ان الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب فى هذا الاقليم ارسلت حاكما اليه فما كان منه بعد وصوله الا ان حل المعزقة واقبل يحفر عن الذهب مع الحافرين • قال بعضهم اما معادن انكلترة فكثيرة وغنية فقد عد طاخيطوس من جملتها الفضة والذهب وفى عهد الملك جامس الاول كشف معدن رصاص استخرج منه كثير من الفضة ويوجد فى كورنول اكثر من خمسين معدنا للنحاس ونقلت من بعض الاحصائيات الصحيحة ان جملة ما خرج من معدن الذهب من بلاد الانكليز من سنة ١٨١٦ الى سنة ٤٦ بلغ خمسة وتسعين مليونا وقيل ان اول ضرب الدنانير عندهم كان فى سنة ١٢٥٧ واول ضرب الدنانير الرائجة المحكمة كان فى سنة ١٣٤٤ وكان ضرب الجينى فى سنة ١٦٧٣ وكان مبلغ ما ضرب من النقود فى ايام الملكة اليصابت ٥٫٨٣٢٫٠٠٠ ليرة وفى ايام جامس الاول ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ وفى ايام جورج الثانى ١١٫٩٦٦٫٥٧٦ وفى ايام جورج الثالث ٧٤٫٥٠١٫٥٨٦ وفى ايام جورج الرابع ١٠٫٨٢٧٫٦٦٣ وفى زمان الملكة فكطوريا وذلك من سنة ١٨٣٧ الى سنة ٤٨ ٣٩٫٨٨٦٫٤٥٧ ويقال ان طابع الدراهم والدنانير من مخترعات اهل ليديا (من بلاد الاناطول) وذلك فى سنة ٨٦٢ قبل الميلاد اما الفلوس فقد ذكرها اوميروس فى سنة ١١٨٤ قبل التاريخ المذكور والذهب الانكليزى فيه اثنان وعشرون قيراطا من الذهب وقيراطان من النحاس ويقال ان حبة الذهب يمكن تقسيمها الى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة ويمكن ايضا تطريقها ومدها حتى تصير خمسا وستين اصبعا مربعة وان الصفحة تصير الى جزء من ثلاثمائة من اجزاء الاصبع ويذهب بها حتى الى جزء من عشرة ملايين واول استعمال خيوط الذهب كان فى ايطاليا وذلك سنة ١٣٥٠

ولما

ولما كان هذا الجوهر الين جميع الجواهر واصفاها كان لا يستعمل الا مخلوطا بالصفر او الفضة • ونقلت من جرنال التيمس سنة ١٨٥٢ ان مبلغ نقود الفضة والذهب فى الدنيا باسرها قيمته اربعمائة مليون ليرة منها مائتان وخمسون مليونا فضة والباقى ذهب ونقلت من غيره ايضا ان مبلغ الذهب الذى كان متداولا فى سنة ١٨٤٨ فى الدنيا باسرها كان ستمائة مليون ليرة وان الامداد السنوى كان من ثمانية ملايين الى تسعة وانه لسبب كشف معادن الذهب فى اوستراليا وكاليفورنيا صار الذهب المتداول الآن يبلغ اكثر من ثمانمائة مليون فمن كاليفورنا خرج من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٣ خمسة وستون مليونا وتسعمائة الف ومن اوستراليا خمسة وثلاثون مليونا وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٥٦ • اما معدن الفضة فقيل ان احسن ما عرف منه ما كان فى لاباز وذلك سنة ١٦٦٠ فكان من لينه وحسنه يقطع كالبلور وفى سنة ١٧٤٩ ارسلت قطعة منه الى بلاد اسبانيا فبلغت ٣٧٠ رطلا وحفر عن قطعة فى معدن بنورويج وارسلت الى متحف كوبنهاغن فبلغت ٥٦٠ رطلا وقيمتها ١٫٦٨٠ ليرة وكانت آنية الفضة نحو الاقداح والمغارف تعد فى سنة ١٣٠٠ فى بلاد الانكليز من الاسراف ووجودها فى البلاد المذكورة انما يكون مختلطا بغيرها من الجواهر • اما معدن النحاس فقد مر ذكره فى كورنول ويقال ان اعظم معادنه فى مملكة السويد ويقال ايضا ان الحبة من هذا الجوهر اذا حلت فى ملح النشادر تجزأت الى اكثر من اثنين وعشرين الف جزء • اما معدن الحديد عندهم فيستخرج منه فى كل سنة اكثر من ثمانمائة طن ويقال انه اول ما عرف وجود الحديد كان على جبل ايداى وذلك فى سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد وزعم اليونانيون انهم هم اول من عثروا عليه كما ان اهل فينيقية اول من عثر على الزجاج الا انا نعلم من التوراة ان اول من قان الحديد طوبال قاين • وقال آخر ان تجارة الحديد عند الانكليز كما هى الآن من ابداع هنرى كورت لانا قبل سنة ١٧٨٣ كنا نجلب جل لوازمنا من الحديد المصنوع من سواحل بحر البلطيك ولم تكن طريقة لصنع هذا الجوهر الذى يصدق عليه ان يسمى جوهر الجواهر سوى تطريقه بمطارق ضخمة ثقيلة بعد احمائه فى فرن وهو اسلوب قديم يجرى مع قدم ايام الخرافات وما عدا ما كان يتبعه من التعب

والكلال فكان يلزم له اجم كثيرة لتفي بالوقود اللازم لاحاجته وحيث لم يكن عندنا منها ما يكفي كان لابد لنا من استجلابه من الروسية والسويد حيث الاجم كثيرة والحديد يسهل صنعه بالنسبة الى هذه الديار والى سعره فيها فكانت معادننا الجزيلة تبقى معطلة الى ان قام هنري كورت المذكور واعمل فكره الثاقب في اختراع طريقة تكثر بها منافع هذا المعدن وتقل الصعوبة في صنعه فاداه الاجتهاد والتبحر الى احداث فرن هوآء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر فكان يحمى به الحديد وهو تبر ويصفيه ثم يجعله قضبانا مسبوكة من دون فحم ولا مطرقة ولكن لم يتهيأ له اتقان هذا العمل الا بعد ان انفق عليه عشرين الف ليرة ومنذ ذلك الوقت استغنينا عن حديد السويد والنورويج ثم لم تمض اربع عشرة سنة حتى صار ما يصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه من بحر البلتيك ثم صار ما يصنع منه على هذا المنوال موازيا لمائتي الف طن منها خمسون الفا ترسل الى الخارج وهذا القدر هو ما كنا نفتقر الى جلبه سابقا من البلاد الاجنبية وقد صنع منه في سنة واحدة من هذه السنين المتأخرة في معمل بوالس اكثر مما كان يصنع منه قديما في جميع المملكة بضعفين فاعظم به من اختراع يعد من اعظم الاسباب الموجبة لثروة هذه البلاد ولاستقلالهم باعمالهم اذ لولاه لم يتأت انشاء سكك الحديد والبواخر وغيرها ولا يخفى ما في ذلك من المنافع فهو لنا بمنزلة ابرة المغنطيس لكشف الدنيا الجديدة فما اجدر مخترعه بان يحسب نداً لواط وما اخلق بلادنا بان تظهر كونها ممنونة له على ممر الايام الى ان قال ومع انه انفق في هذا العمل الجليل عشرين الف ليرة ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على جميع الممالك لم تجازه على ذلك بل عاملته بالكنود على انه تحقق وثبت ان ما اكسبها من فوائد هذا الاختراع يبلغ ستمائة مليون ليرة وافاد ايضا مؤنة ستمائة الف من الصناع اه وقد كان الرومانيون في الزمن القديم يصفحون قعور سفنهم بالرصاص وكان ثمنه اذ ذاك اغلى مما هو الآن باربعة وعشرين ضعفا ويقال ان احسن صبغ للشعر هو ما يتخذ من الرصاص لكنه في نفس الامر سم • اما فحم الحجر فان اهل بريتانيا الاقدمين كانوا يستعملونه وان لم يذكر ذلك الرومانيون فيما ذكروا من احوال هذه الجزيرة واول كشفه كان في نيوكاستل سنة ١٢٨٤ وزعم بعض انه قبل هذا التاريخ

وكان

وكان قد منع اولا من استعماله بدعوى انه مضر بالصحة حتى ان الحدادين كانوا لا يوقدون الا الحطب وفى سنة ١٣٨١ اتخذ كأنه صنف من اصناف التجارة فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور الى لندرة ثم عم استعماله فيها وذلك فى حدود سنة ١٤٠٠ فاما فى جميع انكلترة فلم يعم قبل سنة ١٦٢٥ ويوجد منه معدن فى نورثمبرلاند فى سهل فسيح امتداده ٧٢٣ ميلا مربعا وقريب منه سائر الاماكن والموجود منه فى والس فقط يكفى انكلترة على المعدل الذى ينفق منه الآن الفى سنة والمنصرف منه فى بريتانيا فى كل سنة ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ طن وفى سنة ٥٧ وصل الى مرسى لندرة نحو ١٫٥٠٠ سفينة مشحونة بالفحم وبلغت كمية ما ورد اليها منه بحرا و برا ٤٫٣٦٨٫٧٠٨ اطنان والمستخرج منه من درهام ومن نورثمبرلاند يبلغ فى السنة ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ طن يصرف منها فى لوازم لندرة ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى لوازم البلاد الخارجية ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ وقدر ذلك لاجل الغاز والباقى فى مهمات اخرى • وقال آخر يوجد فى انكلترة وارلاند ٤٫٠٠٠ ميل مربع تحتوى على معادن فحم لم تكتشف بعد ومسافة جريب واحد سمكه ثلاث اقدام يوازى ما يخرج من فحم ١٫٩٤٠ جريبا من الاجم والغياض ومعادن الفحم المفتوحة الآن فى دربى تبلغ ٢٤٠ معدنا يعمل فيها ٣٠٫٠٠٠ نفس ومعادن يوركشير تبلغ ٣٤٣ معدنا و يوجد ايضا فى سكوتلاند معادن كثيرة منها محفور ومنها غير محفور • وقيل ان اصل استخراج الفحم كان فى بلجيك فى سنة ١١٩٨ ثم عرف فى انكلترة والذى يخرج منها يبلغ خمسة اضعاف أكثر مما يخرج من غيرها من اى ارض كانت وما يحصل من مسافة ١٫٢٧٥ كيلومتر مربعا من بلجيك يبلغ ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ طن وما يحصل من مسافة ٢٫٥٠٠ من القياس المذكور فى فرنسا لا يزيد على ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ طن وكان المنصرف من الفحم فى فرنسا سنة ١٧٨٠ ٤٠٠٫٠٠٠ طن وفى سنة ١٨٤٥ ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ (١) اما القصدير فوجوده فى بلاد الانكليز من قديم الزمان واول من اتجر فيه معهم اهل فينيقية لانهم هم اول

---

(١) وفى سنة ١٨٧٨ بلغ مقدار الفحم الحجرى الذى استخرج فى فرنسا ١٧٫٠٩٦٫٥٢٠ طن

من عرف خاصية ابرة المغنطيس ومن قبل ان غزا القيصر يوليوس هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف وكانوا يسمونها كستريدس اى جزيرة القصدير وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفينيقيين احقابا عديدة وكان اليونانيون كثيرا ما يبعثون اليهم جواسيس ليتعرفوا اى بر ينزلون فلم يقدروا والذى يبعث من هذا الصنف الى البلاد الخارجية يبلغ فى السنة الفا وخمسمائة طن غير مصنوع وثمن المصنوع والصفائح منه ٤٠٠٫٠٠٠ ليرة (٢) اما استعمال ابرة المغنطيس فى هداية السفن فلا يعلم بالتحقيق فى اى عصر ابتدأ وانما يعلم ان خاصية ما فى جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين وان استعماله فى السفر كان معروفا لاهل الصين من عهد بعيد فانهم كانوا يهتدون به فى اسفارهم الى يابان والهند وجزيرة العرب ولا يبعد ان اشتهاره فى اوربا كان كاشتهار صناعة الطب فى كونه اخذ عن العرب اذ لم يعرف شأنه فيها الا بعد ان فتح المسلمون غوثا باسبانيا الا ان العلم به لم يكن تاما ويحتمل ان العرب اخذته عن اهل الصين ويقال ان علم هؤلاء به فى ارجح الظن كان سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد وهنا محل للبحث الا ان اليسوعيين الذين جعلوا دابهم التنقير عن علوم اولئك القوم وعن عاداتهم وكذا كلابروت النمساوى العالم البارع ومستر دافس كلهم حكوا ما يدل على استعمال اهل الصين هذا الحجر فى ذلك التاريخ ثم لما كانت الافرنج تسافر الى بلاد المسلمين مدة الحرب الصليبية كانوا يذكرون وجود هذا السر الغريب فى تلك البلاد وكان من جملتهم الكردينال فترى وفنسنت دو بوفاى قيل وكانت العرب تهتدى به فى البر ولم تشهر معرفة استعماله فى اوربا الا فى سنة ١٢٦٩ فاما الانتفاع به فلم يشهر الا فى القرن الرابع عشر واول من اجرى ذلك رجل من نابولى اسمه فيلافيوجيوجا وقال آخران حجر المغنطيس لم يشهر ذكره فى كتب الانكليز قبل ايام ادورد الثالث وكان يسمى حجر السفر واول سفينة سارت بهدايته كان فى سنة ١٣٣٨ اما رسم النقط فلم يعلم مخترعه

---

(٢) وفى سنة ١٧٨٩ بلغت قيمة القصدير المصنوع الذى ارسل من انكلترة الى الخارج ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ ليرة

وزعم

وزعم الفرنسيس انه من مخترعاتهم وان رسم النقط الاربع الاصلية انما هو رسم عما يقال له فلور دولى اى زهر السوسن ولكن هنا بحث فان زهر السوسن انما هو رسم عما يسمى بالعربية موسالا (لعلها مسلة) وكانت العرب تتخذها لدلالة الابرة • فاما اختراع اداة الابرة المسماة عند الافرنج بالكومپاس فانه كان من رجل من فينيسيا يقال له مركوس باولوس وذلك فى سنة ١٢٦٠ وبعضهم عزاه الى فيلافيوجيوجيا المذكور وزعم آخرون انه كان معروفا فى الصين فى سنة ١١١٥ قبل الميلاد وكأن ذلك سهو نعم انه كان عندهم آله تتحرك بنفسها مصوبة الى الجنوب لهداية المسافرين برا وبحرا فظنها الناس الآلة المعروفة قال وقد ثبت ان المذكور هو الذى استنبط تعليق هذه الابرة كما نراها الآن وذلك سنة ١٣٠٢ واما وضع الصندوق لها وكيفية تركيبها به فمن اختراع احد قسيسى الانكليز ويقال له وليم بارلو وذلك سنة ١٦٠٨ • ولنختم كلامنا على المعادن بذكر الالماس فنقول انه وجد فى معدن هذا الجوهر ببرازيل حجر زنته ١٦٨٠ قيراطا وارسل الى ديوان البورتوغال فقوم بمائتين واربعة وعشرين مليونا من الريالات وقومه بعضهم بستين مليونا لا غير وزنة حجر الالماس الذى عند قيصر الروسية ١٩٣ قيراطا واشترى ملك فرنسا حجرا كانت زنته ١٠٦ قراريط وفى سنة ١٨٥٠ جلب الانكليز حجرا من الهند زنته ٨٠٠ قيراط الا انه لجهل الرجل الذى قطعه نقص حتى جاء ٢٧٩ قيراطا وقدره كالبيضة بتوقه مليونا ليرة وفى هذه الايام الاخيرة جلب حجر من برازيل زنته ٢٥٤ قيراطا يذهب نصفه فى القطع • اما مصلحة سكك الحديد فى بلاد الانكليز فهى اعظم المصالح التى شغلت منهم خواطر الاغنياء والمستربحين والمستنبطين فان مجموع راس المال الذى وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ومجموع رأس المال الذى وضع فى اشغال القطن اربعون مليونا والذى فى اشغال الصوف ثمانية عشر والذى فى الحديد احد وعشرون والذى فى الحرير ستة عشر مليونا ومجموع راس المال الذى وضع فى اشغال الحديد فى بلاد الدول المتحدة ثلاثون مليونا • ويحكى عن رجل من الانكليز انه كان فى اول امره بزازا خاملا فتعاطى اشغال هذه السكك فحصل له توفيق فيها ونجاح وما زال يزيد نجاحا حتى استغنى غنى لم يذكر مثله فى التواريخ قط فيقال انه صار يتولى اشغال خمسين الفا من الصناع

يعملون تحت يده قلت والذى فاق فى شهرة الغنى فى التواريخ القديمة رجل من اهل رومية يقال له كاسيليوس ازيدوروس قيل انه ترك عند موته ١١٦ر٤ عبدا. و ٣٦٠٠ر٣ ثور و ٢٠٠٠٠٠ر٢ رأس من البهائم وثلاثة ملايين ليرة وحيث تسمع بان رجلا بمفرده غنى جدا فاحكم على كثيرين بانهم فقرآء جدا ◆ ثم انه لما نشم بعض المحترفين من الانكليز فى انشآء سكك الحديد ولهج بها المتكسبون لم يكن احد يصدق انها تصل الى ما وصلت اليه بل كان كثير يستخفون بها ويسخرون ممن وجه همه اليها فقد كتب فى بعض صحف الاخبار منذ عشرين سنة ما نصه اما هؤلاء المصطرفون الذين يخيل لهم ان ينشئوا سكك الحديد فى جميع جهات المملكة حتى يستغنى بها عن السفن والعجلات والعواجل والمحامل وغيرها مما يركب الناس فيه برا وبحرا فانا ننزلهم وتصوراتهم هذه التى هى اضغاث احلام منزلة من هو غير جدير بان يشغل به الخاطر ◆ واول سكة انشئت فى البلاد المذكورة كانت فى نيوكاستل وذلك فى اوائل القرن السابع عشر ولكن كانت قضبانها من خشب وكان المقصود منها انما هو نقل الفحم عليها الى المرفأ ثم انشئت سكة اخرى فى ويت هافن وذلك فى سنة ١٧٣٨ واعظم سكة انشئت بعدها كانت فى كلبروك دال فى سنة ١٧٨٦ ثم كان اعظم السكك واطولها سكة ليفربول ومنشستر بدئ بها سنة ١٨٢٦ وفتحت فى سنة ١٨٣٠ ومن ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة فى انشآء سكك متعددة فى انكلترة وفرنسا و بلجيك وغيرها وفى سنة ١٨٢٤ كان الرتل المسمى بالناقل يسير فى الساعة ستة اميال وفى سنة ٢٩ كان صنف آخر يسمى الصاروخ يسافر خمسة عشر ميلا وفى سنة ٣٤ كان صنف يسمى طيار النار يسير عشرين ميلا وفى سنة ٣٩ سار صنف يسمى نجم الشمال سبعة وثلاثين ميلا والآن فان الناقل يسير سبعين ميلا وكان فى مبدأها ينفق عليها من الفحم اكثر مما ينفق الآن بخمسة اضعاف وقس على ذلك سائر المصاريف ◆ وقد علم من خلاصة مجلس الشورى المنوط به اقرار هذه المصلحة ان الحصص الاصلية وما يلحقها من الاستقراض الخاص بجماعات سكك الحديد الكائنة فى بريتانيا بلغت ثلاثمائة وستة وثلاثين مليونا من الليرة وبلغ عدد المسافرين فى المملكة المذكورة فى بعض السنين ٤٠٤ر٣٦٧ر٥ تحصل منهم ومما اخذ ايضا على البهائم والرسائل ٦٠٥ر٤٢٤ر٥ ليرات وعدد مجموع سكك الحديد

فيها بلغ مائتين واثنين وعشرين سكة تجرى اسلاك التلغراف فى ثلثيها و فى سنة ١٨٥٠ تحصل من ايراد هذه السكك فى جميع اوربا ٢٣٫٣٠٠٫٠٠٠ ليرة وكان نصف ذلك من ايراد سكك بريتانيا و هذا جدول اطوال السكك المعروفة فى الدنيا

	ميل			ميل	
فى بريتانيا	٧٫٨٠٣	الى سنة ٥٤	فى ايطاليا	١١٥	الى غاية سنة ٤٨
فى اميريكا	٣٫٨٠٠	الى غاية سنة ٤٨	فى الدنيمرك	١٠٦	»
فى جرمانيا	١٫٥٧٠	»	فى كوبا	٨٠٠	»
فى هولاند	٢٠٠	»	فى الروسية	٠٥٢	»
فى بلجيك	١٫٠٩٥	»	فى هند الشرق	٥٠٠	»
فى فرنسا	٢٫٢٠٠	»	فى مستعمرات الانكليز	١٫٠٠٠	»

والميل عبارة عن ١٫٨٦٠ يارد واليارد عبارة عن نحو ذراع ونصف (١) وفى سنة ٥٦ امتدت سكك الحديد فى بريتانيا الى ٨٫٠٥٤ ميلا انفق فيها ٢٨٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة ومنها اكثر من خمسين ميلا فى صخور منقورة ومساحة تلك الاميال ٥٥٠ ياردا مكعبا ويوجد لهذه السكك خمسة آلاف مزجية وهى الآلة التى يقال لها انجن وفى كل سنة تسير الارتال ثمانين مليون ميل ومصروف المزجيات من الفحم فى كل سنة مليونا طن وفى خدمة الجمعيات القائمة بهذه المصلحة تسعون الفا ما بين رئيس ومرؤوس وفى سنة ٥٤ كان عدد من سافر فى هذه السكك احد عشر مليونا واستفيد منهم اكثر من عشرين مليون ليرة وهو نحو

---

(١) منذ تأليف هذا الكتاب ازدادت السكك الحديد فى اوربا ازديادا عظيما ففى انكلترة وحدها بلغ طولها لغاية سنة ١٨٨٠ مسافة ١٨٫٠٠٠ ميل كلفت ٧١٧٫٠٠٣٫٤٦٩ ليرة و حملت من الركاب فى ظرف سنة واحدة نحو ٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس وفى اميريكا بلغ طول السكك المذكورة ٨١٫٧٢٥ ميلا وفى ايطاليا ٥٫٠٩٨ وفى جرمانيا ١٩٫٧٧٣ و فى فرنسا ١٣٫٨٧١ بلغ ايرادها فى السنة المذكورة ٣٦٫٢٣٥٫٤٠٨ ليرات انكليزية وقس على ذلك ازدياد السكك فى بقية ممالك اوربا

ثلث ايراد الدولة والمصروف من الحديد على تبديل القضبان والادوات فى كل سنة عشرون الف طن ويقطع ايضا للوازمها نحو ثلاثمائة الف شجرة وكل رتل يحمل فى مجمل الحساب مائتى شخص وبلغ ما اعطى لاصحاب الارض تعويضا لهم عما اخذ من املاكهم نحو سبعين مليون ليرة واسلاك التلغراف ممتدة ٧٫٢٠٠ ميل ويلزم لها من سلك الحديد ما طوله ٣٦٫٠٠٠ ميل وعدد المستخدمين فى التلغراف ثلاثة آلاف وكل واحد من خمسين من اهل انكلترة يتوقف معاشه وقوام امره على هذه السكك • وقال آخر بلغ الحاصل من ايراد سكك الحديد فى بريتانيا فى سنة ٥٧ ثلاثة عشر مليونا وذلك بحساب فائدة ٤ فى المائة • وقال آخر كان فى اواسط سنة ٦٠ ١٢٧٫٤٥٠ رجلا مستخدما فى سكك الحديد فى جميع المملكة والمشروع فيها الآن يستخدم فيه ٥٣٫٩٢٣ فتكون الجملة ١٨١٫٣٧٣ وعدة المواقف ٣٫٦٠١ • ثم رأيت بعد ذلك فى بعض صحف الاخبار ان طول سكك الحديد فى مملكة بروسية بلغ فى سنة ٥٩ ٣٫١٦٢ ميلا وان رأس المال الذى عين لذلك ٤٤٫٠٨٠٫٠٠٠ لبرة فيكون ١٣٫٩٤٠ ليرة على كل ميل وبلغ عدد المسافرين فى السنة المذكورة ماعدا العسكر ١٩٫٢٧٩٫٦٦٨ ومقدار البضائع التى نقلت فيها ١١٫٩٠٤٫٧٦١٫٠١٢ طنا ومقدار ما تحصل منها ٥٫٣٩٩٫٤٤٠ ليرة اعنى ١٫٧٠٧ ليرات من كل ميل • هذا ما تيسر لى نقله من الكتب ومن صحف الاخبار واقول انى سمعت من غير واحد ان اعظم سكة فى انكلترة هى التى يسافر بها من لندرة الى برستول انفق فى انشائها نحو ستة ملايين ليرة وايرادها فى كل شهر مائة وخمسون الف ليرة ثم ان الرتل الذى يقف فى عدة مواضع يسير فى الساعة نحو عشرين ميلا فاما الرتل المخصوص فانه يسير اكثر من خمسين وهو يمر كالبرق الخاطف فاذا نظرت اليه هالك مره وربما وقفت له الارتال البطيئة خشية المصادمة والمحسوب ان الجعل على كل ميل فى المحل الاول قرش ونصف وفى الثانى قرش وفى الثالث نصف قرش ومما مر تعلم ان منشئى هذه السكك جماعات يخرجون مالا من ملكهم ويشتركون فيها دخلا وخرجا فاذا اراد احد منهم ان يبيع حصته فيها اشتراها آخر ولباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة بل احسن وفى طول السكة يقيمون رجالا يتعهدون القضبان ويحافظون على تنظيف الطرق فقد يتفق ان بعض الاعداء

يكسر قضيبا منها فيكون فى ذلك هلاك نفوس شتى ✦ ومما ينبغى ان يلاحظ هنا ان الارتال الفرنساوية اقل عرضة للمصادمة والخطر من الارتال الانكليزية فكل يوم تسمع فى بلاد الانكليز عن عطب عرض لاحد الارتال ولهذا كانت الشيوخ والعجائز عندهم يأنفون من السفر فيها ويؤثرون السفر فى بعض مراكب البر على قديم عادتهم وسبب كثرة هذه الاخطار عندى هو ان مديرى المزجيات كغيرهم من ابناء جنسهم فى الانهماك فى شرب المسكرات فيشربون وهم مباشروا الآلة حتى يعزب عنهم الرشد والصواب ففى سنة ٥٦ هلك فى هذه السكك فى بريتانيا مائتان واحد وثمانون نفسا واصيب نحو اربعمائة وذلك ما بين مجروح وارب وقس على ذلك خطر السفن فقد تلف لهم فى السنة المذكورة على سواحل المملكة فقط الف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة والمعلوم من مجمل الحساب انه يفقد لهم فى كل شهر مائتا سفينة ومع ذلك فهم اغنى الناس جميعا فتعجب والاحظ ايضا ان الانكليز اذا عملوا شيئا فانما يراعون فيه وجه الكسب والمصلحة فقط والفرنساوية يضيفون الى ذلك راحة المسافرين ورونق المحل والتفاخر فان المحل الثانى فى ارتال الانكليز لا يشتمل الا على مقاعد من خشب اذا قعد عليها الانسان بضع ساعات الم غاية الالم فاما عند الفرنساوية فانها تكون شبه الاريكة يقعد عليها المسافر ما قعد ولا يمل وقس على ذلك البواخر ومواقف الارتال فى فرنسا احسن منها فى انكلترة غالبا وابهج وفى بعضها مطاعم عظيمة يجد الانسان فيها كل ما يشتهى بخلاف مواقف الانكليز فان ما فى مطاعمها كريه ولا سيما القهوة فانها عبارة عن حسا القطانى ولهذا كان اكثر المسافرين من الانكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم مدة السفر ويأكلون وهم قاعدون فى العواجل وقل منهم من يتغدى فى المطاعم وما ارى الحق الا معهم فان تلك المطاعم فضلا عن غلائها ربما اورثت الآكل هيضة تمنعه عن السفر ✦ وفى كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التى ربما ينساها المسافرون هناك لسبب العجلة او الذهول فتبقى هناك محفوظة حتى اذا علم صاحبها ردت عليه فى الحال والا ابقيت فيه سنتين ثم تباع ويوزع ثمنها على خدمة الموقف ولا سيما الذين اصيبوا منهم فى ابدانهم واتفق مرة لرجل ان نسى كواغذ مالية بمائة وخمسين ليرة فلما عرف اسمه ردت عليه

واتفق لى ايضا انى كنت نسيت خرجا فى كالى ولما استقر بى المقام فى القرية تفقدته وعلمت بانه بقى هناك فكتبت الى مدير الموقف فيها فلم يلبث ان ارسله الىّ • ويحسن هنا ان نذكر ما يناسب المقام مما اورده البخارى فى باب اللقطة من صحيحه قال حدثنى محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن سلمة قال سمعت سويد بن غفلة قال لقيت ابىّ بن كعب رضى الله عنه فقال اخذت صرة فيها مائة دينار فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيته فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيته ثلاثا فقال احفظ وعاءها وعددها ووكاءها فان جاء صاحبها والا فاستمتع بها ويروى استمتع بها بحذف الفاء قال ابن مالك فى التوضيح فيه حذف جواب ان الاولى وحذف شرط ان الثانية وحذف الفاء من جوابها فان الاصل فان جاء صاحبها اخذها وان لم يجئ فاستمتع بها والتعريف ذكر اللقطة والضالة وطلب من يعرفها انتهى ملخصا من شرح شواهد التحفة الوردية للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادى • فيكون مديروا المواقف على هذا آخذين بهذا الحكم الا ان فى الامر بتعريف الضالة من الفضل ما فاتهم

اما خلق الانكليز فالغالب على الرجال الشقرة وتوسط القامة مع الضلاعة والقوة وشدة العصب وزرقة العيون وصغر الانوف والظاهر ان الشقرة لا تتوقف على البرد وحده وانما اخص اسبابها الدم فان اهل جبل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون الذى يرى فى هذا الجيل والغالب فى عليتهم امتداد القامة والرشاقة ثم ان الحسن هنا فى الرجال منقسم الى ثلاثة اقسام • الاول فى العسكر فانهم ينتخبون ممن حسن وجها واعتدل قدا ويلحق بهم الشرطة • الثانى فى خدام الكبراء والامراء فان السيدات يتنافسن فى الغسانى ولا يتناولن شيئا الا من يد مليح وان يكن الشئ المتناول قبيحا • الثالث فى الكتاب الذين تستخدمهم التجار المثرون واصحاب المحترفات والثابات الحافلة حيث يكثر تردد الخواتين للشراء وغيره فان ذلك ادعى الى حملهن على الاسراف وما عدا هذه الانواع الثلاثة فقل ان تبصر مليحا فاما فى باريس فلم الحظ ذلك الا فى دكاكين اللحامين حيث تنتاب الخوادم الشابات لشراء اللحم والذى يظهر لى فى الجملة ان رجال الفرنسيس اجمل من نسائهم ومن رجال الانكليز وان نساء هؤلاء اجمل

من

من رجالهم ومن نساء اولئك • ومن العجب ان الانكليز قد يبلغ احدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في راسه ولا في عارضه وانما يغلب عليهم في هذه السن الدرم والبدرد اعني سقوط الاسنان وعندي ان اعظم اسباب الشيب في الاصل هو الهم والخوف من ظلم الولاة وذي الامرة فان احد الانكليز اذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش ان اميره بل ملكه ينفس عليه بذلك لا بل يتباهى به ما شاء لاعتقاده ان غناه وغنى امثاله موجب لغنى الدولة وشرفها ولا يخشى ايضا ان يتطاول عليه في حقوقه احد ممن هو اعلى منه فان الجميع في الحقوق متساوون وان القاضي والجنرال عتيدان لكل من الغني والصعلوك والنبيه والخامل وحسبك ان بعض باعة الشراب اقام دعوى على دوك كمبريج ابن عم الملكة فما وسعه الا الحضور بين يدي القاضي • ثم الغالب عليهم ايضا الكلوح والعبوس ولا سيما اهل القرى وان يكن جوهم اصفى من جو اهل المدن وذلك لان في المدن كثيرا من الملاهي والملاعب ومن العازفين بآلات الطرب فمتى سمعت الام الموسيقى اخذت طفلها ورقصته عليها او غنت له فيدرب بذلك فيغرس فيه حب الطرب والخفة والبشاشة فاما البلاد الخالية من ذلك فلابد وان ترى وجوه اهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة • اما نساء الانكليز فلونهن البياض المشرب بحمرة وعيونهن شهل او زرق في الغالب وشعرهن اسود غالبا وان اشتهر خلافه الا في حواجبهن فقل ان تكون حالكة واسنانهن احسن مما يظن في امثالهن ممن ربي في البلاد الباردة وقد زين بسطاطا القوام والذلف اي صغر الانف والبلج وامتلاء الساعدين ولطف اليدين ومشق الاصابع وبالعنق ورقة الشفتين واسالة الخد وشعر اهدابهن وحواجبهن لا كثير ولا قليل ولا مزية لهن في الصلوتة على غيرهن وهن احسن نساء الافرنج قاطبة صفاء لون ونعومة بشرة واعضادا وترائب واعناقا وقد ذاكرت كثيرا ممن رآهن ورأى غيرهن فكلهم فضلهن الا انهن جد وطويلات الاقدام في الغالب وغير سود الاجفان واحداقهن غير مركبة فوق زئبق كما قال ابو الطيب وسبب الاول عندي تعرضهن للبرد في الصغر فان ترائبهن لا تزال مكشوفة وفي الجملة فلم ار شيئا يصدق على نساء هذه البلاد اكثر من قول صاحب القاموس الشوهاء الجميلة والعابسة ضد ولكن في جعل ذلك من الاضداد نظر وجميع الانكليز يحبون

بحسن الاسنان وهو اول ما يذكرون من الصفات المستحبة ويشبهونها بالدر كما نشبهها نحن ويعجبنى قول ابن النبيه فيها

* وما كنت ادرى قبل لؤلؤ ثغرها * بان نفيسات اللآلى صغارها *

وقد كرر هذا المعنى بقوله

* ولم ار قبل مبسمه * صغير الجوهر الثمن *

الا انهم لا يخصون الفلج بالاستحسان ولا يشبهون العيون بالسيوف بل بالالماس ولا الجيد بجيد الغزال وانما يصفونه بالبياض وربما شبهوه بالمرمر ولا يشبهون الثدى بشئ وانما يصفونه بالامتلاء والاستدارة ولا يتغزلون بالخال على ان النساء يضعن امثاله احيانا ولا بالهزمة فى الخد وانما يستحسنون النونة فى الذقن ولا يشبهون المرأة بالشمس ولا بالقمر بل بالنجم وعندى ان اشوق شئ فى الوجه الفم والعينان لكونهما يتحركان فيحركان الوجد ولا ارى الحق مع من قال احب منها الانف والعينانا بل الحق ما قاله الآخر ياليت عيناها لنا وفاها ولعل الرواة حرفوا المصراع الاول او لعل الراجز حكى واقعة الحال ثم ان النساء فى بلاد الانكليز هن اللواتى يباشرن خدمة الديار غالبا اما الرجال فلا يكونون فى خدمة الا عند الكبراء وكثيرا ما ترى جارية حسناء زاهرة تامة الاوصاف تخدم سيدة من السعالى واذا طرقت الباب وخرجت الجارية لفتحه حسبتها هى المخدومة واذهلك جمال وجهها عن وجه سؤالها ولنساء القرى خصلة ذميمة وهى انهن يشرقن بخاماتهن وهذه تقابل خصلة نساء فرنسا فى لحسهن اصابعهن بعد اكل الحلواء ونحوها ويقابلها من خصال اهل المشرق التجشؤ وهو حباق المعدة غير ان خصلة الفرنساويات اقل اذى لانها لا تكون الا عقب الاكل ومدتها لا تطول وجميع النساء اللائى استخدمناهن كن يلمسن شعورهن ووجوههن وايديهن وسخة ويغسلن وجوههن واعناقهن ويمسحنها بالخرق التى يمسحن بها آنية المطبخ والخصلة الاولى رأيتها فى لندرة ايضا وقد سمعت ان نساء فرنسا المتطرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون مخافة ان تمحل بشرتهن وانما يغسلن بماء النخالة مع ان صابون فرنسا احسن من صابون الانكليز ويقال ان اهل فرنسا الاقدمين وكان يقال لهم الغال هم اول من عملوا الصابون فى اوربا وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالماء فقط اما بان يدعكوها بايديهم او بارجلهم ولم يعمل فى لندرة قبل سنة ١٥٢٤ والمحسوب ان

ان كل واحد من اهل بريتانيا يلزم له سبعة ارطال من الصابون فى كل سنة فعلى هذا يكون اللازم منه لاهل لندرة وحدهم تسعمائة طن وجميع الافرنج لا يغسلون ايديهم بعد الطعام غير ان الكبراء منهم يغمسون اصابعهم فى صحاف يؤتى بها امامهم على المائدة ثم ينشفونها من دون صابون وربما تمضمضوا والقوا فيها الماء من افواههم بحضرة الضيوف وكذلك تفعل النساء وهو عندى اقبح من عدم الغسل * ومما يكره فى نساء الافرنج تربية اظفارهن حتى تأخذ حدها فى الطول وترك شعورهن فى القفا منفشة مشعثة فتى نزعت احداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كشعر القشعر وان احداهن لتلعب بجرو كلب بحضرة الناس وربما نزا دليها ولحس ترائبها ووجهها ونساء الاكابر يستصحبن كلابهن فى العواجل وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه فى احضانهن ويسمى كلب الحضن وانى احمدن نساء الافرنج عموما ومن نساء الانكليز خصوصا انهن لا يستعملن الصبغ ولا الترجيج فكما خلقهن الله يبدون ولا يتباهين بكثرة الحلى والجواهر فغاية تصنعهن انما هو فى تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزى المستعمل فاما نساء الفرنسيس فانهن اكثر زهوا وعجبا من جميع نساء الافرنج وقد كانت النساء هنا يرسلن على طلاهن سوالف مجعدة تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر عجبا به فصرن الآن يسوينه منسرحا على اذانهن اقتداء بالملكة الا ما ندر ومثل هذه العادة فى القلة عادة المرافد وللنساء على الرجال مزيتان علوية صيفية وسفلية شتائية فالاولى اتخاذهن الظلل وقاية لهن من الشمس او لبرانيطهن خشية ان تنصل الوانها وهى فى الواقع عبارة عن ظلل والثانية اتخاذهن التباقيب ذات الشسوع فى الشتاء فتراهن يخضن بها الوحول والثلوج وهى مصلصلة تحت احذيتهن وغطاء رؤوسهن البرنيطة وذلك مطرد فى جميع البلاد بخلاف نساء فرنسا فان لكل نساء اقليم فيها غطاء مخصوصا واكثر ما يهمهن من اللباس الجوارب والاحذية فاما الثياب فالغالب انها من النسيت ومع ذلك فاذا كان للمرأة اربعة قفاطين منه فهى الحظية والحق يقال ان نساء الانكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة فان اقل شئ من الملبوس يرضيهن ومن المطاعم يكفيهن ولا يستعملن الدخان ولا الشوق كبعض نساء الفرنسيس ولا هن مثلهن ايضا فى

كونهن ينكرن مزية الرجال على النسآء فمهما تكن المرأة شريفة من الانكليز تعترف بان الله تعالى خلق الرجال قوامين عليهن واذا اهديت احداهن منديلا او حذآء او نحو ذلك استعظمت الهدية وبالغت فى وصف محاسنها وكررت الثنآء عليك حتى تتوهم انك صرت رابعا لحاتم طي وهرم بن سنان وكعب بن مامة فاما اذا نظرن شيئا من الجواهر النفيسة سوآء اتحفن به او لا فيا للعجب ويا لمنتهى الارب واستعظام الهدية ولو قلت صفة عامة لعليتهم وسفلتهم فقد كانت سيدة ما تكرمت علينا بست ثمرات من الحرشف فلما قابلتها فى اليوم الثانى شكرتها على ذلك فقالت انى وزوجى اهديناها فكأنها قالت ان عليك ان تشكره ايضا كما شكرتني والحق يقال ان ذلك فى اكثر الاحوال اولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تفصح عن الشكر • وقد كنت ارى من النسآء العبل الحسان ذوات البشر الناعم والنضاضة الرائعة من تعصب حر وجهها لحر الشمس فى الصيف بان تعزق الحقول وتحمل الاحمال الثقيلة وتحصد وتبذر وتجمع المحصود وتحتطب وما اشبه ذلك وفى شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نسآء كثيرة يجمعنه وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنص التوراة فى سفر الاحبار فانهن يحصدن الارض من تحته ومع هذا الشقآء فلا تزيد اجرة المرأة فى اليوم على نصف شلين وهو بالنسبة الى غلآء بلادهم بقيمة قرش عندنا فكنت اقول فى نفسى ما ارخص الجمال فى هذه البلاد وما اقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن الى هذا الابتذال او لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقى بورس الشمس او سحمة الضباب

* فلو برزت سواعدهن يوما * لشاعرنا لانشد من ذهول *
* بربات الحقول يحق لى ان * اشبب لا بربات الحجول *
* ولو برزت ترائبهن ليلا * لصدر الدولة القرم الجليل *
* لقال خذوا حطايا الكرج عنى * فدى الصافات عند ذوى الحقول *

وفى الجملة فلا شئ ارخص من الجمال فى هذه الديار • هذا ولما كان لون البياض عاما فى الرجال والنسآء فى هذه البلاد كانت المرأة السمرآء محببة الى الرجال جدا والرجل الاسمر محببا ايضا الى النسآء جدا وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس وهم صنف من نور بلادنا وغجر مصر لولا دنآءتهم لكانت

علية

عليــة الانكليز تصاهرهم وذلك لسمرة لونهم وكحل عيونهم وقدكان الدكتور لي متزوجا احدى هؤلاء الجبسيات رآهــا مرة فاحبها لسمرتها واحبته هي لبياضه فوعدها بان يتزوجها بشرط ان تتهذب في مذهب النصرانية فاجابته الى ذلك فتأهل بها • ومن الغريب ان هذا الجيل يعيش في هذه البلاد عيشة النور في بر الشام سوآء اذ ليس لهم مقر معلوم للاقامة فترة يسكنون الغياض ومرة الخصاص و بعضهم يأوي الى نحو هودج يجره حصان فيجعل فيه رحله وانانه وهكذا يطوف في البلاد واليهم تنسب سرقة الدجاج والخيل او في الاول اذنابها و الانبآء عن البخت ولهم لسان خاص بهم ويقــال لشيخهم ملك الا انهم يخالفون نورنا بكونهم غير مولعين بالطرب والرقص وما ذلك الا لكونهم مولودين تحت رقيع الانكليز الكالح ولما كان هؤلاء يعتنون في السكنى تنصر منهم كثير فان قلت كيف يبصرون البخت والانكليز لا يعتقدون بهذه الامور قلت ان عامة الانكليز على غاية من الجهل فعندهم من التفــاؤل والتشاؤم ما عند عامة بلادنا كما سنبين ذلك بعـد • وعن بعضهم ان هولا الجبسس هم احدى عشــائر مصر الذين خاموا عنهم نير الطــاعة للترك حين غزوا بلادهم حتى اذا فشلوا تفرقوا في الارض فكان اول ما ظهروا في جرمانيــا وذلك نحو سنة ١٥١٧ وحيث كان الناس اذ ذاك على جانب عظيم من الوساوس والاضاليل وظنوا بهم علم بصر البخت رحبوا بهم في كل مكان وفي سنة ١٥٦٠ نفوا من فرنسا ومن غيرها ايضا الا انهم لم يزالوا موجودين في كل مملكة وفي ايام شارلس الاول قتل ثلاثة عشر شخصا من الانكليز لاختلاطهم بهم واخرب مأواهم في نوروود وذلك سنة ١٧٩٧ وعوملوا معاملة البطالين التائهين وقبل سـنة ١٨٠٠ كان منهم في اسبانيا اكثر من مائة وعشرين الفــا ولم يزل منهم في هذه البلاد جماعات كثيرة ومع اختلاطهم بغــيرهم من الاجيــال فانهم لم يحولوا عن عاداتهم واطوارهم وسحنتهم فهم اشبه باليهود اه وقال آخر ان اصلهم من الهند وانهم يتكلمون بلغة من لغاتهــا وان حقيقة اسمهم زنكان او جنكان انتهى • ثم ان تحقق الحسن في السمر او السود في عين الرائي لا يمكن من قريب فاما البيض فاذا رأيت صفا منهم عن بعد توهمتهم كلهم ملاحا لان البياض كما قيل شطر الحسن ويمكن ان يقــال ان ذلك بالنسبة الى الفة النظر وروى ابن عساكر عن خالد بن

سفيان انه قال عمود الجمال الطول وبرنسه سواد الشعر ورداؤه البياض قلت فعلى هذا فقد اجتمع فى مؤنث جيل الانكليز العمود والبرنس والرداء وقد تمحل بعضهم لان فضل السود بقوله

* رب سوداء وهى بيضاء عندى * فهى مسك ان شئت او كافور *
* مثل حب العيون يحسبها النا * س سوادا وانما هى نور *

﴿ وقال غيره ﴾

* يكون الخال فى وجه قبيح * فيكسوه المهابة والجمالا *
* فكيف يلام عاشقها على من * يراها كلها فى العين خالا *

وهذه كلها من مغالطات الشعراء والحق ما قاله البها زهير

* اسمع مقالة صب * وكن بحقك عونى *
* ان المليح مليح * يحب فى كل لون *

﴿ وقال آخر ﴾

* قالوا تحب السواد قلت لهم * احبه فى الشعور والحدق *
* قالوا وتهوى البياض قلت لهم * فى الوجه والمعصمين والعنق *

ثم لا يخفى انه لما كانت اسباب الفساد فى القرى الصغيرة صغيرة لم تكن النساء هنا مائلات الى الفحش والفسق كما هو شان المدن الحافلة ولهذا كان عيش المتزوج فى بلاد الفلاحين من هذا القبيل اهنأ من عيش المتمدنين والذى اتحققه ان عيش المتزوجين من الانكليز فى كلا الوضعين وان لم يكونوا يحتفون بازواجهم ويكرمونهن امام الناس كما تفعل الفرنسيس الا انهم اكثر احصانا منهم لفروجهم واوفر مودة ووفاء لهن فى الحضرة والغيبة هذا فى حق الازواج فاما فى شان الرجال والنساء مطلقا فان رجال الفرنسيس ارفق واحفى فان احدهم ليؤثر راحة المرأة ايا كانت على راحة نفسه فاذا تبوأ مثلا مقعدا فى سفينة او رتل ودخلت امرأة ولم تجد لها محلا فاضطرت الى القيام قام من موضعه واجلسها فيه وكذا لو وقع منها منديل ونحوه بادر حالا الى مناولتها اياه وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الافعال اما الانكليز فلا مبالاة لهم بذلك وكنت كثيرا ما ارى رجالا منهم يضغطون النساء والاولاد حتى يسبقوهن الى موضع يتبوأونه فاذا دخلت النساء ظللن قائمات وحين يسافرون فى الارتال او الحوافل

يتخيرون

يتخيرون احسن المقاعد وربما اداروا ظهورهم للنساء غلاظة وسوء ادب نعم ان نساء الفرنسيس اكثر تكيسا وتظرفا فى الظاهر من نسآء الانكليز الا ان هؤلاء جديرات بالاكرام من عدة وجوه وفضلا عن ذلك فقد يقال ان زيادة تكيس اولئك اصلها من زيادة الاكرام لهن وانما هو جفآء غريزى فى طبع الرجال حتى ان النساء اعتدن عليه ولا يرين فيه نكرا الا اذا عاشرن الاجانب وهذا هو ما تعنيه الانكليز بقولهم نحن خير من غيرنا بعولة وغيرنا خير منا عشاقا والفرنساوية يصفون نساء الانكليز بانهن عسر اى يعملن بالشمال تعريضا بكونهن لسن صنعا كنسائهم وهذا القول باعتبار صنعتى القلم والابرة حق فان عامة النساء هنا لا يحسن الخياطة و لا التطريز ولا الكتابة واذا كتبت احداهن رسالة شحنتها بالغلط والخطأ مع ان لغة الانكليز هينة الأتى بالنسبة الى غيرها ولكن هن معذورات فى ذلك اذ ليس فى القرى مكاتب جيدة ومعلمون ماهرون وربما اجتزئ عن المكتب بان يتعلم فى الكنيسة يوم الاحد شيئا من اصول الدين او شيئا من القرآءة مما لا يعبأ به وفضلا عن ذلك فان الولد متى ادرك وهو تحت حجر والديه لم يستغنيا عنه لانهما اما ان يستصحباه معهما الى المزرعة ليعينهما على عملهما واما ان يبقى فى البيت ليهيئ لهما طعامهما ويحفظ رحلهما وغير ذلك فان يكن والحالة هذه لوم على النسآء فانما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة بل الرجال فى هذه الاماكن لا يريدون اقبال نسائهن على القرآءة والكتابة مخافة ان يسخن عليهم كدأب نساء الفرنسيس وما احسن هنا ما قيل ان المرأة الفاضلة هى التى اذا قرأت خلتها لا تحسن العمل واذا عملت خلتها لا تحسن القرآءة • وعلم من الاحصائيات الرسمية انه فى سنة ١٨٥٥ كان عدد المتزوجين ٣٫١٥٠٫٤٧٠ فوجد من كل مائة امرأة اربعون قد وضعن على الطروس علامة الصليب بدل اسمائهن ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلا على تلك الصفة اه قلت والذين يعرفون ان يكتبوا اسمآءهم ينبغى اسقاط ثلثيهم من عداد ذوى الدراية فان اكثرهم لا يحسنون كتب رسالة • وهنا ينبغى ان يلاحظ ان عامة الانكليز يقرأون التوراة والانجيل بلغتهم ولكن قل منهم من يفهمها وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بانهم لا يفوتهم شئ من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة احوالها

انما تسببت عن ذلك فقلت لهم اما السعادة والغبطة فلست اباحثكم فيهما ولا اسلم لكم بانكم اسعد من غيركم واما الفهم فما اخالكم تفهمون ما تقرأون فى التوراة قالوا سلنا عن شئ منها فقلت على شرط ان لا يسوءكم قالوا لا تخش من الاساءة فان هذه البلاد بلاد الحرية قلت ما معنى الغرلة حين طلب شاول من داود ان يمهر ابنته مائة غلفة من اهل فلسطين فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم الى شاول فقالوا لا ندرى فقلت بل لا تدرون ايضا كيف ان الرجل يمهر المرأة فان عادتكم بخلاف ذلك قالوا بين لنا هذا قلت ههنا نساء واخشى ان افسر لكم معنى اللفظة فتنقبض النساء قالوا اذا كان ذلك كلام الله فلا حرج ففسرت لهم حينئذ معناها فما كان من احدى النساء الا ان اخذت الكتاب ورمت به الارض وقالت معاذ الله ان يكون هذا الكلام كلام الله • اما الخياطة والوشى فقد تقدم ان نساء الفلاحين لا يلبسن سوى الشيت فلا حاجة الى تطريزه وكل واحدة منهن خياطة لنفسها واذا خطن تحت يد تاجر فقلما توفى اجرتهن وما عدا ذلك فان كثيرا من الآلات التى اخترعها الانكليز صارت تغنى عن اليدين • فاما الطبخ فانهم لا يتفننون فيه طبعا لان احب شئ اليهم منه انما هو الشوآء فطباخهم فيه انما هو النار ولما كان وقتهم كله مصروفا فى العمل وتحصيل الكسب لم يكونوا يرون ضرورة لصرفه فى تعدد الوان الطعام وفى الجملة فان الانكليز يحق لهم ان يقولوا ان بلادهم منبت النساء ومعدن الازواج بمعنى ان من تزوج احداهن فقد هنأه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد فى النفقة وراحة البال من الاسباب الباعثة على الغيرة • اما اخلاق الانكليز وعاداتهم فالواجب ان امهد للقول فيها مقدمة وجيزة لازالة الالتباس فيما يرد من بيان ذلك فاقول ان هذا الجيل ينقسم الى خمس طبقات ❊ الطبقة الاولى ❊ الامرآء والوزرآء والنبلآء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الاساقفة ❊ الثانية ❊ الاعيان او العلية وهم الذين يعيشون من ارزاقهم واملاكهم لا من معاطاة شغل او حرفة وليس لهم جلاء اى لقب تعظيم ❊ الثالثة ❊ العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار اهل المراسلات ❊ الطبقة الرابعة ❊ التجار اصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف

بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه ﴿ الخامسة ﴾ اهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الاكبر فعادات اهل الطبقة الاولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها و بين الاخيرة من مناسبة اصلا كما سيأتي وعادات اهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ما ندر اما اهل الطبقة الثانية فان لهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقى بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التي بنيت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم ولما كان اصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر كما ذكرنا وهم الحريون بان يقال لهم بريتانيون او انكليز لكونهم بقوا على قديم احوالهم واطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الاجيال لا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب ان نقدم ذكرهم اولا فنقول ان اول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكترائهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى احد منهم بشان جاره ولا يهمه امر غير امر نفسه فكل ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطاول الى معرفة شئ غيرها فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا الا ما آل الى الحرث والزرع والقين لا يدرى مما يحدث فى بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطلب على الادوات المصنوعة منه وهلم جرا الى المهندس والطبيب واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف يعمل ويمكن ان يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانكليز وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعترض ذوى الامر والنهى فى تدبيرهم ولا تتطاول الى معرفة ما تقتضيه سادتهم واهل شوراهم فلذلك قلما يحدث عنهم شغب او فتنة بخلاف اهل فرنسا فان كلا منهم يتطفل على اولياء الامر فيهم وهذا هو السبب فى كثرة العساكر هناك وقلتها هنا فان جميع ما فى بلاد الانكليز من العساكر لا يزيد على خمسة وعشرين الفا فاذا قسمتها على عدد الاهلين وهو سبعة عشر مليونا ونيف كان كأنه قطرة من بحر ولقائل ان يقول ايضا ان لذلك اى لعدم الفتنة سببا آخر وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضرورى فان هؤلاء النحل العسالة فى خلية الاجتماع الانسانى انما يعملون كما قال بعضهم لتسمين

الزنابير البطالة وهم اطوع خلق الله لاولياء امورهم فلو نهوهم عن ان يناموا مع نسائهم لانتهوا ويمكن ان يقال ايضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون انفسهم وهم فى هذه الحالة اسعد خلق الله وان جميع رسومهم واحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير وكيف كان فان شقاءهم موجب لسعادة الدولة وفقرهم زائد فى غناها واقتصادها واستغنائها عن كثير من العساكر فان مصاريف العسكرى الواحد هنا تبلغ فى السنة مائة وسبعين ريالا وفى بروسيه اثنين وستين وفى الروسية ثمانية وستين وفى اوستريا تسعة وسبعين وفى فرنسا مئة وثلاثة عشر اما فى اميريكا فمئة واربعة وثمانون ريالا ويقال انه يلزم لكل نفر من عساكر فرنسا وانكلترة رطلان وربع رطل من الطعام فى كل يوم منها نحو ثلاثة ارباع خضرة والباقى لحم وخبز فيبلغ ذلك فى السنة ثمانمائة رطل فاذا اضفت الى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والشاى والمسكرات يبلغ الفا وخمسمائة رطل ويقال ايضا ان اكثر ما تجهز عند الدول من الجيوش فى العصر الحالية ماكان فيه لدولة اسبانيا مئة وخمسون الفا ولبريتانيا ثلاثمائة الف وعشرة آلاف ولبروسية ثلاثمائة وخمسون الفا وللدولة العلية العثمانية اربعمائة وخمسون الفا ولاوستريا خمسمائة الف وللروسية خمسمائة وستون الفا ولفرنسا ستمائة وثمانون الفا وهم فى هذا العصر اكثر واول من كان عنده جيوش قائمة كما يرى الآن شارلس الثامن ملك فرنسا وذلك سنة ١٤٤٥ وبه اقتدى شارلس الاول ملك الانكليز سنة ١٦٣٨ وحسب ذلك اولا عند الانكليز غير شرعى • وبلغ مجموع العساكر الانكليزية فى سنة ١٨٥١ ١٧٨,٦٤٥ وبلغت مصاريفهم ١٣,٧٢١,١٥٨ ليرة (١) وكانت العادة قبل حرب القريم اعنى الحرب التى وقعت بين الدولة العثمانية ودولة الروسية فى سنة ١٨٥١ ان يستخدم النفر من عسكر الانكليز طول عمره فكان كثير منهم يفدون انفسهم وبعد خمس عشرة سنة يدعون بان لهم حقا فى ان يسرحوا والآن فرض على

(١) وفى سنة ١٨٨١ بلغ عدد عساكر انكلترة المستوطنين فيها ٦٠,٠٠٠ نفر وجملة عساكرها النظامية الذين فيها وفى الخارج ايضا ما عدا عساكرها بالاقطار الهندية ٣٠٧,٠٠٠ نفر وهذا العدد قليل بالنسبة الى قوة عساكر بقية الدول

المشاة

المشاة خدمة اثنتى عشرة سنة وعلى الفرسان خدمة عشرين سنة ويوجد فى عساكر الانكليز ٦ وسبعة آلاف ومئة ضابط بشهرية وافرة وللنفر من حرس المملكة نحو شلينين فى كل يوم و لكل من الفرسان شلين وثمن وللمشاة شلين وثمن ورتبة امير الالاى فى الحرس تسعة آلاف ليرة وذلك ان هذه المراتب فى العساكر البرية معرضة للبيع عندهم وهو من جملة الاحوال المختلة التى يجب اصلاحها ومصاريف العساكر البرية تبلغ فى السنة سبعة ملايين ليرة ونحوها مصاريف البحرية ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلاثة ملايين (١) ومن طبع الانكليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من كلام الغريب بينهم بل الكهول ايضا لا يعون ما يلقى عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان ما بينهم و بين الفرنساوية فان الحدث من هؤلاء يبتدر الى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت ان البريتانى القح ليس له من نوعى العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزى لما اخطأت وتلك صفتهم من القديم فقد روى عن شيشرون انه قال ان ابله الاسرى الذين جئ بهم الى رومية هم الذين اخذوا من بريتانيا والتمس من صديقه اطيقوس الا يشترى فيما بعد منهم احدا وذلك لبلادتهم وعدم اهليتهم لتعلم الموسيقى وغيرها من الفنون وروى ايضا عن قيصر انه قال ان اهل بريتانيا جيل جاف متوحش اكثر ما يكون وان معظمهم لم ير الحنطة فى عمره قط وان قوتهم انما هو اللحم واللبن لا غير ولباسهم جلود الحيوانات اه قلت ليس معنى قوله قوتهم اللحم انهم كانوا يطبخونه بل انما كانوا يأكلونه نيئا مملوحا كما يظهر من رواية اهل التاريخ فانهم قالوا انه علم من دفتر حاكم نرتمبر سنة ١٥١٢ ان اهل الحاكم المذكور كانوا يقتاتون باللحم المملوح فكان جل طعامهم وكذلك حشمه لم يكونوا يأكلون طول السنة سوى اللحم المملوح وندر معه البقول او الحبوب فمن زعم ان البيف ستك اعنى شواء البقر المشرح كان مستعملا بانكلترة من القديم فقد وهم فان هذا الغداء المرئ لم يعهد قبل شارلس الثانى لانه كان يحب الشواء من ظاهر البقر • قلت والى الآن هم

---

(١) وفى سنة ١٨٨٠ بلغت مصاريف العساكر البرية ١٥٫٥٤١٫٣٠٠ ليرة انكليزية ومصاريف العساكر البحرية ١٠٫٤٩٢٫٩٣٥ ليرة

يحبون هذا الشوآء غير ناضج وربما قطر دمه فى الصحفة ويستطيبونه على سائر الوان الطعام ولكن من رأى اهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الضان ويأكلونه نيئا كف عن لوم الانكليز • هذا ومع تكرر ذكر مدن الشام على مسامعهم من المنابر فى كل يوم احد ومع كثرة قرآءتهم للتوراة والانجيل فلا يكادون يعرفون اين موقع دمشق مثلا من الاسكندرية ولا يتذكرون شيئا عن صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان مع انهما مكررة فى الكتابين المذكورين بما لا مزيد عليه والظاهر ان مصر اشهر عندهم وعند الفرنسيس ايضا من الشام وقد سألنى مرة فى اكسفورد رجل له سمت وروآء فقال من اى البلاد فقلت هو ولفظة هو استفهام بلغتهم فقال آه من هو معتقدا ان هو اسم علم على مدينة ثم قال أتعرف فى هو فلانا وسمى رجلا قلت انا لست من مدينة هو وانما انت سألت سؤالا مبهما يصلح لان يخاطب به اى انسان كان فاذا اردت الآن ان تعرف اسم بلادى فهى سورية فقال احد الجلوس بعد طول تأمل هل سورية مدينة كبيرة الا ان بلادتهم هذه مقرونة بشئ من سلامة الصدر وخلوص النية كما ان فطنة الفرنسيس مقرونة بالمكر والمحال وكما ان عامة الفرنسيس يحسبون كل غريب فيهم من اسبانيا ولا سيما اذا كان اسمر اللون كذلك عامة الانكليز يحسبون كل غريب فيهم فرنساويا سوآء كان اسمر او اسود وسوآء كان على رأسه طربوش او طرطور هذا ولما كانت خلة الجهل ابدا ملازمة للفظاظة والخشونة كان لهؤلاء القوم منهما الحظ الاوفر فانهم يحدقون فى وجه الغريب ثم يتبعونه بقهقهة ويسخرون منه ولا سيما اذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على انهم هم انفسهم لا يحسنون النطق بها فكلامهم كله لحن وخطأ • اما غناؤهم فلا يمكن لذى ذوق سليم ان يطرب به وقد سمعت اغانى الفرنسيس وسائر الافرنج فوجدت بعضها يطرب ويشجى لان فيها مدا وترجيعا فاما اغانى الانكليز غير التى يتلقونها من الطليانيين والفرنساويين فى الملاهى فكلها نبر ودرج • ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون فى الساعة التاسعة ويقومون صباحا فى الساعة الرابعة كل ذلك حتى يأكلوا الفقع اعنى البطاطس ويشربوا الفقاع وربما بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا اهل المدن وغاية محاورتهم اذا تلاقوا فى الطريق ان يقول احدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب

يوحنا

يوحنا وكنت اذا مررت باحدهم يقول لى صباح حسن فاقول له كالصدى صباح حسن وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم صباح طيب فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت الدكطر لى فقال لى ليس ذلك من التحية فى شئ وانما هو مجرد اخبار عن حسن الصباح واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد وان يبتدئ احدهما اولا بوصف الهوآء وصحوه او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع فى كتفه او ثالول فى رجله او اختلاج فى عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ومتى اجتمعوا للمنادمة وذلك لا يكون الا فى القرى الجامعة ملأوا كوبا كبيرا من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن فى قصبة من الطين ثم يبصق فيملأون المكان بصاقا وقذرا وفى خلال كل محاورة يجددون وصف الهوآء وذكر البرد ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس فكأن الضحك منهم الا قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج معه تلك القوة • ومن طبعهم ايضا ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هى شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل اباه وامه كما يأتى بيان ذلك وقد يحدث عندهم مضاجعة الاب ابنته وهو عند الفرنسيس اكثر ولكن لم يبلغنى ان ولدا ضاجع امه وفى المدن الجامعة قد تتواطأ الام وبنتها على الفحش والفساد او الاخت واختها • ومن منكر عاداتهم التى لا يمكن ان يحولوا عنها مع علمهم بان جميع الافرنج خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تحل بالشوارب الا فى الحرب الاخيرة فليت شعرى كيف يرى وجه الجندى محفوفا منتوفا كوجه المرأة ثم ليت شعرى اى حسن للشاب اكثر من الشوارب واى حلية وكمال للشيخ اكثر من اللحية واذا حسن للشاب حلق شواربه فلم لا يحسن حلق حاجبيه واغرب من ذلك ان القضاة واولى الامر فيهم اذا جلسوا لفصل الامور وضعوا على رؤوسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على قذالهم فاخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة فى ذنب ولا يكونان فى لحية لعمرى ان الشيخ بلا لحية وشوارب اشبه بالقرد منه بالانسان والشاب بلا شوارب اشبه بالانثى والخنثى منه بالرجل فانهما من علامات الرجولية ومما خلقه الله فى

الوجه من المحاسن الطبيعية وان يكن من عذر للعامة فى حلق لحاهم فليس للقسيسين وغيرهم من اهل الكنيسة من عذر ابدا فان رسل المسيح كانوا كلهم ملتحين وكانوا يشربون عين الكأس التى يشربها هؤلاء فكيف كانوا يفعلون غير انى لا اقول بترك اللحية على حالها فالاحسن ان تحوف حتى تكون مستديرة قال العلامة الشريشى وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته و يأخذ ما زاد منها على قبضته قال الحسن بن المثنى اذا رأيت رجلا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية بين لحيتين كان فى عقله شئ قال الشاعر

* اذا عظمت للفتى لحية * فطالت وصارت الى سرته *
* فنقصان عقل الفتى عندها * بمقدار ما زاد من لحيته *

ونظر يزيد بن مزيد الشيبانى الى رجل ذى لحية عظيمة وقد تلففت الى صدره واذا هو خاضب فقال له انك من لحيتك فى مؤنة فقال اجل ولذلك اقول

* لعمرك لو يعطى الامير على اللحى * لاصبحت قد ايسرت منذ زمان *
* اذن لشفتنى لحية من عصابة * لهم عنده الف ولى مائتان *
* لها درهم للدهن فى كل جمعة * وآخر للحناء يبتدران *
* ولولا نوال من يزيد بن مزيد * لصوت فى حاجاتها الجلمان *

وقال يعقوب الكندى لجارية كان يهواها انى ارى فرص الاعتياضات من المتوقعات على طالبى المودات مؤذنات بعدم المعقولات فنظرت اليه وكان ذا لحية طويلة فقالت ان اللحى المسترخيات على صدور اهل الركاكات محتاجات الى المواسى الحالقات * وكان المأمون جالسا مع ندمائه ببغداد مشرفا على دجلة وهم يتذاكرون اخبار الناس فقال المأمون ما طالت لحية انسان قط الا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته وما رأيت عاقلا قط طويل اللحية فقال له بعض جلسائه ولا يرد على امير المؤمنين قد يكون فى طول اللحى ايضا عقل فبينما هم يتذاكرون هذا اذ اقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة فاخر الثياب فقال المأمون ما تقولون فى هذا الرجل فقال بعضهم رجل عاقل وقال آخر يجب ان يكون هذا قاضيا فقال المأمون لبعض الخدم علىّ بالرجل فلم يلبث ان اصعد اليه ووقف بين يديه فسلم واجاد السلام فأجلسه المأمون واستنطقه فاجاد النطق فقال

المأمون

المأمون ما اسمك فقال جدويه قال والكنية قال ابو علويه ثم قال ما صنعتك قال انا فقيه اجيد مسائل الشرع فقال له نسألك مسألة فقال الرجل سل عما بدا لك فقال له المأمون ما تقول فى رجل اشترى شاة من رجل فلما تسلمها المشترى ضرطت فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل فعلى من تجب دية العين قال فنكت باصبعه فى الارض طويلا ثم قال تجب على البائع دون المشترى فقال المأمون وما العلة التى اوجبت الدية عليه دون المشترى قال انه لما باعها لم يشترط ان فى استها منجنيقا فضحك المأمون حتى استلقى على قفاه وضحك كل من حضر من الندماء وانشد المأمون

* ما احد طالت له لحية * فزادت اللحية فى حليته *
* الا وما ينقص فى عقله * اكثر مما زاد فى لحيته *

وكانت عائشة رضى الله عنها تقسم وتقول لا والذى زين الرجال باللحى وجاء انه قسم الملائكة قلت وانا اقسم واقول لا والذى زين النساء بعدم اللحى انتهى الكلام على اللحية غير انه علق بى منها شئ وهو انه ذكر فى الصحاح ما نصه وفى الحديث انه امر ان تحفى الشوارب وتعفى اللحى فكيف التوفيق بين هذا القول وبين قول الشريشى ان النبى كان يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسوآء • ومن الانكليز من يرد فوق اذنيه خصلا من شعر رأسه فترى عينيه بارزتين بين قرنى شعر وقذاله يشبه جبهة الثور الناطح • فاما اتخاذ العارية من الشعر الابيض فاصله فيما قيل ان لويس الرابع عشر كان ردى الشعر فاتخذ له عارية يستر بها عوار رأسه وكان اذ ذاك شحا فاقتدت به اماثل البلاد وسرت هذه العادة السخيفة الى الانكليز وهم فى اكثر الاشياء مقلدون للفرنسيس وقد وهى استعمالها الآن بالنسبة الى الاول الا فى دواع معلومة واحوال مخصوصة منها يوم مبايعة الملك او تتويجه ففى ذلك اليوم تحلى كبرآء دولته بهذه العارية ويقابلونه بها ومنها وقت جلوس القاضى على كرسى القضاء لتنفيذ الاحكام الشرعية كما مر وفى محال اللعب والملاهى حين يحاكى اللاعبون واللاعبات من سلف من الملوك والملكات ترى هذه العارية على رؤوس الاحداث من الرجال والنساء وكأنها تزيد الحسن حسنا فكأنها مصداق على قول الشاعر * كل شئ من المليح مليح * ثم لما اخذت هذه العادة فى العقم نتج عنها ذرور الرماد الابيض

على رؤوس خدمة الامراء والعظماء واصل هذه ايضا فيما قيل ان بعض المغنين كانوا يغنون فى موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فكانوا يبيضون رؤوسهم ليضحكوا الناس ثم انتقلت هذه العادة كغيرها من العادات من العامة الى الخاصة وشاع استعمالها عندهم فى سنة ١٦١٤ وفى سنة ١٧٩٥ جعل عليها ضريبة وكانت حينئذ قد بلغت النهاية فجعل على كل رأس جنيه ولم تزل الى الآن والحاصل ان اعظم الاسباب التى تبقى استعمال هذه العادات السخيفة انما هو حصول النفع منها لخزنة الدولة فانه حيثما وجد الربح وجد السداد والرشاد ولو ان الديوان ضرب طستما على اللحى والسوارب لما وسع الناس الا ان يقولوا ان يد الرب على قلب الملك ◆ ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها البوكس وفى محفوظى ان رفاعه بك رحمه الله ذكرها فى قلائد المفاخر بلفظة البوكسه وذلك اذا تخاصم اثنان او تكاذبا فينزع كل منهما رداءه ويشمر عن ذراعه ويصوب الى وجه قرنه جمع كفه ثم يأخذان فى اللكام حتى يغلب احدهما وحينئذ ينهض الغالب المغلوب ويأخذ بيده ويشربان الشراب كالمتوادين والملاكمة للعامة بمنزلة المسابقة للعلية غير ان هذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقا بمنزلة الملهى فى اجتماع الناس للتفرج عليها وفى اواخر القرن الماضى كانوا يعلمونها فى المكاتب ◆ ومن طبع الانكليز عموما التهافت على الشهرة والنباهة بين اقرانهم باى سبب كان ولا سيما فى اسباب المعارف والعلوم فان من يعرف منهم مثلا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من الفارسية او التركية فاذا الف كتابا بلغته ادرج فيه كل شئ يعرفه من غيرها ليوهم الناس انه لغوى وما عليه ان يكتب تلك الالفاظ على حقها او يخطئ فيها وفى عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الالقاب الطنانة فيكتب له انه من اعضاء جمعية كذا وملخص كتاب كذا ومحرر نبذة كذا وخطيب مثابة كذا وهلم جرا ولو عصرت كتابه كله لما بلت منه صدى مسألة وذلك لانهم لا يأخذون اللغات عن اهلها فهما يخطر ببالهم فى تأويلها يقذفوا به جزافا من دون تحرج ان ينسبوا اليها ما ليس منها انظر الى ريشردصون الذى الف كتاب لغة يشتمل على لغته وعلى لغتى العرب والفرس فاقسم بالله انه لم يكن يدرى من لغتنا نصف ما ادريه انا من لغته لا بل سولت له نفسه ايضا ان ترجم

العربى

العربي فخلط فيه ولفق ما شاء فتمثل للاضافة بقوله قدح فضة وملك كسرى ورأس امان والغالب نجم وغاب نجم وكتاب سليمان ونصرا عقبه و فسرها بانها مثنى مضاف الى العقبة ونصروا عقبه والنصرا عقبه والنصروا عقبه واورد حكاية من كتاب الف ليلة وليلة عن ذلك الاحمق الذي قدر في باله ان يتزوج بنت الوزير فلما بلغ الى قوله ولا اخلي روحي الا في موضعها ترجمها بقوله لا اعطي الحرية لنفسي اي لزوجتي الا في حجرتها وقوله ايضا ولا ازال كذلك حتى تتم جلوتها صحف جلوتها بجلادتها فقال ولا اكف حتى يتم ذلها وعند قوله حتى يقول جميع من حضر كتب في الحاشية حظر وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية وقس على ذلك واذا ترجم احدهم كتابا رقعه بما عن له وسبكه في قالب لغته فقد قرأت كثيرا مما ترجم من كلامنا الى كلامهم فاذا هو مسبوك في قوالب افكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك في الحض على الجهاد من جملته ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة الا بجهاد الكفار فذكر ان كان المسلمون يقولون ان النبي معبود وما رأيت احدا تحرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن ومستر لان الذي ترجم حكايات الف ليلة وليلة ومستر برسطون الذي ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري اما الاول فقد ذكر فلتير انه مكث بين العرب سنين عديدة واخذ عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن ولست من ذلك على ثقة اذ الظاهر من مقدمته للترجمة انه لم يخالط العرب وكيفما كان فهو من المحققين واما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وادباءها واما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستصحب بعض اهاليها وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علاثة لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه

* خذا بطن هرشى او قفاها فانه * كلا جانبي هرشى لهن طريق *

فان احدهم لا يبالي ان يؤدي معنى الترجمة باي اسلوب خطر له فلو قرأ سبا في كلامنا مثلا بان قال بعض السبابين لآخر يحرق دينه ترجمه بان دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والغيرة بحيث انه يحرق جميع ما عداه من الاديان اي يغلب عليها فهو الدين الحقيقي القاهر . كما ورد ان الله نار آكلة وهكذا فليس

رى علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به الى التفنن من غيرها كالعبرانية والسريانية
بان هاتين عندهم اهم وانفع وناهيك ان دخل مدرس العبرانية في كمبريج الف
ليرة في السنة ودخل مدرس العربية سبعون ليرة فقط ومتى عرف احدهم شيئا
من لغتنا طابقه على غيره من تلك اللغة واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق
عليه * وقد جرى مرة بحضرة الدكتور لي ذكر احد المساويين فقلت انه
ذو دعوى لكونه نظم ابياتا في لغتنا وشهرها في كتاب مطبوع مع انها كلها
لحن وزحاف فلو كان ذا ادب لما تكلف النظم من دون معرفة قواعده وهو
بعيد عليه بل على جميع الافرنج الذين لم يأخذوا عن العرب قال كيف ونحن
ننظم الشعر باليونانية واللاتينية ولم نخالط اهلهما قلت ههنا فرق وهو ان
هاتين اللغتين كالاصل للغتكم فتعلمونهما على صغر اما العربية فهي اجنبية
عنكم قال ان الانسان ليمكنه ان يتعلم اى لغة شاء كما يعلمها الطفل قلت ما
هذا مذهبي واني اعطي كتبي كلها لاى افرنجي كان اذا نظم بالعربية بيتين
صحيحين بليغين قال انا انظم لك الليلة ثلاثة ابيات فلما ذاكرته في الغد اذا به قد
ناولني رقعة كتب فيها

* ألم تر يا صاح بهذا علامة * بان صار الاجنبي يجرى كرامة *
* وان لم يكن هذا عروضا مصححا * فلا تعطه اسفارك عامة *
* فان كان ذا اذا صحيحا وسالما * تسلمه اجرا اسفارك راية *

فلما قرأتها قلت له فيها زحاف وخطأ فسكت ساعة ثم قال أتدرى ما الالف التي
في قول امرئ القيس * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * قلت هي الف التثنية
عند بعض فان الشاعر خاطب صاحبين له وذلك مستفيض في كلامهم وعند
بعض انها منقلبة عن نون التوكيد قال هذا كله تمحل وتعسف وانما هي
منقلبة عن الهاء من العبرانية فان اليهود يلحقون الهاء بفعلى الامر والنهى
دلالة على الطلب والتوسل ثم بينت له بعد ذلك خطأ اياته فما كان منه الا
ان قال ان لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات بل هي لغة مصنعة متكلف
فيها كثرة القواعد والضوابط بخلاف لغات اوربا وطفق يبين انه يجوز في
اللغة اللاتينية ان تقام حركة طويلة مقام حركة قصيرة نحو ان تجرى
لفظة ماد مجرى مد وغير ذلك ثم سألني كيف تفعلون بال في قولك الدين فانه
اجتمع

اجتمع فيهـا ثلاث سواكن وانتم تقولون انه لا يصح اجتماع ساكنين فقلت اين السواكن الثلاث هنـا قال الالف واللام والدال وقال لى يوما أتدرى من اين اشتقاق الزناء فقلت لا قال من العبرانى فان زنى فيهـا بمعنى باع فكأن الزانية تبيع نفسهـا للرجل وسألنى مرة اخرى أتدرى ما اصل المدة فى نحو آمن فقلت لا فقال هى الف من السريانى وقرأ يوما قوما بطالين فقال البطال عند الصوفية فى ثانى مرتبة العابد فقلت الاولى البطل وقال ايضـا ان يومنا فى قول العرب الى يومنـا هـذا من السريانى وهو يومنان وقد جرى لى معه وقت الترجمة عدة منافسات ومحاولات لا باس بايرادها هنا وان طال بها الكلام فانهـا عنوان على معرفة القوم لغة النصرانيين وخصوصا العربية *

منها انه كان يحاول استعمال كلمة هوذا فى كل موضع يجدهـا فى الاصل اعنى العبرانى فانه لا يمتنع فيهـا ان يقال مثلا لان هوذا او وهو هوذا وكان هوذا رجل وكان يظن ان اذا فى قولنا خرجت واذا زيد بالباب لا تغنى مغناة هوذا * ومن ذلك انه كان يذكر قولنا مثلا احد الرؤساء بدل رئيس ومن ذلك انه كان يريد المحافظة على الاصل بالاتيان بقائلا بعد قال فانه يقـال فيـه قال قائلا مع ان هذا التركيب فى لغة الانكليز منكر ولذلك كنا نجد فى توراتهم وتكلم قائلا لا قال قائلا وفى مثل قولنا ضرب لهم مثلا كان يبدل ضرب بقـال لانه كان يترجم فى عقله لفظ ضرب الى لغته فلا يجد له معنى سوى ايصال الالم وكان يبدل علم اعتقادهم برأى اعتقادهم ويزعم انهـا ابلغ فى المعنى وان الاعتقاد ليس بمرادف للايمان فانه انمـا ينظر الى اصل اشتقاقه وهو العقد وهو غير مفيد معنى الايمـان وكان يبدل ماء البحر بمياه البحر وهذا لا محظور منه الا ان تبديله هوس وجزم بان قولك فى السؤال ما يكون لنـا ابلغ من ما عسى ان يكون لنا وان من ثم الى نؤتى بهـا السببية غير كثيرة الاستعمـال ولا تسد مسد ولهذا وكان يزعم ان لفظة المعجزات ليست من كلام النصارى حتى وجدناها فى نسخة رومية ومن اشد وساوسه تجنبه للسجع والتركيب الفصيح غاية ما امكن حتى انه زعم ان ما فى الترجمة من قوله خرجتم الى بعض كلص سجع وحاول تغييرها فلم يقدر فتركها وهو آسف وكذا وهبه فى ذات خيراتك فى حياتك وفى وكان هناك قطيع من الخنازير كبير فكان يقول هو من السجع الذى ينبغى

مجانبته فى كلام الله تعالى وكان كلما رأى جملة تنتهى بالواو والنون او بالياء والنون يقول انها مضاهئة لكلام القرآن فيبدلها حتى انه رأى هذه الجملة وهى وانتم على ذلك شهود فقال ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن فمن ثم بدلها بقوله وانتم شهود على هذا ووجد عبارة اخرى وهى وما اولئك بعابرين من هناك الينا فقال هذا التركيب فصيح فبدل عابرين بيعبرون ولم اتعجب من تغييره وانما تعجبت من انه شعر بحسن هذا التركيب وزعم ان قولك مثلا وكان رجل اسمه فلان اخصر من قولك يسمى وكلما رأى فى الاصل عبارة كثيرة الالفاظ مما لا داعى له قال ان ذلك للتقوية واذا رأى فيه اجحافا ولو مع اخلال المعنى قال ان فيه حذفا للبلاغة وكان يحاول ان يقال واتفق انه قال واتفق انه افتكر فقلت له هذه لا يصح استعمالها مع الافعال التى لا تقتضى الندرة فى الاستعمال فلا يقال مثلا جاءنى فلان واتفق انه جلس فانه لا ندرة فى الجلوس بعد المجئ فقال واين انت من المحافظة على الاصل والذى ظهر لى من احواله انه فضلا عن كونه شديد التعصب للتوراة فانه كان يتقى لوم خصمائه فانه كان ذا خصوم كثيرة الا انه لا حق اكثر من ان يترجم من لغة الى اخرى بعين الالفاظ والتراكيب اذ لا يتصور بالبال ان لغة تطابق اخرى فى التعبير فكيف يمكن ان يقال بالعربية خرج الدخان من مناخر الله كما يقال بالعبرانية او احشاء الله كما يقال باليونانية وقد ذكرت ذلك لعدة من اهل المعارف منهم وانه من التعبير الغير اللائق بجلاله تعالى فكلهم قاسه على وجه الله وعين الله ويد الله من دون فرق بين نسبة الاعضاء الحقيرة اليه وبين غيرها * ومما اضحكنى من الدكطر لى مرة انه دعانى للغداء يوما وكان ذلك فى نحو الساعة الخامسة قبيل المغرب فقلت له قد تغديت فى الساعة الحادية على ما اعتدته فقال هذا لا نسميه نحن غداء وانما نسميه عجالة فقلت هذا عندك لانك تتغدى وقت العشاء فاما عندى فهو الغداء بنفسه وعينه والدكطر لى هذا كان يدرس العربية فى كمبريج ولم يكن يحسن التكلم بها ولو بجملة واحدة وكان ذا اجتهاد لا ملل معه فكان يقعد على الكرسى للمطالعة اربع ساعات ولا يحلحل عنه وما اخال احدا غيره اشتهر بما اشتهر هو به فى علم اللغات المشرقية وتوظفه فى كمبريج هو السبب الذى حدانى الى الحضور الى هذه البلاد لان الجمعية لما استأذنت حاكم مالطة بواسطة وزير

الامور

الامور الخارجية فى احضارى لاجاور الموما اليه ظننت ان مكثى يكون فى تلك المدينة وهى وان تكن لا تشوق احدا للسكنى فيها غير من يقصدها للتفقه فى الفنون الا انها على كل حال احسن من القرى وذلك كنت ادريه من قبل الا ان البواعث الحالية والدواعى الكونية اوجبت على الدكطر لى ان يعدى عن وظيفته فيها ويلزم قريته وان يكون قطع انف عرفجة يوم الكلاب سببا فى سجن مستملى جان بن بشر قاضى بغداد ولم يكن شئ يسليني فى تلك القرية سوى ترقب الشهر الذى يسافر فيه الدكطر المذكور الى برسطول لاسافر معه حيث قدر على ان اكون معه فى كل مكان وزمان غير ان المذكور توفى وانا بباريس واعفانى الله تعالى من السفر معه الى تلك الدار فعفا الله عنه بمنه وكرمه ثم لما حان الذهاب الى برستول مررت باكسفورد وقصدت ان ارى خزانة الكتب فيها فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها فاخذ يطالع فى فهرسة المعلمين فلم يهتد الى اسمه فقلت لم كيف وانت ملازم لهم لا تعرفهم فقال ان شيخ العربية لا يدرس بنفسه ولا يقرأ ولكن له قارئ فاذا قرأ القارئ شيئا يأخذ الشيخ فى شرحه اى فى توجيهه الى وقائع تاريخية تتعلق بذلك الموضوع وفى تطبيقه على بعض اللغات كما سابين لك عن قريب ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت الى دار الشيخ فقابلته وسألته ان يرينى المكتبة تفضلا وتكرما فاجاب الى ذلك وسرنا معا واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفى واذا فى اول الصفحة لفظة ألا فقرأها الا وفسرها انها الله فتعجبت كيف انه انخدع فهمه لسمعه لانهم جميعا يلفظون اسم الجلالة مرققا هكذا * وسألنى مرة استاذ آخر أتعرف لم دلت فى على الظرفية فقلت لا قال لانها مشتقة من الفم الذى اصله فوه وهكذا يخمنون ويخرصون على معانى المفردات والمركبات فى لغتنا وهاك مثالا على علم هؤلاء الاساتيذ وعلى شرحهم لكتبنا تطفلا فتصور مثلا ان قارئا يقرأ على الشيخ قول ابى تمام

* همة تنطح النجوم وجدّ * آلف للحضيض فهو حضيض *

فيقول الشيخ بلغته النطاح مختص بالحيوانات التى لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها وقد ذكر فى التوراة مرات كثيرة ويمكن ايضا ان ينسب الى ما ليس له قرن فقد روى لينَّاوس الذى قسم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ان

الحيوانات الجماء تتناطح بجباههــا وقد اطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب لما انها تنطح الجدار والنجوم معروفة وقد كانت العرب تهتدى بها فى اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن فى اوربا من يشم لها رائحة ثم لما فتحوا اسبانيا او جزيرة الاندلس وذلك سنة ٠٠٠٠ اخذ عنهم العلم بعض من الافرنج ومنهم سرى فى سائر بلدان اوربا وكان انقراض الملك من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد ان دامت العرب فيها اصحاب امر ونهى وسيادة نحو مائتين وخمس وسبعين سنة اما الالف واللام التى فى النجوم فهى اداة التعريف وهى فى الطليانيــة والاسبانيولية ال للمذكــر ولا للمؤنث واللغة اللاتينية ليس فيهــا اداة تعريف فاما اليونانية ففيهــا عدة ادوات ويوجد فى لغتنا الفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربى وذلك نحو الكنا (الحنــآء) والكحل والقــائد والجبره (الجبر) والقرآن والتلى والترثيم او الكرزيم ومنها ما هو من لغة اخرى فاما اللغة الاسبانيولية ففيهــا من هــذا النوع الفاظ لا تعد فاما عدم النطق باللام من النجوم فلكون النون من الحروف الشمسية ثم ان اول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الارض ونسبة بعضها الى بعض وعلة المد والجزر والنور والجاذبية والاستمادية الفيلسوف اسحاق نيوطون ولد فى سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جد ومثابرة على العــلم لا تنظر اما قوله جدّ آلف للحضيض فالحضيض هنا معنــاه الارض من تسمية الكل بالجزء وورود فى التوراة كثير وفحوى البيت انه اى الممدوح ذو عناية بالارض اى بحرثها واحيآئها وانشــآء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها لان الارض كثيرا ما تذكر ويراد بها سكانها وذلك ايضا مستفيض فى التوراة حتى ان هذا الممدوح صار ارضا وخصبا لقاصده واما ان كان هذا الشيخ قد نبذ لنسختنا الاكسفوردى المشار اليه فانه يقرأ الحديد بدل الحضيض وحينئذ فيكون تأويله عنده وجدّ اى حظ او اب فان الجد يذكر ويراد به الاب وبالعكس كما ورد فى التوراة آلف لاستعمــال السلاح وقهر العدو فان الحديد يراد به الســلاح كله وهــذا الاستعمال ايضــا وارد فى التوراة وهكذا يمشى على انعكاس البيت بهذا القصد هو وتلامذته وبعد انقضآء ســاعة ونصف على تأويل هذا البيت يقومون وهم سامدوا الرؤوس عجبا وفخرا ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والاموى والزيتونة

هم دون هـذا التحرير الذي عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلين على الاندلس وقد استبد هؤلاء الاساتيذ بهذه الدعوى بحيث انهم لا يوظفون الغريب في هذه المدارس وانما يسمحون له بان يعلم استخاصا على حدتهم فلا هم يعلمون حق التعلم ولا يأذنون لغيرهم في ان يعلموا حق التعليم وهذا الرأى فاش ايضا في مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها ولا بد لشيخ العربية عندهم ان يكون مطلعا على اللاتينية حتى اذا جهل شيئا من تلك عمد الى هذه فتور منها رقعة • واعلم ان كمبريج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما يحتوى على نحو عشرين مدرسة والتي طالب ففي الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات وفي الثانية علوم الادب والفقه والمنطق والفلسفة الا ان منطقهم ليس كمنطق المتقدمين في علله وتعليلاته ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما احد يقصدهما الا اولاد الكبراء والاغنياء ولا سيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخا بانفه مصعرا خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند واكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريا ففي حان يوم الامتحان عرف ما يريد الشيخ ان يمتحنه به من المسائل اذ هي محصورة معدودة فيجتهد في حفظها وترسمها فاذا سردها عليه واحسن سردها اجازه بصك يذكر فيه انه نال مرتبة العلمين وهي عندهم متنوعة ولكل من هـذه المدارس اوقاف يعيش منها التسيسون الملازمون لها ويقال لكل منهم فلو وربما كان ايضا من غير التسيسين فان كل من نبغ في علم من العلوم اجرى عليه الرزق من الوقف فمنهم من له مائتا ليرة في السنة ومنهم من له اكثر ولكن بشرط ان لا يتزوج فتى تروج انقطع عنه رزقه الا انهم لا يتزوجون غالبا الا بعد ان يحصلوا على معاش من خدمة احدى الكنائس وفي يوم معلوم من كل سنة يحصل نزاع ولكام بين طلبة العلم وبين الاهلين وربما غلبت فيه الطلبة على قلتهم ويسمونه يوم الكون والتون وذلك لان الطلبة يلبسون ثوبا اسود كالقفطان ويقال له كون والبلد بلغتهم تون وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير ان كتب اكسفورد اكثر وعدة ما فيها من الكتب العربية وغيرها نحو ثلاثمائة الف كتاب واعظم ما سرني فيها نزولي في محل كان يسكنه شكسبير كذا قيل لي والله اعلم • وفي مدة اقامتي كلها في كمبريج وهي

اكثر من سنة لم اسمع ولم ار من اللهو الا قردا وقرادا يلاعبه وكان القرد يضرب بالدف والنساء والاولاد بل الرجال يجرون وراءه ولم ار احدا منهم اعطاه شيئا ومرة اخرى رأيت امرأتين تعزفان بآلة طرب فرميت لهما من الشباك بنصف شلين فاستكثرتاه ثم ان اكثر القائم بخدمة هؤلاء المدارس نساء واكثرهن حسان فتأتى المرأة فى الصبح الى محل احدهم وهو فى فراشه لتوقد له النار وفى الليل تحضر له الشاى وكنت ذات ليلة عند احدهم فاقبلت امرأة كأنها البدر الطالع وقالت له هل دعوتنى يا سيدى قال لا ثم دعاها لتحضر له الشاى فتأملتها على النور واذا هى نور آخر وقد ذكرت ذلك لبعض المتورعين منهم فاقر بانه غير لائق وانما جرت به العادة ولا سيما ان هؤلاء النساء متزوجات ولا يذهبن الى ازواجهن الا عند نصف الليل وفى هاتين المدينتين عادة قبيحة فى المبيع والشراء بخلاف عادة الانكليز وهى ان الباعة يبيعون الطلبة نسيئة ويتقاضونهم ما هو فوق القيمة فاذا اراد غريب ان يشترى شيئا تقاضوه قيمة النسئ الا ان يكون الشارى عارفا باحوالهم فيقول انما شرائى بالنقد وقل من يذكر له ذلك وحيث كان هؤلاء الطلبة من ذوى الايسار والاسراف كانت هاتان المدينتان اغلى من سائر بلاد الانكليز • اما ما عندهم من الطيرة والتفاؤل فقد ذكر صاحب الجرنال المسمى باخبار العالم عدد ٦٧٤ ان الانكليز يتطيرون من لقاء المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام فحينئذ تزول الطيرة ومن السفر يوم الجمعة وان يكون المدعو فى عيد الميلاد رابع عشر شخصا وان يعارض سكينان وقت الغداء وان يمشى احد تحت السلالم وان تبقى اغصان الميلاد فى البيت بعد عيد كندلماس والا فان ابليس نفسه يأتى ويأخذها قلت اغصان الميلاد هى اغصان يقتطعونها ويزينون بها الغرف والبيوت ليلة عيد الميلاد ويقال لها ميزلتو وهى عادة قديمة من عادات اعياد الدرويدس وهم حكماء اهل بريتانيا فى القديم وسيأتى ذكرهم قال واذا رمى بنعلين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يرومها كان ذلك فالا بنجاحه وتوفيقه وهذا تستعمله خصوصا علية الناس فى بعض البلاد ولا سيما عند الاعراس واذا قص الانسان شعر رأسه مدة نمو القمر نما وجثل ويتطيرون ايضا من رؤية الهلال من شباك او زجاج ونحوه فاذا رأيته فى الفضاء فاقلب ما فى جيبك من

الدراهم

الدراهم او الفلوس وتمن خيرا فى الشهر القابل تنله وان يضع احد ملحا فى صحفة غيره وكذا لو قلب احد وعاء الملح على المائدة واصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صور العشاء الاخير ويهودا مبددا للملح قلت عادة اهل بلادنا اذا ابصروا الهلال ان يبرزوا له درهما ويقولوا جعلك الله شهرا مباركا فاما قلب الملح فهو عند العرب كناية عن الغدر والخيانة وحفظه كناية عن حفظ حقوق المودة والعشرة وقسمهم بذلك لتعظيمه قال العلامة الخفاجى وعليه قولى فى خائن الاخوان

* لا يعرف الخبز ولا الملح اذ * يأكل فى غيبته لحم اخيه *

كذا نقلته ولعله قال يأكل لحم الاخ فى غيبته ليتزن البيت واذا انقلبت الكرسى برجل عزب كان دليلا على انه لا يتزوج فى تلك السنة وهو غريب فانهم شبهوا المرأة بالكرسى وهو عين ما عند العرب بقولهم قعيدة الرجل امرأته واذا نأجج لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على نزاع ونقار يقع بين اهل البيت واذا طارت جمرة من النار ووضعتها عند اذنك وسمعت لها صوتا دل ذلك على قبضك دراهم ورؤية نحو عسكر متقسم الى اجزاء فى قدح دليل على سفر طويل ومشاق ووقوع سكين على الارض دليل على قدوم غريب واذا عزم الانسان على سفر واكل نصف بصلة وترك الباقى كان دليلا على عدم توفيقه وحك العين اليمنى دليل على البكاء واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك واذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة على قبلة او الذقن فعلى لحم طرى او النحر فعلى اتخاذ منديل او الاذن اليسرى فعلى مدح يثنى عليك به احد وبعكس ذلك الاذن اليمنى او الانف فعلى شئ يغيظك وكأنه ملحوظ به معنى الانفة من الشئ وهو غريب او الكف اليمنى فعلى قبض دراهم او اخمص الرجل فعلى مخاطبتك رجلا اجنبيا او الكوع فعلى رقودك فى غير فراشك ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشؤم فالاولى ان يعلق فى مسمار او وتد واذا مات احد وتيبست اعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفردا والا فلا بد من ان يأتى على آخر ونباح الكلب بما يشبه العواء تحت الشباك دليل على الموت وكذا اذا حاولت هرة ان تدخل من الشباك او دبت الخنافس على الموقد او وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الآلات واذا عزم

احد على ادارة مصلحة وهبت الريح فى غد يومه من الشمال فانه يفوز وينجح واذا كسب دينارا كسبا هينا بصق عليه ووضعه فى كيسه وكذا يبصق عليه اذا كان اول دينار مكسوب صبحة يومه واذا اهدى محب الى محبوبه سكينا او مقصا فلا يلبثان ان يفترقا فلا يقبل ذلك منه الا ان يضعه على مائدة ونحوها او ان يعطيه فى مقابلة الهدية فلسا ووضع المنفخ على كرسى او مائدة مورث للنزاع وازدهار النار مساء دليل على قدوم صاحب المنزل مسرورا وعثار انسان وهو مرتق فى الدرج يدل على الزواج والاكثار من الضحك يعقبه البكى وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على انفاق الدراهم عبثا وسقوط مشاطة شعر النساء فى الماء يورث تساقط الشعر بخلاف ما لو وقعت فى النار والنظر فى المرأة ليلا مكروه الا عند الاضطرار وهو مشهور عندنا ايضا وابتلال ثياب المرأة وهى تغسل تطير بان زوجها يصير سكيرا والشامة فى العضد تيمن وبركة واذا احمر وجه الانسان كان علامة على ان احد محبيه يذكره واذا شرق احد بشئ قالوا له فى معرض الكلام قد ارتكبت سرقة او خيانة ونحوهما وهذا مستعمل ايضا عند اهل الشام وهو طبيعى وتأويلهم للاحلام قريب من تأويلنا فالحلم بكلب دليل على صديق وبحية امارة على عدو وبامرأة سيئة دليل على شر ومصيبة وقس على ذلك • وفى اول ليلة من تشرين الثانى تشترى البنات جلوزا ويشوينه ثم يكسرنه فاذا خرجت اول جلوزة مزوجة استبشرت صاحبتها بالزواج فى تلك السنة يفعلن ذلك ثلاث مرات والا فلا ونحو منه انهن يشترين رصاصا ويذبنه فى ملعقة من حديد ثم يفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح الى اناء فيه ماء وكيفما تشكلت قطعة الرصاص فى الاناء استخرجن منها فالا على حرفة من يخطبهن وفى تلك الليلة يملأن افواههن ماء ومعه شئ من حب شبيه بالحمص ويمتنعن من الضحك لئلا يخرج الماء ثم يخرجن الى الطرق واول اسم يطرق مسامعهن فهو اسم الشخص الذى يقدم على الزواج وحينئذ يمججن الماء واذا شاء احد ان يعرف اخلاص قلب انسان عليه يضع مفتاحا فى الانجيل ثم يربط الانجيل بخيط على شكل الصليب ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم يتلو الآيتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الاول من سفر راعوث فاذا

دار

دار المفتاح كان ذلك دليلا على اخلاص قلب الشخص المضمر والا فلا والزواج في شهر ايار شؤم واذا اراد احد ان يفتح دكانا او يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة بل يوم الخميس او السبت وهذا التطير فاش عند جميع رؤساء المراكب وفي السنة الكبيسة لبس النساء ثوبا احمر تحت القفطان وكلما اكثروا من اصناف الحلواء في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها وفي عيد الميلاد يصنعون نوعا مخصوصا من الحلواء يسمونه كرسمس پودن ويبقون منه شواية في الصوان تبركا بها واذا مضى عليهم هذا العيد من دون اكل هذه الحلواء اوجسوا النغص والقلة سنتهم كلها واذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدروا على اتخاذها بعثوا الى اهلهم يستهدون منها لماظة فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الظفر وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعا كثيرة ونارا متأججة ويزينون الغرف بتلك الاغصان التي تقدم ذكرها ويظهرون الفرح والابتهاج واذا مشت امرأة من تحتها حق للرجال ان يقبلوها وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ايلول ويسمونه ميكلمس اي عيد ميكال يأكلون الوز وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكا مخصوصا يسمونه كعك اليوم الثاني عشر • ومن اوهامهم ايضا الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن فقد كنت ارى في كل ليلة بلندرة جمعا عظيما واقفين عند احدى المقابر لما شاع عندهم من ان روحا تراآى فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس ابيض فاوجب انحساهم هذا احراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردد الروح او لعله كان حيلة في منع اجتماع الطغام لانهم حيثما اجتمعوا اجتمع الشر ويوجد في لندرة موضع اسمه هاتن كاردن فيه عين ماء يزعمون انه يجري منها دم في كل يوم عند نصف الليل ولها قصة طويلة لا يمكن ايرادها هنا • ومن ذلك اعتقادهم بانه متى احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت فيسمع له قرع على الباب او الحائط او صوت نحو صوت جر السلاسل او طنين الجلاجل فاذا سمع ذلك منه ثلاث مرات كان الموت بعدها لا محالة •

ومن النوادر هنا ان رجلا كان يماشي زوجته في بستان وهما يتحدثان وفيما كان يكلمها احست بكرب وانقباض فقالت له تنح عن هذا المكان فاني اظنه محضورا فتنحى عنه ثم سأل عنه بعد ذلك فعلم انه عند تحادثهما

كان بالقرب منهما رجل يقتل نفسه • وقرأت في بعض صحف الاخبار ان رجلا قتل ولدا صغيرا فقضي عليه بالموت ولما سئل عن سبب قتله اياه قال كنت اريد ان اتخذ من جمجمته مصباحا ساترا حتى ادخل البيوت ولا يرانى احد • واتفق في بعض السنين ان ظهر في السماء نور ابيض امتد من المشرق الى المغرب خفيف المر وكان كأنه هباء ثم انتشر في عنان السماء كله وظهرت عقب ذلك حمرة في الافق ثم كثر وعظم فطفق اهل الدار التي كنت فيها يبكون ويضجون و يستغيثون فسألتهم عن سبب ضجيجهم فقالوا انها آية على المعامع والحروب فقلت كلا بل هي آية على فساد البطاطس فانقلب بكاؤهم ضحكا وكانت تلك السنة رابع سنة مشئومة على غلة هذا النبات في ارلاند فكان الناس في هاجس عظيم لذلك لان جل طعامهم بل طعام الانكليز ايضا انما هو منه ثم اعقب تلك الآفة حميات ووباء فمات اناس كثيرون ورثى لهم كثير من الدول فجاءهم امداد منها وامدهم مجلس مشورة الانكليز بعشرة ملايين ليرة • واعلم انه قد يتشاءم الانسان من مكان او زمان و يتفاءل بغيرهما و يكون ذلك بمجرد وهم مثاله ان يكون في محل لم ينتفع فيه الا بوعود واماني فيمل منه و ينتقل الى آخر فتحقق فيه امانيه فيرى ان ذلك من يمن الانتقال مع انه لو بقي في المحل الاول لصحت له • وفي بلاد الفلاحين بل وفي المدن الجامعة ايضا نساء يدعين علم المغيبات بطرق مختلفة منها التأليف بين اوراق اللعب المزوقة وذلك بان تصف احداهن منها ثلاثة صفوف كل صف يشتمل على سبع ورقات ثم صفا رابعا من خمس ورقات او خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات ثم صفا آخر من اثنين وتضمر ان احدى المزوقات الحمر كناية عن امرأة واحدى السود كناية عن رجل اسمر وتنسب لكل من الورقات المنقطة خاصية من البخت وضده وتقابلها بتلك المزوقات التي عليها الاضمار ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الابهام والتوجيه وقد اتفق وانا مقيم في بيت قسيس من فضلاء الانكليز ان حضرت عنده امرأة من هؤلاء فقال لي ها هي الشيطان وذكر الاسم بالعربية فقالت كلا ما انا شيطان بل مبصرة البخت فسألتها ان تبصر لي بختي فالفت بين تلك الاوراق ثم قالت ستكون سببا في تسفير رجل اسمر الى بلاد بعيدة وان امرأتك تأخذ في سفر طويل ويكون حديث في

شأنك

شأنك بعد مدة وتحصل على هدية من الالماس وتذهب الى جماعة عظيمة ويدعوك رجل من سادة الناس فتسافر اليه ويحصل توفيق لولدك وينال هدية وان امرأة سمرآء تساعدك على نوال اربك وان رجلا اسمر يستدعيك اليه وتعدل امرأتك عن السفر ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل ابيض وامرأتك تأخذ هدية وان رجلين اسمر وابيض يشتركان فى تسفير امرأة وان سيدة زهرآء يكون لها مداخلة فى امرك ولك صديقة من النسا سمرآء * وقد وقع ذلك كله الا هذه الثلاث الاخيرة فانى لم احققها وكثيرا ما تذهب النسآء الممتهنات بالخدمة والممتحنات بالعشق الى هؤلآء العرافات ويسألنهن عن احوالهن ويعطينهن نصف ما تملك ايديهن واتفق ان امرأة سافر عنها زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ثم بلغها خبر وفاته فتزوجت آخر فاتت عرافة فقالت لها العرافة تعالى اخبرك بما لا تعلمين ثم ذكرت لها من جملة كلام ان زوجها الاول حى وانه عازم على الرجوع فدخل الرعب فى قلب المرأة فالقت نفسها فى النهر وقدر لها ان بصر بها رجل كان على الشاطئ فبادر اليها وانجاها من الغرق واخرى جنت من تهويل عرافة عليها فكانت تقول فى حال جنونها مبصرة البخت الورق مبصرة البخت الورق * ومنهن ايضا من تبصر البخت برؤية الكف وقد رأيت كتبا مطبوعة فى علم الكف والهيئة فيها من الاحكام نحو ما فى كتبنا * ومنهن من تدعى احضار الغائب وتشخيصه لعين السائل فى مرآة ونحوها كما فى مندل مصر * وفى اخبار العالم عدد ٦٩٤ من شآء ان يعلم ما يجرى عليه فى المستقبل من الشغل او السفر او الزواج او تعاطى مصلحة فعليه ان يسأل المنجم داود ستلا المقيم فى ادورد ستريت مادنلان بحيث يوقفه على يوم ميلاده وعلى جنسه ويرسل اليه اثنين وعشرين طابعا فانه ينبئه بالتفصيل عن كل شئ سوآء كان بالكتابة او مشافهة وكذلك المنجم ملفيل وجوابه عن المسائل يكون نظما وعلى السائل ان يرسل اليه اثنى عشر طابعا وفيها من كان دابه الشغل ومعه بعض شلينات ورام ان يتعلم حرفة مكسبة فى اسبوع واحد فقط فعليه بالمنجم كورتنى فانه يهيئ له وجها للعمل بما عنده من التمليل حتى يمكنه ان يكسب من بعد ذلك من ثلاث ليرات الى عشر وهو على هيئته وهذه الحرفة هى من اكرم الحرف وقد باشرها المنجم منذ سنين وغبط بها فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرزمنهم ثلاثين طابعا * وفى بعض

الاخبار ما نصه قد صار اهل لندرة الآن جديرين بان يكونوا ضحكة لاهل الريف لاعتقادهم بالسحر والشعوذة ولم يبق من داع الى الذهاب الى بلاد الفلاحين لنسمع ان النساء اللواتى لا عيب فيهن سوى الفقر والهرم يستطعن على ان يمنعن البقرة عن الحلب ويعطلن المزارعين عن اعمالهم ويجرون الراقد من فراشه من غير ان يحس به فان هؤلاء المدجلات المدلسات يوجدن الآن فى لندرة مع كونها معدن المعارف والنور وليس المترددون عليهن من سفلة الناس بل من اهل النباهة والايسار وحسبك دليلا على ذلك ما جرى منذ ايام فى ديوان كلد هال حيث احضر بعض الشرطة امرأة من هؤلاء لكونها كتبت رقاع وعيد وتهديد الى بعض التجار من ذوى الشان قال ولما دخلت حجرتها وجدت عندها اربع نساء مترديات باللباس الفاخر احديهن من بنات التجار فلما سألتها عنهن قال انما قصدننى لعلهن بانى ابصر البخت • وقال آخر شكا بعض الناس الى قاضى سرى بان احد معارفه يسمع فى الليل ضجيجا وعجيجا وضرب مطارق فلا يقدر ان ينام قال فلما سرت اليه سألته عما يقاسى فقال ان الناس يفيضون فى حديث فلانة امرأة فلان قلت وما بينك وبين زوجها قال لا شئ الا كلمات دارت بيننا منذ سنة قلت وما يصنع بك الآن قال يبعث الىّ اناسا يضربون بالمطارق ويضجون ويزأطون الليل كله فما يدعنى اهجع ولا احدا من الجيران ينام قلت أتعرف اسماءهم قال نعم ولكن زوج المرأة هو الذى يغريهم بهذه الاذية قال فاحضرت الزوج واخبرته بشكوى الرجل فقال جزاء واقل جزاء قلت كيف قال لانه يأتى كل ليلة الى بيتى ويخطف امرأتى من الفراش ويخرج بها من الشباك ويضبطها عنده الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ثم يأتى بها منهوكة مدهوكة قلت ألا تخجل من ان تقول هذا الكلام وانت شيخ وانى لما لقيتك آخر مرة قلت لى انها عليلة فهل افاقت الآن قال لا ما دام الرجل يخطفها فلن تفيق ابدا قلت قل لى ما يفعل وعلىّ عقوبته قال واى عقاب لمن له تسعة اعمار كالهر قلت هل رأيته عيانا يأخذ امرأتك قال لا لانى اكون راقدا قلت هلا ربطت يديها الى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها قال لن ينفع فى هؤلاء الناس حذر قلت ما السبب الذى حملك على سوء الظن بهذا الرجل قال ذلك الرجل المبارك الذى ارانى وجهه قلت من هو قال هو الذى شفاها بعد ان عجزت عنها الاطباء قلت كيف اراك

وجهه

وجهه قال اخذ نعل فرس واحماها حتى صارت كالجمر ثم اغلق الشباك ووضع النعل فى ماء قذر وقال لى اى وجه ترى فى الدخان واشهد انه كان زوج المرأة الخ • فاما ما يحدث فى بلاد الانكليز من تسميم الازواج بعولتهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار اعنى قتل الانسان نفسه فامر يهول وشرحه يطول نعم ان الانتحار يحدث ايضا فى غيرها واعظم اسبابه العشق والحرمان الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها • حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلاثة اطفال له بالموسى فى وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت انى غادرته مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلاثتهن جثثا مطرحة وزوجى الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق • ومنها ان امرأة شكيت بانها قتلت اصغر اولادها فعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان الثامن مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة فى كل يوم احد وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت قد قتلتهم خوف الاملاق • ومنها ان رجلا كان له امرأة واربعة اولاد منها وكان الرجل والاولاد منتظمين فى سلك جمعية من اصولها انه متى يمت احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات فطمعت المرأة فى نيل الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة واظهرت انه مات حتف انفه فقبضت المبلغ المذكور ثم سمت ابنها الاكبر وله من العمر ست وعشرون سنة فمات وقبضت المبلغ ثم سمت الثالث وسنه احدى وعشرون سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فمرض واستدعى بطبيب فلما اتى الطبيب علم انه مسموم فعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث اخوته وشرحت فتحقق انهم كلهم ماتوا مسمومين • ومنها ان بنتا سمت امها لتستولى على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت امها تناشدها وتتضرع اليها ان تبقى عليها فقالت لها البنت لقد عشت اكثر مما يحق لك ان تعيشى • ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوزستر فى مدينة دكنهام كان يقضى الفرائض الدينية لاحدى النساء المخدومات فلما رأته غير اهل لوظيفته صرفته فمرض فاخذ الى المستشفى ثم شفى ورجع الى بيته وكان له امرأة وولد سنه نحو ست سنين فقامت المرأة

صباحا لتهيئ له الفطور وتركت الولد مع ابيه فى الفراش ثم بعد قليل رأت زوجها خارجا الى الطريق فلما ابطأ عليها ذهبت لتنظر ولدها فاذا به مذبوح بموسى • ومن ذلك ان رجلا ذبح ابنته وواراها فى حفرة ثم ذبح اخاها وواراه معها ايضا وظل يأكل بذلك السكين الذى ذبحهما به مدة ثم علم امره ولما قضى عليه بالقتل فرح جدا • ومن ذلك ان امرأة من ابث قتلت طفلا لها وله ثلاث سنين ونصف واخته وهى بنت سنة ونصف • ومنها ان امرأة ذبحت ابنها فلما سألها القاضى قالت انما قتلته صغيرا لينال سعادة السماء وهذا كاف • ومن العجيب ان مجلس المشورة بلندرة قد اصدر امرا مبرما بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتأديب من يرتكب ذلك او تغريمه وقد بلغ عدد الذين اذوا الحيوانات فى العام الماضى ٤٦٤ شخصا وبلغت غرامتهم نحو ٥٧٤ ليرة وارسل منهم عشرة نفر الى دار التأديب اذ لم تقبل منهم غرامة ورؤى مرة رجل من نبلاء الفرنسيس يغرى كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا ومع ذلك فلم يهمه حظر بيع السم منعا لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن ولكن اذا ذهب الى دوائى ليشترى سما او مسبتا باعه على ان بيع السم فى فرنسا ومالطة محظور على اى كان الا باذن من الطبيب فكأن العجماوات انفع للدولة من بنى آدم وما ارى لذلك سببا سوى هذا الاصل الفاسد الذى يعبرون عنه بقولهم حرية المتجر اولزوم السم للفلاحين فى قتل الهوام كما سبق ذكره الا ان مراعاة الجانب الاقوى فى الامر الذى يكون منه مفسدة ومصلحة الزم واهم وهذه الحرية فى التجر هى التى سهلت للناس ان يغشوا كل شئ من المأكول والمشروب وكل ما يصح فيه البيع والشراء كما سيأتى بيانه حتى ان صاحب الذوق السليم يؤثر المقام فى بلاد الهمج بحيث يذوق شيئا مما تنبته الارض على حاله على ان يمكث بين قوم يعاون عدد نجوم السماء ورمل البحار وهم مع ذلك يأكلون ما يضر البهائم فضلا عن البشر وكل شئ جاوز القدر اضر واقبح من ذلك انه كثيرا ما يحكم القضاة او الجورى على مرتكب القتل بالجنون اعفاء له من القصاص فتذهب الحكمة سدى فى ولكم فى القصاص حياة او فى القتل انفى للقتل والجورى هم اثنا عشر رجلا يقع عليهم الاختيار فيجتمعون

مع

مع القاضي لفصل الدعاوى وهم على قسمين خاص وعام فالخاص مؤلف من الفقهاء وذوى الوجاهة لفصل الامور الخطيرة ولكل منهم ليرة على كل دعوى والعام مؤلف من اصحاب الدكاكين والحرف لفصل الامور الحقيرة ولا ايراد لهم وقيل ان كلا منهم ياخذ ثلثي شلين بحسب ما تقرر في السابق اعني عند رسم هذا الامر ومن امتنع منهم عن الحضور لزمه غرامة واصل الجوري عرف في ايام الصكصونيين وذلك انه كان حدث نزاع بين واحد من الانكليز وآخر من اهل والس فعين ستة نفر من هؤلاء وستة من اولئك للنظر في امرهما ثم اثبتت اقامة الجوري في المجلة التي يسمونها مكنا كارتا كأنها من اعظم اسباب العدل والحرية وللقاضي ان يضبط الجوري عن الاكل والشرب وان يمنعهم النور الى ان يتواطأوا على فصل ما وقد غرم بعضهم لوجود فاكهة في جيبه من دون ان يثبت عليه اكلها واتفق مرة ان بعض المسافرين في سكة الحديد طلب ارشا لحكم الجوري بان يعطى ربع پنى وهو عبارة عن خمسة افلس فانكر عليهم القاضي هذا الحكم واعادهم الى النظر فيه فعادوا ولم تتفق كلمتهم حتى مضى عليهم اربع وعشرون ساعة لم يطعموا فيها شيئا ثم خرجوا وهم يتظلمون من الجوع • قال صاحب التيمس ليس من العدل ان يترك الانسان اشغاله ويأتي لسماع ما يحدث بين الرجل وامرأته من التناقر والتهاتر اه فقد عرفت ان هؤلاء الذين يأتون لاجراء العدل هم انفسهم مظلومون وقد يكون حكمهم ايضا على غيرهم زائغا فقد قرأت في جرنال التيمس ان امرأة اسمها اليصابت جان وود عليها طامة الحشمة والاعتبار وعلى ذراعها طفل رضيع ادعى عليها بانها سرقت شلينين ونصفا في احدى العواجل فثبت عليها الذنب وحكم عليها بحبس ستة اشهر وفيه ان امرأة طاعنة في السن ثبت عليها انها سرقت ساعة وسلسلة قيمتهما خمس ليرات فحكم عليها بحبس ثلاثة اشهر مع الاعمال الشاقة واذا كان للمدعى عليه خصم من افراد الجوري فله ان يستبدله فاذا تواطأوا جميعا على الحكم بقتل واحد ودونوا ذلك في صك قال القاضي للمحكوم عليه قد حكم عليك الجوري الذين هم من اهل بلادك بانك مستوجب للقتل فبموجب شرع هذه المملكة تؤخذ من هنا ويجعل في عنقك حبل وتشنق الى ان تخرج روحك ثم تدفن مع امثالك اه ويوم شنق المقضي عليه يكون فرجة للنساء

فيهرعن صباحا من بيوتهن لمشاهدته حتى تغص بهن الطرق وهو دليل على شدة قلوبهن وجرآئهن وقتل القاتل عندهم لا يكون الا بهذه الصورة و فى احوال كثيرة يقوم التغريب مقامه واذا اذنب احد فى بلاد الفلاحين حبسه الشرطى الى ان يمر القاضى بذلك فيقيم هناك مدة وترفع اليه الدعاوى وفى انكلترة وواليس ستون قاضيا ونحو ستمائة دار للقضاء وثلاث وثلاثون خزنة مال وقد مر فى اول الكتاب عدد القضاة ومرتبهم ومنع القصاص بالقتل فى بعض الجرائر كان مما احدثه سر روبرت بيل فى سنة ١٨٢٤ ثم منع على اى جريرة كانت ثم عمل به فى بعض الاحوال قال الفاضل غولد سميث انه يوجد فى بلادنا من المقضى عليهم فى سنة واحدة اكثر مما يوجد فى نصف اوربا فلا ادرى هل سبب ذلك كثرة قوانيننا او تعدى اهل بلادنا ولعل ذلك مسبب عنهما معا فان احدهما ينتج الآخر • وفى بعض صحف الاخبار انا نرى الجرائر الآن قد تكاثرت و سبب ذلك الدرء بالشبهات فان الذين يثبت عليهم القتل و نقب الديار يعاقبون بالنفى لا غير فاذا انقضت مدتهم رجعوا شرا مما كانوا من قبل على ان المصروف على تغريب هؤلاء المنفيين فى كل سنة يبلغ نحو اربعة وخمسين الف ليرة قال وعدد اصحاب الجرائر التى دربوا فيها من قتل وسرقة مما يوجب سجنهم عليها نحو ثمانين الفا وهو اكثر من عدد العساكر ومصروفهم ضعفا مصروف هؤلاء قلت وفيه نظر • واعلم ان شرع الانكليز هو اطول الشرائع احكاما واكثرها قيلا وقالا واوسع من علم العربية قلبا واعلالا فان بعض الدعاوى التى تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فاكثر وقد انفق مرة فى دعوى اقيمت على رجل اسمه بالمر ٧ر٥٣٢ ليرة وقد وقع بعد تحرير هذا الكتاب ان اقيمت دعوى على شاب من الاغنياء بعدم رشده حظرا له عن التصرف فى املاكه فلزم لاثبات ذلك احضار شهود من الروسية وغيرها فكان المصروف على كل ساعة مائة وستين ليرة وبعد ان بلغ ستين الف ليرة خرج الحكم برشده ويمكن تقسيم شرعهم الى اربعة اقسام ﴿الاول﴾ ما تناقلوه من احكام الرومانيين والنرمانديين والصاكصونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخل فى ذلك امور من قبيل العادة وفى الحقيقة فان جل عاداتهم سنة لهم فما اجدرهم بان يكون لهم من لغتنا لفظة الدين فانها بمعنى الديانة والعادة فارى ان اخلعها عليهم سوآء

قبلوها

قبلوها او لا ﴿ الثاني ﴾ ما بنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيه نص ولم يجر فيه حكم فاذا امر من ذلك احيل على محكمة العدل فيحكم فيه القاضي والجوري بالرأى بحسبما يترجح عندهم انه الاصلح ﴿ الثالث ﴾ احكام مجلس المشورة وهى غير متناهية ﴿ الرابع ﴾ احكام ديوان الكنيسة وليس فى شئ من هذه الاقسام احكام على الطاهر والنجس وما يؤكل وما لا يؤكل وعلى حيض المرأة ونفاسها وحدادها وعدتها وما اشبه ذلك ومع ذلك فيمكن ان يقال انه ليس امر من الامور المتعارفة الا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد الاربعة حتى انهم يكتبون فى المناصع اصلح ثيابك قبل الخروج اشارة الى انه لا يزرر بنطلونه وهو فى الشارع او انهم يكتبون لا يلصق هنا اوراق تعريفات بل اصحاب المطاعم ايضا ينتهون الى وضع شئ من الاحكام فتجد احيانا لوحا منصوبا قد كتب فيه التسليم عند التسلم اى نقد الثمن عند وضع الاكل بين يدى الآكل او لا يؤذن فى استعمال الدخان هنا ونحو ذلك ومتى كانت جريرة الجانى صغيرة اجرى الحكم عليها فى الحال وان كانت بين بين حبس الى ان ينظر فيها وحينئذ يرخص للمذنب فى ان يطلب كفلاء يكفلونه فيخرج من السجن ويتعاطى اشغاله الى ان يعاد عند بت الحكم فان لم يجد كفلاء بقى فى السجن • ومما يرى منكرا من احكامهم اجازة شهادة الاولاد دون البلوغ غير ان القاضى يستحلفهم اولا وينبههم على خطر اليمين والشهادة هذا اذا كان فى الدعاوى الصغيرة اى التى لا توجب القصاص بالقتل والويل ثم الويل لمن وقع فى يد احد من فقهاء الشرع فانهم ادهى خلق الله ولا يعجزهم ان يصيروا الظلام نورا والنور ظلاما ودونك مثالا واحدا مصداقا لذلك وهو ان بعض المتكيسين الذين يدلون بجمالهم دون مالهم عشق بنت احد الاغنياء واذ كان يعلم ان الغنيين للغنيات والمقلين للمقلات خشى ان يخطبها من ابيها فيسفه ويجبه فتوسل الى ذلك بواحد من هؤلاء الدهاة ووعده بصلة حسنة فقال له سأروى فى امرك فأتنى غدا فلما كان الغد اتاه الشاب فقال له الفقيه أرأيتك لو شاء احد ان يقطع انفك ويعطيك عشرين الف ليرة أفكنت ترضى قال كلا ولو اعطيت ضعفيها فانطلق الفقيه لساعته الى ابى البنت وخاطبه فى ان يزوج ابنته من الرجل فقال له كيف اصاهره وهو فقير وليس له غير جماله

قال وعنده ايضا جوهرة اعطى فيها بحضرتى عشرين الف ليرة فابى ان يبيعها فتغير الرجل عن اصراره وما زال به حتى اغراه بتزويج ابنته والبارع من هؤلاء الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوى الخطيرة الا اذا قبضت كفه على ثلاثمائة ليرة فاما كتاب الصكوك فلما كان جعلهم بحسب السطور كانت عبارتهم مملة لما فيها من التكرار غاية الاملال مثال ذلك باع زيد بن بكر داره الفلانية لخالد بن عمرو بكذا وكذا بيعا خاصا مطلقا واقر زيد بن بكر بان داره الفلانية التى باعها لخالد بن عمرو بكذا وكذا قد انتقلت من ملكه انتقالا مطلقا وصارت فى حوز خالد بن عمرو فصارت دار زيد بن بكر والحالة هذه فى تصرف وملك خالد بن عمرو ملكا مطلقا خاصا • ويقع كثيرا ايضا فى احكامهم الديوانية مثل هذا التعبير الآتى اذا اخذ شخص او اشخاص شيئا او اشياء من موضع كذا او مواضع كذا وجب القصاص على ذلك الشخص او اولئك الاشخاص الذين اخذوا ذلك الشئ او تلك الاشياء من ذلك الموضع او تلك المواضع وهذا ضد عبارة كتب الفقه الاسلامية فانها اخصر ما يكون حتى تحتاج الى شرح وحاشية وفقيه يفسرها وقد يقع التكرار فى عبارة كتاب الصكوك فى البلاد الاسلامية وهم الذين يتعايشون من كتابتهم ولقد تعجبت كثيرا مرة من قرآءة صك كتبه بعض كتاب المحاكم بتونس مضامنه الاجل الوجيه الفاضل الموقر محمد بن الحاج احمد قال بترو المالطى النصرانى انه اعطاه كذا وكذا يعنى ان المالطى ادعى على الاجل محمد بكذا وانما فصل هذا الكلام وجاء بهذا التركيب السخيف كراهة ان يذكر اسم المالطى قبل محمد وهو من الهوس الذى يفضى الى خرم قواعد العربية واكثر احكام تونس على هذا المثال من اللحن والخطأ واقول فى الجملة ان عبارة كل الفقهاء فيها خروج عن قواعد النحو واللغة • اما كلام الانكليز فانه لما كان مورده اصطلاح اللغة وعرف التخاطب رأيت من الواجب ان اذكره بالتفصيل فى فصل على حدة اجعله خاتمة لهذا الكتاب ان شاء الله تعالى وانما اقتصر منه على نبذة فاقول ان تحيتهم فى الصباح هى ان يقولوا صباح طيب وفى المساء مساء طيب ثم يردفوها بقولهم هو دو يو دو وترجمتها كيف تعملون انتم تعملون وهو سمة تنبئ عن مزيد ميلهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد فى لغتهم نحو

عشرة

عشرة الفاظ مرادف العمل وهو اكثر ما عندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد الا البارى تعالى او فى الشعر وهو ضربة لازب عند طائفة من جنسهم يقال لهم كويكرس وسيأتى ذكرهم فاما عند الفرنسيس فاستعماله انما هو فى مخاطبة الادلال كأن يكلم المحب محبوبته او الوالد ولده وتحية هؤلاء بعد صباح الخير كيف انتم تحملون انفسكم وكلتا التحيتين لا معنى لهما كما قال فلتير ومتى خاطبت احدا من فلاحى الانكليز وهو مصغ اليك ابدى همهمة عند كل جملة اعنى قوله هم فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار يقول اه واذا هم خاطبوك نفضوا رؤوسهم ولايكادون يشيرون بالايدى كما هو داب اهل مالطة وايطاليا وغيرهم وليس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سوآء تكلم بها جاهل او عالم او ولد او امرأة اذ ليس فى كلامهم مد ولا حركات طويلة واصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية فان فيها غنة تستحب من الاولاد والجوارى جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها ومع ان لغة الانكليز من اللغات المستحدثة ولم تشهر الا واعقبها التمدن وطبع الكتب فلكل اهل صقع عندهم كلام ولهجة خاصان بهم فلا يكاد احدهم يفهم من صاحبه شيئا بمنزلة ما عند اهل الشام والمغاربة من الفرق ومن عادة النسآء اذا كلمن احدا من الخاصة ان ينحنين له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا ايديهم على رؤوسهم وكذا هى عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون ايضا يرتاحون لهذه الدغدغة واذا خاطبوا احدا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له سر وهى بمعنى سيد حتى انهم يقولونها عند طردهم كلبا ونحوه فيقولون مثلا اخسأ يا سيد وقد يستعملونها ايضا لتعظيم المخاطب واجلاله ومن الغريب فى هذه اللفظة انها بالفارسية بمعنى رئيس ووافقها ايضا فى العربية لفظة السرى فلا ادرى اى اللغات هى الاصل لها والرجل يقول عن زوجته معلمتى والمرأة تقول عنه معلمى واذا خاطب زوجته احد من الخاصة بلفظة مادام كان ذلك اشارة الى تنافرهما فخطاب الرضى انما هو ان يقول لها يا محبتى او ياعزيزتى وربما قالوا يا قلبى ولا يكادون يفهمون يا روحى و يا عينى ويكثرون من ذكر الشيطان فى حالتى التعجب والاستفهام فيقولون اين الشيطان كنت ويضيفون لفظة مان بمعنى الرجل الى كل شئ فيقولون للسقاء واطرمان اى رجل الماء

على اخلاق الفرنسيس واقول ايضا فى الجملة انه معما يظن ان دول الافرنج تبغى تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس الامر كما يظن اذ ليس من نفع الدولة والكنيسة ان تكون العامة متكيسة ومتفقهة ولا سيما عامة فرنسا فان معارفهم سبب لتخطئة الدولة ولهذا يقع فيها من التغيير مالا يقع فى غيرها • ويعجبنى من الانكليز خلال منها انه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه فى غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه فلو رأوه مثلا مضطجعا على قارعة الطريق لم يسألوه لاى سبب تفعل ذلك بل ربما حسبوا ان اهل بلاده جميعا يضطجعون مثله وان فى ذلك مصلحة لهم واذا زارك احدهم ورأى عندك مثلا امرأة او نساء لم يهمه ان يسألك عن سبب زيارتهن مما لا بد منه فى بلادنا وكذا لو رأوك تماشى امرأة فى الطريق اوتخاصرها فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله واذا راوا طبقا مغطى لم يسألوا ما فى هذا الطبق كما فى الحكاية المشهورة ويمكن ان يقال ان هذه الخلة هى صنو لاول خلة ذكرتها من معايبهم فى كون كل واحد منهم لا يهتم الا بشأنه ولا غرو ان يكون بعض الخلال ممدوحا من وجه ومذموما من وجه آخر • ومن ذلك الجد فى المساعى وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة او لنكاية الخصم فى الكتابة ولو كان عندنا بريد على الصفة التى هى عندهم لكنت ترى فى كل يوم اهاجى واحاجى تلقى فى البوسطة ويبعث بها كما يبعث بالرسائل نعم ان عندهم يوما مخصوصا فى السنة يتراسل فيه المعارف برسائل مزحية ولكن من دون اذى وايجاب تبعة • ومن ذلك عدم التهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلا متاعا نفيسا لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك فى احرازه ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله وخصلة النفاسة والحسد قلما يخلو منها فى بلادنا جسد • ومنها انهم يضبون على ما بهم فلا يتظلمون ولا يجدفون اى يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريك انه مستغن عنك ولا تكاد تسمع خادما يطعن فى مخدومه او خادمة تعيب مخدومتها وان كانا يكابدان عندهما اما فى بلادنا فقلما تجد خادما راضيا عن سيده بل يعتقد انه هو اولى بالسيادة او ان شرف مخدومه متوقف على بقائه

عنده

عنده • ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقهم فاذا نبغ احد فيهم فى فن وصنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ جذوة قريحته، ورب دوحة نشأت عن فرع لا بل يجد من ينشطه وييسر له اسباب العلم اما فى بلادنا فاذا نبغ احد فى شئ بادره حساده بقولهم هو مدع هو حمار هو متطفل • ومن ذلك انهم لا يتشبثون باعتاب الاقاويل ولا يأتون النميمة والغيبة الا قليلا فاذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ما قيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافاً للفرنسيس فانهم مثلنا فى التعلق بقال وقيل وفى الاستفحاص عن احوال الجيران بل اهل البلد ولما كنت فى باريس كنت اتردد على الكونت دكرانج ترجمان الدولة لما كان عنده من البشاشة بالغريب ولين الجانب وكان هو ايضا يتردد علىّ اذا لزمه ترجمة او انشاء رسالة بلغتنا واذ كنت اكلمه ذات يوم فى مصلحة لى قال لى انى ليعجبنى حسن تصرفك فينا ونزاهة نفسك وذلك مما يدعونى الى اجابة سؤالك غير انى انكر عليك شيئا شاع عنك قلت اذكره لى حتى اتجنبه قال ان الناس يقولون انك قدمت الينا جاسوسا من طرف الانكليز واذا كان ذلك حقا فلا يسعنى اسعافك بحاجتك قلت بودى لو كنت جاسوسا اذن ما كنت لا كلف احدا بشئ فان جاسوس الانكليز يستغنى بوظيفته عن ان يتوصل باحد الى نوال اربه ولا شك فى ان الموما اليه سمع عنى ذلك فان من دابع الفرنسيس ولا سيما شرطة الديوان ان يتجسسوا عن احوال الغريب بينهم فاذا علموا انه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بانه اما بات يعيش من رزقه او من حيلته وحيث كانوا يعلمون انى لم اكن اتعاطى حرفة ولست غنيا ذا عواجل وولائم استنتجوا من هاتين المقدمتين انى جاسوس ومثل ذلك لا يشغل به احد من الانكليز بالله فغاية ما يرومونه من الغريب ان يحسن تصرفه ويقضى دينه الا ان من يسكن عندهم فى القرى يلزمه من باب المجاملة والمخالقة ان يذهب الى الكنيسة فى يوم الاحد وان نام فيها فاما فى المدن الجامعة فلا يلزمه ذلك وقد شهر مرة فى صحف الاخبار ان الملكة اهدت الى بعض الجند منديلا قد كف بكف ابنتها فلم يعبأ بهذا الخبر احد ولا ظن بها احد سوءا ولو شهر امر مثل هذا فى بلادنا عن اميرة لبقى شغل الخواطر والالسن احقابا • ومن ذلك

كلامهم بصوت منخفض وهى صفة تكاد ان تكون من خصوصيات نسائهم وفى بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيقا وزعيقا كاصوات الجن • ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير فى الاشغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شئ عندهم وقت ولكل وقت شغل فاذا اتفق ان زارهم احد فى ساعة الشغل لم يتحاشوا ان يقولوا له مثلا قد انسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا فى يوم كذا فينصرف عنهم عاذرا لا عاذلا لانه هو ايضا يعاملهم بمثل ذلك اما عندنا فربما تعطلت مصالح الانسان بكثرة زواره حتى يضطر اخيرا الى ان يحمل وسادته ويقول شفى الله مريضكم وهذه الصفة اى حسن الترتيب يظهر اثرها بزيادة من اهل الرئاسة والسيادة والادارة منهم فان رجال الدولة اذا ارادوا ان يباشروا امرا من الامور الجسيمة فانما يباشرونه بغاية الاحكام والضبط بحيث لا يوجب تغييرا ما فى الاحكام ولا ازعاجا بشئ على الرعية فاذا اضطروا مثلا فى وقت الحرب الى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج وذخائر فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب الناس وتغيير احوالهم او لغلاء الاسعار واذا شاؤا ان يجعلوا على الناس ضريبة لسد مصاريف الحرب احيل ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور ومعلوم ان الانسان ليهون عليه ان يؤدى شيئا على يد نائبة اكثر من ان يؤديه على يد غالبة قاهرة وفى بعض البلاد اذا شرعت الدولة فى تجهيز العساكر للحرب رأيت جميع الناس يموجون فى الاراجيف ويخوضون فى التهاويل فيظلم اذ ذاك القوى الضعيف ويأخذ المرء بثاره من خصمه وتختل اسباب التجارة ويعدم الامن بين المتعاملين فتكون غائلة الحرب مشعورا بها فى داخل المملكة اكثر من خارجها وقد كانت مدة اقامتى فى هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلية العثمانية وفى خلالها وبعدها فلم يتبين لاحد فرق فى شئ ما اصلا • ويلحق بذلك ان تحصيل لوازم المعاش فى الصيف والشتاء يكون شرعا فلا يتعذر وجود شئ منها باحد الموانع وفى غير البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الامطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب من المأكول والمشروب فترى كل واحد متحجرا فى بيته الى ان تتيح له فرصة الخروج فاذا لم يكن الانسان قد حاكى النملة بان اتخذ مؤنته فى داره صيفا هلك جوعا • ومن اعظم ما يؤول الى تنظيم الامور ترتيب البوسطة وضبطها فى سنة ١٨٥٥

وضع

وضع فى پوسطات لندرة وحدها ٤٦٫٠٠٠٫٠٠٠ مكتوب وارسل اليها من پوسطات الممالك فى سنة واحدة ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ولم يسمع الى الآن ان مكتوبا واحدا منها فقد اذا كان صاحبه موجودا وسيأتى ذكر ذلك بالتفصيل عند ذكر لندرة وما فيها وجعل كل مكتوب اذا ارسلته داخل المملكة نصف قرش ولا فرق فى قرب المسافة وبعدها وهذا المبلغ القليل تشترى به طابعا مصمغا وتلصقه على عنوان الكتاب وقد يبعث بهذه الطوابع من بلد الى آخر فى ضمن الرسائل بدلا من الفلوس فاذا سمع احد مثلا بذكر كتاب طبع حديثا ارسل الى بائع الكتاب ثمنه من هذه الطوابع فانها خفية خفيفة بخلاف ما اذا ارسل اليه ثلاثة شلينات مثلا فانها تثقل حجم الرسالة ولا يخفى امرها واذا بعث احد بمكتوب ولم يجد البريد صاحبها بحث عن المرسل والمرسل اليه فان تعذرت معرفة هذا رده الى المرسل والا ابقى فى البوسطة مدة معلومة ثم يحرق واذا شئت ان تبعث بكواغذ مالية اخبرت صاحب البوسطة بذلك فيجعل على طرف الكتاب طابعا آخر انذارا للبريد من ان يطمع فيه فيفتحه وهناك طريقة اخرى وهو ان ترسل هذه الكواغذ انصافا اعنى ان تقطعها انصافا وترسل فى اول مرة نصفا فاذا جاءك علم وصوله ارسلت النصف الآخر فيلصقهما المبعوث اليه بالاخرى و ينتفع بهما واذا اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط وناولته كاغذا بخمس ليرات صرفه لك فورا وربما تزيد قيمتها فى باريس وغيرها على قيمة الذهب وذلك يدل على ما لبنك الانكليز من المتانة والمكانة وتقليل انواع النقود اى كون النقود تقصر على ثلاثة انواع او اربعة من الاسباب الميسرة للمعاملة بيان ذلك ان للانكليز قطعة من الفضة تعرف بالشلين ثم اخرى قيمتها شلينان واخرى قيمتها شلينان ونصف ثم نصف الشلين ثم ثلثه ثم ربعه ثم الليرة من الذهب ثم نصفها فلو كان عندهم قطعة تساوى مثلا شلينا الا قرشا او قرشين ونصف قرش او سدس الليرة او سبعها او ثمنها حصل الغابن او التوقف فى الاخذ والعطاء فيا ليت ذلك كان جاريا فى البلاد المشرقية وكذلك من ميسرات المعاملة كون نقود البلاد الاجنبية لا يتعامل بها فى البيع والشراء فى لندرة وانما يمكن صرفها عند بعض الصيارفة ولا تغير لاسعار نقودهم قطعا كما يقع فى بعض البلاد كما لا تغيير لاسعار البياعات فانك اذا اردت ان تشترى شيئا من عند تاجر لم تجر العادة

باستحطاطه من الثمن ولاسيما اذا كان المبلغ زهيدا وبذلك يحصل راحة للبائع والشارى ونعبت العامة • ومن ذلك عدم التعنت على النساء فيما لا يكون به مثابة للعرض فاذا كان الرجل مثلا غائبا وجاء منزله فوجد رجلا يحادث زوجته لا يتناولها بالهراوة او القذع و يقول لها يا فاجرة يا عاهرة لا يجمعنى واياك مكان من قبل ان يعلم سبب زيارة الرجل فاما اذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا اعذار وانما هما خطتان اما سكين واما سم وكثيرا ما سمعت زوجة الرجل تقول للضيف بحضرة زوجها خذ يا عزيزى وهات يا عزيزى • ومن ذلك الامن فى الخروج ليلا من دون فانوس ولا باب يقفل على السارى والامن للمسافر ايضا فى البلاد فان الانسان ليسافر فيها ليلا وهو فى آمن حال واصفى بال مما لو سافر فى بلادنا نهارا وترى الولد يمشى فى المدن الكبار وحده ليلا ولا يخشى شيئا ولا هيبة لذوى المراتب والمناصب منهم او للعسكر والشرطة عند المارين بهم وان البنت التى لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتمر بالشرطة فكأنها مرت على بعض اقاربها فتسألهم ويجاوبونها وتسترشدهم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها و يذهبون معها وليس للشرطى حق ان يدخل بيت احد الا باذن الديوان لسبب خطير ولا ياخذ غريما محقوقا الا من الطريق وفى البلاد الشرقية اذا كلمت المرأة بعض الشرطة او العسس ليلا لم يلبث ان يمد اليها يده و يهتك حجابها وهيهات ان ينتقم منه منتقم وعندى ان عدم الهيبة والخوف على صغرهو الذى يورث جبل الافرنج جميعا الاقدام والجرأة على الامور والكلام ويزيدهم بسطة فى الجسم والعقل ويبطئ بهم عن الشيب والهرم فان القاء الرعب فى قلب الصغير كلوافح الرياح العاصفة على الغرس فتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعى الجليلة وماعدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة فى بعض البلاد الشرقية فان الامهات يزرعن فى قلوب اطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك فتثبت العادتان ولولا ان اهل الشرق من طبعهم التسليم للمقدور لما رأيت منهم احدا تصدق عليه صفة الرجولية وقد صار الآن كتاب الاخبار فى هذه الديار يلومون ارباب السياسة على قلة الامن للماشين ليلا فى طرق لندرة وسبب ذلك رجوع اولئك المنفيين كما ذكرنا الا ان هذا عارض يرجى زواله وكذلك فشا اللوم على خيانة البريد

لعدم

لعدم تسليم الرسائل الا انه ايضا من الامور الطارئة • ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدهم بشئ فاذا احتاج الصغير الى الكبير فى شئ قال له انى ارجو ان تكون من المحسنين الىّ بتنويل طلبتى فاكون لك من الشاكرين فهذا يغنى عن قولنا يا بدر الكمال و يا بحر النوال يا من يلتجئ اليه العافون ويحج الى كعبة فضله العائذون ويا من صيته طار فى الآفاق وملأ الالسن والاوراق ويا من ويا من فيكون جواب الكبير له بغير ملث سابذل جهدى فى مصلحتك واخبرك فهذا يغنى عن قولنا على الرأس والعين حبا وكرامة لا بد من ذلك فان الخير مشترك ونفعك من نفعى والحال واحد حالة كون النية غير منعقدة على العمل فاما اذا رأى المسئول نفسه غير قادر على احساب سائله ونفعه قال له مصرحا ان سؤلك فوق طاقتى فاقصد غيرى ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده فلا محال ولا مطال الا انه لا ينبغى ان تفهم من هذا ان الامور الخطيرة عندهم تبت فى الحال فان لها من التوقيف والتعيين ما يعيى به صبر المنتظر اذ لا يبرم عندهم امر من اول وهلة الا ان يستفرغ فيه البحث والتروى فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعال حتى ان ديوان المشورة لا يبت شيئا الا بعد استفراغ الكلام فيه وانما المراد انهم لا يعدون بما لا نية لهم على وفائه كما يحدث فى بلادنا فيبقى الموعود رهين الامانى يطعم الملث ويسقى الوعود ثم لا يحصل من بعد ذلك على شئ فينتج منه التكذيب من قبل الموعود والتنكيد من قبل الواعد وفى الجملة فليس بين الانكليز عرقوب ولا اشعب وعندى ان هذا الاختصار هو فى اغلب الاحوال اساس للمصالح ووسيلة للنجاح فانه اذا كان احد مثلا معطلا عن الشغل وطلب وظيفة من احد الانكليز فانه يكتب اليه كتابا ويذكر له الشروط فاذا اعجبه ذلك اجابه حالا الى سؤاله والا قال له لا يمكننى فيسعى الرجل فى تحصيل وسيلة اخرى اما عندنا فاذا طلب احد من مخدوم وظيفة قال له يا حبذا ليس غيرك اجدر بها ولقد طالما بحثت عن رجل مثلك متصف بهذه الصفات ولا سيما انك انصفت فى الطلب ولكن امهلنى ريثما اقضى وطرا لى فيربطه بهذا الوعد ثم تمضى مدة والرجل راكن الى وعده فاذا سأله مرة اخرى مطله بحيلة اخرى الى ان يقول له اخيرا قد استخدمت غيرك او قد استغنيت عنك الا ان الانكليز غالبا قد فرعوا من هذا الاصل

فروعا لا تناسبه منها انهم يعاشرون من يكون له عنده مصلحة شهورا وسنين فاذا انقطعت اسباب المصلحة انقطعت العشرة واذا اشتريت من احدهم بما قيمته الف ليرة مثلا دفعة واحدة فاذا رآك فى غير حانوته لم يلتفت اليك فلا يعرفك الا فى الدكان • ومن ذلك اى من الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لاحدهم مثلا طرسا فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين اعاده عليك كما تسلمه بل ربما ازال عنه الوسخ ورده اليك نظيفا وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت على ان ازلت الطبع عن الطرس وارجو انى لم اسئ فيما فعلت وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح احدهم كتابا جاءه باسم غيره بل يبذل جهده فى ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا اراد ان ينظر فى كتاب لم يلمسه الا بعد ان يستأذنك وفى بلادنا اذا اعرت احدا كتابا اعاره هو الى آخر والآخر الى آخر وهلم جرا فربما لم يعد اليك منه عين ولا اثر بل يرى نفسه اولى به وان لم يستفد منه اما لعدم قدرته على فهمه او لكثرة اشغاله بل الفرنسيسون ايضا لا يتورعون من هذا واذا شرفك بزيارته فاول ما يطمح نظره فانما هو الى اوراقك وحالا يمد يده ويخطف منها ما شاء فكأنما هو جاسوس جاءك ليطلع على اسرارك لا ليأنس بحديثك • ومن ذلك ان اصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشوة من احد لتنويل اربه وان علم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق ولم ينفعه ان يؤدى الرشوة التى اخذها مضاعفة ثم ان المراتب هنا انما تعطى غالبا بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق والاستيجاب فان الامير اذا نوه بشخص من اقاربه او معارفه عند ذى مرتبة وسيادة نفذت كلمته عنده ولو ان شخصا متصفا باحسن الاخلاق ومتحليا بالعلم والفضل حاول بنفسه ان ينال تلك الرتبة لم يلتفت اليه الا ان هذا الداء عام فى جميع الممالك • ويلحق بما تقدم من تفضيل الاستحباب على الاستيجاب ان النفر من العسكر لا يمكن ان يرتقى الى مرتبة ضابط وان ارتقى الف حصن للعدو وابدى من الشجاعة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر من يوم اكتتابه الى يوم خروجه من الخدمة والحياة وبعد ان يقضى خمسا وعشرين سنة فى الخدمة يعفى منها ويعين له

نحو

نحو اربعة قروش فى اليوم والامير امير من يوم ينزل من ظهر ابيه الى يوم يركب ظهر النعش ثم يدوم ذكره كذلك الى ابد الابدين فكأن ترتيب اصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب اعضاء الجسد بمعنى ان لكل عضو خاصية ووظيفة لا يتعداها ولا تتعداه فالرأس لا يزال رأسا وان سرى فيه الخرف والفند والعور والصمم والدرد والقدم لا تزال قدما وان هى انجته وانجت الجسم كله • وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد فان ناظر الامور الخارجية عندهم مثلا ليس له حق فى ان يدمق على ناظر الامور الداخلية فى شئ وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بان يحكم على احد الباعة بشئ من محراب صرحه وقس على ذلك فاما فى بلادنا حرسها الله فان ناظر المدابغ جدير بان ينظر فى جلود بنى آدم ويصبغها بلون الدرة والسوط او يسبر ما هى عليه من الطراوة والنعومة والمحتسب خليق بان يزن اعمال عباد الله واموالهم فى بيوتهم ويروز ما فى عياب صدورهم من الخواطر والافكار وللحاكم او للمطران ان يسقط حق المحق لحرف اسقطه فى الكلام وللضابط ان يبيت الناس فى مضاجعهم وللشرطى ان يقبض على اى شخص كان ولضابط العسكر ان يخترط سيفه على اى عنق سنحت له وللبطرك ان يحرم اى شخص كان من رعيته حتى لا يعود لاحد من اقاربه واهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته والى من المشتكى واين النصير واين المجير فيا ليت شعرى متى نصير نحن ولد آدم بشرا كهؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا أنخال ان معنى التمدن هو ان يكون الناس فى مدينة وفيها ذئاب وسباع كلا ثم كلا جير ان اجتماع الذئب والخروف فى مرعى واحد ليوجب على اليهود ان يؤمنوا بان المسيح قد جاء • ومن ذلك تنشيط اولادهم الى الاشغال وتمرينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق الكافى والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل او حقر فانهم لا يملون من السعى ولا يرون فى الكسل راحة ولا يقول احدهم انى كبرت عن تعلم شئ فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم احدهم او سقط شرفه او مال نجمه فاهون شئ عليه نحر عنقه وذلك عندى من جملة الافعال المتناقضة فى الطبع البشرى وجل سعيهم فى شبابهم انما هو لتحصيل ما يهنئهم فى شيخوختهم حتى يمكن لهم تربية اولادهم فلا

يحتاجون الى التكفف او الى ملازمة المستشفيات والملاجئ المعدة للعاجزين وكل منهم يعمل بقول الشاعر

* قليل المال تصلحه فيبقى * ولا يبقى الكثير على الفساد *

فاما قول عروة بن اذينة

* لقد علمت وما الاسراف من خلق * ان الذى هو رزقى سوف يأتينى *
* اسعى له فيعنينى تطلبه * وان اقعد اتانى لا يعنينى *

فانه يعد عندهم من الامانى الفارغة الباعثة على التوانى غير ان حب التناهى غلط فان تعليق العبد توفيقه ونجاحه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازدرآء بعناية المولى وفيه من وجه آخر تقسية للقلب فان الانسان والحالة هذه يهون عليه ان يفارق وطنه وسكنه لاجل المال وهذا الدآء فاش ايضا عند المثرين والموسرين هنا اذ الغنى منهم قد يكون له ابن وحيد فيبعثه الى الهند او غيرها طلبا لوظيفة سامية وربما لجمع به بعد قليل وهذا يعد من وجه انه ناشئ عن كبر همة وسمو مطمح ومن وجه لك ان تعده من الحرص والطمع فوفق بينهما ان استطعت • ويلحق بذلك ان الشيخ الفانى منهم اذا اراد مثلا ان يبنى بيتا او يأتى امرا فانما يجعل همه فى تحصيل المنفعة منه فى المستقبل اكثر من الحاضر وفى غير البلاد لا يبالى الا بمنفعة الحال ولا يكاد يتجه امر يرجى منه نفع وصلاح الا وتجردت له جماعة فتجريه على وجه مرغوب ونحو مطلوب وكلما اخترع احد شيئا قصد به غالبا احدى هؤلاء الجماعات ايثارا لهم على اهل بلاده لعلمه بانهم يعرفون اجرة العامل فيعينونه على اجرآء مرامه بما فيه نفع له ولهم • ثم انه وان يكن قد غرس فى طبع كل انسان ان يحب وطنه و يفضله على غيره ولا سيما اذا سافر الى بلد هو دون بلده فى طيب الهوآء ورغد العيش وحسن الاحكام الا ان هذه الخلة تكاد ان تكون من خصوصيات الانكليز فانهم ايان يتغربوا يظلوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات وقد رأيت كثيرا ممن سافروا منهم الى بلادنا والى مصر والغرب وباريس وغيرها فاثنوا على تلك البلاد بشئ وافق طباعهم منها الا انهم عند ختم الكلام يقولون لا شئ مثل انكلترة القديمة وانما يصفونها بالقدم لعدم تحول احوالها وتغير عاداتها كما ان اهل باريس يقولون ليس الا باريس ومع ذلك فانك لا تزال ترى الانكليز

الانكليز طوافين فى جميع البلاد وراكبين متن البحر والبر معا ولكن لا تكاد ترى احدا منهم يسافر الى البلاد الاجنبية لاجل ان يعلم التصوير او الرقص والغناآء كعادة غيرهم من الافرنج وانما هو للتجارة اما الامرآء والاغنياآء فانهم يسافرون للتنزه واحيانا لاجل تخفيف المصاريف فانهم مهما يصرفوا فى غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم فى اوطانهم ورب وليمة عندهم ينفق فيها نحو مائتى ليرة فترى منهم فى كل قصبة من بلاد اوربا الوفا ومتى رجع الانكليزى الى بلاده انشد مع الشاعر

* فبشرت آمالى بملك هو الورى * ودار هى الدنيا ويوم هو الدهر *

ولا شئ يعجبهم مثل ان تمدح بلادهم وعاداتهم • هذا وان من طبع الناس عموما اذا احتاجوا اليك ان يعزوك ويحتفوا بك ويروك اهلا لكل مكرمة واذا انت احتجت اليهم استخفوك ورأوا فيك العجز والذل الا ان هذه الخصلة غالبة على الانكليز جملة وتفصيلا فمن رام ان يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم انه مستغن عنهم ولا يعرض لهم فى طلب شئ ولا فى استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون اياما وشهورا وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون ان يسمعوا ذلك منه اذا ذكره ومتى حلت هذه العقدة انقطع الحبل فذلك عندهم من السر الذى لا ينبغى افشاؤه الا عند الضرورة المقتضية له وكذلك لا يسألونه عن معتقده ومذهبه وعندنا متى تعرف احد بذى مقام فاول ما يشنف سمعه به من المسائل قوله له من اى ملة انت فاذا لم يكن المسئول على ملة السائل سقط من عينه الشريفة او بقى فيها كالقذى ان بقى محتاجا الى عشرته فاما مسائل الاخوان والعشرآء فاولها كم دخلك وثانيها كم خرجك وثالثها كم مرة تعترف فى السنة ورابعها هل تأكل البيض يومى الاربعا والجمعة الى آخره • ومن طبع الانكليز انه متى وثق احدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة يأمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلا ونهارا بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم ولكن بشرط المحافظة على ذلك الاصل وهو اظهار التشبع والاستغناء فاما اذا كان ذا بسطة فى الجسم ومسحة جمال فى الوجه فلا يعود يشينه شائن ولا يزحزحه قادح

وطاعن ومتى دخل تحت حماية امير منهم فقد دخل فى ذمة السموءل وفى حمى كليب فهو يحامى عنه بكل ما اطاق فهذا الداب من جهة يعد من المناقب ومن جهة اخرى لا يخلو من الذأم فان المعتقد يصدق الموصى به ثقة بالموصى وعدم تغيير اعتقاده فيه وان سمع عنه ما يشينه يترجم بفعله هذا واصراره عن عجزه ومحالية طروء الغش عليه فيما قرر عليه رأيه ووطن نفسه حتى لا يحتاج بعدها الى ناصح ينصحه ومنبه يرشده فاسترسل فى هواه الى ما يعرضه لطعن العائبين ونقد المنكرين واللبيب من لا يركن الى هواه ولا يثق بثقته بل يشك فى نفسه ويستريبها حتى يوديه الشك الى اليقين وبعد فهب ان ذلك الشخص الموصى به كان جديرا بالمراعاة والاجارة وهو فى بلاده او اول دخوله بلاد الانكليز فقد يحتمل انه عند مشاهدته هؤلاء القوم على هذه الاحوال التى لم تكن تخطر له ببال قط تتغير اخلاقه ويتلبس بصفات لا تشاكله فقد عرفت كثيرا ممن قدم اليهم من البلاد الشرقية وعليهم سمت الاستقامة وسمة النزاهة فلما رأوهم على هذه الحال من التشوف الى معرفة بلادهم ومن ائتمانهم الغرباء على بناتهم واكرامهم لهم لاجل الوصية التى قدموا بها اتخذوا لهم ريشا غير الذى جاؤا به وانتحلوا لانفسهم صفات ومآثر لم يكونوا يحلون بها من قبل قط فبعضهم قام فى الناس خطيبا يحكى ما علمه من احوال بلاده وبعضهم طمح الى ان يتزوج فيهم من يكون عندها من المال ما يشرى به املاك اهل بلدته او قريته وبعضهم اخذ فى التأليف وحشر نفسه فى زمرة علمائهم وكلهم ظن ان الانكليز طعمة للاتهم ولقمة للملتقم واول ما يخطر ببال الدخيل فيهم اذا كان عزبا انما هو ان يتزوج احدى بنات الاعيان او الاغنياء ليستغنى برزقها عن الهم والنصب والتفكر فى المنقلب وفى الحقيقة فقد صدق فيهم مؤلف حاجى بابا وهو ان الانكليز اذا تعرفوا بغريب فلا بد من ان يرفعوا من قدره لئلا يلحقهم من تعارفهم به وصمة تشينهم فربما انتحلوا له لقب امير او سيد حتى يتوهم الرجل انه فى الواقع كذلك • ومن طبع الانكليز ولا سيما كبراؤهم ان ينفروا من الرخيص وان يكن نفيسا وان يتهافتوا على الغالى وان يكن خسيسا وعلى ذلك يحكى ان رجلين كانا يتحدثان فى هذا المعنى فقال احدهما لصاحبه ألا انى فاعل بهؤلاء القوم امرا يسخر منه كل من يسمع به ثم عمد الى كيس وجعل فيه

دنانير

دنانير من ذهبهم وقعد على قارعة الطريق وجعل ينادي من اعطاني شلينا اعطيته دينارا من هذه الدنانير بدلا منه فجعل المارون يتضاحكون منه ويقولون لعمر الله ما قصد بذلك الا غبن الناس فطفق يصرخ باعلى صوته ويقول يا ايها الناس هاؤكم الذهب بدل الفضة وعليكم بالنقاد فلم يكترث له احد • واعرف بعض الجهلة كان يقرأ النحو على رجل من ذوى القناعة والنزاهة ثم يعلم جماعة من اعيانهم ويتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة فكان الناس يهرعون اليه ويعرضون عن معلمه لانه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تذمما وتورعا واذا كان احد مثلا متوظفا فى وظيفة سنية وقصدوه ان يقضى لهم امرا اعطوه اضعاف ما يعطونه لمن ليس له شغل الا قضاء تلك الحاجة بعينها ومن كان معاشه من حرفة له وان تكن تلك الحرفة عقلية لا يدوية لم يكن له مقام من لا حرفة له سوى الخرق والبطالة وعلى هذا قال الفاضل كولد سميث ان الناس من شانهم ان يستخفوا بالمعارف التى يتعيش منها وقد يتفق مثلا ان يكون طبيب نطاسى وآخر متطبب فاذا كان لهذا عاجلة ودار رحيبة وخدم اقبلت عليه جميع الامرآء والعظماء وادبروا عن ذلك لكونه ممن يمشى على رجليه ما لم يؤلف كتابا ويظهر فيه براعته فكم من ملكات جليلة تبقى فى زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائغ نعم ان زيادة شلين واحد فى ثمن المتاع عندهم يوجب فرقا عظيما الا انه ليس من العدل ان تقاس الناس بالبياعات فكم من عالم عاقل وليس عنده كتاب وجاهل غبي ولديه اضابير كتب نفيسة • ومن طبع الخاصة منهم ان يجتنبوا معاشرة العامة ما امكن ولذلك سببان احدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين فى الاطوار والاخلاق فان العامة فى هذه البلاد ليس لهم حظ من الكياسة كما عرفت مما مر بك ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضى احدا من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم فالاوباشية ظاهرة عليهم فى كلامهم وحركاتهم وتخيرهم للالوان وفى تصرفهم وغنائهم وضحكهم ومعلوم انه من يكون قد قرأ ودرى يستنكف من مخالطة امثال هؤلاء والسبب الثانى وهو ما خطر لى ان اصل علية الناس هنا من اجيال مختلفة فان الذين فتحوا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا وشمالى اوربا ومعلوم ان هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على ارض الجزيرة

وعلى المراتب والالقاب الشريفة وان الانكليز التي بقوا بينهم مسودين مرؤوسين فبقي هذا الفرق في اعقابهم قال فلتير انه بعد وفاة الفريد ملك انكلترة وذلك في سنة ٩٠٠ اختلت امور المملكة وتضعضعت اركانها فكان القتال مستمرا بين الصكصونيين وهم اول من غزوا الجزيرة وبين الدانيزيين ولما كان هؤلاء اعز واقوى من الانكليز لم يكن لهم بد من ان يؤدوا اليهم ٤٨٫٠٠٠ ليرة لينصرفوا عنهم وذلك في حدود الالف قال ثم ان كانوت ملك الدانيمرك جار في حكمه على الانكليز وبغى وطغى وفي سنة ١٠١٧ اعتساهم تحت حكمه وعاملهم معاملة الاسرى فكان الدانيزي اذا مر بالانكليزي يلجئه الى الوقوف الى ان يمر فلما انقرضت ذرية المذكور عادت الى الانكليز حريتهم فملكوا عليهم ادورد الصكصوني وكان يلقب بالتقديس المعترف وانما قيل له ذلك لانه اعتزل زوجته عن كراهة لها ومات ولم يعقب وعند وفاته قام الامير وليم دوك نورماندي يدعي بان له حق الولاية عليهم مع انه لم يكن له حق بولاية النورماندي الا ان حقوق الولاية والملك حينئذ لم تكن في اوربا كما هي الآن وكان من جملة دعواه انه قال اني لما سافرت الى جزيرة انكلترة اجتمعت بالملك ادورد فجعلني ولي عهده واني انقذت الملك هرلد من سجنه فوعدني ايضا بنقل الملك الي ولما عرض ما نواه على اهل النورماندي وقع بينهم الخلاف في شانه فنهم من ابى ان يساعد، ومنهم من رأى في ذلك مصلحة ومن جملة هؤلاء الدوك فتز اسبورن فانه جهز معه، اربعين سفينة وامده، ايضا حوه الكونت فلاندر بمال وكذلك البابا اعانه وحرم كل من يمانعه فسافر حتى بلغ ساحل صاسكس فلاقيه هرلد ملك الانكليز بالجيوش ونشبت الحرب بين الفريقين فقتل هرلد واخواه وانهزمت الانكليز امام وليم فزحف بالجيش نحو لندرة وهو ناشر علما كان قد باركه له البابا فدخلت الاساقفة في طاعته واقبلت اليه القضاة بالتاج فلما استوى على سرير الملك اذل الدانيزيين واهل الجزيرة وقهرهم اى قهر واحسن الى اهل النورماندي الذين اعانوه واجرى عليهم ارزاقا واقطعهم اقطاعات جمة فمن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تزل اسماء ذراريهم معروفة بين الانكليز قال وكان دخل هذا الملك اربعمائة الف ليرة وهي تبلغ بحساب قيمة الدراهم في زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الانكليز

قال

قال ثم ان الملك المشار اليه ابطل ما كان عند الانكليز من الاحكام والشرائع واقام شريعة النورمانديين مقامها واجبر اهل الدعاوى على ان يتداعوا بلغة قومه وكذا كتب الصكوك والاحكام فبقيت لغته مستعملة الى عهد ادورد الثالث وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيرية بعيدة عن الفصاحة بائنة عن البيان وكان مما سنه الملك على الانكليز اطفاء مصابيحهم فى الساعة الثامنة من الليل وذلك عند سماعهم صوت الجرس الا ان هذه العادة كانت جارية ايضا عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية وكان البادئ بها اهل الكنيسة انتهى فقد علمت مما تقدم ان علية الانكليز هم من الغرباء الذين فتحوا هذه البلاد فان قلت اذا كان الامر كذلك فما بالهم يخالفون علية فرنسا والدانيرك فى الطباع وفى كونهم كما سبقت الاشارة اليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم انفة وتكبرا قلت وما بال جو الانكليز لا يشبه جو فرنسا أفينكر ان للهوآء تأثيرا فى الخلق والخلق معا سوآء كان فى الحيوان الناطق وغير الناطق فلو جئت ايها الهش البش الطلق المحيا الباسم الضاحك المقهقه الى هذه البلاد وبقيت فيها شهرين او ثلاثة لا تبصر الشمس الا من ورآء حجاب لاغناك الخبر عن الخبر وحيث قد ترفعت الكبرآء من الانكليز عمن هو دونهم من اهل بلادهم وصار ذلك دأبا لهم ودايما يرثه الولد عن والده والخلف عن سلفه جروا على ذلك ايضا مع الغربآء ما لم يتبين لهم انهم نظراؤهم فى الهمة والمعالى فتى اعتقدوا ذلك منهم لم يأنفوا من معاشرتهم والحق يقال انه لا مناسبة بين علية الانكليز وسفلتهم بخلاف غيرهم فان الامير عندنا مثلا لا يفضل الناس الا بامارته لا باخلاقه وآدابه ومعارفه اذ جميع الناس فى ذلك متساوون وايضا فحيث كانت القاب الشرف عند الانكليز قديمة وعزيزة كان لها عندهم اجلال وتعظيم يفوق الحد حتى ان اعظام اللقب عندهم اعظم من اعظام الملقب به فان الشريف اذا مشى مثلا فى الشوارع مع عامة الناس لم يكترث له احد ولم يقم له قاعد وقد يسوغ الطعن فيه والتنديد بمعايبه ولكن لا يسوغ الازدرآء بمنصبه وجلائه لا بالنطق ولا بالكتابة وما احد من الانكليز ينكر انه بمجرد اتصاف الانسان بجلآء يجب له التعظيم والتكريم ومن اعظم شاهد على ذلك نصب ضابط البلد فانه قد يكون من اهل الحرف والصنائع فتى حصل على هذا الجلآء صار مساويا للاشراف والسادات حتى ان سائر الوزرآء والامرآء يأكلون عنده ويجالسونه وما

ذلك الا لمراعاة جلائه ومتى عزل رجع الى حاله ولم يأكل معه احد منهم ولو جاء بالمنّ والسلوى والكلام على كيفية نصبه وعزله سنذكره فى وصف لندرة ان شاء الله تعالى وما احد يرتقى هنا الى درجة سامية عن ضعة الا هذا الضابط فاما الوزرآء ورجال الدولة فكلهم متأصلون فى المجد فلا يصح عندهم ان تبتذل المراتب العالية فيتلدها صبى حلاق او خادم جزار والشاهد الثانى ان بعض اهل بلادنا وغيرها يقدم عليهم وعليه بذعة لقب فيكرمونه غاية الاكرام ويبوئونه مبوءا اسنى ومقاما اعلى وهو مع ذلك لا يدرى ان يفوه بمدحهم ولا بهجوهم. اما الفرنسيس فانهم انما يكرمون اللقب اذا كان جديرا بالملقب ومن كان ذا معارف واخلاق حميدة عندهم اغناه ذلك عن حلس الجلاء ولا شك ان الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل وقد كنت ترجمت نبذة من لغتنا وبعض محاورة لاجل ان يطبعها بعض الوراقين بلندرة فلما انتهى طبعها كتب فى صفحة العنوان انها من تأليف فلان مدرس اللغة العربية بمالطة سابقا ومترجم جميع اسفار التوراة والانجيل ومؤلف كتاب الفارياق الى آخره فقلت له ما الموجب الى ذلك كله فقال ان الانسان هنا انما يعتبر بالقابه لا باتعابه وخلوا من تعديد الالقاب لا يباع كتاب ٭ ولكل عيلة شريفة من هؤلاء الرؤوس لباس مخصوص لخدمتهم وخدمتهم ولهم ايضا لهجة مخصوصة فيها الجلجة فى الكلام او كما يقال رخاوة حنك حتى ان اللاعبين فى الملاهى يحاكونهم بها ويسخرون منهم ولهم ايضا تنطس زائد فى مراعاة جانب العرض فانهم لا يقبلون فى مجالسهم من علم انه عائش مع امرأة على وجه المتعة او السفاح وعند الفرنسيس لا حرج فيه وكذلك لهم تشدد فى الصدق فانهم اذا عرفوا من احد الكذب ولو مرة واحدة سقط اعتباره من اعينهم ومع ذلك فهم اكثر الناس عرضة للتدجيل والخداع ومنها ان معاشرتهم لازواجهم اشبه بمعاشرة الاجانب فلا يأنس احد بشئ من الدالة بينهما فبينهما من التحشم والكلف ما بين الغريب واحدهما ولا يقول السائل عن امرأته زوجتى قالت او قرينتى بل يقول قالت الست ولا يفتح رسائلها التى ترد باسمها ولا يتطالل الى معرفة احوالها واذا اتاها زائر رجلا كان او امرأة جلس معها من دون حضور زوجها واذا كانت فى حجرتها لم يدخل عليها الا بعد ان يقرع الباب ومتى ارادت الخروج

فلا

فلا تستأذنه وانما تشعره به اشعارا ولها ان تستخدم من شاءت وان تذهب الى الملاهى
مع معارفهما سوآء كان زوجها صحيحا او عليلا فى الفراش واذا زارهم احد
من معارفهم او اصحابهم يأتمنونه على بناتهم ونسآئهم فيخرج معهن ليلا ونهارا
والغالب ان يكون خروجهما اولا الى الكنيسة ليفتح لها كتاب الصلوات والانجيل
والتوراة وهو من اعظم التأنب عندهم ثم يعقبه الخروج الى الملاهى ليفتح لها باب
المخدع الذى تجلس فيه ثم الى المتنزه ليفتح لها باب الطريق او باب العاجلة وهكذا
تتوالى الفتوح وليست هذه العادة عند الفرنسيس فانهم لا يأتمنون على اناثهم ذكرا
وقلما تخرج البنت هناك وحدها او تركب الخيل وتسابق الرجال كما تفعل مخدرات
الانكليز ولعل ذلك هو بعض الاسباب الذى من اجله تراهن ممشوقات مهفهفات
فقل ان ترى فيهن بادنة هذا ما عدا كشف صدورهن فى الولائم ورقودهن
فى النهار دون الليل الذى جعله الله سكنا وراحة للبدن واذا تزوج رجل امرأة
وكان عليها دين قبل الزواج وجب على الرجل اداؤه وانما يكون ولىّ مالها
وملكها واعلم ان الرجل فى عرف الشرع هنا هو ولىّ امر المرأة فلا يسوغ
لها ان تبرم امرا خطيرا من دون اجازته الا ان عرف العادة والاستعمال يوجب
للمرأة كثيرا من الحقوق والامرة على الرجال فان اخضاع النسآء فى كل مكان
وزمان امر صعب ولاسيما فى المدن الكبار التى يباح لهن فيها الخروج والزيارات
فلا يسع الزوج الا المياسرة والملاينة لامرأته وعادة نسآء الكبرآء هنا عند السلام
اول مرة ان لا يسلمن باليد بل باشارة من الرأس وفى المرة الثانية بمس الانامل
فقط وفى الثالثة بنصف الاصابع وهلم جرا وينبغى لمن اكرمه الله عز وجل
بزيارة احد هؤلاء الامجاد والماجدات الا يذهب الا فى وقت الزيارة المعلوم وهو
بعد الضحى وان يكون مجملا باللباس الفاخر نظيف الثياب حالقا شاربيه مرجلا
شعر رأسه باردا اظافيره ماسحا نعليه ساترا كفيه بجلد ابيض فان قولنا المرء
باصغريه ولا تكلمك العباءة وانما يكلمك صاحبها ورب حرّ ثوبه خلق لا محل له
من الاعراب عندهم وينبغى ايضا ان لا يحدق فيما يراه من المتاع والاثاث ولا يمسه
باصبعه فان كل ما يكون بالمجلس حرم ولا يبتدر الرجل بالخطاب ولا يكن سائلا
فاذا كلمه مولى الدار ثلاث كلمات اجاب بثلاث وان زاد فليزد ولا يلزه فى الجلوس
وان مس كوعه فصلاة الاستغفار ويندب المشى على البساط قورا ومن العيب

ان يذكر الانسان بحضرتهن اسم رجله او ساقه او ظهره واقبح من كل قبيح ان يقول بطنى حتى ان لفظة البطن بلغتهم مستهجنة ومثله الفخذ حتى من الحيوان وفى بعض البلاد قد تقول المرأة اذا دعوتها للاكل بطنى ملآن ولا تستحى ولا يحك بحضرتهن موضعا من جسمه ويفرض ان لا يبصق ولا يسعل ولا يمخط ولا يفخر ولا يتجشأ والعياذ بالله ويندب ان لا يتنحنح ويجب ان لا يشم منه رائحة الدخان واعرف سيدة كانت اذا شمت رائحته فى ثياب زوجها سوآء كان منه او من غيره اجبرته على نزعها وقد كان دعانى بعضهم الى ان ازوره وامكث عنده اياما ليسمع منى لفظ العربية وقال لى قد جئتك من مكان سحيق قصد ان تنزل عندى ولك على كل ما يرضيك فقلت له لكن ينبغى ان تعلم انى اتعاطى الدخان وان نسآء الانكليز لا يسمحن به فقال ان حول الدار بستانا فمتى اردت ان تدخن تمضى اليه فقلت فى نفسى هذا اول المباحث على العنت ثم قلت له اذا طلبته فى الليل فهل اقوم من الفراش واحمل اللحاف الى البستان قال بل تدخن فى حجرتك فاجبته الى ذلك وسافرنا معا فلما بلغنا منزله سلمت على زوجته فكان اول ما خاطبتنى به ان قالت طب نفسا من جهة تعاطى الدخان فانا ننظف الحجرة منه كل يوم فاستدللت من ذلك انه كتب لها قبل سفرنا فى هذا الامر الجلل • واذا زارهم احد اول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من ان يعطى الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده فى صحفة من الفضة او البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران فى وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه اسمآء الزائرين فى كل يوم وفى الجملة فان معاشرة هؤلآء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معا وتضيع كثيرا من الوقت والمال وربما دعاك احدهم الى غدآء فقام عليك ذلك الغدآء بثمن عشرة اغدية • ومما يحمد من هؤلآء النبلآء انهم لا يضعون فى ارديتهم سمات الشرف و يطوفون به فى الطرق تهويلا على العامة كما تفعل نبلآء فرنسا وانما يتحلون بها فى اوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلى والجواهر الا فى الولائم والسهريات ونحو ذلك • ومن ذلك خطابهم خدمتهم بالرفق واللين وان اظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها اذا امرتها بان تناولها شيئا هاتى هذا الشئ ان اعجبك و بعد ان تأخذه منها تشكرها وربما تباخلت عليها فى الاكل والشرب وارضتها بمثل هذا الكلام

الطيب

الطيب فيطيب خاطرها ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشئ واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الادب كأن تقول لها مثلا يا فاجرة يا بنت الكلب كما تقول نسآء بلادنا عند ادنى باعث او ان تحرق عليها اسنانها والعادة عندنا بخلاف ذلك فان المخدومة تلعن الخادمة وتشتمها بحضرة الناس ثم تلقمها وتعلفها وتنبسط معها فى الكلام وتستعين بها على تنفيذ هواها وتطلعها على اسرارها • ويحمد ايضا من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصا لسنة وارادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة اشهر وعند الفرنسيس ينبهونه من قبل بثمانية ايام كذا فى غالنيانى فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه باسبوع او ادوا اليه اجرة الشهر وصرفوه ومن يستخدم فى الميرى او عند جمعية وابلى فى خدمته كان على ثلج من ان يزاحمه آخر على محله ولو باجرة اقل وكل هذه المحامد معدومة فى بلادنا فان المخدوم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافاة • ولبعض كبرآء الانكليز طبع غريب لا ادرى الى اى شئ انسبه وهو انه اذا باشر لهم احد عملا لم يخطر بباله ان خدمته له انما هى عن حاجة الجأته الى اخلاق ديباجتيه فيأتى عليه حين من الدهر من غير ان يسأله هل انت محتاج الى الدراهم او لا ولكن اسمع لى ايها المخدوم الاعز الاغر ان اترجم لك عن هذا الطليانى الذى يعلمك الالحان وعن ذاك الفرنساوى الذى يعلمك الرقص والتصوير وعن ذلك النمساوى الذى يعلمك فلسفة اللغات فانى اخشى ان الاول يضيف الى كل كلمة من لغتك حرف علة والثانى ينقص منها الحرف الصحيح والثالث يبدل ويقلب فانه يرى ان لغتك فرع من لغته فلا يبالى كيف يؤدى اليك المعنى فيشكل عليك فهمه بل دعنى اكلمك بلسان عربى مبين حتى يكون كتابى كله من نفس واحد وما على صماخك اللطيف الشريف من حروفه الحلقية من باس فاقول اى لذة ترى لمعلمك منهم فى مجيئه اليك تحت المطر والثلج من مسافة ساعة فاكثر فيحوج الى اداآء شلين جعل الحافلة والى ان يضغط بين القاعدين فيه ثم بعد ان يخرج منه سالما يمشى ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه وتكسر الريح ظلته ثم يأتى فيقرع الباب فيخرج خادمك اليه وينظر اليه كالمستخف به اذ يرى نعله قد ابتلت وظلته مفتوحة فانه قد نقل عنك

بالاسناد ان كل من يعيش بيديه و يمشي على رجليه لا يكون جنتل مان اى متخصصا متصفا بصفات الخاصة ثم يعرض عليك ما اقدم الآتى اليك من دون ان يذكر اسمه وانما يذكر صفاته بان يقول بالباب رجل مبتل النعلين مفتوح الظلة مشعث الرأس وحينئذ تأمره بان يأذن له فى الدخول فامعن النظر هداك الله يتبين لك ان من كانت هذه حالته كان جديرا بان يأخذ فى غاية الشهر اجرته وحق عرق جبينه او قرقرة امعائه من البرد لعمرى ليس هذا داب جيرتك الفرنسيس فانهم وان لم يؤدوا اجرة العامل لهم كما تؤديها انت الا انهم لا يغفلون عنه فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم او عند وقته واقبح من ذلك انه اذا سأل العامل المعمول له من هؤلآء السادة اجرته انقبض منه واقشعر ولا سيما اذا كان المبلغ قليلا • وهنا ينبغى ان اذكر ان الناس ما زالوا يروون عن الانكليز انهم اذا استخدموا مثلا معلما او غيره لا يسألونه عن اجرته اولا وانما يسألونه اخيرا ويؤدونها اليه كما يطلب وانهم يوفونها اكثر من سائر من عداهم من الافرنج وان العامل اذا اشتغل لهم بشئ ساعة ما من النهار اغناه ذلك عن التعب يوما او يومين فينبغى ان تعلم ان الانكليز كانوا من قبل اختراع البواخر اسخى واسخى منهم الآن فان مجئ الغربآء الى بلادهم كان اذ ذاك نادرا فكانوا يحتاجون الى ان يأخذوا عنهم ما ليس عندهم منه وكثير ممن قدم اليهم فى ذلك الوقت مخرق عليهم ولبّس ورجع غانما فاما الآن فما برحت الغربآء تتوارد اليهم من كل فج وصاروا هم ايضا يجولون فى جميع البلاد ويطلعون على احوالها ويشهرون معلوماتهم فيها فى الكتب وفى صحف الاخبار فصاروا لا يخفى عنهم ما يناله الغريب فى بلاده واصبحوا يشارطون ويستحطون من الطلب وصار عندهم كثيرون من الغربآء فربما رضى احدهم بان يأخذ على شغل ساعة شلينا واحدا وما بين ذهابه وايابه يضيع ساعة فاكثر وهذا الطمع فى الاستغنآء من الانكليز قد غرّ كثيرا من الناس فاستفزهم من ديارهم حتى قاسوا فى هذه البلاد من الجهد والعنآء ما رضوا به من الغنيمة بالاياب حتى ان اهل ارلاند مع قربهم من الانكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم و يقصدون احدى مدن الانكليز وعمدتهم تلك الامانى الفارغة ويحكى عن احدهم انه قدم الى لندرة على نية ان يصيب فيها الحظوة والسعادة وكان فقيرا جدا فاتفق يوم دخوله ان

ان عثر بدينـار مرمىّ فى الطريق فالتقطه ووضعه فى جيبه ثم لم يلبث ان اعترضه فقير فاعطـاه الذهب وقال خذه مبـاركا عليك فانى لارجو ان اجد من ضربه كثيرا • ولاهل ارلاند حكايات كثيرة مضحكة واقوال متناقضة يرويها عنهم الانكليز تهكما بهم منهـا ان امرأة قالت لرجل هم بان يقعد على كرسى لا اقدر ان استغنى عن احدى هـذه الكراسى الفـارغة لانهـا جميعهـا مشغولة وسأل رجل منهم رجلا آخر هل رأيت انحل من هذه المرأة فقال لعمرى لقد رأيت مرة امرأة لو انها جعلت مع هذه ومع اخرى اليها لكانت انحل منهمـا معا واشترى رجل ساعة بثمن غال فسأله بعض اصحـابه عن سبب ذلك فقـال ان لهذه الساعة فوائد عظيمة منها انى متى اردت ان اقوم فى الليل جذبت حبلا بها فتطن فاسمع صوتها وقيل مرة لرجل قد اخترع كانون يخف به نصف مصروف الفحم فقال اذا اشترى كانونين ليخف المصروف كله • وكتب بعضهم كتابا من اميركا الى صديق له فى بلاده يقول فيه اخبرك بانى قد انتقلت من المحل الذى انا فيه الآن ولولا ذلك لكنت كتبت اليك من قبل وما كنت ادرى قبل الآن اين يلقـاك كتابى هذا ثم انى امسكت القلم اليوم لابلغك خبر موت خالك الحى الذى مات بغتة بعد مرض طويل لازمه نحو ستة اشهر وكـان فيـه يتلوى ويتشنج وهو فى غاية السكون ولا يتكلم بل كان يهذى ويلغو ولست ادرى سبب موته غير ان الطبيب يظن انه مات من المرض الذى اعتراه لانه بقى عشرة ايام نفسـاء اما عمره فتعلمه انت كما اعلمه انا وهو خمس وعشرون سنة الا خمسة عشر شهرا ولو انه عاش الى هذا الوقت لكان مات منذ ستة اشهر (تنبيه) والآن ارسل لك عشر ليرات ارسلها لك والدك من دون معرفتى وكانت امك تريد ان ترسل اليك بقرة ذلولا قرونها لضمنتهـا فى هذا الكتاب والمرجو منك ان لا تفض ختم هذا الكتاب الا بعد قراءتك له بيومين او ثلاثة ذلك تكـون عند ذلك اكثر استعدادا لسماع هذا الخبر المحزن • (عود الى ما كنا فيه) وقد يكـون احد هؤلاء العلية مديونا لشخص فيسافر الى بلاد بعيدة من غير ان يؤدى اليه حقه وقد يكون له وكيل او صديق ولا يوكله عنه فى ذلك فاذا سأل الرجل وكيله عن سبب سفره قال له قد كان يريد ان يراك قبل ذهـابه لكن العجلة اضطرته الى السفر بغتة وقد صعب عليه ما جرى وهذه الخصلة اعرفها منهم فى مالطة ايضا

وليست ناشئة عن طمع فى اكل الدين اصالة وانما هى عن عدم المبالاة والاكتراث وعن الاعتماد على صدقهم ووفائهم وعلى مقتضيات الجنتلمانية ولكن ما معنى صعب عليه هنا او حزن او اكتأب او كمد او ترح او كل مرادفها وهو لا يدرى متى يعود من غيبته والرجل محتاج الى اجرته او ثمن حاجته • ومن طبعهم ايضا ان لا يسمعوا تظلم الغريب من احدهم ولا سيما اذا كان المتظلم دون المتظلم منه وان كانوا يعلمون لهذا سابقة فى السطط على بعضهم واذا استمعوا من الشكوى نورا ريهم ان كل بشر مظنة للخطأ والقصور فانما يكون ذلك فى جهة الشاكى لا المشكو منه وهذه الخلة من جهة هى صنو تلبثهم فى اللوم على ما تقدم ومن جهة اخرى هى من قبيل التعصب والزيغ • ولهؤلاء الكبرآء حب للسمعة يفضى الى قسوة القلب فان احدهم قد يهون عليه مثلا ان يعطى الجمعيات الدينية ثلاثمائة ليرة فى السنة وان كان لا يعلم باى وجه من وجوه البر تصرف او لاى مقصد تستعمل واذا مرت به امرأة فقيرة حافية تحمل رضيعين وعلى وجوههم سمة الانكسار والجوع لم يختلج قلبه لان يجود عليها بدرهم واحد حيث يعلم ان المرأة لا دفتر لها تكتب فيه اسمه وتنشره على الملأ كما تفعل الجمعيات • ومن طبعهم وطبع العامة ايضا انهم يشمئزون من ان يسمعوا من الغريب تعييب عاداتهم ومنكر احوال بلادهم وانما ينبغى ان تنتظرهم حتى يخوضوا هم فى ذلك ولا شئ اسوأ عندهم من ان يفصل الغريب عن بلادهم وفى قلبه شئ عليهم • واعلم ان للسيدات هنا نفوذ كلمة بالغا جدا ولا سيما فى الامور التى يشم منها رائحة الديانة والذريعة الى امالتهن وارضائهن لمن حاول ذلك كما فعل بعض الطمعين هى ان يقول لهن ما اعجب ما ارى من احوال نسآء هذه البلاد المباركة وما هن عليه من حسن الاخلاق والفضائل الباهرة فان نسآءنا يجهلن القرآءة والكتابة ولا يعرفن ما يجب عليهن لله وللعباد فمن اجل ذلك لا يحظين عند بعولتهن فعيشة الرجل مع زوجته عندنا عيشة خصام ونقار ومقت ونغص ونكد وكمد ألا ليتكن تعطفن عليهن وتنشئن لهن مدارس لتربيتهن وتهذيبهن فتكسبن بذلك الثواب من الله والثنآء من الناس وما اشبه ذلك من الكلام الحامل لهن على الاعتقاد بافضلية انفسهن فينظرن الى ذلك القائل نظر الرفيق الشفيق وينزلنه منزلة رسول من الله لانقاذ نساء بلاده من

ورطة

ورطة العمه والجهل ويعتقدن انه متى رجع الى وطنه اذاع بين الناس محامدهن وهو اى ذلك الاصيل الذى فعل هذا والمقتدى به قائل فى نفسه ألا ما اهون خدعتكن علىّ مع وجود اضابير كتب متنوعة فى خزائنكن ايم الله ان جميع ما عندكن من التحف والاسفار لا ينفعكن من دهائى شيئا فان الدهاء ملكة غريزية فى الانسان لا تؤخذ عن الكتب وهكذا ينوهن باسمه ويصبح عندهن معززا مكرما فتدعوه واحدة للصبوح واخرى للغبوق وكذلك اذا القى مثل هذا الحديث على احد من اهل الكنيسة فان بين القسيس والمرأة لا يعدم الانسان هنا ان ينفذ مخاريقه واذا اجتمعا له كان ذلك من سعده واذا كان فى خلال اطرائه هذا يتنهد ويزفر وتغرغر عيناه بالدموع كان انجع وابلغ ثم ما عليه بعد ذلك ان يقهقه او يحنبش فان للضحك وقتا وللبكاء وقتا وهذا التدجيل لا يغنى عند الفرنسيس نقيرا ٭ هذا وانى سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز ان يصفهم بالكبر والعجرفة ولكن قبل اثبات هذه الدعوى ينبغى ان تعلم ان الكبر على انواع الاول ان يكون ظاهر سحنة الانسان منفرا عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه فيظن الناظر اليه انه لا يتكلف لمخاطبته والثانى عدم قبول النصح والافتئات برأيه وقوله وان علم انه غير مصيب والثالث ان يكون طلق المحيا لين الجانب يرغب فى مجالسة الناس ولكن اول ما يبسط بساط الحديث بينك وبينه يطفق يعدد عليك محاسنه وفضائله وفواضله ومآثره ومناقبه فاذا كان مثريا قال انى انفق فى الشهر كذا واتصدق على الفقرآء بكذا وكنت بالامس مارا فى طريق كذا فسألنى فقير شيئا وحيث لم يكن معى فلوس بذلت له دينارا وانى لا يبلى عندى شئ مما البسه فانى اخلعه على هذا وذاك وان عندى من المتاع كذا وكل يوم آكل كذا واضيف اناسا واقربهم الطرف التى يعز وجودها فى هذه البلاد فان لى عمالا فى البلاد الخارجية يبعثونها الىّ فى كل عام اما الكتب فلم اعز بها اذ لست املك فرصة للمطالعة لكثرة الشواغل والموانع ٭ وان كان جميلا قال ان فلانة هامت فى هواى وتركت اهلها حبا بى وآلت لتصحبنى او تموت وان زوجة فلان اهدت الىّ من التحف كذا وارسلت الىّ من الرسل والرسائل كذا وان ابنة فلان دعتنى الى ان اخطبها وهى تملك كذا ولم اجبها ولا ادرى كيف ينتهى بها الحال وانى مشفق من ان يلم بها

عارض من الجنون فاكون انا سبب ذلك وهو مع كل هذا الافجاس والجزاف بكذا مقبل عليك وباش بك ويزيدك ادناء من جنابه لكيلا يفوتك شئ من هذه الفوائد التي يلقيها عليك • ومن كان قد قرأ بعض اشعار وسمع من اهل العلم مثلا ان الشعر منقبة سنية تصدى الى اى نظم كان فاذا رأى طائرا في الجو نظم فيه قصيدة واذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريخ واذا توفى احد قال قد غاض بحر الكرم ودكت اركان المعالى وذوت رياض الفضائل وافل نجم الهدى وخسف بدر المجد وكسفت شمس الفضل ثم لا يزال يطلع في عاجلة النبى الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفنا لمرثيه وما ذلك الا حتى يقال عنه انه شاعر • ومنهم من اذا حفظ نادرة او حكاية او مسألة رأيته يتشدق بها في كل مقام ويضعها بين كل مورد ومصدر حتى يقال عنه ما شاء الله • ومنهم من اذا اطلعته على غلطه اومأ اليك برأسه وقال قد فهمت قد فهمت فتقول له كيف تكتب المرة الآتية فيقول لا اكتب غلطا فتقول ولكن بين لى كيف تجتنبه فيقول اكتب ما يكون صحيحا فتقول اطلعنى عليه فيقول حين اكتب اعرف ما ينبغى ان يكتب ولا يزال يكابرك تصلفا وعنادا حتى تمل منه • ومنهم من يزورك واول ما يستقر به المكان يأخذ في ان يشكو من كثرة معارفه ويتأفف من كثرة ما يدعى الى ولائمهم ومراقصهم ويتسخط على الولائم والمولمين مع انه لم يحصل على معرفة هؤلاء المعارف الا بعد استعمال وسائط لا تحصى وهو يقول في قلبه ادام الله دولة هذه المآدب واعلى شان الآدبين فانهم انفع من الادب والمتأدبين وانى اذهب اليهم وانال من اطايب طعامهم وشرابهم واتخرق عليهم فتارة يضحكون من خزعبيلاتى وتارة يحبذوننى فارجع الى وكرى خالى البال ممتلئ الامعاء • ومنهم من يكون له قفص خادم فيدعوه ان يجوربه و يلبسه نعله بحضرة الناس ويكلفه ان يحمل دورقه ودواته وجبته وعصاه وقصبة دخانه ويمشى وراءه كأنه حمار موقور وذلك حتى يقول الناس ان السيد ذو خدم وحشم • ومنهم من يتواضع لجليسه وسامعه ويعتذر اليهما فيقول لا تؤاخذنى يا سيدى بما تسمع منى من اللحن فانى لم آخذ النحو عن احد ولم يطاوعنى الوقت على ان اتعلم اللغة كما يجب وانما عرفت ما عرفت بالدربة والممارسة و هو عند ذلك ينتظر من سامعه

ان

ان يقول حاشا لك ان تلحن فى شئ وانت العلم المشار اليه بالعلم والبيان واقسم انى لم يطرق سمعى شئ ابلغ من كلامك فانت قس الفصاحة وسحبان البلاغة وانت الذى تروى عنه نوابغ الكلم وتؤخذ عنه جوامع الحكم فيا ليت لنا فى بلادنا من يأخذ عنك هذه البدائع كيلا يضيع العلم من بيننا فادام الله وجودك ومتعنا ببقائك السعيد امين * ومنهم من يقول ان شانى يا جماعة الخير ان لا ارى علىّ لاحد دينا او لوما او منة ولو بت وعلىّ لاحد درهم واحد لم تأخذنى سنة ولا نوم وقد طالما حاولت ان اغير طبعى هذا بطبع من طباع الناس فلم اقدر وهو مع ذلك يترقب جماعة الخير ان تقول له نعم هذا الطبع لله سجاياك ما اكرمها وخلائقك ما اعظمها فيا ليت الناس جميعا يقتدون بك * ومنهم من اذا كتبت اليه كتابا تسأله عن شئ ضن عليك بجوابه اذ يراك غير اهل له * ومنهم من اذا رآك قد فتحت فاك للحديث معه او مع جليس آخر ابتدر الى قطع حديثك المفيد بان يحكى حكاية سخيفة عن نفسه او عن اهله وخادمه * ومنهم من يماريك فى الحق الصريح ولا يذعن لبرهانك وان كان يعلم انه دونك فى الجدال وآخر الكلام بينك وبينه هو ان يقول لك كذا كان رأيى وهذا هو قصدى فيوهمك بذلك انك كنت من الزائغين وانه من الراشدين وذلك حتى يكون آخر الكلام اليه * ومنهم من يجادلك ويعارضك فيما لا يورثه فخرا ولا يكسبه ذكرا ولكن لمجرد اظهاره اياك غالطا فاذا سألك مثلا كيف انت وقلت له بخير وعافية قال لك ما اراك تدرى ما العافية فانى لا ارى اثرها عليك فتقول له كيف وانى والحمد لله متمتع بصحتى ويمرئنى ما آكل واشرب ويهنئنى منامى وجلوسى فيقول ما هذا معنى العافية عند المحققين وانما هى ان تمشى منتصبا غير لاو على احد او شئ تراه عن يمينك ولا شمالك موازنا لخطواتك شامخا بانفك مصعرا خدك الى آخره ولو جئته بجالينوس والفيروز ابادى ليطلعاه على حد العافية وتعريفها لم يقنع منك * ومنهم من اذا غاب يوما عن وطنه قال لمن يجهل حاله ان ابى كان رئيس المنشئين فى الديوان وعمى كان وزير الامير وخالى سميره وانى انما قدمت بلادكم للتنزه والتفرج وما اشبه ذلك ومن هؤلاء المفحسين من اذا لم يجد مجالا فى نفسه للمدح افتخر بابيه او جده او عمه او بداره او ببلدته واعتقد ان كل شئ يضاف الى ضميره يعجب الناس وقد سمعت مرة واحدا من هؤلاء المفتخرين يقول قد جرحت

اصبعي بالامس فخرج منها دم احمر قان اعجب وعجب جميع الحاضرين • ومنهم من يستفزه العسر والضنك الى ان يغادر وطنه فيقصد امير بلدة او شيخ قرية ويلثم يديه ورجليه ويتضرع اليه ان يؤويه اياما ريثما يجد مقاما فاذا رأيته والحالة هذه وسألته عن مقره اجابك بان الامير فلانا دعاه الى النزول بداره وامسكه عنده ولا يريد ان يطلقه كلفا به • ومنهم من يروعك بخطه الشديدة فتظن ان المكان تزلزل منها او بتجشئه الذي يسمع له صد • ومنهم من اذا حييته في الضحى شخر وزمجر وفتل شاربيه وزفر واوهمك ان الوقت سحر لا ينبغي فيه اللقاء والسمر وقس على ذلك من يزكي حرفته ويفتخر بصنعته الى ما لا نهاية له فاذا تقرر ذلك فاعلم ان كبر الانكليز هو من النوع الاول وهو انك تنظر فيهم الانفة وكلوح الوجه ولكن متى خاشنت منهم احدا تبين لك انه لا فخور ولا فياش فمن كان دخله في العام ١٠٠٠٠ ليرة اوهمك انه مثلك اذا كنت مثلي ذا هم في المعيشة ونصب ومن يكن عنده الفا كتاب مثلا فاذا قلت له ما اكثر كتبك قال لك لعلي اسرفت في شرائها وما كان ينبغي لي هذا مع انه لو قال لك اني قادر على شراء ضعفيها لكان من الصادقين ومن كان منهم يحكي البدر جمالا كقول شعرائنا لن يخرس بكلمة تدل على انه فتن امرأة بحسنه ومن يكن مضطلعا بالعلوم والفنون فاذا سألته عن شيء لم يجبك الا بعد التروي ولا ينسب اليه حل المشاكل واستخراج المجهول واذا سألته عن شخص يدعي العلم ويؤلف ما لا يرضى به العلماء قال لعله استعجل فيما الفه ولم تمكنه مراجعته وقد يكون مع المستعجل الزال فلا يعيي عن ان يجد له عذرا يستر به عيبه ومن يكن في اعلى المراتب لم يستنكف ان يجيب من يسأله اياكان فقد تبين لك ان كبرياء علية الانكليز انما هي في وجوههم اكثر منها في السنتهم وقلوبهم وان وسم الناس اياهم بالعجرفة مطلقا لبس في محله الا اني لا انفي عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن ان تذل لغيرهم وهو من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق • فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس ايضا مضافا اليه عدم التادب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمنقلب وهلم جرا • هذا وكما اشتهر عن الانكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق ولكن ينبغي ان تعلم ايضا ان الكذب على انواع احدها نيء مائع وهو الذي

اتصف

اتصف به اهل البلاد المشرقية وذلك كأن يعدك الانسان بالحضور فى الساعة الفلانية ثم يخلف او يعدك بقضاء حاجة وفى قلبه ان لا يقضيها او ان يسافر الى استانبول ويقول ان مؤلف كتاب الساق على الساق قد ضغط بين عاجلتين فانكسرت ساقاه جزاء له بما عنون كتابه به او ان تكون قد ارسلت له كتابا فينكر وصوله تملصا من لومك له او ان يقول لك قد اطريت عليك البارحة عند فلان فهو يبلغك السلام ويدعوك الى منزله فاذا سرت اليه وجدت الامر بالعكس او ان يقول قد نويت ان اسافر غدا الى المشرق ثم يسافر الى المغرب وغير ذلك مما لا يجدى نفعا ● والثانى كذب مطبوخ ناضج جامد وهو ما تستعمله تجار الافرنج فيكتبون مثلا على بضائعهم انها من انفس الاشياء وانها صنعت باختراع آلات جديدة احدثت عن طول تبحر فى علم الهندسة والكيمياء وان لحمة هذا الثوب من الهند وسداه من الصين او انه سلطانى او ملكى او اميرى او وزيرى او مولوى ونحو ذلك فهذا الشعار لا تأنف الانكليز من ان تتردى به لجر منفعة به اليهم بل هو المراد عندهم من التمدن واذا علموا ان جيلا اشهر منهم فى شئ نسبوا اليه ذلك الشئ الذى يصنعونه هم ترويجا له ● والثالث كذب متبل حريف محرق وهو التغرير والنميمة والافساد بين محبين او خليلين لؤما وحسدا وهذا ايضا يكاد ان يكون من خصوصيات بعض المشرقيين ● ثم ان الغنى وان يكن شأنه ان يجتذب اليه قلوب الناس فى جميع الامصار والاعصار وان التجمل بالالباس يورث المرء هيبة وجلالا حيثما كان وعلى ذلك قول بعضهم لقد اجتهدت فى ان انظر الى الغنى بالعين التى انظر بها الى الفقير فلم اقدر او كما قال الفاضل كولد سميث ان الغنى مرادف الحرية فى كل مكان الا ان الغنى عند الانكليز شعار على الجدارة والاستحقاق لكل شئ فالغنى عندهم يمكن له ان يرفع دعواه الى مجلس المشورة ويطلق امرأته لعلة الزناء حقيقة او ادعاء والفقير لا يمكنه وله ايضا جدارة بان يكون ضابط البلد ومن اعضاء مجلس المشورة المؤلف من نواب الاقاليم وان يشترى وظيفة من الديوان فى العساكر البرية فيكون قائد مائة او الف او عشرة آلاف وان يدخل فى المنتديات اى الكلوب وهناك يجتمع بالعظماء وذوى الشرف فاذا رأوه على تلك الحالة لم يتلبثوا ان يدعوه الى منازلهم فان كان عزبا خطب اليهم احدى بناتهم او اخواتهم او كان متزوجا زوج

ولده من احداهن فاستقطر بانبيق ديناره دمهم الشريف فى دن نسبه ويالهـا من غبطة وله ان يتوسل الى نجى صاحب الملك بالهدايا والطرف فيستنزل له وعل جلاء شريف من شرفه ولو كان يهوديا وله استطاعة على ان يستعمل امهر فقهاء الشريعة فى تبرئته ان كان معيبا ومدعى عليه او استخلاص حقه ان كان مدعيا فيصيرون له النور ظلاما والظلام نورا وان يستخدم كتاب الحوادث فيشيدون بذكره وينوهون بمناقبه وان يستخدم احذق الاطباء لحفظ صحته العزيزة وان يحضر طعامه وشرابه من جميع البلدان القاصية انماء فى بدنه وتصفية لذهنه وان يضع اولاده فى احسن المكاتب الى غير ذلك من المنافع التى لا يحوزها الغنى فى بلادنا ومن ليس له غنى فى هذه البلاد فلا يحسبن نفسه من الناس هذا وقد جرت العادة فى كل مكان بان السعيد الغنى لا يزال يبدو للناس فتى فاذا مات وهو ابن خمسين سنة مثلا اسفوا عليه وقالوا واحسرتاه فقد مات عبطة ولعل بعض حساده قد سمه وكذا لو تزوج فى ذلك السن او سافر استحسنوا فعله ولو انه لجهله كان يصيف فى مشتى ويشتو فى مصيف مدة طويلة ثم جعل المصيف مشتى والمشتى مصيفا لقال الناس ان رأى هذا السعيد ما زال رشيدا فان الزمان قد انقلب والحال حال فكل شئ يليق به بخلاف الفقير الشقى فانه اذا مات وهو كهل قالوا لا بد لمثله ان يموت واذا سافر او تزوج عرض نفسه لاستهزاء الناظر والسامع به وما قلته فى منافع الغنى هنا لا ينفى منافع العلم على الاطلاق فان من برع عندهم فى علم وان كان وضيع النسب فلا يعدم ان يرى من يرفعه من خموله ويستفيد بعلمه غير ان العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف او بنظم قصائد وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة ادبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن اخترع شيئا مفيدا فقد استغنى به وذلك اما ان يبيعه لاحد من الاغنياء بجعل وافر واما ان يستبد بصنعه فلذلك كان العلم فى اوربا دائما مورد الاستنباط والابتكار بل كثير منهم يحرزون به لقب الشرف • ومن عادة الكبراء والنبلاء ان لا يورثوا جلاءهم واملاكهم الا للابن البكر فان شاء اعطى اخوته وان شاء حرمهم ففى هذه الحالة يلتزم الاهلون ان يقوموا بكفايتهم واذا كان البكر مسرفا فبذر اموال ابيه

اشترى

اشترى له أصحابه او اهل البلاد ولاخوته وظائف من الدولة او بعثهم الى البلاد الخارجية والحكمة فى توريث البكر دون غيره هو ابقاء الجلاء فى العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقى له حق اللقب والوراثة هذا اذا كان التراث عقارا فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا او اشياء متنقلة قسم بين الاخوة ومما يحمد من الكبرآء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتداخلون فى التجارة ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل احد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه ويقول له فى شأن كل منهم هذا فلان الا ان هذا التعريف لا يلبث ان يصير تنكيرا فان من تعرفه فى المجلس لا يلتفت اليك اذا رأيته فى الغد فى محل آخر فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم احدا فلا يحيي مطلقا بخلاف عادة الفرنساوس فان من يدخل على جماعة اياكانت يضع يده على رأسه او ينزع برنيطته احتراما لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم ومن تعرف عند الانكليز باحد افراد العائلة مثلا وتردد عليه فان لم يعرفه بابيه وامه واخوته فلا يسلم عليهم اذا رآهم داخلا فلا يلام على تركه ولا يحمد على فعله واذا استخدم احد جارية ولقى اباها وامها لم يسلما عليه هذا وقد تقدم ان الغنى يمكن له ان يطلق امرأته برفع دعواه الى مجلس المشورة فان الطلاق من الامور الصعبة هنا ولا يمكن رفع دعوى مثل هذه الا بمصاريف وافرة لا تنقص عن اربعمائة ليرة الا انه بعد تحرير هذا الكتاب أبيح الطلاق للعامة من دون مصاريف فان مجلس المشورة رأى ذلك اصلح للرعية وهو الرأى الاسد • وبقى هنا ان نقول ان رؤية الزوج زوجته مع رجل اجنبى فى حجرتها تكفى فى اكثر الاحوال لاثبات الزناء من دون رؤية الميل فى المكحلة واربعة شهود عدول كما يقتضيه الشرع الاسلامى وهذا من دون هذا الوجه سديد فان الطلاق لما كان فى الشرع مباحا ضيق على الرجل فى اثبات الزنآء على زوجته وحيث كان محظورا فى شرع النصارى الا لاجل الزنآء فسح للرجل فى اثبات الزنآء عليها بمجرد خلوتها مع الرجل • ومن الغريب هنا انه قد جرت العادة عند العامة بان يبيعوا نسآءهم بيعا لعدم امكان طلاقهن وصورته انه اذا شعر الرجل بان زوجته تحب آخر عرض عليها الانتقال الى محبوبها فاذا تراضيا اخذها وباعها له بمحضر شهود وقبض منه ما يؤذن بصحة

البيع وتخلص بعد ذلك من تبعتها وفي اخبار العالم ما نصه رجل باع زوجته في حانة لرجل بخمسة شلينات و نصف وقبض الثمن بحضرة شهود وذهب بها المشترى ولما كان الغد ندم زوجها على ما فعل واستقال في البيع فلم يقل • وذكر ايضا فيه ان توماس داى تزوج امرأة في سنة ١٨٤٩ فاساء عشرتها فتركته وعلقت برجل من سكوتلاند اسمه روبرتصن ففاوض زوجها على ان يشتريها منه فاجتمعا ذات يوم في حانة وباعها له الزوج بحضرة شهود بنصف پنت من الجن تقاسموه جميعا • وفيه ايضا ان توماس ميدلطون باع زوجته مارى ميدلطون لفيلب روستنسن بشيلين وربع من الجعة وتراضيا على الافتراق الدائم ما داما حيين • وهذه العادة وان تكن غير مباحة في احكام الدولة الا انه مسكوت عنها كما سكت عن اباحة الزناء للبومسات فان الزناء هنا معلوم لارباب الاحكام لكنه غير مباح وكثيرا ما يقوم السم مقام هذا البيع فان التخلص من الازواج به اكثر منه بالطلاق او البيع • ومن عادتهم في الزواج ان البنت لا تتزوج الا من كان مساويا لها في السن او كان اكبر منها بسنتين او ثلاث وفي ذلك شطط اذ لا يخفى ان المرأة متى بلغت الاربعين سنة لم يبق فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل ولاسيما اذا كانت منتاقا نعم ان النساء هنا لا يعجل فيهن الهرم فان من يكون سنها ثلاثين سنة تبدو كمن سنها عشرون في بلادنا غير ان هذه الصفة تراعى ايضا في جهة الرجال ايضا وفي بلادنا لا تثريب على من بلغ الخمسين ان يتزوج بنت عشرين وهذا يندر هنا جدا الا لسبب عظيم وذلك كأن يكون الرجل اشرف من المرأة واغنى فترغب فيه لتشاركه في شرفه وغناه اذ كانت هاتان الصفتان عند الانكليز افضل من جميع المناقب ولاسيما اذا روعى في ذلك مصلحة تربية الاولاد وفي هذه الحالة فلا مانع ايضا من ان يكون الزوج شيخا فحلا لعلمها ان حرارتها لا تلبث ان تذهب ببرودته فتستولى على الميراث واذا خطب احد امرأة ثم بدا له ان يعدل عن الزواج لغير موجب شرعى غرم لها مبلغا عظيما ولا حرج على اليهود ان يتزوجوا من النصارى وللاب ان يجبر ابنته على الزواج بمن شاء اذا لم تبلغ حد الرشد وهو عندهم ٢١ سنة وبعده ليس له عليها من امرة الا بالمعروف والنصيحة ولكن كثيرا ما تهرب البنت من تحت حجر ابيها وتتزوج من شاءت وان حرمها من الميراث واذا خرجت من حجره بعد بلوغ رشدها لم يبق لوالديها

استطاعة

استطاعة على ردها ووصية الموصى قبل بلوغ ذلك السن لا يعمل بها وللذكر ان يعقد الزواج عند بلوغه اربع عشرة سنة وللبنت عند اثنتي عشرة وما دام الولد دون سن الرشد فعلى الوالد ان يقوم بنفقته وبعد ذلك لا يلتزم بها واذا تزوج الولد قبل هذا السن فلابيه ان يحرمه من ميراثه ومتى تزوجت المرأة انتقل جميع ملكها الى حوز بعلها ولكن لها ان تستدين على اسمه ويجبر هو على وفاء دينها ولا يحل للرجل ان يتزوج اخت زوجته وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة اولاد فلما حضرها الموت اقسمت على زوجها ان يتزوج اختها بعد موتها لتربي اولادها فتزوجها فلما علم ذلك فى ديوان الحكم فرق بينهما فسألت من اخبرنى بذلك عن سبب هذا الحظر لانه غير مبنى على مصلحة وقلت ان كان تحريمه ورد فى التوراة فقد ورد فيها تحريم امور كثيرة استحلها النصارى فلاى سبب اضربتم عن تلك وتمسكتم بهذه فقط فقال المصلحة فى ذلك هو ان لا يتوصل رجل واحد الى احراز جهازين من بيت واحد فقلت ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث فقال ان الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبراء • ولا بد ان تشهر الخطبة فى الكنيسة ثلاث مرات متوالية فى الآحاد واذا مست الحاجة الى الزواج بدون اعلانها غرم الرجل ضعف النفقة وهى فى الغالب خمس ليرات اما فى سكوتلاند فان الزواج يتوقف على شاهدين فقط فلذلك كان كثير من الانكليز يذهبون الى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا ويقال ان مجلس المشورة يهم بان يعين اقامة احد وعشرين يوما هناك قبل الزواج تقليلا من استعمالها ومن تزوج امرأة زوجها حى غرم ونكل وللمرأة المتزوجة عند الانكليز احترام اكثر من غيرها وان تكن اصغر سنا من غير المتزوجة فاذا خرجن من مجلس الى موضع الاكل مشت المتزوجة قبل تلك واجلست فى احسن موضع ولا بد للمتزوجة ان تلبس خاتم الزواج فى بنصر يدها اليسرى ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خمسة بعول ومن الغريب انه عند عقد الزواج يلقن القسيس الرجل ان يقول للمرأة حين يضع الخاتم فى اصبعها بهذا الخاتم اتزوجك وبجسمى اخدمك ولا معنى للباء فى قوله بهذا لان الخاتم ليس آلة للزواج ولفظة اخدمك لا يفهمها احد من العامة بهذا المعنى وعند تناول طعام العرس تلبس العروس ثيابا بيضا وتقعد النساء على المائدة وعليهن برانيطهن وعادة الاغنياء منهم ان يعتزل

الرجل بعروسه بعد عقد الزواج فيقيم معهـا شهرا فى خلوة عن الشغل والاهل والاصحاب وتسمى هـذه المدة عندهم قر العسـل ولا يكاد المثرى يتزوج الا مثرية مثله واذا تزوج الرجل امرأة ووضعت عنده بعد شهر الزم بتبنى الولد وتربيته وان يكن من غيره وكذا لو علم انه عائش مثلا مع مومسة وولدت ولدا ومن ثبت عليه انه افتض بكرا فولدت منه اجبر على ان يؤدى اليهـا فى كل اسبوع شلنين ونصفـا فى الاقل الى ان يبلغ الولد تسع سـنين اما الافتضاض قسرا فيعاقب عليه بالتغريب والنفى وكان يعاقب عليه فى عهد وليم الاول بسمل العينين وفى عهد الصكصونيين بالموت • ومن العجيب ان الوالدين من الانكليز اذا كانا قبيحين نأتى اولادهم ملاحا فاذا دام هـذا الاسـناع حقبة فلا يرى فيهم بعد من قبيح والظاهر انهم احسن تربية للاولاد من غيرهم فانهم يغسلونهم بالمـآء البارد فى كل يوم اذا كانوا اقويآء او بالفاتر اذا كانوا ضعفآء ولا يقمطونهم حتى يمتنعوا من الحركـة كما يفعل فى بلادنا وانمـا يشدونهم بحزام فقط وبعد نصف سـنة يعودونهم على الاكل الخفيف مع اللبن فلا تأتى سـنة على الطفل الا وهو يلتقم كل شئ ولا يكاد طفل يحدث فى ثيابه او يفحم من البكآء كما يكون عندنا غير انى كثيرا ما رأيت الامهات هنـا يسقين اطفالهن المزر او شرابا غيره لينمهم ويطعمنهم ايضـا الفاكهة والدسم ويدخلن بهم فى الزحام واماكن الخصام واللكام وممـا يحمد من تربيتهن انهن يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون لثغة ولا كسر كما تفعل نسـاء بلادنا بل ربمـا حكين لهم حكايات وهم لا يعقلون ويخاطبنهم بمـا يخاطبن به من يفهم ويلقنهم اشـيآء كثيرة تعودهم على الفهم من صغر والذى ظهر لى ان اطفال الانكليز اذكى وازكن من اطفالنا وبعكس ذلك المراهقين وفى الحقيقة فان الام فى بلاد الفلاحين لا تربى الا ولدهـا البكر والباقون تربيهم اخوتهم الاكبر فالاكبر وفى الجملة فان نسآء الانكليز مناتيق جدا واتفق ان امرأة ولدت اثنى عشر توأما وثمـانية فذوذ قـال فى الجدية الاوقات قد حدث غير مرة ان امرأة تلد اربعة اولاد فى بطن واحد فاما ولادة خمسـة فلم يحدث الا مرتين احداهمـا فى اوستراليا سـنة ١٧٧٣ والثانية فى لندرة سـنة ١٨٠٠ قال وفى سنة ١٧٨٣ جعل شبه ضريبة على ولادة الاولاد فكان على الدوك ادآء ثلاثين ليرة وعلى احد العامة ادآء شلنين اه ويعجبنى

لطف

لطف الاولاد هنا ولا سيما حين تكون ثيابهم قصيرة وسيقانهم ظاهرة فى اوان البرد ♦ وعادتهم فى الجنازة ان يبقوا الميت اسبوعا فى البيت قبل دفنه وعند اخراج جنازته يشيعها رجال يلبسون على رؤوسهم مناديل سوداء معقودة فوق برانيطهم ولكل ميت حداد معلوم ولكل دفنة سعر ولكن لا يخمشون عليه وجها ولا يشعثون شعرا واذا ابقيت الجنازة فى محل عند المقبرة ليلة واحدة ادى عليها خمسة شلينات زيادة على الرسم المعتاد فقلت لمن طلب منى ذلك ان الحى يرقد على فراش وثير ليلة ويوسخه ولا يؤدى اكثر من شلين واحد فكيف تطلب على طفل فى تابوته خمسة فقال ان بين الحى والميت فرقا اما الكبرآء فانهم يبقون جنازتهم اكثر من اسبوعين اشارة الى انه غير جدير بان يفارق هذه الدنيا ومن الغريب انه اذا مات احد منهم غريبا فلا بد من ان يعيدوه الى وطنه ليدفن فيه فيا ليت شعرى ما نفع الميت لبلاده او ما نفع بلاده له ولا يدفن ميت الا بشهادة الطبيب الذى عالجه او اجهز عليه وذلك لكثرة ما يقع عندهم من القتل بالسم والواقع ان الفرنسيس اكثر احتراما للجنازات من الانكليز فانهم يمشون ورآءها اياكانت وهم خاشعون حاسروا الرؤوس وحين تكون فى البيت يوقدون حولها الشموع ليلا ويجعلون لها حارسا ♦ ومن عادتهم فى العيادة ان يستعضلوا دآء المريض لاهله اياكان ويلقوا فى قلوبهم الرعب بقولهم مثلا ان فلانا منى بهذا الدآء منذ ايام فمات فانه دآء معضل ولا سيما فى هذه الايام فكنت كثيرا ما اتذكر ما حكى عن ذلك الرجل وقد مرض فعاده بعض اصحابه وقال له ما تشتكى قال وجع الركبة قال انها والله كانت علة ابى فمات منها واذا اصيب احد بما يخاف منه العدوى فلا يعودونه اصلا وقد كان لى طفل اصيب بالسعال فلما كنت اذهب الى منزل الدكطر لى على عادتى كانت زوجته تتجنب مواجهتى فساءنى ذلك اولا حيث لم يكن يخطر ببالى ان السعال يحمل من المبتلى به وينقل الى صدور الجيران فلما علمت عموم ذلك هان علىّ مع ان الدكطرية المذكورة كانت على غاية من الورع والظاهر ان جميع الافرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون امرهم الى الله وان تلبسوا بالعبادة واتصفوا بالجرآءة على انهم لا يكادون يفجعون بموت احد الا ويتناسونه فالاستسلام لقضآء الله انما هو من خصوصيات المسلمين وكفى بلفظ الاسلام دليلًا عليه وفى

هــذه القرى لا يوجد اطبــآء ولا دوائية وانما يكون ذلك فى بعض البلدان المجاورة لهــا حتى ان ما يوجد هناك منهم ان هو الا نفاية فلو سكن احدهم فى احدى المدن الجامعة لما نال بعمله رغيفا ٭ وعادتهم فى المــآدب ان تجلس الضيوف على المــائدة وتجلس صاحبة الدار فى الصدر وتأخذ فى ان تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة وتناول الصفحة للخادمة فتضعها الخــادمة امام الآكل ولو حصل خمس حصص من تلك الشرائح لما شبعت والاكثار من اكل الخبز عندهم مظنة الهمجية وقد ادبت مرة عند احد اعيانهم فلما جلــنــا على المائدة اخذت الفوطة ووضعتها على حجرى وكانت كسرة الخبز مخبأة فيها فوقعت و انا لا ادرى واستحييت ان اطلب غيرها وهم ظنوا انى تنكلزت فى بلادهم فلما تحركنا للقيــام اذا بالكسرة لاصقة بنعلى فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذى طرق باب بخيل فرمى له بكسرة خبز اخت كسرتى هذه التى انتعلتها فاخذهــا وتأملهــا ثم طرق الباب مرة اخرى فقــال له صاحب الدار قد اعطيناك فلم لا تنصرف قال قد اعطيتمونى هذا الدوآء ولم تقولوا لى كيف استعمله واذا كان على المائدة لونان من الطعــام او ثلاثة كأن يكون مثلا شوآء من البقر ودجاج خيرتك الست ايهما تريد فاذا تنــاولت من لون سقطت شفعتك من الثــانى وندر ان تعطيك منهما كليهما ولا يمكن ان تعطيك شيئــا او بالحرى من شئ الا اذا استطلعت رأيك فيه اولا ولا يمكن للمدعو ان يمد يده الى زجاجة الخمر ويصب منهــا فى قدحه بل لا بد من ان ينتظر السائد او الست ان يعرضــا عليه وكذلك سائر المــأكول والمشروب و يحزننى ان اقول انى كثيرا ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم ثم يستكثره عليهم فيضع فى صحفته ما استكثره فربمــا امتلأت من تلك القطع وكنت ارى المدعوين معى يتكلفون الاكل تكلفا و يتبلغون بما لا يكاد يكفى الصبى فيبقى ثلاثة ارباع الطعــام كما هو واذا برد عنــدهم اللحم المطبوخ فلا يأنفون من اكله كذلك اسبوعا فلهذا ترى المحضر على المــائدة كثيرا بالنسبة الى مقــدار الآكلين وكمية اكلهم وقد ســألت المرأة التى كنت نازلا عندها ذات يوم فقلت لها نشدتك الله الا ما صدقتنى هل انا من الاكالين المفرطين قالت لا بل من المقتصدين قلت قد دعيت غير مرة ورأيت الجماعة المدعوين معى لم يأكلوا جميعهم قدر ما اكلت انا مرتين فقــال لى ان الدعوة هنــا انما هى صورة فقط

فان

فان المدعوين يأكلون فى بيوتهم قبل ان يحضروا الوليمة فاخذنى العجب من ذلك
وطفقت افكر فى مخالفتهم فى ذلك لعادتنا فان المدعوين عندنا كلما اكثروا من الاكل
زاد سرور الداعى بهم لاعتقاده انهم احبوا طعامه واذا قلت لواحد من الانكليز
ان فلانا دعانى الى الشاى قال لك انه هو كثير الفضل وما اشبه ذلك هذا عند
الوسط من الناس فاما عند العظماء والزعماء فان الخادم يطوف على الحاضرين
بآنية الشراب ويخيرهم اى نوع يشربون وربما شربوا المزر اولا ثم قليلا من
الخمر حتى اذا فرغوا من الاكل قامت النساء وانفردن فى مقصورة وبقيت الرجال
على المائدة وحينئذ تتداول كؤوس الشراب والمناقلة على النقل بغير محاشاة وربما
قضت الرجال ساعة او ساعتين على الشرب والنقل وساعة من قبلها على الطعام
وانما تقوم النساء خوف ان ينهمك احد الجلوس فى الشرب فينطق بما لا
يليق ولا بد فى الموائد الحافلة من وضع السمك المسلوق اولا فاما الشوربة فهى
عبارة عن حسا الفلفل وقد رأيت على هذه الموائد البطاطس يأتون بها فى
صحاف مفضضة وتحتها فوط من الكتان الرفيع فلم ادر ما المراد بهذا الاحتفال
والتنطس فان الخسيس خسيس حيثما كان والكاب كاب وان طوقته ذهبا واذا
فرغ الآكل مما لديه ولم يرد الزيادة وضع السكين والشوكة متوازيين واذا
شرب الشاى وضع الملعقة فى الفنجان وعند صف ادوات النساى تقوم الست
ايضا وتجلس فى الصدر وتسأل من حضر هل تريد ان تشرب شايا فيقول نعم
ان شئت فتقول أتشربه مع السكر فيقول نعم ان شئت فتقول ومع الحليب فيقول
نعم ان شئت فتقول وتأكل نصف هذه الكعكة فيقول ان شئت فتقول وربع هذه
الفالوذة فيقول ان شئت وكلما اكرمته باحدى هذه المركبات قال انى اشكرك وبالجملة
فان الدعوة عندهم ضرب من الاسر وقد ادبنى او ادب طربوشى احد الوجوه
فى كمبريج الى ان اشرب الشاى معه فقال هل لك فى ان تشرب الشاى معنا
فى احدى الليالى ولكن بعد ثلاثة اسابيع قلت نعم حتى اذا سرت اليه لم اجد
على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع انى كنت اظن ان توقيت تلك المدة انما
كانت لجلبه من بعض البلاد • واذا كانوا مجتمعين فى مجلس وارادوا
الخروج الى محل المائدة اخذ الرجل بذراع زوجة غيره واجلسها على الكرسى
واخذ غيره بذراع زوجته واذا بقيت واحدة بغير زبون كان ذلك داعيا

لحملها • ومن عادة النساء على الموائد ان يكشفن عن صدورهن واكتافهن وانصاف اعضادهن وهذه المواضع احسن ما يرى فيهن ومن عادة العجائز ان يتزيّن بما لهن من الحلى والجواهر والشعر العارية وليس ذلك من عادة البنات قبل زواجهن فترى البنت الباهرة بجنب امها السعلاة عطلا وتلك متجحة بالقلائد والخواتم والاسورة والسلاسل الا انهن فى غير الولائم والسهريات لا يتحلين بشئ ومن الادب عندهن ان يأكلن واكفهن مستترات بالجلد الابيض ويمضغن ما يأكلنه مضغا خفيا فان فتح الفم للالتقام وشدة لوك الملتقم من اكبر العيوب والذى يظهر لى ان نساء الريف بالنسبة الى برودة قطرهن وصحة ابدانهن قليلات الاكل جدا ومع ذلك تراهن عبلا سمانا بخلاف نساء لندرة وقلما تأكل احداهن شيئا من دون شراب معه او تشرب من دون اكل وربما تغدى احدهم بغير شراب فاذا فرغ شرب الشراب وحده وعامة الانكليز يطبخون طعامهم بلا ملح وانما يملحونه عند الاكل ويكثرون من الابازير منتهى الاكثار ولا سيما الفلفل والخردل فان احدهم ليضع فى صحفته ملعقة من كل منهما والفلاحون يأكلون الحلواء قبل الطبيخ فهم فى هذه كالترك ويشربون الحليب بالملح والفلفل وبعضهم يخلط الدقيق بقليل من السكر ويأكله وقد دعانى بعضهم الى ان اشرب معه القهوة وكان يأكل معها فجلا ورشادا فعرض علىّ فابيت فتعجب من ذلك ومع افتقار هؤلاء الفلاحين وشدة احتياجهم الى اشياء كثيرة للدفء مما نستغنى نحن عنه فى بلادنا وكذلك كايقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية اشهر فى السنة وكلبس الجوارب والشعار من الصوف فقد الفوا شرب الشاى الفة شديدة حتى لم يعد ممكنا لهم ان يستغنوا عنه فيقال ان مصروفهم منه فى العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين وعشرين مليونا وقد جلب منه فى العام الماضى سبعة وثمانون مليون رطل واول ما عرف هذا النبات فى اوربا كان من اهل هولاند فانهم جلبوه من الهند وذلك فى سنة ١٦١٠ وكان استعماله اولا فى غاية الندرة فكان يباع الرطل منه من ست ليرات الى عشر ثم لما استقرت جمعية الهند فى تلك البلاد صاروا يجلبونه منها فرخص سعره وكثر استعماله وضرب المكس عليه فى اميريكا حين كانت ملحقة ببلاد الانكليز كان من بعض الاسباب التى هيجت الاهلين الى النزاع والحرب وقد

حاول

حاول الافرنج تنبيته فى بلادهم فلم يتهيأ لهم وجيع الاطباء يقولون ان شرب الشاى غير نافع بل مضر ضررا بليغا بمن فى عصبهم استرخاء ولا شئ اقر لعين صاحبة العيلة من الانكليز من ان تشرب الشاى مع اولادها بقرب الموقد ولا سيما اذا كانت مغلاة الماء تغلى ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها وهذا هو اوفر الهناء الذى يعبرون عنه بلفظة كمفورت ثم ان الانكليز عموما يفتخرون بالهسپيتاليتى وهى قرى الضيف وبر الغريب والحق يقال انهم فى ذلك اكرم من الفرنسيس وخصوصا اهل الرستاق دون اهل المدن الجامعة فان هممهم بتحصيل الكسب شاغل لهم عن الكرم الا ان مآدبهم منغصة بكثرة التحشم والتكلف الذى لا معنى له وقد جرت العادة فى المآدب الحافلة ان يشربوا الشراب على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم او كما يقولون على صحتهم او بالحرى يشربون صحتهم قال فلتير الظاهر انا انما نشرب الشراب لاجل صحتنا لا لاجل صحة غيرنا وكانت عادة اليونانيين والرومانيين ان يشربوا ويقولوا كلاما يكون داعيا لان يشرب غيرهم معهم لا ان يقولوا انا نشرب على صحة فلان وكانوا يشربون فى الاعياد تذكارا لاحدى الخطايا ومن هنا جرت العادة عند الانكليز الذين يحبون تجديد كثير من عادات الرومانيين ان يشربوا على ذكر احدى الخواتين ويقال لها طوست وقد يقع الجدال بينهم والمناقشة هل تلك الست جديرة بذلك او لا ومن الامور المهمة عندهم ان يشربوا على ذكر ولى العهد الذى له حق فى الملك فان ذلك دليل على كون الشاربين من حزبه قال برون استف كورك وكان ممن يكرهون الملك ولم يودى لو كنت اسد جميع تلك الزجاجات التى شربت لمجد هذا الملك وفى سنة ١٧٠٢ كتب منشورا الى اهل ارلاند يعلن فيه بان الشرب على ذكر الملوك معصية كبيرة ولا سيما بعد موتهم لان ذلك مناقض لامر المسيح بقوله اشربوا هذا لذكرى وكذلك پرين البرسبيتاريان الف كتابا كبيرا نهى فيه عن الشرب على ذكر احد من المسيحيين وحذا على حذوه كثيرون من اهل انكلترة وفرنسا غير ان مؤلف يوحنا غزى فى هذا الباب لا يعلو عليه مؤلف قال وذلك كله من العبث اه قلت وكانت العادة انهم اذا شربوا على اسم امرأة طرح الشارب شيئا من ثيابه فيلتزم جميع الحاضرين ان يفعلوا فعله فلما كان ذات يوم شرب احد الامراء على اسم

محبوبته وطلب من الحلاق ان يقلع له ضرسا نخرا فاضطرت اصحابه ان يقتدوا
به وفى بعض صحف الاخبار حكاية عن رجل فرنساوى انه قال قد حضرت انا
ورفيق الى الغدآء ان صح ان يقال لتلك الصحاف غدا اما اولا فلانه لم يكن
معه شوربة ثم ترادفت علينا قطع من لحم البقر وقدر من لحم الضان ثم وضعت
البطاطس امامنا على طبعها وعلى حالها وعوضا عن التوابل كان لكل من
الجلوس صحفة فيها سمن مسلي فشق على هذه الحال التى رأيتها اول دخولى
بلاد الانكليز وقلت فى نفسى ألا ان هؤلآء القوم لحميون ما يعرفون الا اللحم
ثم جالت الافكار والخواطر فى رأسى وقلت ليت شعرى ما سبب تفردهم بخصال
لم يشاركهم فيها غيرهم من النفخة التى تظهر فيهم ومن عدم دربتهم فى الرقص
وغلاظة اصواتهم فى الغنآء والتخاطب وكلوح سحنهم الناعسة وعن ذلك كله
كنت اقول فى الجواب انما هو لحم بقر انما هو لحم ضان ثم دعيت الى لون
من الطعام نوهوا به باسم بت لك وهو اسم طالما طرق مسامع اهل بلادنا
وكنت متشوقا الى ان اعرفه فلما كشف الغطآء عنه ونظرت اليه اذا هو لحم مشرح
شرائح رقيقة ومتبل بالبصل فصرخت متعجبا لعمرى ان هو الذى نسميه بيفتك
فلما قلت هذا تضاحكت الجلوس ولا سيما واحدة من الخواتين كانت تتكلم
بلغتنا ثم قالت ان اسم هذا اللون معناه بحت اكلة تفننا فى التسمية لا فى المأكول
اه • وقال آخر ما شئ باعجب من رؤية ولائم الانكليز التى تذكر الناظر
بالولائم التى ذكرها اوميروس اذ ترى قطعا جزيلة جدا من لحم البقر المشوى
وشاة باسرها على طبق وحيتانا ضخاما على مائدة طويلة ملآنة من القنانى
والاقداح والظروف فتجلس الضيوف وعليهم الثياب السود وهم رزان
ساكتون متحلمون كأنهم حول جنازة ووراء الزعيم رجل يقال له طوست
ماستر وهو الذى عليه ان يفتتح الكلام حتى اذا ناجاه الزعيم قال بصوت
جهير ايها الكرام انى عمدت الى طوست ولا اشك انكم تنعمون بقبوله فتتحرك
الجلوس من همدتهم ويقومون باجمعهم كما تحرك شيئا بآلة ويجيبون دعوته
فاذا شربوا برز ثلاث جوارى كاشفات عن ترائبهن من ورآء حجاب وأخذن
فى العزف بالبيانو ولا يزال الطوست يدور ويعاد الى ان يحل محله • ومن العجيب
ان جيلا متقدما فى المعارف والصنائع كالانكليز لا يعرفون ان يطبخوا اللحم
بالبقول

بالبقول وانما يطبخون كلا منها على حدته اما البقول فانما يسلقونها سلقا وهي عبارة عن اللفت والكرنب والجزر وشيئا آخر من هذه النباتات الزمخية وسلطان المائدة انما هو البطاطس اذ لا تتم آدابها الا بها وربما اجتزأ الفلاحون بها عن كل ما عداها حتى عن الخبز وقد يحشون بها رقاق الخبز ويطبخونها في الفرن فتسد مسد كل شيء واهل ارلاند يتخذون منها خبزا اما اللحم فاحب شيء اليهم منه الشواء وهذا من وجه يصلح لمن الف الاسفار لان المسافر حيثما كان في الارض يجد لحما ونارا بخلاف من سافر منا وقد الف الوانا شتى من الطبيخ فلا يزال لهجا بهذا وذاك فيتنغص عيشه وعلى ذلك قولي

* أني انا والفيل صنوان فرقا * سوى انني ضرب وذلك بادن *
* فان له نابا يحن لاجله * واني لسني كل حين لحائن *

الا ان اللوم موجه على المستوطنين واصحاب المطاعم والفنادق الذين يجهلون من انواع الطبخ ما يعرفه افقر الناس في البلاد المشرقية حتى انهم لا يعرفون ان يقلوا البيض بالسمن ولا يطبخون العدس ولا الحمص ولا الفول ولا غير ذلك من القطاني الا الرز فانهم يسلقونه سلقا ثم يصبون عليه الحليب واكثرهم يتقزز من الزيت ولا يدري ما طعمه على انهم يأكلون الدم مخلوطا بالشحم ويتخذون منه ايضا نوعا من الفصيد • ومن العجيب انهم لا يعافون من اكل اللحم المنتن وغيره فان الارنب والغزال لا يأكلونهما الا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما وقد دعيت غير مرة الى موائد الموسرين وشممت فيها بخر الارنب وعلى ذلك قولي

* ويأتون بالارنب المسبطر صحيحا كما كان يطمر طمرا *
* باذنابه وباسنانه وباظفاره وهو يفغر ذعرا *
* وفي وجه كل الضيوف له ذنب شائل ودبر تعرى *
* ووالله بالله تالله اني * شممت له بخرا ليس حزرا *

وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها الا بعد خنقها بايام ويقولون انها اذا بقيت اياما كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مرآءة وطيبا والدليل على ذلك ان الآكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو اكلت وهي طرية والحق يقال ان لحم البقر عندهم لا يؤكل الا بعد ذبحه بيوم او يومين وذلك لكثرة دمه ولا حرج على بيع المنتن من اللحم والسمك والفج من الاثمار والفاسد من كل شيء وعندهم صنف

من الجبن يستطيبونه على غيره لكونه مدودا وكنت ذكرت يوما لاحد فضلائهم قضية اكلهم الارنب منتنا فقال لا تعد تذكر لفظة منتن فانها قبيحة تشمئز منها السامع فقلت ما دمتم انتم تأكلون المنتن ولا تشمئزون منه فلست بنفك عن ان اذكره وهذا كتحشمكم من ان تذكروا فى كتبكم ضخم ارداف المرأة مع ان نسائكم النحيفات يعظمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحشايا والمرافد مما لو فعلته الفواجر عندنا لخجلن فانتم حيون من الاسم ووقحون على الفعل ان هذا لغريب فضحك هو وزوجته * وقالت لى مرة احدى النسآء المخدومات ما اطيب العيش فى بلاد النمسا لولا انى اكره شيئا من دابحهم فقلت ما هو وقد توقعت ان تقول اكلهم الارنب منتنا واذا بها قالت انهم يطبخون الفراخ بعيد ذبحها وشكوت ذات يوم لمخدومة طول استمرارى على صنف واحد من الطعام فارسلت الىّ خادمها فى اليوم القابل يقول ان سيدتى تدعوك الى الغدآء فلما توجهت قالت لى انى سمعتك بالامس تشكو من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك فلما هيئت المائدة قدم عليها ارنب باذانه وذنبه واذا به منتن ذفر يملأ ذفره الخياشيم فتعوذت بالله وقلت ما قال ذلك الظريف ان عمر هذا الحيوان بعد موته اطول منه فى حياته والظاهر ان الانكليز يحبون الارنب وصورته فقد دخلت مرة دار الصور فى كمبريج مع الدكطرلى فكان اول ما وقع نظرى عليه صورة ملكة من ملكات اسبانيا على هيئة الاضطجاع عريانة وثمنها اربعة آلاف ليرة والى جانبها صورة ارانب وصياد فجعلت انظر الى صورة الملكة وجعل هو ينظر الى صورة الارانب ويستدعينى الى ذلك ثم انه ما عدا جهل الانكليز بالطبخ واقتصارهم على لونين او ثلاثة من الطعام فان الانسان لا يجد عندهم شيئا من الطعام والشراب خالصا اما الخبز فانهم يخمرونه بنوع يستخرجونه من المزر ويخلطونه بالبطاطس والرز والفول والهرطمان والذرة والشب وفى كل رغيف يوجد نحو عشرين حبة من الشب وبملح الصفر والطين وجبس باريس وسحيق العظام وبجزئين آخرين وفى بعض صحف الاخبار ان رجلا اكل جبنا فمرض فاستدعى بالطبيب فلما حضر عرف ان الرجل مسموم وان الجبن كان ملونا بالاناتو وهذا الاناتو خلط بشئ من القرمز وهذا ايضا خلط بالسيلقون واما القهوة فيخلطونها بالهندباء والقمح والهرطمان ودقيق البطاطس والفول وبحرق السكر وعكر القهوة

واللفت

و اللفت وجذر الفوّه و بجزئين آخرين واما السكر فمخلوط بالرمل و الطين ودقيق القمح والبطاطس والنشا و باجزآء اخرى من جملتها هامة يقال لها أكارى. و اما الحليب فنصفه او ثلثاه مآء كذا وجده الدكطر هلياك و ملون بصنف يقال له اناتو وهذا الصنف مركب من التلى وملح الصفر والملح والسرنج و بستة اجزآء اخرى تدقيق وعند النظر ترى فيه مخ الشاة والجبس و الدقيق والنشا وعصير اللوز والصمغ وجزئين آخرين واما البيض فانهم ينقعونه فى الصيف حين يكون ثمنه رخيصا فى برميل ملئ جيرا ومآء ثم يخرجونه فى الشتآء و يبيعونه بسعر الغريض فيأتى مسيخا ويتولد فيه طعم جيرى مضر بالمعدة وعلامة المنقوع منه ان يكون ابيض ناصعا لكنه خشن الملمس واما اللحم فينقعونه فى الدم واما المزر فمخلوط بخمسة وعشرين جزءا من جملتها الافيون و الملح و الرب والسكر و الفول وملح الطرطير ومحرق البردقان والزنجبيل و الافسنتين و العسل وملح الحديد وملح الكبريت ومحرق قشر السمردان واما الخمر فمخلوطة باكثر من خمسة عشر جزءا من جملتها المآء والعرقى وعصير القمح وشراب التفاح وعود برازيل ومحرق السكر والرصاص واما التبغ فمخلوط بالزيت والملح و الربّ والسكر والمآء والراوند والبطاطس والكرنب و النطرون والرمل و بستة وعشرين جزءا اخرى لطعمه ولونه وقس على ذلك النشوق والخردل والزيت والصابون و الخل مع ان هذا الاخير يستقطر من نوع من الشجر وقيل من المزر فهؤلآء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس فى كونهم ترابا والى التراب يعودون قد خالفوهم فى انهم يأكلون التراب ويشربونه خيا الاله عصا المحتسب وهذا الطمع لقنهم ان يتخذوا نبيذا من جميع الفواكه من اشهره نبيذ التفاح وقد كان عندهم فى السابق بمنزلة الخمر فى التنافس فيه فكانوا يسقونه الضيوف كما تسقى الصهباء ثم اعود فاقول انه لا غرو ان يستطيب هؤلاء القوم ما الفوه فان العادة كما يقال خامس طبيعة او ليس ان هنود لويزانيا يأكلون نوعا من التراب الابيض بالملح بدل الخبز وهنود ارنوكوكو يأكلون ايضا نوعا من الطين اللزج الابيض والزنج يستطيبون نوعا من الثمر على الخبز • اما الامرآء والاغنياء من الانكليز فانهم يستخدمون طباخين فرنساويين ويتلذذون بانواع من الالوان وبجبنى من مآكلهم طبخ الفاكهة الطرية واليابسة فى العجين وذلك غير معروف لاهل مصر والشام

وهو من بعض ما تعلمه الانكليز من الفرنساويين حتى صار عاما لغنيهم وفقيرهم واكثر اسماء الطبيخ عندهم منقول من اللغة الفرنساوية وعندى ان اشتهار الاطعمة الفاخرة فى الشام انما عرف فى زمن معاوية فانه كان يتأنق فى الطعام ثم نقلت اليهم الوان كثيرة من العجم كما يظهر ذلك من بقاء اسمائها عندهم • ثم انه من رسوم الكنيسة المتاصلة ان تقام الصلاة فيها يوم الاحد ساعتين فى الصباح وساعة ونصفا فى المساء وان لم يحضر فيها غير ثلاثة نفر فتسمع فى خلال ذلك من تكرير الادعية والابتهالات ما يذهب بالصبر وبعد ذلك يقوم القسيس ويخطب فيهم واكثر الفلاحين يذهبون الى الكنيسة حياء من جيرتهم او خوفا من القسيس لان قسيسى هذه الكنيسة لهم سطوة نافذة على الرعية ومتى قامت الصلاة نعسوا او تناعسوا وقد بلغنى ان احد هؤلاء الخطباء لما شرع مرة فى الوعظ التفت فرأى الناس نائمين فغضب لذلك وقال بئس السامعون انتم لكلمة الله انكم ان لم تسمعوها فستحسون بها ثم رفع التوراة من امامه وضرب بها بعض النائمين حتى انتبهوا وفى يوم الاحد لا يعملون ادنى عمل حتى ان اكثرهم لا يطبخ ومنهم من يتحرج من حلق شعره فيه او من كتب رسالة وقد اردت مرة ان انزل فى بيت عجوز فاول ما اشترطت علىّ به كان عدم الطبخ يوم الاحد وعندى ان اصل ذلك البخل منعا للزيارة والاجتماع ويحكى عن رجل انه سرق بقرة فثقف يوم الاحد فقال للشرطى لولا حرمة هذا اليوم لما اعيانى التملص من يدك ويوم الاحد فى جميع البلاد الكاثوليكية الرومانية هو يوم الحظ والتزاور اما فى هذه البلاد فهو يوم الانقباض والكآبة وهو فى سكوتلاند اكثر قبضا وكآبة ولا بد من ان يكون فى كل بيت توراة وانجيل وكتاب صلوات فيقعد رب البيت ويحمل بعض اولاده على القرآءة منها ويقضون النهار كله فى القرآءة والترتيل من الزبور وغيره وفى سماع الصلاة فى الكنيسة ولا يكاد صاحب عيلة يجلس على المائدة للطعام من دون ان يصلى اولا او يجعل بعض اولاده يتلو دعآء ما وكذلك عقب الطعام ومن امكنه ان يستعمل فى هذا اليوم آنية وظروفا غير التى يستعملها فى سائر الايام عد ذلك من الاحترام والتوقير لليوم والغالب على الانكليز عموما مراعاة الفروض الدينية اما عن تعبد او لمصلحة فان الطبيب مثلا اذا علم منه انه لا يحضر الصلاة او ليس

عنده

عنده كتب دينية فى بيته او كان قليل الاحترام لاهل الكنيسة فضلا عن كونه يجادلهم قل اعتباره عند ذوى الوجاهة وقل نفعه من حرفته وجل المؤلفين من الانكليز يستشهدون بكلام من التوراة والانجيل ترويجا لبيع الكتاب حتى ان بلير بنى معظم اساليب البلاغة والبيان فى كتاب المعانى على عبارات من التوراة وهذا الرأى والتدليس قل ان يوجد فى الفرنسيس فان من كان منهم قليل الدين انقطع عن الكنيسة اصلا والمؤلف منهم اذا كان غير ذى اعتقاد بالتوراة لا يستشهد بها فى شئ ولا يكون ذلك باعثا لكساد حرفتهما اما اهل الكنيسة المتفرعة فهم اشد تحمسا وتصلبا من اولئك فقد يعظون الناس فى الطرق والحقول ويوزعون فى البيوت كتبا ورسائل دينية وكذلك يفعلون فى المدن الغناء وربما منعتهم الشرطة من الوعظ علانية لئلا تجتمع عليهم الاوباش فيكون من اجتماعهم ما يوجب النزاع ويذهبون الى كنائسهم ثلاث مرات فى يوم الاحد ولا يعوقهم عن ذلك برد ولا ثلج ولا مطر والقاطنون منهم فى اماكن منفردة يقصدون الكنائس القريبة وجميع القسيسين فى بلاد الانكليز يكلفون خدمتهم وضيوفهم حضور الصلاة فى ديارهم صباحا ومساء وقبل تناول الطعام وبعده لا بد من تلاوة صلاة او دعاء وان غاب القسيس قامت امرأته فى ذلك مقامه • واعلم ان الكنيسة المتأصلة مؤلفة من مطرانين احدهما مطران كنتربورى ودخله فى العام خمسة وعشرون الف ليرة وهو ثانى صاحب الملك فى الرتبة والمنزلة والثانى مطران يورك ودخله خمسة عشر الفا ومن خمسة وعشرين اسقفا وظيفة كل منهم من اربعة آلاف ليرة فصاعدا ومتى عجز احدهم عن القيام بخدمته رتب له الف ليرة وقد كان لاسقف برهام ستة عشر الف ليرة ولما انزوى فى قصره عين له نصف المبلغ وتحت ذلك مراتب متعددة الاولى جانسيلر ثم الدين ثم الارشيدكن اى رئيس الشمامسة ثم البريبندرى ثم القانونى الاكبر والقانونى الاصغر ثم الفيكار ثم الركطر وعدتهم بموجب آخر تعريف بلغت ١٢٫٣٢٧ وعدة كنائس البروتستانط بلغت فى سنة ١٨١٨ ١١٫٧٤٢ وفى القرن السابع كان للاكليروس كلمة نافذة حتى على الملك وفى سنة ١٨٥٤ بلغ ما جمع لنفقة كنائس انكلترة وحدها فى سنة واحدة ٣٠١٫٥٤٠ ليرة ولمساعدتها ١٦٤٫٧٧١ فتكون الجملة ٤٦٦٫٣١١

وفى سنة ١٦٠٤ استعفى منهم الفان من وظائفهم كراهية ان يمضوا اسماءهم على كتاب الصلوات المشتمل على تسع وثلاثين عقيدة ولهذه الكنيسة حق فى ان تأخذ العشر من سائر الكنائس بل ومن اليهود ايضا وطالما تظلم اهل الكنيسة المتفرعة من اداء العشر لها فلم يجد ذلك نفعا ولا تسمح للكنيسة المتفرعة او لغيرها بوضع اجراس واذا اضطر احد من المتفرعين الى زواج مثلا اومعمودية او غير ذلك من الفرائض الدينية وطلب من قسيس المتأصلة ان يقضى له ذلك حالة كون قسيسه غائبا لم يجبه الى مطلوبه وقد بلغنى ان رجلا مات وكان حال حياته مذبذبا فى عقيدته فتنازع قسيسا الكنيستين على ايهما يدفنه وطال ذلك بينهما حتى اروح الميت ويمكن ان يقال ان الكنيسة المتأصلة هى ديوان من بعض دواوين الدولة فان كلمة ركطر القرية ابلغ نفوذا وفاعلية من كلمة ضابط البلد وليس شرطى الديوان فى قريته الا من بعض اتباعه واذا زاره احد الفلاحين فلا يأذن له فى الجلوس فهو على هذا جدير بان يقال له دهقان القرية او شيخ البلد وربما بلغ دخله الف ليرة فترى له احسن الديار وعنده خدمة وعاجلة فاخرة وخادم يسوقها وعلى برنيطته شريطة من ذهب كخدمة الامراء ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضرورى بالزهد فى الدنيا وتجنب شهواتها ولا يمكن اقامة دعوى فى ديوان احد الاساقفة الا بمصروف وافر فلهذا يتأتى ان يعيش الرجل مع امرأة عيشة المتعة والسفاح الا اذا صدر له حكم من ديوان الاسقف من دون نفقة وذلك نادر وهذه الكنيسة هى مثل الدولة فى انها لا تروم تغيير شئ من رسومها وتراتيبها واحكامها فان قسيسها يتلون فيها كتاب الزبور وبعض فصول من التوراة والانجيل وهى مخالفة لما فى ايديهم الآن منها وذلك لان كتاب الصلوات جرى استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة فلما شرعوا فى ترجمتها وجدوا ان ما ادرج فيه كان مخالفا للاصل فابقوه على خلله ومن يوم شرعوا فى التأليف تجد اسم يسوع على نسق واحد فى جميع كتبهم وكلامهم وهو جيسس الا فى موضع واحد من كتاب الصلوات المذكور فانه فيه جيسو فكأنه فى اللاتينية مجرور وكلما طبعوا نسخة من هذا الكتاب حذفوا السين فى ذلك الموضع ولا بد من ان يكون فى كل قرية فى بلاد الفلاحين كنيسة للمتأصلة وان لم يكن فيها دكان لبيع اهم ما يكون من المأكول

المأكول والملبوس ولا بد ايضا من ان يكون لها برج بلزقها لوضع الاجراس فمنها ما يكون له اربعة اجراس ومنها ما يكون له ستة او اثنا عشر وضربهم بها مطرب ولا سيما على بعد وهم يدعون بانه ليس من يجاريهم فى هذه الصنعة فانهم اتقنوها غاية الاتقان حتى انها تكاد ان تعد من فنون صنعة الايقاع واكبر جرس فى الدنيا جرس كرملين اوكرميلان وهى قلعة مدينة المسكوب زنته ٤٤٣٫٧٧٢ رطل وقيمة جوهره ٦٦٫٥٦٥ ليرة ولما شرع فى سبكه تبرع كثير من الناس بالفضة والذهب فخالطا معه ثم يليه جرس كنيسة صانت ايفان فى المدينة المذكورة زنته ١٢٧٫٨٣٦ رطل وزنة جرس كنيسة رومية ١٨٫٦٠٧ وجرس قصر فلورانس ١٧٫٠٠٠ ونحوه جرس اكسفورد وزنة جرس كنيسة صان باول بلندرة ١١٫٤٧٤ وفى هذه السنة وضع جرس فى برج مجلس المشورة بالمدينة المذكورة زنته ٣٦٫٠٠٠ • قال فلير ان بلاد الانكليز هى بلاد المذاهب والنحل فالانكليزى يذهب الى السماء من اى طريق شاء ولكن وان يكن ممكنا لكل واحد منهم ان يعبد الله ويخدمه على الوجه الذى استحسنه الا ان دين الدولة هو الوسيلة للتمول ونوال الوظائف والمراتب السامية فلا يمكن لاحد ان ينال وظيفة فى انكلترة وارلاند ما لم يكن على مذهب الكنيسة الاسقفية وهذا الحظر جعل جل ذوى الوجاهة والنباهة من حزبها ثم ان اكليروس هذه الكنيسة قد اقتدوا بالكنيسة الكاتوليكية فى سنن كثيرة وخصوصا فى اخذ العشر من الرعية وفى النهم الى التأمر عليهم لان ركطر القرية ان هو الا بابا لو استطاع الا انهم اكثر حشمة وعفة من قسيسى فرنسا واخص اسباب ذلك هو كونهم يتربون فى اكسفورد وكمبريج بعيدين عن فساد المدن الكبيرة قلت لعله حين كتب ذلك كان اكليروس فرنسا على غير ما نراهم فى هذا العصر فانهم الآن قدوة فى الفضائل والمحامد وكذا يوجه قوله بعيدين عن الفساد فان هاتين المدينتين الآن فيهما من البغايا ما يكفى اهلهما وغيرهم معهم ولو قال ان اخص اسباب ذلك هو كون قسيسى الانكليز يباح لهم الزواج لكان اولى قال ولا ينتدبون الى رتب الكنيسة الا اذا بلغ احدهم من العمر ما لا يكون له فيه نهم قلت حد القسيس ان يكون بالغا من العمر اربعا وعشرين سنة ومتى عرف فضله وعلمه بعد ذلك رقى الى درجة الاسقفية من دون تعيين سن • وهنا فليفرح

الوادون وليكمد الشامتون فان الدكطر لى عزم على التوجه الى برستول ليقضى فيهـا وظائفه الكنائسية مدة شهرين ولكن ليس بعد ان نعيده الى القارئين والسامعين ومن ثم وجب عليّ ان الحق به ففصلت من تلك القرية المشئومة الى لندرة ومنها الى المدينة المذكورة فبلغتها فى نحو خمس ساعات فى خلالها وقف الرتل فى عدة مواقف وكان قد اخبر صاحبة المحل بقدومى وحالى واوصاها بان تطبخ لى طبيخا فرنساويا اى ان يكون كثير البقول قليل اللحم فلما كان المساء احضرت لى طعاما مطبوخا من دون ملح على عادتهم لكنها احتفلت بى غاية الاحتفال حتى استحييت من ان اذكر لها الملح وفضلا عن ذلك فان فرحى برؤية الاسواق والديار والعواجل انسانيه ثم لما قابلت الدكطر لى فى الغد سألنى عن الطعام فقلت له انه كان بغير ملح قال كيف ألم تحضر لك ملحا على المائدة فلم تملحه انت فانها خشيت ان تضع فيه ما تعافه فقلت لو احضرت لى اللحم نيئا لكنت اطبخه بانفاسي واملحه بدموعى وكان خيرا من عادتكم هذه المنغصة قال لا بأس بين لها المرة الثانية قدر ما تريده من الملح تفعل ثم لمت صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح فقالت هذا دابنا أرأيت ذلك الخلل الذى اكلته البارحة لو انك اعطيت زوجى خمسين ليرة لما اكله مع انه كان خسا بالخل وبينما كنت ذات يوم جالسا معهم على المائدة اذ دخل طفل لها وهو وسخ الثياب والطلعة فقال لها زوجها لم تغادرين الولد وسخا هكذا فقالت قد غسلته هذا الصباح ولكن طبعه ان لا يدع شيئا من ثيابه نظيفا ثم لجا فى الكلام فما اشعر الا والست قامت وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها فهرب من قدامها فاقبلت تجرى وراءه وهو هارب فلما لم تلحقه غشى عليها من شدة الغضب فتداركها الرجل بالعرق و بغيره حتى افاقت مع انها كانت من اهل الصلاح وكان زوجها بمنزلة نصف قسيس ثم ان برستول هى من المدن القديمة لا بهجة لها ولا رونق وهى ضيقة الطرقات قذرتها وليس لها مماش رحيبة ولا ساحات فسيحة ولا مقاعد ولا منتزهات ولا محال للقهوة او الحظ سوى ملهى واحد وعدد اهلها مئة وخمسون الفا وقل فيها وجود غريب و بيوتها الجديدة حسنة فاما القديمة فلا تصلح لشئ فان صفحها شبه زاوية منفرجة يبدو منه تسنم سطوحها وتجد بين البيت والبيت من فرق خلاء تنبو عنه العين و نساؤها يشبهن نساء

الفرنسيس

الفرنسيس فى استدارة الوجه ولهـا نهر صغير فيه بواخر وغيرها مسافته نحو سبعة اميال يأتيه الجزر والمد فى اليوم مرتين ومنه تسافر البواخر الى والس وقد شرع فى بنـآء جسر عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه وعند هـذا الجسر كانت محلة للرومانيين لمـا افتحوا بريتانيـا وقد بقى من آثارهم حائط كانوا يتترسون به قـال مؤلف ابجدية الاوقات كان بنـآء برستول فى سنة ٣٨٠ قبل الميلاد وكانت تعد من المدن المحصنة واسمها فى القديم كاير بريتو اى مدينة البريتانيين انتهى واتفق بعد نزولى فى ذلك المحل ان قدم القاضى ونزل فيه وفى الغد حضر نحو اربعين رجلا من شرطة البلد واصطفوا لدى الباب ووقف اثنان ينفخان فى ابواق من فضة ثم جآء ضابط مترديا بلباس احمر وكان القاضى قد لبس ايضـا لباسا احمر وعلى رأسه شعر عارية ابيض فدخلا فى عاجلة نفيسة وقف عليهـا رجلان لابسان كسوة مزركشة بالذهب كما هى عادة خدام الامرآء ثم دخل معهما رجل حامل سيفا طويلا فى كعبه صورة تاج وله ثلاثمائة ليرة فى العام لحمل السيف ثم ذهبوا الى دار الحكومة وكان عن شمـال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيا من فضة رؤوسها كالمباخر واثنان يحملان مزاريق قد غشيت اعاليها بالفضة وفى كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال فان القاضى لا يستقر فى البلدة وانمـا يأتى اليها اربع مرات فى السنة لفصل الدعاوى الخطيرة فى ايام معدودات وفى مدة غيـابه ينوب عنه اناس فى فصل غير المهم وفى برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس والسين علامة الجمع وهم صنف من النصـارى الا انهم لا يعتقدون بالمعمودية ولا بالقربان ولا يقرأون الانجيـل فى كنائسهم ولا صلوات معينـة وليس لهم شعائر معلومة ولا قسيسون كما للنصارى وانما اتقياؤهم هم المتقدمون فيهم ومعابدهم عبارة عن بيوت لا فيها فرش ولا محاريب ولا مذابح ولا كتب ولا صور ولا منابر ويقولون ان التدين لله لا يكون مرضيا الا بالروح فجميع الرسوم والتكليفات والفرائض عنـدهم لغو ويقولون ان المسيح نفسه كان كويكرا وانه لا يجب تأدية العشور لرؤساء الكنائس ويبقون ساكتين الى ان يوحى الى احد منهم فى زعمهم فيلقى ما اوحى اليـه فى بضع دقائق وهو واقف فاذا فرغ قعد واستراح وقد ذهبت مرة الى معبدهم فاجتمع فيه نحو مائة وعشرين نفرا جلست

النساء في الجانب الايمن على دكك عليها زرابي و جلست الرجال على الايسر على دكك متقابلة من دون زرابي وجلس في صدر المحل اربعة رجال وثلاث عجائز على دكة عالية و جلس دونهم خمس عجائز وثلاثة رجال و بقوا كذلك صامتين ساعة وربعا ثم قام رجل من اصحاب الدكة العليا الذين كانوا اقرب الى الوحي والقى على الناس كلاما وجيزا نحو خمس دقائق معناه ان رضوان المولى هو ان يكون عقل العبد منجذبا اليه و انه ستأتي ايام يعين فيها بعض الناس بعضا بالارشاد والهداية و ان جزاء كل انسان منوط بعمله وما اشبه ذلك و لم يذكر في كلامه اسم المسيح ولا اسم روح القدس و بعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من اصحاب الدكة الثانية فقام جميع الحاضرين وحسرت الرجال عن رؤوسهم فانه لا حرج على من ظل مقلنسا في المعبد و اخذت تصلي بصوت مرتعش نحو خمس دقائق فذكرت اسم المسيح ولم تذكر روح القدس ثم انفضوا وشعار هذه الطائفة هو ان رجالهم يلبسون جببهم مثنية على اعناقهم من دون اطواق و ان النساء يلبسن برانيط طويلة من قدام حتى تغم وجوههن وخصوصا العجائز وهي غالبا من الحرير و ثيابهن من لون واحد ومن مذهبهم انهم يجتنبون مواضع الحظ واللهو والسكر وان لا يحلفوا بيمين ما ولو في مجلس القاضي و لا يرون في الحرب خيرا وحسبك بالسفراء الذين ذهبوا منهم الى قيصر الروس عند ابتداء الحرب دليلا ومن شانهم الاقتصاد في النفقات وان يساعد بعضهم بعضا وقد كانوا في الزمن القديم عرضة للاضطهاد والطرد ولكنهم الآن آمنون ولهم بعض خصائص منها اذا تكلموا مع شخص ايا كان خاطبوه بلفظ المفرد بخلاف عرف اللغة واذا حضر احدهم مجلس الملك حضر بكسوته الاعتيادية من دون وضع شعر عارية ولا ينزع برنيطته بيده وانما ينزعها عنه آخر ويخاطبون كل واحد بلفظة يا صاحب ولا يتنافسون في الالقاب والنعوت ولا يجودون بها على احد ولا يحدون على ميت و عندهم ان النساء في الفضائل والمناقب كالرجال وعدد هذه الطائفة في برستول اكثر من عشرة آلاف نفس ولا يكاد يوجد بينهم فقير قال الفيلسوف فلتير لطائفة الكويكر معابد كثيرة في لندرة اعظمها الموضع المسمى منيوونت زرته مرة مع مضيفي فاجتمع فيه نحو اربعمائة رجل وثلاثمائة امرأة وكانت النساء ساترات وجوههن وعلى رؤوس الرجال برانيط كبيرة

والجميع

والجميع سكوت لجزت بينهم ولم يرفع احد طرفه للنظر الى وبعد صمت نحو ربع ساعة قام احدهم وحسر عن رأسه ثم بعد ان ابدى بعض زفرات بعضها من فيه وبعضها من منخريه التى على الحاضرين جملا مشوشة مضطربة زعم انهـا من الانجيل فلا هو ولا احد غيره فهم منها شيئا ولما فرغ من ذلك انصرفت الجماعة فسألت مضيفي ما بال حكماؤكم يرضون بهذا الهذيان فقال انا مضطرون الى ان نرخص فيه لانا لا ندرى هل الشخص الذى يقوم للخطبة يكون قيامه بوحى من الروح او الحماقة فنصغي الى ذلك ونحن صابرون مرتابون بل نرخص ايضا للنساء فى الكلام وقد يتفق ان يوحى الى اثنين او ثلاثة فى وقت واحد فمن ثم يقع ضجيج ولغط فى بيت الله فقلت أليس فيكم اذا قسيسون قال لا وانا لنجد انفسنا بدونهم فى حال احسن ثم تلا من كتاب ما معناه ان الله تعالى لم يرض ان نعين احدا لقبول روح القدس فى ايام الاحاد اخراجا لسائر المؤمنين منه ثم قال الحمد لله على انا نحن دون سائر الناس لا قسيسين لنـا ولم نترك ولدنا عند مرضع اذا كان عندنا لبن يغذوه قال وانتشار مذهبهم كان فى انكلترة سنة ١٦٤٢ وذلك عند ما ظهر فيها ثلاثة مذاهب او اربعة اضرمت فيها نار الحرب بين الاهلين تعبدا لله تعالى فقام اذ ذاك رجل اسمه جورج فوكس من كورة يقال لها ليستر وكان ابن رجل نساج الحرير فاخذ يعظ الناس وهو ابن خمس وعشرين سنة وكان اميا حيد السيرة لكنه كان معتوها فكان يلبس جلدا من رأسه الى قدمه ويطوف من قرية الى اخرى مقبحا على الحرب وعلى اهل الكنيسة ولو انه ذم العسكر وحدهم لما كان لقى ما يخاف منه الا انه لما كان ذمه موجها الى رؤساء الدين لم يلبث ان قبض عليه واحضر بين يدى قاضى دربى وهو على ذلك الزى وقلنسوته الجلد على رأسه فبادره احد الجند بلكمة على خده وقال قبحا لك ألم تعلم انه ينبغى لك ان تحضر بين يدى القاضى حاسر الرأس فادار له فوكس خده الثانى والتمس عليه ان يلكمه لكمة اخرى حبا بالله ثم تقاضاه القاضى يمينا قبل ان يسأله فقال انى لن اتخذ اسم الله بالباطل ابدا فغاظ ذلك القاضى حتى ارسله الى دار المجانين فى دربى فسار وهو يحمد الله على ذلك فلم يأل المأمورون بجلده جهدا فكان فوكس يتضرع اليهم ان يزيدوه من هذه النعم لصلاح نفسه فاردوا طلبته ولكنهم عجبوا منه فاخذ حينئذ يعظهم

و ينذرهم فتضاحكوا منه اولا ثم اصغوا اليه وارتاحوا لقوله وصدقه كثيرون منهم ثم لما اخرج من السجن جعل يطوف فى البلاد ومعه اثنا عشر رجلا ممن تمذهبوا بمذهبه وهو يذم اهل الكنيسة فعرض نفسه ايضا للجلد مرة بعد مرة فلما اخذ يوما الى موضع النكال القى على الحاضرين خطابا بغاية الحماسة فهدى منهم الى مذهبه خمسين نفسا واستمال الباقين الى محاماته حتى انقذوه من تلك الورطة وجعلوا بدله القسيس الذى تسبب فى معاقبته ثم استمال ايضا بعضا من جند كرومول فانكروا الحرب وابوا اليمين فامر بان يقبض عليهم اذ لم يكن يريد ان فرقة من الناس لا تحض على القتال فقبض عليهم وملئت السجون منهم الا ان شان الاضطهاد ان يزيد فى عدد الدخلاء فزادوا ثباتا فى معتقدهم وامتلأت لهم السجان ايضا والذى زاد فى هذه الشيعة فضلا عما ذكر هو ان فوكس كان يعتقد بان له سرا يمكنه من التكلم بما يخالف عادة البشر فاخذ يرجف و يرتعش و يتأوى و يكظم نفسه و يتنفس الصعداء فلم يلبث ان صار له دربة بالوحى عظيمة حتى لم يعد يقدر على الكلام الا به وكانت هذه اول منحة افادها لتلاميذه فاسرعوا فى محاكاة امامهم فى تغيير السحنة والارتعاش عند هبوط الوحى عليهم جهد المستطيع ومن ثم سموا كويكرس اى مرتعشين اما العامة فانهم نبزوهم واتفق مرة ان قال فوكس لاحد القضاة جهرا بحضرة جمع كبير احذر لنفسك يا صاح فان الله يعاقبك سريعا على اضطهادك الاطهار وكان هذا القاضى مولعا بالشراب وكان يسكر فى كل يوم فاعتراه بعد يومين فالج اودى به وكان يهم اذ ذاك بان يمضى حكما بحبس بعض الكويكرس فخلج قلوب الناس ان موته كان سببا عن اضطهاده الرجل الطاهر لا عن ادمانه على الشرب فصار هذا الموت الفجائى سببا فى اجتذاب كثير من الناس الى مذهب الرجل اكثر من الف موعظة والف ليّة فلما رأى كرومول عددهم يتزايد فى كل يوم رغب فى ان يستميلهم اليه فعرض عليهم المال فابوه فقال يوما لعمرى ان هذا الدين هو الدين الوحيد الذى لم نستطع ان نغلبه بالمال ثم صاروا عرضة للاضطهاد فى عهد كرلوس الثانى ليس لاجل الدين ولكن لامتناعهم من اداء العشر للاكليروس ولخطابهم القضاة بانت ولامتناعهم من اليمين التى يوجبها الشرع وفى سنة ١٦٧٥ قام رجل من اهل سكوتلاند

سكوتلاند اسمه روبرت باركلى وقدم للملك معذرة عن الكويكرس وهى من احسن ما كتب فى هذا الباب اذ لم يرتكب فيها شيئا من التمجيد والاطرآء وانما اودعها الكلام الحق والنصح السديد وكتب فى آخرهـا انك قد ذقت الحلو والمر والنعيم والبؤس فانك طردت من البلاد التى ملكت فيها وشعرت بثقل الظلم فكان ينبغى لك ان تعلم ان الظلم مقت عند الله والنـاس فان كان قلبك لا يلين بعد تلك المحن والخيرات ونسى الله الذى لم ينسك فى بؤسك فان اثمك يكون اعظم وهلاكك اشد فاياك من الاصغاء الى ما يطريك به اهل ديوانك بل اصغ الى صوت الضمير الذى ليس من شانه الاطرآء ولا التمليق « من صاحبك الامين واحد رعيتك روبرت باركلى » واعجب من ذلك ان هذه الرسـالة مع كونها صدرت من رجل خامل الذكر فقد نجعت فى قلب الملك حتى كف الاضطهـاد عنهم وفى هذه الاثنآء ظهر وليم بن النبيه وبث مذهب الكويكرس فى اميريكا الى ان قال وليس لاهل المذهب فى انكلترة اهلية لان يكونوا من اهل مجلس المشورة ولا ان يتولوا المنـاصب العمومية لامتناعهم من اليمين ممـا لا بد منه فى الامرين فجل كسبهم المال انمـا هو من التجارة وحيث كان غنى الاولاد انمـا هو من كد والديهم كان لهم مطمح الى كسب الشرف والازرار والقفازين ويستحيون من ان يقـال لهم كويكرس فيذهبون مذهب البروتستـانط ليكونوا فى عداد اهل السمت والطراز الخ • وفى برستول ايضا كنيسة لليونيتاريين ومعناها الموحدون يعتقدون بوجود اله واحد فقط وان عيسى المسيح انمـا كان بشرا وانه انما قيل له ابن الله من قبيل التعظيم كما قيل ايضا لسليمان بن داود وهم فى البلد اصحاب وجاهة وثروة وفيها ايضا زمرة تسمى شيعة سويدنبرغ اعتقادهم ان الله واحد احد وانه ظهر فى ناسوت المسيح وان جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن وان اللاهوت هو الذى يقال فيه انه الاب الخالق وبالجملة فان المسيح هو عندهم الابن وروح القدس ومظهر اللاهوت ومنشئ هذا المذهب رجل جرمانى ظهر منذ ستين سنة تقريبا ومن شططهم انهم يؤولون كل لفظة وردت فى التوراة بمعنى غير الظاهر منها فيؤولون لفظة سورية مثلا بالعلم والمعرفة وخيل مصر بالمنعة والجبل بالحمـاية وقد الف سويدنبرغ فى ذلك مؤلفا ضخما لا يكاد القارئ يختمه فى بضع سنين ومن كلامه لما كان للكلمة استعمالات كثيرة وكان المسيحيون الاولون

سذجا يفهمون كل شئ على ظاهره فرقوا اللاهوت فجعلوه ثلاثة اقانيم فاعتقد به كذلك من خلفهم الى ان قال لانه ما احد يدخل السماء وهو يعتقد بثلاثة آلهة وفى برستول مرقب فيه مقصورة عالية مظلمة لها كوة فى اعلاها مرآة يقع عليها نور الشمس فترتسم ضواحى المدينة به على مائدة لها سطح مجوف فيرى الناظر فيها النهر والشجر والرجال والنساء والماشية فيخيل له انه بينهم وقيل ان رجلا رأى فى هذه المائدة زوجته تماشى رجلا وهو يقبلها فعرفها فلما رجع الى داره خاصمها خصاما اوجب الفراق • وكانت صاحبة المحل الذى نزلت فيه مولعة بالمزمرة وهى امرار اليد على وجه انسان حتى يغيب عن الادراك وهى نسبة الى رجل نمساوى اسمه مزمر فاشتقوا منه فعلا يقال مزمره اى عالجه بامرار اليد وذلك انهم يعتقدون ان فى بعض الاجسام خاصية تؤثر فى غيرها على مقتضى ما ينويه المؤثر وقد سمعت من الست المذكورة ان بعض الاطباء مزمر خادمة لها حتى خدرت نفسها ثم لمس من رأسها مبعث الانفة والمدافعة وقال لها انت دميمة فقالت لا بل انا احسن خلق الله وجها ثم لمس مبعث الكرم فقالت بالباب مسكين خذوا هذا الدرهم واعطوه اياه ثم لمس مبعث الغضب فجعلت تهيج وتشعث شعرها فاراد ان يرجعها الى حالتها وارتاب فى استطاعته على ذلك فلم يقدر وبقيت الجارية كذلك هائجة مضطربة وذلك لانك اذا اثرت فى شخص واحلته عن حالته وشئت رده لزمك ان تعتقد اعتقادا يقينا بانك مستطيع عليه فلما تبين له عجزه استدعوا بطبيب آخر فحاول ان يخرجها من قوة تأثير الاول بواسطة الامرار فلم يتم له ذلك بالكلية وانما اضعف منها اثر الاول اضعافا فباتت على تلك الحالة ولما اصبحت خف ما بها ثم شفيت ويقال انه اذا امر الشخص المؤثر فيه بقتل انسان قتله او بقضاء حاجة قضاها دون تلبث حتى انه ليفعل ما فيه ضرر نفسه وانه يدل على اشخاص واماكن لم يكن رآها من قبل وينعتها كما هى واتفق ان جارية الست المذكورة اصابها ورم فى وجهها عن وجع ضرس فاجلستها على كرسى ومزمرتها حتى غشيها سبات ويبست جوارحها فاخذت سيدتها تنفخ عليها وما زالت بها حتى شفتها بالمرة ومرة اخرى اجلستها امامى ثم لوت يديها الى صدرها ثم امرت يديها على وجهها فما لبثت ان غمضت عينيها فامرتها ان تمشى من ذلك المحل الى

غرفة

غرفة فمشت وعيناها مغمضتان وسيدتها ممسكة بها خيفة ان يصدم رأسها شئ فلما وصلت قالت المخدومة اين تريدين القعود على الكرسى ام على الاريكة فقالت بل على الكرسى فقالت لها لك ذلك فجلست فسألتها عن اى شئ يشتغل فلان به فقالت هو ناظر الى ساعته قالت كم الساعة الآن قالت الحادية عشرة وربع فنقلت اصبعها الى موضع آخر من دماغها وقالت اخطأت فقالت بل خمس دقائق بعد الظهر ثم امرتها بالغناء فغنت ثم بالضحك فضحكت ثم سألتها عن خادمة لها كانت ذهبت صباح ذلك اليوم الى امها ماذا تصنع فقالت انها الآن تكلم امها فى شانك وتطلب منها ان تكلمك لتعفيها من الزمرة وانهـا تتمنى ان تراك مرة تزمرين احدا فلما رجعت الخادمة فى الغد سألناها عن ذلك فاجابت بما ذكر ثم انها نفخت عليها وامرت عليهـا يديها صعدا فافاقت وهذه الخاصية قد شهرت فى فرنسا جدا واشد الناس انكارا لها اهل الكنيسة والاطبـاء فان الاعتقاد بهـا يوجب الشك فى النبوة و يصدف المرضى عن الاطبـاء وساذكر فى وصف باريس ما جرى بينى وبين احدى هؤلاء النساء وفى هذا القدر الآن كفاية •

ثم سافرت من برستول قصد ان ارى بعض جبـال والس فينشرح صدرى لان بلاد الانكليز كلها كما ذكرت سابقـا عبارة عن حقول ومروج وهى وان تكن ناضرة الا انه لا شئ يبعث على ادارة الفكر واجالة الخاطر كرؤية الاماكن المختلفة نحو ان يكون فيها سهل وجبـال واكام وادوية وغيـاض فكلما تعدوت المناظر للعين كثرت الخواطر فى الذهن وتنوعت الهواجس فى الصدر فسافرت فى البـاخرة فبلغت فرضة تسمى نيوپورت اى المرسى الجديد فى نحو ساعتين ونصف فبت هناك تلك الليلة وفى الغد سألت عن اقرب الجبـال فقيل لى اذا طلعت هذه العقبة ظهر لك فطلعتها ودللت على جبل يسمى لندوغو وهى كلمة والسية لانه لا يوجد فى لغة الانكليز كلمة تنتهى بحرف الواو فسرت اليه ماشيـا اذ لم اجد راحلة تبلغنى اليه فكنت اسأل المارين عن مقدار بعده فكان بعضهم يقول سبعة اميـال و بعضهم خمسـة وبعضهم سـتة فسألته عن بلدة استريح فيهـا فدللت على قرية بعضهم يسميهـا مدينة و بعضهم قرية و بعضهم بلدا وهى عبـارة عن ستين بيتـا فسألت عن مطعم فدللت على بيت مشهور عندهم فاردت ان آكل بيضا لعدم وجود اللحم والسمك عندهم فقلت لصاحبة المحل انى

اريد بيضا فقالت لاى سبب قلت للاكل قالت ما ثم بيض فى هـذا الاوان مع انه كان فى الصيف فالححت عليها فبعثت من طوف فى القرية حتى جاء بيضتين بعد الجهد فقلت اقليهما بالسمن فلم تفهم فاعدت عليها الكلام فقالت تريد ان تكسر البيض فى السمن قلت نعم قالت فما يكون هـذا اغلاء قلت بل هو قلى قالت هذا مما لم افعله فى عمرى قط فصفه لى قلت تضعين المقلاة اولا على النار ثم تصبين فيها السمن حتى يذوب ثم تكسرين البيضتين فيه وانا اتولى بعد ذلك امرهما قالت فالاولى ان تتولاه من الآن وتقليهما كما تشاء وانما اوردت هذه الواقعة اشعارا بجهل هؤلاء القوم ادنى انواع الطبخ والمتفننون منهم يقلون البيض بمائه ومن تحته لباب الخبز ثم ان هـذا الجبل وان يكن منظره فى الحقيقة مما تسرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة الى بلاد الانكليز المحتنة الا انه بالنسبة الى بلادنا يعد دكا او اكمة ✦ واعلم ان اهل والس هم اهل شجاعة و بسالة وهم الحريون بان يقال لهم بريتانيون فانهم لم يبرحوا فى منعة ولهم لغة خاصة بهم الا ان كبرآءهم واغنيـاءهم يتكلمون بالانكليزية ولكثرة مكاتب الانكليز فيها الآن اقبلوا على تعلم لغتهم غير ان لغتهم الاصلية لم تزل مستعملة وهى تشتمل على بعض حروف الحلق كاللغات المشرقية ويقـال انهـا تشبه لغة اهل بريتون من فرنسا او انها هى بعينها والتمدن والتأدب عند الفلاحين هنا اقل منهما عند فلاحى انكلترة وقد كانت بلادهم فى الزمن القديم مستقلة بنفسهـا واول من الحقها بحكومة الانكليز كان ادورد الاول وذلك فى سنة ١٢٨٢ عند موت اميرهم لويلن لكنهم بقوا بعدهـا يحاولون الاستقلال الى ان رزق الملك المشـار اليه ولدا فى سنة ١٢٨٤ فسماه من دهائه امير والس وبقى هـذا اللقب خاصا بولى العهد فى بيت الملك ويقال ان الملك حين سمى ابنه امير والس حمله على ذراعيه وقال لرؤساء والس بلغتهم اخ دين ومعناه هذا بلديكم و ملككم فصارت هذه الكلمة شعـارا يكتب على ترس امير والس الى يومنا هـذا وفى الجدية الاوقات ان اهل والس كانوا يسمون قديما صلتس وهم اسلاف البريتانيين وكانوا اول من سكن بريتانيـا ولفظة بريتانيـا تشمل انكلترة و سكوتلاند ووالس وكانت تسمى البيون وهم الى الآن يأنفون من ان يقال لهم انكليز ثم اتحدت بانكلترة وعدت منهـا بامر مجلس المشورة وذلك فى سنة ١٥٣٥

فاما

فاما ارلاند فان الحاقهــا بانكلترة كــان في سنة ١٨١٠ ثم رجعت الى برستول وتعرفت باحد افاضل الانكليز الذين اولعوا بحب اللغــات لا للتفاخر ولا للتكسب ويقال له دكطر جون نيكلسن وانما لقب بدكطر لانه كان درس الفلسفة في بلاد النمسا ونال هذه الدرجة فان لفظة الدكطر يوصف بها كل من الطبيب والرباني والفيلسوف على حد سوى وكــان قد تعلم ايضا لغتنا ولكن لم يكن سمعها قط من اهلها ولما كنت انشده منها كان يطرب غاية الطرب فدعاني الى ان ازوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي انكلترة فلمــا رأيت ان مســامرته غنم واجابتــه حتم وعدته بذلك ثم لما فرغت مدة الدكطر لي من برستول عزم على الرجوع الى القرية المشئومة فسافر قبلي بايام فسرت لارى بلدة باث فبلغتهــا في نحو عشرين دقيقة فاول ما دخلتهــا رأيت امرأة تغني وغلاما يضرب بالسنطير المعروف عندنا ولكن على الحانهم فسألت بعضا عن اسم الآلة فلم يعرفهــا فسألت العــازف به فقــال اسمه دلسمر وهو من اللاتينية مشتق من الحلاوة وباث هذه بلدة ظريفة بناؤهــا من الحجر وموقعهــا بين اودية ناضرة وتلال بهيجة وهي مشهورة بماء معدني يستحم فيه ولهذا سميت باثا اي حماما وهي مقر الكبراء والاغنياء ولاسيما المتقاعدين من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند واهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بالسنتهم وكذا هي سائر بلدان الانكليز غير المطروقة من الغرباء ثم رجعت الى برستول وســافرت الى چلتنهام فبلغتهــا في ساعتين وهذه المدينــة معدودة عند الانكليز من اظرف المدن لحسن بنائهــا فانه من الحجر ولنظافة طرقها وكثرة الاشجــار في ضواحيها ولكن ليس فيهــا محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة وقد اردت ان اتغدى في الظهر فلم اجد شيئا عتيدا فاضطررت الى الشواء من الضان واشترط علي ان لا ادخن ثم اردت ان اسافر الى اكسفورد فقيل لي انه لا يمكن ذلك الا اذا رجعت الى كلوستر فعدت ولما دخلت البلد اذا بزحام وخلق كثير فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انه عيــد استئجــار الخادمين والخــادمات وذلك ان المخدوم يستأجر خادمه الى اجل فلا يمكن للاجير ان يخليــه الا لاسباب ومع هــذا الزحام والضجيج فلم يكن من شيء يرنى اليه الا بنتا كانت تمشي على خشبتين وهذه البلدة هي محل صنع الحديد وهي قديمة قذرة كاظمة للقلب ثم اجتزت بعدة بلدان منها استورد فيها معامل الجوخ

ثم الى اكسفورد وقد تقدم ذكر ذلك ثم الى القرية وكنت قد استأجرت بيتا فيها يشتمل على اربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على متمكن غير امكن واستخدمت رجلا يزرع فى مبقلته ما لا بد منه من البقول اولها البطاطس واخذت انشاغل بذلك تنفيسا للكرب وتسلية للهم فلم البث ان فجعت بولد لى وحيث لم يكن فى القرية ولا فيما يليها طبيب يوثق بعلمه فان المتطببين فى بلاد الفلاحين انما هو نفاية اطباء المدن اشفقت على الباقى فرحلت من القرية قاصدا لندرة وغادرت البيت كما هو وكان علىّ بادى بدئ ان اكلم كاتب الجمعية واخبره بما اصابنى فلما قابلته غلبنى النحيب والبكاء حتى انقطعت عن الكلام فاستعظم ذلك منى على سنى فان الانكليز قلما يبكون على فائت ثم لما اعلمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت فى القرية وانى اخشى ان اموت قبل نجاز الترجمة رأى ان الابقاء على حياتى هو الصواب وان الاوفق لى وللتوراة ان امكث فى كمبريج لاكون غير بعيد عن الدكطر لى واتفق مدة مكثى فى لندرة ان وقع ضباب كثيف دام سبعة عشر يوما حتى احتجنا فى بعضها الى ايقاد المصباح نهارا لتهتدى ايدينا الى افواهنا فرأيت الجلاء اجلى واولى فمن ثم سرت اليها فبلغتها بعد نحو اربع ساعات وهذه المدينة لا ملاهى بها ولا حظ سوى مشاهدة المدارس والاساتذة والمتعلمين وهم من التكبر والصلف بمكان اخوانهم طلبة العلم فى اكسفورد وبعد وصولى بيوم جرى النزاع واللكام ما بين اهل المدارس واهل البلدة كما جرى فى اكسفورد وفيها تعرفت ببعض فضلاء الانكليز ممن عنوا بالعربية منهم الفاضل مستر وليمس الذى هو الآن مدرس فيها والفاضل مستر برسطون الذى ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريرى الى الانكليزية ومنهم الفاضل مستر جون برطون قرأ علىّ جزءا من المقامات وكان الذى عرفنى به يهوديا كان يعلمه لغته وانه غاب عنه مدة فسألنى عنه تلميذه ذات يوم فقلت لا ادرى اين هو وانما لاح لى من سيماء وجهه حين جاءنى ان فى اماقيه شرا ثم لم يلبث ان شهر عنه فى البلد انه كان يضاجع بنته وهى دون العشر سنين وكان ذلك دابه معها مدة مديدة فحكم عليه بالنفى المؤبد وقد ادبت عنه احد اعيانهم وهو احد اعضاء مجلس المشورة العام واذ كنا واقفين فى المجلس تحادث لحت من بين القيام شخصا يهم بان يدنو منى ليكلمنى

ليكلمنى فدنوت منه فقال لى قد طالما اردت ان اسألك عن شئ فى بلادكم فهل تمن علىّ بالجواب قلت ما هو قال اذا برك الجمل أيستطيع ان يقوم وحده قلت لو سألتنى عن الظعائن لاخبرتك فاما الجمل فلا ادرى ثم لما حان وقت تعطيل المدارس قبل عيد الميلاد تذكرت ما وعدت به صديقى الدكطر نيكلسن فمن ثم سافرت الى لندرة ومنها الى دارنكطون فبلغتها بعد نحو اثنتى عشرة ساعة قاسيت فيها من البرد والتعب ما لم اقاسه فى عمرى كله وهنا ينبغى ان يلاحظ ان السفر فى سكة الحديد وان يكن اسرع واسهل الا انه فى بلاد الانكليز معنت مكمد لان الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بحرمة السفر والتعب فيكالمه فترى كل واحد بيده صحيفة الاخبار يطالعها مسافة سفره كلها واذا وقف الرتل لا يجد شيئا من المأكول والمشروب ما يفثأ تسخطه وليست القهوة عندهم الا ماء دخن سخن ولهذا كان اكثر الانكليز يسافرون النهار كله ولا يأكلون شيئا من حوانيت المواقف وانما يتزودون الطعام والشراب من ديارهم وهو فى الحقيقة اولى فاما مواقف فرنسا فان فيها كل ما الفه الانسان فى بيته على ان باعة المأكول والمشروب فى بلاد الانكليز اشد خلق الله شططا فانهم يتقاضون على فنجان قهوة الدخن نصف شلين ثم سافرت من دارنكطون فى الساعة الثامنة صباحا فوصلت الى بزيث فى الحادية بعد الظهر ومررنا فى خلال ذلك بعدة قرى ومدن من اعظمها برسطون سكانها نحو مائة الف نفس وهى مدينة شغل وتجر شهيرة يلتقى الارتال فيها يمر بها فى كل يوم اكثر من مائتى رتل وهو عبارة عن صف عواجل متناسقة بعضها الى بعض وكان البرد وقتئذ عارما والثلج متساقطا فلما بلغت بزيث سألت عن مقام الدكطر نيكلسن فارشدت اليه لكونه شهيرا فى البلدة فلما رآنى رحب بى غاية الترحيب وانزلنى فى داره خير منزل واكرمنى بما لا مزيد عليه فجزاه الله عنى خيرا ثم ان اقليم بزيث حسن جدا لانه يحوى جبالا واودية واعظم جباله هل فلن ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم وهو مخصوص بمعادن الفحم واهل البلد نحو سبعة آلاف وفى اول يوم من ابريل حشدت الناس فى الطرق ومعهم اعلام وآلات طرب فسألت صديقى عنها فقال ان جمعية هنا تسمى جمعية الاد من شانهم ان يجتمعوا فى كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم

بعضا فيصنعون وليمة فى هـذا اليوم ويتلون ما تقرر عندهم من الترتيب ثم ينصرف كل منهم الى محله ومثل هذه الجمعيات فى بلاد الانكليز لا يعد ولا يحصى واهل ذلك الصقع يلتحفون بشملة على اكتافهم للتدفىء ونعال فلاحيهم من خشب وعيشهم اجهد من عيش غيرهم واتعسهم من يعمل فى المعادن ثم عنّ لى ان اسافر الى سكوتلاند لأرى قاعدتها وهى ايدنبورغ اذ كنت غير بعيد عنها فودعت مضيفى وسافرت الى ليفربول فوصلت اليها بعد سفر نحو ست ساعات وهذه المدينة هى من اعمر مدن انكلترة بعد لندرة ومنشستر فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع ومنه تسافر الى جميع الاقطار وهى تقابل مرسيلية فى فرنسا كما ان منشستر تقابل ليون فى كونها ذات معامل للحرير والثياب ولندرة تقابل باريس ◆ وفى ليفربول عدة ملاه وملاعب وحوانيت بهجة وابنية حسنة من اعظمها المحل الذى يقال له قاعة البلد واهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك لكثرة اختلاطهم بالغرباء ◆ وكان افتتاح سكة الحديد بينها وبين لندرة فى سنة ١٨٣٨ وطول قبوتها ميل وربع وكانت فى الزمن القديم محل صيد للسمك ثم صيرها الملك هنرى الثامن محلة لاجتماع العساكر وتجريدهم منها لفتح ارلاند ◆ ثم سافرت منها الى منشستر فبلغتها فى نحو ساعة وهذه المدينة اشهر مدينة فى الدنيا بكثرة المناسج والانوال وعدد الصناع فيها نحو ثمانين الفا فاذا اعتبرت ان معظم الآلات يدور بالبخار ظهر لك ان هذا القدر يقوم مقام اربعمائة الف صانع ◆ قال الفاضل ماكولى ان منشستر هى اعظم مدينة لاشغال القطن والنساجة وكان القطن مذ خمسين سنة يجلب اليها من ازمير وقبرس وجملة ما ورد اليها فى غاية القرن السابع عشر لم يبلغ مليونى رطل اما الآن فان هذا القدر لا يكفى لعمل ثمان واربعين ساعة ◆ فانظر الى هذا الفرق العظيم الذى نشأ عن قوة البخار حتى انه جعلها تفوق فى الثروة والغنى على قواعد اوربا جميعا وذلك نحو برلين ومدريد وليسبون وكان اهلها اذ ذاك نحو ستة آلاف ولم يكن فيها مطبعة ولا عاجلة والآن فيها مائة مطبعة وعشرون صانعا للعجلات اه قلت وقد جلب اليها فى السنة الماضية ٥٦٫٠٠٠ عكم او بالة من الحرير ومن القطن ٢٫١٠٠٫٠٠٠ عكم ويقال ان جميع محصول الدنيا من هذا الصنف الاخير يبلغ اربعة ملايين فى السنة سبعة

اجزآء منها تحصل من اميركا والجزء الثامن من سائر البلاد (١) وجملة المعامل الموجودة فى بريتانيا بموجب خلاصة حديثة العهد ٥٫١٧٧ منها ٤٫٤٣٢ فى انكلترة ووالس و ٥٣٠ فى سكوتلاند و ١٥٥ فى ارلاند وعدد ما يدار من الانوال بالبخار ١٣٧٫٧١١ وما يدار بالمآء ٢٣٫٧٢٤ و جملة عدد المستخدمين فيها من الذكور ٢٧٣٫١٣٧ ومن الاناث ٤٠٩٫٣٦٠ الجملة ٦٨٢٫٤٩٧ وفى جميع المملكة ٤٦٠ معملا للحرير و ٤١٧ معملا للكتان و ٥٢٥ معملا للحبك و ١٫٥٠٥ للصوف و ٢٫٢١٠ للقطن وفيها اى فى معامل القطن من الصناع وغيرهم ٣٧٩٫٢١٨ وفى معامل الصوف ٧٩٫٠٩١ وفى معامل الحبك ٨٧٫٦٩٤ وفى الكتان ٨٠٫٢٦٢ وفى الحرير ٥٦٫١٣٧ (٢) وبلغ ثمن ما ارسل من هذه البلاد من منسوجات القطن فى ثلاث سنين احدا وثلاثين مليون ليرة ومن الصوف عشرة ملايين فاما قيمة جميع ما ارسل من بلاد الانكليز فقد بلغ فى سنة ١٨٥٦ نحو ١١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ (٣) ليرة وقيمة ما يبعث من فرنسا فى كل سنة من الامتعة المصنوعة والمصوغة تبلغ ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك وقيمة جميع ما يخرج من مملكة بريتانيا من اللوازم التجرية وغيرها تبلغ فى السنة نحو ٥١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة وفى سنة ٥٦ بلغت قيمة

---

(١) علم من احصائيات دولة انكلترة ان مقدار القطن الذى جلب الى انكلترة من الخارج بلغ فى سنة ١٨١٥ ٩٩٫٠٠٠٫٠٠٠ رطل انكليزى وفى سنة ١٨٢٥ بلغ هذا المقدار ٢٢٩٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى سنة ١٨٤٠ بلغ ٥٩٢٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى سنة ١٨٥٠ ٦٦٣٫٥٧٦٫٨٦١ وفى سنة ١٨٦٠ ١٫٣٩٠٫٩٣٨٫٧٥٢ وجلب اليها فى سنة ١٨٧٩ ١٫٤٦٩٫٣٥٨٫٤٦٤ ومقدار ما خرج منها الى الخارج بلغ ١٨٨٫٢٠١٫٨٨٨ رطلا

(٢) فى سنة ١٨٧٤ بلغ عدد المعامل فى انكلترة ووالس وسكوتلاند وارلاند ٧٫٢٩٤ معملا وعدد المستخدمين والصناع فيها ١٫٠٠٥٫٦٨٥ منهم ٣٩٤٫٠٤٤ ذكور و ٦١١٫٦٤١ اناث

(٣) بلغت قيمة جميع البضاعة التى خرجت من انكلترة الى الخارج فى سنة ١٨٧٩ ١٩١٫٥٣١٫٧٥٨ ليرة

المبعوث من بلاد الانكليز في مدة احد عشر شهرا ١٠٥٫٨٤٥٫٠٠٠ ليرة زاد على سنة ٥٥ عشرة ملايين ثم وجدت في الاحصائيات ان قيمة المجلوب الى بلاد الروسية بلغت في سنة ١٨٦٠ ١٨٣٫٧٧٢٫١٠١ روبلا وكل روبل عبارة عن اربعة فرنكات وقيمة الخارج منها بلغت ٥٢٫٨٥٤٫٠٢١ وبلغت قيمة المجلوب الى اوستريا في السنة المذكورة ٢٢٩٫٢٣١٫٤٧٢ فلورين وكل فلورين عبارة عن فرنكين ونصف وبلغت قيمة الخارج منها ٣٠٦٫٨٤٩٫٧١٦ وبهذا تعلم الفرق ويوجد محل في ارلاند يخص احد الانكليز فيه اربعة آلاف شخص مستخدمين في عمل القمصان يصنعونها بادوات النار وهذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص فاي فرق يرى الآن في بلاد الانكليز وقد صارت تمد جميع اقطار الدنيا بمصنوعاتها وتكسو الناس والحيوان والديار بمنسوجاتها بعد ان كانت تبعث الثياب الى هولاند لتصبغ هناك وتعاد اليها لتبيعها وبعد ان كانت تنتظر احد الفارين من فرنسا وغيرها ان يأتي اليها ويبث فيها صنعة من الصنائع فان هذا الديباج الذي يسمونه داماسك اصل صنعه كان في دمشق ثم حاكاهم فيه اهل هولاند وفي سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم الامير الفا وجوره عليهم فجاؤا الى بلاد الانكليز وصنعوه فيها • قال مؤلف المخترعات العجيبة اما صنعة النسج فقد كانت معروفة في بلاد الصين من قبل ان عرفت في اوربا بدهر طويل والغزل عندهم والنسج والصبغ انما هو من شغل النساء واول من صنع ثياب الصوف في بلاد الانكليز رجلان قدما من برابان ثم قدم من هولاند صباغون وبزازون وصناع للحرير وشهروا هذه الصنائع بين الاهلين وذلك في سنة ١٥٦٧ والذي جلب من الكوكاو من الهند الغربية في سنة ٥٢ بلغت قيمته ٤٫٣٤٩٫٠٥١ ليرة • والمخزون من الشاي في عامنا هذا بلغ سبعة وثمانين مليون رطل ونصف مليون • ودخل من التبغ في احد عشر شهرا ٢٩٫٧٧٦٫٠٨٢ رطلا يصرف منها اكثر من ثمانية ملايين في العام • وبلغت قيمة ما ارسل من الشريط والقيطان من شهر كانون الثاني الى شهر تشرين الثاني ٣٫٣٠٨٫٣٣٩ ليرة واذا نظرنا الى احوال انكلترة مذ القديم وجدنا ان ملابس اهلها انما كانت من جلود الحيوانات وان ثياب زعمائهم لم تكن الا من الكرباس الخشن كأنما هو مسح حتى ان الفرسان الذين تنوه بهم التواريخ كانوا اذا نزعوا عنهم

الدروع

الدروع اللماعة يشف عنها ثياب الجلد فلما عرف النسج فى الاعصر المتأخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النساء و بقى الحال على ذلك دهرا طويلا الى ان قيض الله اركريت والتى فى روعه استنباط آلة للغزل تكون دائمة الحركة فوفق الى ذلك ونجح ما امكن • وقال آخر ولد اركريت فى سنة ١٧٣٢ و بقى الى سنة ٣٦ من عمره خامل الذكر مشتغلا بالحلاقة ولم يكد يحصل من حرفته شيئا زائدا على قوت يومه الا انه كان ذا فكر ثاقب فى جر الاثقال فما زال يعمل فكره فى اختراع آلة الغزل حتى تسنى له ما قصده ولكن بعد صعوبات شتى فلما اشتهر مخترعه اجازت له الدولة ان يستبد بمنافعه الى مدة مديدة فانشأ معملا فى دربى ولم تمض عليه مدة حتى احرز اموالا طائلة وطار ذكره بين الناس فحدث باستنباطه هذا فى اشغال النسيج تغيير عظيم من تنقيص الصناع وترخيص سعر الثياب اه وحكى عنه حكاية غريبة وهى انه ذهب الى بعض اعمال انكلترة واوهم اهلها ان الدولة جردته لان يقص شعورهم ليسلموا من عدوى البلاء الذى كان فشا بين جيرتهم فانقادوا له فلم يبق الا من قص شعره واتحفه به فاخذ تلك الخصل وصبغها وانتفع بها انتفاعا جزيلا • قال بعض العلماء من الافرنج لولا استنباط اركريت لما استطاعت دولة الانكليز ان تقاوم نابوليون الاول مدة خمس وعشرين سنة حتى قهرته فى آخر الامر وقصرته فى جزيرة صانت هيلان • واول من اتقن صنعة نسج الحرير فى انكلترة جماعة هربوا من فرنسا الى لندرة وذلك سنة ١٢٨٦ واصل جلب الحرير المصنوع الى بلاد اليونان كان من بلاد فارس وذلك فى سنة ٣٢٥ قبل الميلاد وعرف فى رومية فى ايام طيباريوس وحرم على الرجال دون النساء و اول من لبس ثوبا منه هليوغابالوس وذلك فى سنة ٢٢٠ للميلاد وكان ثمن الحرير اولا فى قيمة الذهب وزنا بوزن وكان يظن انه ينبت من الارض كشجر القطن وفى القرن السادس جلب دود القز من الهند الى اوربا وفى سنة ٧٨٠ اهدى شارلمان حلة منه الى اقا ملك مرسية وفى سنة ١١٣٠ حرض روجر ملك صقلية رعيته على عمله فكانوا يربون دود القز ويغزلون الحرير وينسجونه ثم اشتهرت صنعته فى ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا وذلك فى سنة ١٥١٠ و فى سنة ١٥٨٩ كثر هنرى الرابع دوده وشجره فى جميع المملكة وفى سنة ١٢٨٦ لبس بعض نساء الاشراف من الانكليز

حبرا منه • وقال فلتير لم تقم امة قوية فى التجارة والحرب بعض انقراض قرطاجنة كما قامت دولة فينيسيا حتى صارت قدوة فى ذلك نعم ان دولة البورتغال جازوا الى الهند من عند الرجاء الصالح وظلوا حينا من الدهر ولاة سواحلها واولى شوكة فى اوربا وان ولايات اميريكا المتحدة صارت ايضا دولة محاربة رغما عنها حتى عادلت دول اوربا وان فينيسيا و امستردام وقرطاجنة حازوا من قبلهم من العز والمنعة ما شغل الالسن بالمدح والثناء الا انهم جميعهم عملوا كما يعمل الناس فى عصرنا هذا فى انهم بعد ان حصلوا الثروة بالتجارة اشتروا ضياعا و املاكا واخلدوا الى الرفاهية والراحة فما احد ابتدأ ان يكون محاربا حتى يكون فى آخرته تاجرا الا الانكليز فهم وحدهم الجديرون بهذا النعت فانهم حاربوا احقابا طويلة من قبل ان يعرفوا الحساب ولما انتصروا فى وقائع اغنيكورت وكرسا وبوستيروس لم يكونوا يعلمون انهم يقدرون بعدها على تجارة الحبوب او على صنع الجوخ العريض فان ذلك لهم انفع من تلك النصر • لا جرم انه لا شئ يغنى الامة ويشيد عزها كمعرفة الصنائع والتجارة اذ لولا التجارة لما كانت لندرة تفضل باريس فى السعة وكثرة السكان ولما قدروا على ان ينشوا فى البحر مائتى سفينة حربية و يجروا الرزق العميم على الممالك المتواطئة معهم ألا ترى ان لويس الرابع عشر لما القى الرعب فى قلوب اهل ايطاليا واستولت جيوشه على صافوى وبيدمنت وكادوا ان يستولوا ايضا على طورين لم يكن بد للامير يوجين من ان يتوجه الى اطراف جرمانيا لانجاد دوك صافوى ولكن لما لم يكن له مال يمكنه من ان يفتح بلدا او يضبطه اضطر الى الاستعانة بتجار الانكليز فاجابوه الى ذلك فورا واقرضوه فى نصف ساعة خمسة ملايين فرنك فاستخلص بها طورين وقهر الفرنسيس وردهم عنها مقهورين ثم كتب الى الذين داينوه « ايها السادة انى قد تسلمت منكم مالا وقد انفقته فيما يرضيكم » فكان كلامه هذا حاملا للانكليز على الكبر والافتخار وله على ان ينزل نفسه بمنزلة رومانى وهو به خليق على ان اصغر اولاد صاحب المملكة عند الانكليز لا يأنف من ان يكون تاجرا فان اخا اللورد طونسند آر ان يكون تاجرا فى الستى على ان يتقلد وظيفة فى الديوان • ولما كان اللورد ارفورد متوليا تدبير المملكة كان اخوه منشئ معمل فى حلب ولم يشأ ان يرجع الى وطنه بل مات هناك • وهذا الداب الذى اخذ

الآن

الآن فى الذور كان يعد عند امرآء جرمانيا من المنكرات فلم يقدروا ان يفهموا كيف يكون ابن صاحب المملكة داخلا فى سلك التجار مع انهم هم كلهم سادة • ولكن كم قد رأينا منهم من كبير يوصف بلقب السمو وليس له ملك ولا ثروة غير هذا الجلاء والكبر الاميرى • اما فى فرنسا فان كل واحد يمكنه ان يصير مركيزا وكل من يقدم اليها من البلاد الاجنبية وآخر اسمه ينتهى بحرفى الكاف وايل وعنده مال ينفق منه فان له ان يقول ليس لى من نظير وما احد من بابتى وينظر الى التاجر بعين التهاون والاحتقار فاذا سمع التاجر ان الناس يعيبون حرفته ويشينونها اعتراه الخجل ولكن ليت شعرى اى الرجلين انفع لدولته أسيد يعرف بالتفصيل متى يقوم ملكه ومتى ينصرف الى مرقده ثم يتخذ لنفسه مظهر عظمة وابهة وهو مع ذلك يرضى لنفسه خطة ذل وعبودية بانتظاره الوزير فى قصره ام تاجر يقعد فى مخدعه ويبث منه اوامره الى سورات وحلب ليغنى بلاده ويسعد اهلها اه • قلت ومدح فلتير التجارة ليس قدحا فى العلوم والمعارف وانما هو تحريض على اتساع دائرة التمدن وشتان ما بين تجار الفرنسيس وبين تجار البلاد المشرقية فان هؤلاء لا يحسنون الكلام الا فى المكيول والموزون ولا يعرفون ان يكتبوا سطرا واحدا من دون غلط فهذه الحال ينكرها فلتير وكل ذى ذوق سليم • ثم ان منتسستر هذه كانت فى القديم مقاما للدرويدس وكان لهم فيها هيكل ومذبح قيل له باللغة القديمة مين اى حجر وصارت قبل الميلاد مقرا للهمج فبنوا فيها قلعة سميت منسنيون اى مضرب الخيام ثم تصحفت على المتأخرين فقالوا للمدينة منشستر • وهؤلاء الدرويدس كانوا فى القديم كهان جرمانيا وفرنسا وبريتانيا وحكماءهم وكانوا فى هذه الاخيرة ينتخبون من اكرم العيال فكانوا يشتغلون بالعلوم ومعرفة الفرائض الدينية ويعبرون كلام الآلهة ويفصلون الدعاوى الخطيرة ويتولون تدبير الجيش • ولما غزا قيصر هذه الجزيرة قابلوه بالجيوش والبسالة ذبا عن الوطن فتم عليهم ذلك بعض ولاة الرومانيين فاستأصل شافتهم • وفى هذه المدينة اسواق ظريفة وحوانيت بهيجة وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبدالله افندى الادلبى قنصل الدولة العلية ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا فانه اول ما رأى طربوشى اقبل الى متبسما باشا ودعانى الى منزله من دون ان ابرز اليه كتاب وصاة على عادة القوم ولم يكتف بهذا

حتى اخذ عنوان مقامى فى كمبريج قصد ان يبعث الىّ بهدية من طرف المدينة وقد فعل جزاه الله خيرا وله مساغ عند الدولة المشار اليها محمودة وذكر حسن عند اهل البلدة وعند اهل الشام ايضا • وفيها رأيت محل التلغراف وهو على نوعين • الاول المتعارف وهو شيء الساعة الدقاقة فى وجهها ابرة من فولاذ موضوعة تحت نصف حلقة وفوقها مسماران صغيران من عظم قد رسم فوقهما الحروف الهجائية والغالب ان يكون فى كل صفحة ابرتان فتى حرك الابرة السلك المتصل بهما من وراء الصندوق طرقت على كلا الوتدين ولكل حرف طرق معلوم فالالف مثلا لها طرقتان على وتد واحد والباء ثلاث اثنتان على وتد وواحدة على آخر وهلم جرا • والثانى وهو ما اخترع بعده فكان اوفق واسهل وهو آلة كالدولاب فيها قلم دقيق من فولاذ مركب من اجزاء كيماوية ويمر من تحته سير رقيق من ورق مركب ايضا فيرسم عليه خطوطا سودا هى فى عرفهم حروف • وهناك ايضا آلة كمنوال الحائك ذات اسنان دقيقة بارزة منه يمر من تحتها الورق فترسم عليه خطوطا • وقيل انه يوجد آلة ترسم الحروف المكتوبة كما يرسمها كاتبها سوآء حتى لو كتب احد بالعربية شيئا اتته كما هو وهذه الآلة لم ارها • واكثر الآلات استعمالا فى بلاد الانكليز انما هى الابرة وفى بلاد اميريكا الدولاب • وبكل منهما يصل الخبر من لندرة الى ايدنبرغ وهى مسافة ثلاثمائة ميل فى ثانية وسوآء كانت المسافة طويلة او قصيرة فالتأثير واحد • فاما تحريك الاسلاك فانه ينشأ عن الخاصية الجاذبة من وضع صفيحة من النحاس وقطعة من التوتيا توضعان فى الماء فيخرج منهما روح يسرى فى السلك المماس لهما ومنه الى الاسلاك التى ترى عيانا فى الطريق وقد تراها ممتدة فى الهوآء بجانب سكة الحديد وربما كانت عشرة فاكثر وربما بلغ الخبر بعضها الى مكان وبعضها الى مكان آخر • وسوآء كانت سافلة او عالية او على خط مستقيم او منحرف فلا يتخلف حكم الخبر بها وقد ثبت بالتجربة انها تصح تحت الماء كما تصح فى الهوآء • وهذه المصلحة يتكفل بها جماعة على حدتها والفائدة منها عامة للجميع ولاسيما الدولة والتجار فانه اذا اريد الاستخبار عن امر مهم علم فى دقيقة واحدة واذا هرب القاتل من بلد الى آخر عرف شانه قبل وصوله الى مهربه وجعل نحو عشرين كلمة نصف ليرة • ثم لما قر بى المقام فى لندرة

طلبت

طلبت من مدير التلغراف ان يأذن لى فى رؤية الآلات وموضع النحاس والتوتيا فورد الىّ الجواب منه بانه يكره ان يريها الغربآء ولا سيما الاجانب كل الكراهية و لكن اذا كتبت اليه الجمعية فى ذلك يرضى حتى اذا فعلت بعث معى من اراينها جملة وتفصيلا • فاول ما رأيت هو الموضع الذى فيه التوتيا و النحاس وهو عبارة عن موضع مظلم كالنفق فيه موائد كثيرة من خشب ذات بيوت صغيرة مقسمة تشتمل على هذين الجوهرين وقد غمرت بالماء ومعهما ملح الكبريت وسلك الحديد وهذا السلك متصل بالسلك الظاهر فى الهوآء كما تقدم آنفا اما التوتيا فتنحل على طول المدى وتتلاشى واما النحاس فيزيد • ثم أريت موضعا فى الحائط مغشى بالخشب يشتمل داخله على اجزاء وخارجه على نحو مسامير بارزة منه فجاء الرجل بقطعتين من الفحم وادناهما من مسمار واذا بنور بهى ساطع خرج من طرفيهما ومن هذا التقابل فى الجاذبية تخرج الوان عديدة زهية يبدونها احيانا فى الملاهى بما يقصر عن وصفه القلم ولما وضعت اصبعىّ على مسمارين منها احسست بارتعاش وجاذبية اخدرت مفاصلى فرفعتهما حالا • ثم صعدنا الى الموضع الذى تلقى فيه الاخبار من كاتب ديوان التلغراف وذلك انه اذا اراد احد ان يبعث خبرا كتبه وسلمه للكاتب او املاه عليه مشافهة فيدونه الكاتب فى رقعة ويجعلها فى ظرف ويسد اعلاه ثم يضعه فى نحو صندوق فتدفعه القوة الكهربائية الى موضع يكون عنده غلام واقف فيأخذه ويسلم الرقعة الى قيم الآلة المعدة لتبليغ الخبر فان كان يراد توجيهه مثلا الى باريس سلمه الى قيم آلة باريس وهلم جرا • ثم دخلنا موضع الآلات وهى على الصفة التى رأيتها اولا غير انى رأيت التبليغ هنا على يد النساء لا الرجال وكيفية ذلك ان تقعد المرأة على كرسى وتمسك بيدها مقبضا من خشب وتحركه حركات مطابقة لاصطلاح الحروف فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا والنحاس فيحرك الابرة فى المحل المبلغ اليه الخبر على حسب حركات اليد وترى البنت تحرك هذه الآلة كما يحرك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة وبينما كان الرجل يكلمنى امام آلة اذ رأينا الابرة تطرق على المسمارين ثم حركت البنت المقبض وسكنت ثم تحركت الابرة ايضا وكان ذلك باسرع من ان ينطق المتكلم بعشر كلمات فقال لى الرجل أتدرى ما سبب حركة الابرة مرتين قلت لا قال قد ورد

خبر من ويانه يراد تبليغه الى ليفربول فبلغته البنت وجآءها خبر بوصوله فبقيت مدهوشا متحيرا واخذت افكر تفكيرا مضطربا فى كيف ان هذا العلم الحرى بان يدعى من العلوم الالهية لكونه غير متناه لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجهـا فى الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون فى وجه (١) وحين كان العمر يضاع فى التعليل والاعتراضات والتجويز والترجيح كما اشار اليه الاديب الشيخ احمد السيرى بقوله يمدح خديو مصر على انشاء مدارس للعلوم الرياضية

* فهذا الفخر فى وجه المعالى * وليس بضرب زيد وجه عمرو *

اذا لصرف خواطر القوم الى الاشتغال بما هو اهم وانفع فان وصول الخبر من قاعدة مملكة اوستريا الى ليفربول فى اقل من ثانية انفع من تجويز عشرين وجها فى مسألة واحدة • وهذا هو سر الكيمياء الذى يتعلمه الافرنج الآن لا تحويل الحديد ذهبا او الآنك فضة فان سميته بالاكسير فانت صادق • والحاصل ان الخبر يبلغ بهذه الآلة مسافة بعيدة كما يبلغ مسافة ميل على السوآء وعدة الآلات فى هذا المحل نحو خمسين وعدة المستخدمين فيه مئة وثلاثون • قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة لم يكن يخطر ببال احد من المتقدمين انه يمكن ايصال فكر من بلد الى آخر مسافة مئات من الاميال بثوان قليلة وان من يكون واقفا فى الندرة يمكنه ان يخاطب آخر فى ايدنبرغ ويتلقى منه الجواب كأنهما جالسان فى غرفة واحدة مع ان بينهما مدى ثلاثمائة ميل • فلا جرم ان التلغراف انما هو اكبر العجائب التى كشفت فى عصرنا هذا فان السارق مثلا يذهب فى احد الارتال السريعة وهو مسرور بسرقته

---

(١) تفصيل مسائل الصفة المشبهة ثمانى عشرة حسن وجهه برفع وجهه ونصبه وجره وحسن الوجه برفع الوجه ونصبه وجره وحسن وجه برفع وجه ونصبه وجره والحسن وجهه برفع وجهه ونصبه وجره والحسن الوجه برفع الوجه ونصبه وجره والحسن وجه برفع وجهه ونصبه وجره ووجهان من المسائل ممتنعان احدهمـا الحسن وجهه بجره والثانى الحسن وجه بجر وجه واختلف فى حسن وجهه

وفراره

وفراره من يد الشرطة ويطمع فى انه اذا بلغ الى احدى المدن الغنآء يخفى اثره عن غريمه ويضيع خبره فى دخوله بين النـاس فيعمد الى رتل يمر مسـافة خمسين ميلا فى الساعة ويكون خبره قد تقدمه فى السلك الذى يراه بعينه مرة عن يمينه ومرة عن شماله ويكون الشرطى قد عرفه بسمته وسمته وصفاته وعرف الرتل الذى سافر فيه فما يكاد يخرج منه الا وهو آخذ بتلابيبه فيبقى مدهوشا مبهوتا لا يدرى اين يقصد ثم تفتش صناديقه واوعيته ويستخرج منها المسروق ويرسل هو الى الحبس فمن ثم كانت فوائد هذه الاسلاك من اعظم الاسباب المؤيدة لاقامة الحق وتشييد سنن الشرع وتنفيذ احكامه ولو كان ايصال الخبر على هذا الوجه قد عرض على مسامع اهل القرون الخالية لعدوه من الخزعبلات المفتعلة الا ان هـذه العملية لم تنشأ عرضـا او بغتة بل بعد اعمال فكر وجهد روية فى مدد متعـاقبة واصل ما ادى اهل الحكمة والفلسفة الى هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلين الاميركانى للطيارة المعروفة ومذ حينئذ خطر ببـال المتبحرين فى العلوم انه لا يبعد عن الامكان ايصال خبر بواسطة الة الى بعض الاماكن الشاسعة * قلت ولد فرنكلين المذكور فى مدينة بوستان من اميركا فى سنة ١٧٠٦ وكان فى مبدأ امره خامل الذكر ثم اشتغل بالعلم وحسنت حاله وما زال يترقى فى المعـالى حتى صـار من اهل السياسة وذهب الى باريس وحظى عند رجال الدولة حظوة عظيمة حتى انهم لما بلغهم خبر وفاته لبسوا عليه الحداد وله مؤلفات عديدة اه فاما خبر طيارته فهو انه صعدها فى يوم ذى دجن وكان قد ربط مرستها الى وتدين واناط بها مفتاحا فلما غشيها الغمام وجد ان بعض خيوطهـا قد تنفش وتجـافى عن بعض منتصبا فادنى برجمته من المفتـاح فاحس بشرار البرق قال وفى سـنة ١٧٨٧ اجرى لوموند السكوتلاندى عمليـة تقرب من هذا الكشف وفى سنة ١٧٩٤ نصب ريزر تلغرافا يمكن استعماله وان كان اقل نفعا واتقانا من المستعمل الآن فكان التبليغ فيه خاصا بالسلك والعمل كله للشرارة الكهربآئية وكـان السلك يجعل فى موضع مظلم وحوله صفائح من القصدير عليهـا حروف مرسومة وقد ركزت على صفائح من زجاج فاذا طار الشرر على هذه ليجرى فى السلك اضـآء الصفائح فتمكن به قراءة الحروف ثم قام فولتى وحسن هذه العملية بعض التحسين ثم رونالدس من همرسميث وارستد من

كوبنهاغن وشويجر و مونـك و دافيس و اراغو وغيرهم وكل منهم زاد شيئا وحسن شيئا وفى سنة ١٨٢٧ قام الدكطور كوك وويتسطون واخذا رخصة من الدولة لاجراء هذه العملية وفى سنة ١٨٣٩ استعمل التلغراف كما نراه الآن فى سكة الحديد المسماة السكة الغربيـة الكبيرة وهو الذى يبلغ الخبر بواسطة طارق الابرة على المسامير واخبرنى من يعرف ويتسطون انه هو الذى اخترع آلة الطرب المسماة كنشرتينو وآلة اخرى من نوع النظارات ثم اخترع الدكطور سطنايل من مونيش آلة تنقط الحبر على ورق وعلى قدر ترتيب النقط يكون نحوى المنطوق وفى سـنة ١٨٤٠ اخترع ويتـطون هـذا المنوال الذى يدور ويرسم الحروف وفى سنة ١٨٤٣ نصب مستر وود الاسلاك على دعائم وكانت من قبل تحت الارض وهى غير مماسة لها بل هى نافذة من حلق من الفخار وبذلك سهل نصب اسلاك غليظة من الحديد بدل النحـاس فنقصت المصاريف نحو النصف وهذه الاسلاك تجرى فى ثلثى سكك الحديد الممتدة وليس من بلد عامر الا وتصل اليه الاخبـار بها اه • وقال صاحب ابجدية الاوقات اول من خطر بباله انشاء التلغراف المعروف الآن كان الدكطور هوك وذلك فى سنة ١٦٦٤ وقيل ان موسيو اشتونس هو ايضا مخترعه فى ذلك التاريخ الا انه لم يجر استعماله الا فى سنة ١٧٩٣ وقيل ان موسيو ساپ هو اول من اخترع التلغراف الذى استعمله الفرنسيس فى تلك السنة وفى سنة ١٧٩٦ نصب سلكان فوق ديوان الاميرال اه قلت كانت ولادة روبرت هوك فى سنة ١٦٣٥ ووفاته فى سنة ١٧٠٢ ويقـال انه هو اول من اخترع آلة لتقويم حركة الساعة واتقن كثيرا من الآلات الهندسية وفكر فى الجاذبية الارضية واستنبط فى الرياضيات والفلكيات والطب والكيميـاء اشياء كثيرة وكان شرسا حسودا نازع نيوطون انفس مخترعاته • ثم سـافرت من منشستر الى ايدنبرغ قاعدة سكوتلاند وهى مدينة بهيجة جدا مبنية من الحجر الصلب على عدة نجوات وهى شطران احدهمـا جديد والثـانى قديم اما القديم فان دياره عالية جدا فقد تشتمل الدار على ثمـانى طبقـات الا ان فيـه ازقة قذرة ضيقة جدا واما الجـديد فانه يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسـافرين رحيبة وفيه مدرسة جامعة تحوى نحو ستمائة طالب وهى شهيرة بعلم الطب وفيها مكتبة موقوفة تحوى ثمانين

الف

الف كتاب ما عدا كتب خط اليد • وهناك قبة جليلة فيها تمثال سر ولطر سكوت شاعرهم الشهير ولها مرقب عال مطل على الخليج الداخل من البحر وسعته عدة اميال وهذا المطل يكاد ان يكون كمطال جبل لبنان • وقد كان الفاصل بين الشطرين خليجا والآن جعل ممرا للارتال • اما ارض سكوتلاند فهي دون ارض انكلترة فى الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال فيها الا ان اهلها اصحاب جد وداب فى الصنائع وشانهم التغرب فى جميع البلاد فهم كاهل حلب فى سورية وكل سنة يهاجر منهم اكثر من ثمانية عشر الفا وهم اكثر شعرة وصهوبة من الانكليز وعدتهم نحو ٣٠٠٠٠٠٠ ولهم لغة خاصة بهم غير ان لغة الانكليز غلبت عليهم الآن وحاكمهم منهم ولكنه تحت طاعة الدولة وهم اشد تحمسا فى الدين من الانكليز فان اصحاب الفنادق يضعون فى كل غرفة للمسافر كتابى العهد القديم والجديد وكثيرا ما ترى نساء يبعن الفاكهة فى الطريق وبين ايديهن كتاب الانجيل وقد طالما حاولت اساقفة الانكليز اقرار كنيستهم فيها وجعلها الاصل كما فعلوا بارلاند فقابلهم الاهلون باشد الاباء والتمنع مع ان اهل ارلاند اكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ وسبب ذلك انه لما اتحدت سكوتلاند بانكلترة وذلك فى سنة ١٧٠٧ كان من جملة الشروط التى اشترطوها ان تبقى رسوم كنيستهم ومناسكها كما كانت فاقرتهم الدولة على ذلك الى يومنا هذا وهم مثل الانكليز فى كونهم يشفنون الغريب فانى حين كنت امر فى الطريق كان يجرى ورائى جمع غفير من الرجال والنساء والاولاد ينظرون الى داربوشى ويتعجبون حتى اضطررت مرة الى ان اتوارى منهم فى دكان • وقد رأيت فى هذه المدينة القصر الذى كانت تسكنه الملكة مارى استوارت المشهورة بالجمال والنجابة وهو فى خفض من الارض وفيه شاهدت صورتها وسريرها الذى كانت تنام عليه وصورة الطليانى الذى اتهمت بحبه وهو يقاربها فى الجمال وصورته باقية فى الموضع الذى قتل فيه غيلة وسببه فيما قيل انه لما كان يعزف لها بالكنارة ذات ليلة اذ هجم عليه زوجها من باب خفى فقتله عند الباب الخارج ولم يزل اثر الدم على الخشب القريب من العتبة • ثم رأيت صورتها ايضا فى القلعة التى حبست فيها بعد ان اتهمها حسادها بالفحش وهى اجل من

صورتها فى القصر • ولما كانت محبوسة هناك اخذها الطلق فولدت جامس الاول وهو الذى صير مملكتى سكوتلاند وانكلترة مملكة واحدة • وشاهدت ايضا فى القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتما من ذهب فصه ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذى تدلت منه فنجت وهو عال جدا وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية فى تلك البلاد وكانوا حينئذ يرمونها وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلاثمائة قدم • فاما ما كان من امر الملكة مارى ففى محفوظى انها بعد ان يئست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها و بين اعدائها فرت من دار المملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها اليصابت ملكة الانكليز تستجير بها فكتبت اليها ان اقدمى على ولك الامان فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جمالها ومحاسنها فصدق المثل حيث قال * ان من الحسن لشقوة * ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جملتها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن ثم خفرت ذمتها معها ونقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت • ومع ان الانكليز ينوهون باسم الملكة اليصابت لاجارتها مذهب البروتستانط فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذى رضيته لنفسها بعد التأمين فهو طابع يصدأ به ذكرها على ممر الدهور • ومن قرأ قصة الملكة مارى وهى مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها لعمرى انه لم يشقنى شئ الى رؤية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها •

قال بوليه ان مارى ملكة سكوتلاند هى بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند ولدت فى سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بثمانية ايام وفى سنة ١٥٥٧ تزوجت دوفان فرنسا ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثانى ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند الا ان تمسكها بديانة الملة الكاتوليكية جعلها بغيضة لدى الاهلين وفى سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنرى لمجرد جماله فقط وكان يغار عليها من داود ريزيو الطليانى كاتب سرها فقتله برأى منها وفى سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت بقتله وبعد ثلاثة اشهر تزوجت كونت بونول ولم تتدبر فى العواقب حيث كان اتهم بانه اجهز على زوجها فشغب عليها فعلها هذا اهل المملكة والزموها ان تعدى

عن

عن مذهبها ففرت والتجأت الى ابنة عمها الملكة اليصابت وذلك فى سنة ١٥٦٨ وحيث كانت اليصابت تحسدها على جمالها القتها فى السجن ثمانى عشرة سنة ثم تجنت عليها انهـا غاوت جماعة من الكاتوليكيين على اهلاكها فقضت عليهـا بالقتل فماتت وهى متجلدة وكانت توصف فى عصرهـا بالكياسة والظرافة والفصاحة وبانها اجمل النساء وعند وداعها فرنسا قالت كلاما بليغا • قلت وجدت فى بعض التواريخ انها نظمت فى هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجمتها كما يأتى « وداعا يا فرنسا الانيقة يا بلادى التى هى عندى الاعز والتى رشحت صباى وداعا يا فرنسا وداعا يا ايامى الغراء فيها ان الفلك الذى فصل حبى لم يحمل الى هنـا سوى شطرى ولقد بقى لك الشطر الآخر ملكا لك وساتركه لمودتك حتى يتذكرك الآخر » وقال آخر قتلت ولهـا من العمر ٤٤ سنة وشهران ولما قدمت الى بلاد الانكليز كان سنها خمسا وعشرين سنة وقال بوليه وماتت عن ولد ملك على سكوتلاند باسم جامس السادس وعلى بلاد الانكليز باسم جامس الاول وقد الف العالم شلر على قتلها تمثيلة من ابلغ ما يكون اه

قال بعض من شاهد ايدنبرغ وكلاسكو من الانكليز ان للقسيسين ولفقهـاء الشرع فى ايدنبرغ يدا طويلة وكلمة نافذة فان النـاس تنقاد لهم فى أكثر الامور ولا يكاد النـاظر يترسم البيع والشراء الا فى حوانيتهـا بخلاف كلاسكو ومن يقم فيهـا فكأنما هو مقيم فى الريف وذلك لصفاء هوائهـا عن الدخان ومن كل جهة منها يستنشق نسيم البحر وهى مبنية من حجارة منيعة باقية على الدهر ويمكن ان يقـال انه ليس فى الدنيا كلها مدينـة مثلها على هذا الوضع الانيق اما اهلها فما برحوا محافظين على عاداتهم ورسومهم القديمة وهى مخالفة لعادات الانكليز جدا • اما كلاسكو فانها اعظم منهـا فى التجارة فانهـا كلها عبارة عن معامل للثياب المنسوجة وغيرهـا وهى وان تكن اول تجارة من منشستر الا ان فى هذه بيوتا كثيرة ومحترفات عديدة تختص بتلك اما تجارتهـا واشغالها فى الحديد فعظيمة الى الغاية واما فى انشاء المراكب والآلات من الحديد فمن الطراز الاول فانك ترى حولها اتاتين عديدة لا تزال متأججة حتى كان ذلك القطر قطر جحيمى وحتى يخيل للناظر ان خاطر الانسـان يرتاح الى النار والدخان والى طقطقة المطارق ارتياحه الى المكث فى صقع من ايطاليـا والى رؤية

الرياض واستماع اصوات العيدان وكأن هؤلاء الدخانيين لا يحسدون احدا سواهم ممن يسكن فى الريف المربع ولا يبالون بما تقوله الشعراء من وصف المروج الناضرة والجداول المترقرقة وغير ذلك من مسارح النظر الانيقة فما قاله ملطون حكاية عن الشيطان حين هبط الى دركات الجحيم واستسلم الى ما قدر عليه ورضى بما طرأ عليه هناك من شواغل حياته الجديدة وهو « كن يا شر لى خيرا » انما هو صفة هؤلاء الناس لا تتعداهم فانهم يبتهجون بكثرة مواقدهم وتكاثف دخانهم وكأن المدينة حالة كونها تبدو بعمد من النار ليلا و بعمد من الدخان نهارا تذكرة تذكر الناسي بخروج بنى اسرائيل من مصر * ولا شئ اعجب هنا من ان يرى الرائى تعدد الالواح فوق حوانيتها وهى التى تكون عنوانا على اسم التاجر وحرفته فان التاجر فى لندرة يكتفى بوضع لوح واحد فوق حانوته فاما الطبقة التى فوق الحانوت فانها تكون غالبا مقرا لعياله اما فى كلاسكو فانك ترى حانوتا فوق حانوت ومخزنا فوق مخزن بل اعظم الحوانيت هى التى تكون فوق الطبقة الاولى وقد تكون الدار كلها عبارة عن مخزن بضائع وايثما تذهب لتشترى شيئا يقل لك اطلع فوق * قال وانى اكره شيئا من قسيسى سكوتلاند وهو انهم لا يزالون يطوفون فى البلاد مجتدين بدعوى انهم ينفقون ما يجمعونه فى وجوه البر وانشاء الكنائس وجل من يقع غرضا لهم ذوات الثروة من النساء اه

ثم عدت الى كمبريج وبعد ان انهيت ترجمة التوراة وذلك فى اقل من عشرين شهرا سرت الى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية فى ذلك فقال ان كنت تقيم فى هذه البلاد فان الجمعية تعين لك شيئا فى مقابلة تصحيح الطبع فقلت على شرط ان اقيم بباريس ويبعث الى بالمطبوع الى هناك فاصححه فانى طالما هممت بان اتعلم اللغة الفرنساوية لما انى ارى فى كتب الانكليز جملا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها فقال لك ذلك فمن ثم كتبت الى كاتب حاكم مالطة اخبره بانى عدلت عن الرجوع اليها * ثم تأهبت للسفر الى باريس واعددت خيشومى للغنة * وخلدى للفتنة * ودراهماتى للمحنة * وهنا اودع القارى وعبراتى منحدرة وزفراتى متصاعدة واعده وعد من يراعى قديم الصحبة * ويحفظ اكيد القربة * بانى اصف له باريس عند استقرارى فيها اتم وصف * من دون

دون اسهاب ولا حذف * فانى جعلت هذه الرحلة مرتبة على الاوقات * واخليتها فى الجملة عن الاستطرادات * ولكن ينبغى قبل ذلك ان افيده فائدة تتعلق بالتوراة مما يعز وجوده فى غير هذا الكتاب فاقول ان اول من ترجمها من اللغة العبرانية الى اليونانية هم الاثنان والسبعون حبرا فى عهد برثولومى فيلادلفيوس بالاسكندرية وذلك فى سنة ٢٧٧ قبل الميلاد * قيل واتموا ترجمتها فى اثنين وسبعين يوما وكان كل اثنين منهم فى صومعة وعين على كل منهما ترجمتها باجمعها فلما فرغوا منها وجدت جميع النسخ لم تختلف احداها عن الاخرى لا فى كلمة ولا فى حرف واقدم توراة بيد النصارى هى الموجودة فى الفاتيكان برومية كتبت فى القرن الرابع وقيل الخامس ونشرت فى سنة ١٥٨٧ والثانية هى الموجودة فى متحف الانكليز المسمى بريتش ميوزيوم اهداها احد بطاركة الروم الى شارلس الاول وقيل انها نسخت فى حدود التاريخ المتقدم ذكره واقدم توراة عند اليهود هى الموجودة فى توليدو باسبانيا وذلك نحو سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد * وجملة ما فى التوراة من الاسفار ٣٠ ومن الفصول ٩٢٩ ومن الآيات ٢١٤ر٢٣ ومن الكلمات ٤٩٣ر٥٩٢ ومن الحروف ١٠٠ر٧٢٨ر٢ وقد تكررت فيها الواو العاطفة ٣٥,٥٣٥ مرة والعدد الحادى والعشرون من الفصل السابع من سفر عزرا يشتمل على الحروف الابجدية كلها * وجملة ما فى الانجيل من الاسفار ٢٧ ومن الفصول ٢٦٠ ومن الآيات ٩٥٩ر٧ ومن الكلمات ٢٥٣ر١٨١ ومن الحروف ٣٨٠ر٨٣٨ وقد تكرر فيه حرف العطف ٦٨٤ر١٠ مرة

وكان طبع التوراة باللغة الاسبانولية فى سنة ١٤٧٨ والجرمانية فى سنة ١٥٢٢
والانكليزية فى » ١٥٣٤ والفرنساوية فى » ١٥٣٥
والمسكوبية فى » ١٥٨١ والرومية فى » ١٦٣٨
والتركية فى » ١٦٦٦ والبورتوكيزية فى » ١٧٤٨
والطليانية فى » ١٧٧٦ والفارسية فى » ١٨١٥

ووجدت فى بعض الكتب ولست منه على ثقة ان التوراة ترجمت الى العربية فى القرن الخامس * ثم انى ركبت الباخرة التى تسافر من لندرة الى بولون بعد نصف الليل الواقع فى السادس من كانون الاول وكنت ارجو انها تقلع فى تلك

الليلة فوقع الضباب الكثيف حتى تعذر السفر الى الصباح فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر فى البحر فانتظرنا نحو اربع ساعات حتى جاء المد فبلغنا المدينة فى الفجر فاخرجت امتعتنا وفحت فى الكمرك وكان معى عدة صناديق من جملتها صندوقا كتب فلم يأخذوا عليها شيئا وسمعت بعضهم يقول هذا مرسل اى قسيس مبعوث من طرف الانكليز لهداية بعض الضالين الا انهم وجدوا فى احدها رطلا من الشاى فقالوا اما ان تؤدى عليه شلينين ونصفا واما ان تتركه هنا فقلت لا بل اودى عليه ما تطلبون وفرحت بذلك غاية الفرح لانى كنت موجسا من انهم يتقاضون على الكتب كثيرا لا سيما وان كثيرا منها كان جديدا كما جلده المجلد • وهنا نصيحة او شبه نصيحة لاخوانى من المسافرين وهى ان من تصدى منهم الى فتح صندوقه اولا يلقى المفتش فى عرام نشاطه وطماعة الى ان يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه اظهارا لحذقه فى صنعة التفتيش فاما من يأتى آخر القوم فانه يلقاه قد كل وضجر فاول ما يفتح الصندوق ويتماسه يطبقه وربما اجترأ عن ذلك بسؤال واحد يلقيه عليه كأن يقول له هل عندك شئ يؤدى عليه مكس ولا بد بالضرورة ان يكون الجواب بالسلب غير ان جل الناس يحبون التقدم والتصدر فى كل شئ فتراهم يتزاحمون على فتح صناديقهم واخراجهم وعيابهم كأنما هم فى حلبة السباق • وفى بولون هذه وفى سائر فرض فرنسا المقابلة لانكلترة يزدحم الحمالون وخدام المطاعم على المسافرين ولا ازدحام حمارة مصر وهناك ترى النساء حمالات يغطين شعور رؤوسهن بمنديل فيبرز من تحته شعيرات من عند افوادهن على زى نساء اليهود وسحنتهن كسحن الرجال واقبح منهن النساء اللاتى يصطدن السمك او يبعنه فلا يكاد النظر يعرف منهن علامة الانثوية • واعلم ايضا انه من يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الافرنج فلا بد له من ان يبرز جوازه فى الثغور اى الباسبورت والا فلا يدعونه يدخل واقبح من ذلك انه لا يمكن للغريب ان يخرج من بلاد فرنسا الا اذا ادى فى ديوان الجواز عشرة فرنكات اما من يقدم الى بلاد الانكليز فليس عليه ان يبرز الجواز كما ان الخارج منها ايضا ليس عليه ان يؤدى شيئا ولذلك يقال ان بلاد الانكليز بلاد الحرية وسببه عندى والله اعلم ان الانكليز لما كانوا فى الزمن القديم متخلفين عن سائر

الافرنج

الافرنج فى اسباب التمدن والعلوم كما مر بك من جملة مثل ولا سيما فى الكلام على منشستر احتاجوا الى ان يتساهلوا مع جيرانهم فى اشياء تستميلهم الى زيارتهم وذلك ان اول ظهور التمدن والفنون فى اوربا انما كان فى اسپانيا حين كان المسلمون مستولين على الاندلس • قال فلتير وكانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود والتزم البابا يوحنا الثامن ان يدفع للمسلمين فى كل سنة خمسة وعشرين الف رطل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧ وقد دخلوا ايطاليا ونهبوا كنيسة مار بطرس وفتكوا بالجيوش الفرنساوية الذين كانوا ساروا الى رومية لاجارة اهلها تحت راية القائد لوثاريوس • وفى القرن الثانى عشر كان المسلمون مستولين فى اسبانيا على احسن البلدان منها بورتغال ومرسية والاندلس ووالنسية وغرناطة وطرطوشة وامتد ملكهم حتى الى وراء جبال قسطيل وسيرقوسة • اما دار الخلفاء فكانت فى قرطبة وفيها بنوا المسجد العظيم المشهور قبوه مرفوع على ثلاثمائة وخمسة وستين عمودا وهو من مرمر غريب الصنعة بديع الاتقان ولم يزل معروفا الى الآن باسم مسك (اى مسجد) مع انه حول كنيسة • وكانت الصنائع والفروسية والابهة فى عهدهم فى مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو • اما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن الا فى قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان صانكو ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى ان يسافر اليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورا فى عصره فلما استدعى به الملك اجابه مع الرسول قائلا ان كان للملك حاجة الىّ فليقدم علىّ وقال بعض المؤلفين ان المسلمين ملكوا من البلاد فى مدة ثمانين سنة بعد الهجرة ما لم يملكه الرومانيون فى مدة ثمانمائة سنة • وقال فلتير فى موضع آخر واول ساعة دقاقة عرفت فى فرنسا هى التى اهداها هارون الرشيد الى شارلمان • وقال فى ابجدية الاوقات علم الحساب انما اخذ عن العرب فى اسپانيا وذلك فى سنة ١٠٥٠ ثم شهر فى انكلترة فى سنة ١٢٥٣ • وقال صاحب معجم الجغرافية ان البابا سلوستروس الثانى وكان يعرف اولا باسم جربرت سار الى الاندلس واخذ العلم عن العرب وكانت ولادته فى سنة ٩٣٠ وانتخب بابا فى سنة ٩٩٩ وكان ماهرا فى علم المساحة وجر الاثقال والفلك وهو الذى بث رقم الحساب

العربي فى اوربا واول من عمل ساعة ذات رقاص • وقال فلتير اول من اخترع هذه النظارات للعيون اسكندر سپينا وذلك فى اواخر القرن الثالث عشر وكذا اختراع طواحين الريح كان فى ذلك العهد • واصل اختراع الفخار كان فى فيانتزى • اما زجاج الطيقان فكان معروفا من قبل ذلك الا انه كان نادرا وكان يعد من الاسراف • وكان اشتهار صنعته فى بلاد الانكليز فى سنة ١١٨٠ من بعض الفرنسيس وكان يتنافس فيها • واول من ابدع مرايا الزجاج اهل فينيسيا وذلك فى القرن الثالث عشر • وكان استعمال الساعات معروفا فى ايطاليا ولكن على ندرة ولم يكن فى اوربا كلها من المدن ما يضاهى فينيسيا وجينوى وبولونيا وسيانا وبيزى وفلورانس • ولم تكن البيوت فى مدن فرنسا والنمسا وانكلترة كما هى الآن وانما كانت سقوفها من التبن المطين وبناؤها من الخشب ولم يكن عندهم هذه المواقد المعروفة الآن لايقاد النار وانما كانوا يوقدونها فى نحو كانون يجعلونه فى وسط البيت فيجتمع حوله المصطلون والدخان متصاعد منه وكانت اغطية الموائد من الكتان عند الانكليز نادرة جدا • ولم يكن النبيذ يباع الا عند العقاقيرية • وكان الركوب فى مركب ذى عجلتين فى طرق باريس الوسخة اسرافا حتى ان فيليب الملقب بالازهر منع النساء من ذلك وكان اهل پولاند يقتلون اولادهم اذا جاؤا ناقصى الخلقة وكذا يقتلون الذين اسنوا وعجزوا وقس على ذلك سائر سكان البلاد الشمالية • واول من احيا صنعة نقر التماثيل برونلشي من مدينة فلورانس • وكان غيوتو نبها فى التصوير • وبوكاشيو فى اللغة والادب • واول من اخترع مقامات الموسيقى على ما عرف الآن غيدو اوتزو واشهر من برع فى النظم والتأليف بتراك ودانتى ولم يكن اذ ذاك فى البلاد الشمالية سوى الجهل الفاحش والتفاخر بالفتك والقتال اه قلت وحيث جرى فى معرض ما اوردناه ذكر الساعة فلا بد من استيفاء الكلام عليها ثم ارجع الى ما كنت بصدده قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة ذكر المؤرخون من الفرنسيس ان اول ساعة عرفت فى بلادهم كانت الساعة التى اهداها الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا وذلك فى سنة ٨٠٧ وكانت بدعا فى ذلك العصر حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا والظاهر انها كانت من الآلات التى يديرها الماء المنحدر وكان لها اثنا عشر

بابا

بابا صغيرا تنقسم بها الساعات فكلما مضت ساعة انفتح باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الابواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيل وتدور على صفحة الساعة • قلت بودى لو اعرف اسم الساعة فى ذلك العصر فانى انكر هذه اللفظة واهل الغرب يقولون منكالة وهى انكر قال وكان ألفرد الكبير ملك الانكليز يأمر باتخاذ شمع طول كل شمعة اثنتا عشرة اصبعا ويعلم كلا منها بعلامات متساوية منقسمة الى اربعة وعشرين قسما كناية عن الليل والنهار فكان يامر بايقادها متعاقبة ليلا ونهارا ويجعلها فى قرن رقيق شفاف صونا لها من الريح • ولم يعلم عمل الساعات الدقاقة الا بعد موته بقرون عديدة • اما تقسيم اليوم الى اربع وعشرين ساعة فمعروف من قديم الزمان قلت وفى محفوظى انه ذكر فى المصباح المنير للفيومى ان اهل الحساب اصطلحوا على اربعة وعشرين قيراطا لانه اول عدد له ثمن وربع ونصف وثلث صحيحات من غير كسر فلعل هذا هو السبب فى تقسيم الساعات الى هذا العدد وذكر هيرودوطوس ان ميقاتية الشمس كانت معروفة عند اليونانيين وهم اخذوها عن البابليين • فاما الميقاتية المائية التى تدل على الاوقات على نسق الرملية فكانت معروفة عند الكلدانيين وعند قدماء الهنود فكانوا يحدرون الماء فيها من اناء الى آخر كما يحدر الرمل فى الزجاجة وبذلك يستدلون على اوقات التنجيم الا ان عدم تساوى انحدار الماء وتخالف الهواء كان يجعل حسابهم غير مطرد اما شكلها فغير معروف بالتفصيل وغاية ما يعلم من امرها ان الماء كان ينحدر فى وعاء فيها قطرة قطرة فاذا امتلأ الاناء علم مقدار الوقت المفروض • واول من اتقن الساعة المائية حتى صارت من الادوات العلمية الدون كرلوس فالى احد الرهبان البانذكتيين وذلك سنة ١٦٩٠ وزعم بعض انها من مخترعات مرتينلى الطلياني • قيل واول مؤلف ذكر اسم آلة تدل على الساعات هو دانتى الشهير ولد فى سنة ١٢٥٦ ومات فى سنة ١٣٢١ وشهر ذلك فى انكلترة فى سنة ١٢٢٨ وكان ايضا مشهورا عند غيرهم وفى زمن ادورد الاول وضعت غرامة على اصحاب الجنايات لاجل عمل ساعة دقاقة فى غرفة وستمينستر لكى يسمعها الذين فى المحكمة وفى زمن هنرى الخامس كان لها شان عظيم حتى ان الملك وكل محافظتها وتعهدها الى وليم واربى دين كنيسة

صانت اسطفان وعين له فى مقابلة ذلك نصف شلين فى كل يوم من ديوان الخزنة • وفى سنة ١٣٣٤ ابرز يعقوب دوندى ساعته المشهورة فكانت تدل على الساعات وعلى سير الشمس فى منطقة البروج وعلى مواقع الكواكب السيارة ولقب بهورولوجيوس • وفى اواسط القرن الرابع عشر وضع فى كنيسة استراسبورغ ساعة من اكثر الآلات تركيبا وتألفا فان صفحتها كانت تبدى الكرة السماوية وسير الشمس والقمر والارض والكواكب ومحاق القمر ونحوه وتقويما يدل على اليوم الواقع من الشهر • وكان ربع الساعة الاول يطرقه ولد بتفاحة والثانى شاب بسهم والثالث رجل براس عصا والرابع الاخير شيخ بعكازه وعند مرور كل ساعة يفتح الباب ملك وينحنى مسلما على مريم العذراء ثم يطرق الجرس ويقربه ملك آخر يحمل ساعة رملية يقلبها عند انتهاء الدقات الاربع وكان بها ايضا ديك من ذهب يصفق بجناحيه عند اقتراب كل ساعة ويمد عنقه ثم يصقع مرتين • وفى اواخر القرن المذكور صنع رجل من جينوى اسمه دروز ساعة دقاقة ذات حركات غريبة وكانت تشتمل على تمثال اسود وراع وكلب فكان الراعى عند طرق الساعة يعزف على الناى ستة اصوات فيدنو منه الكلب و يحرك ذنبه متملقا ولما عرضها على ملك اسبانيا تعجب منها غاية التعجب فالتمس اليه دروز ان يمد يده ويأخذ تفاحة من سلة الراعى فلما فعل انبعث الكلب ينبح نباحا عاليا حتى صار كلب الملك ينبح ايضا • قيل وكان اذا سئل الاسود عن الساعة اجاب بالكلام الفرنساوى ليفهمه الحاضرون • واول من وضع الرقاص فى الساعة الدقاقة ريشارد هارس الانكليزى وذلك فى سنة ١٦٤١ اما الساعات الصغيرة التى توضع فى الجيب مختصرة عن الكبيرة فالجزم بمعرفة مخترعها صعب والارجح انها من مخترعات هوك اه وقيل ان اصل اختراع الساعات كان فى نورمبرغ فى سنة ١٤٧٧ وحقق البعض ان روبرت ملك سكوتلاند كان له ساعة وذلك فى سنة ١٣١٠ وكان استعمال الساعات فى الارصاد الفلكية فى فى سنة ١٥٠٠ وقال بعض ان الامبراطور كرلوس الخامس هو الذى كان عنده ما يصدق عليه اسم الساعة وذلك سنة ١٥٣٠ واصل جلب الساعات الى بلاد الانكليز كان من جرمانيا فى سنة ١٥٧٧ اما الساعات التى توضع فى الجيب فمن الناس من نسب اختراعها الى دكطر هوك واهل هولاند

نسبوه

نسبوه الى هيكفس وكيف كان فان دكطر هوك هو الذى اخترع الساعة الدقاقة ذات الرقاص وذلك فى سنة ١٦٥٨ وقيل ان ساعة المآء عرفت فى رومية فى سنة ١٥٨ وان البابا بولس الاول اهدى پپان ملك فرنسا ساعة مائية فى سنة ٧٦٠ وقيل ان اصل اختراع الساعة الشمسية كان فى سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وقيل انها عرفت فى رومية سنة ٢٩٣ من التاريخ المذكور وفى سنة ٦١٣ نصبت فى الكنائس وفى مدة احد عشر شهرا من سنة ١٨٥٠ جلب الى بلاد الانكليز من هذه الساعات ٢١٥٫٤٧٤ فقد عرفت مما تقدم ان التمدن فى البلاد الافرنجية بدأ اولا فى اسپانيا بالنظر الى العلوم وفى بلاد ايطاليا بالنظر الى الصنائع ثم انبثت منهما الى فرنسا واول اشتهارها فيها وبناء قصر فنتبلو وقصر صان جرمان وتهذيب اللغة الفرنساوية كان فى ايام الملك فرنسوا الاول كانت ولادته فى سنة ١٤٩٤ ووفاته سنة ١٥٤٧ ثم لما انتشر مذهب البروتستانت فى فرنسا وكانت الدولة تضطهد المتمذهبين به كانوا يضطرون الى الفرار الى البلاد الاجنبية وحسبك بيوم مار برتولماوس دليلا ولما قام لويس الرابع عشر وكان هو ووزيره الكردينال ريشيلو اشد الناس بغضة لاهل هذا المذهب فر كثير منهم الى بلاد الانكليز وكانوا ذوى معارف وعلم فبثوا فيها ذلك وطاب للانكليز ان يضيفوا من التجأ اليهم وان يعفوهم من الجواز وبقيت الحال على هذا المنوال • ثم ان بولون هى مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لانكلترة فى كونها موردا للتجارة بين المملكتين واكثر ديارها منازل للمسافرين وثلث سكانها انكليز واحسن ما فيها متحفها فيه من غرائب انواع الطير والسمك وسائر الحيوانات ومن الجواهر المعدنية وانواع الورق الذى كانوا يكتبون عليه فى الزمان القديم ومن الصور وآلات الطرب لجميع الامم ما هو عبرة للمعتبر ومن رأى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيئا مما قاله الاولون ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رأيت فانى وجدت جميع الحوانيت مفتوحة فى الساعة التى لا يفتح فيها شئ فى لندرة غير حانات المزر وحين مررنا بالبلفار رأينا من الانوار فى الديار من فوق وفى محال القهوة من تحتها وفى فوانيس الطرق من بين الاشجار وفى فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال ما خيل لى انى فى

جنات النعيم فقلت فى نفسى بخ بخ ان هذه مدينة بهجة وانوار تتفتح فيها آكام المعانى فى رياض الافكار وتجلى بها عرائس القصائد فى اخدار الاشعار فلاجعلن دابى النظم فيها الليل والنهار وكلما ارتج علىّ شئ جئت الى البلفار ثم لبثنا اربعة ايام فى مبيت الى ان تيسر لنا استئجار محل فى دار على حدته وكان الضباب فى خلالها كثيفا والبرد شديدا اما البرد فلا ينقص عن برد لندرة نقيرا بل هو اشد واما الضباب فكان ابيض بخلاف ضباب لندرة فانه يقع اسحم فطفقت اشكو من الانتقال من ضباب الى ضباب فقال لى احد اصحابى ان هذا الضباب انما قدم الينا معك من لندرة فان باريس ليست مضبة ووقوعه فيها نادر جدا لكنى وجدت قوله بعد ذلك غير الحق فانه وقع ايضا فى السنة الثانية وانا مقيم فيها من دون ان يعلق باذيالى من قطر آخر الا انه لا يدوم طويلا كما يدوم ضباب لندرة وقد حان الآن ان اشرع فى وصف باريس واهلها ولكن لما كان العالم الاديب رفاعه بك الطهطاوى قد الف كتابه النفيس المسمى بتخليص الابريز فى تلخيص باريز وسبقنى الى هذا المعنى كان لا بد لى هنا من ان استاذنه فى ذكر ما اضرب عنه بالكلية او اشار اليه اشارة فقط مما استغربته منه ثم اجعل ذلك مقياسا للقارى يقيس عليه باريس ولندرة ولكن قبل الكلام على باريس خصوصا ينبغى ان ابتدئ بالكلام على فرنسا عموما فانها حرية بذلك وخصوصا انى قد اجملت القول فى اول هذا الكتاب على انكلترة فاقول

ان فرنسا كانت تسمى فى الزمن القديم بالغال ثم سميت بهذا الاسم المتعارف الآن نسبة الى الفرنك الذين فتحوها وهم قبائل من البلاد الشمالية وارض هذه المملكة خصيبة ينبت فيها جميع الاشجار والبقول والحبوب غالبا وكانت ارضها منذ نحو سبعين سنة مهملة اما الآن فقد بذل الجهد فى حرثها وتنبيت الاشجار فيها حتى صارت قيمة محاصيل الارض وغلالها تبلغ فى العام ٥٫٣٣٧٫١٧٨٫٠٠٠ فرنك يصرف على ذلك ٣٫٥٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فيكون الفائض ١٫٦٨٥٫١٧٨٫٠٠٠ وهى كثيرة المعادن يوجد فيها معدن الذهب لكن على قلة ويكثر فيها الفضة والحديد والرصاص والنحاس والتوتيا وغير ذلك وعدد سكانها فى سنة ١٨٤٥ كان ٣٢٫٥٠٠٫٠٠٠ (١)

---

(١) فى سنة ١٨٧٤ بلغ عدد سكان فرنسا ٣٦٫٣٨٣٫٤٨١ نفسا

منهم

منهم مليونان وثلث بروتستانت ويهود وبلغت قيمة المجلوب من التجارة الى فرنسا في سنة ١٨٤٣ ٨٤٦٦٠٦٩٤٠ فرنكا وقيمة الخارج منها ٦٤٣٩٦١٦٧٧ (١) وفي مدة ثماني عشرة سنة وذلك من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٤٣ كان من جملة اهلها مائتا الف مجنون في المارستانات وثلاثة آلاف قتلوا انفسهم ومائة الف نفس بهم علل واخذوا الى ديار المرضى وثمانمائة الف يعيشون من الصدقات ومائة الف نفس في السجون لاجل جنايات مختلفة • وقال آخر وبلغ عدد الاكليروس في سنة ١٨٤٣ اربعة وعشرين الفا منهم ثلاثة كردينالات واربعة عشر مطرانا وسبعة وستون اسقفا ويضاف اليهم نحو ثمانية آلاف وخمسمائة من المترشحين للكنيسة وعدة اديار النساء ثلاثة آلاف وعدد الراهبات اربعة وعشرون الفا وبلغ عدد الاكليروس في زمان الفتنة ١١٤٠٠٠ من جملتهم اثنان وثلاثون الف راهبة وبلغت جملة ايرادهم اثنين وسبعين مليونا ومبلغ العشور الذي يستوردونه سبعين مليونا فجملة ذلك ١٤٢٠٠٠٠٠٠ وايراد الكردينالات والاساقفة ١٠١٧٠٠٠ وجملة المصاريف على الديانة الكاثوليكية ٣٤٢٥١٠٠٠ فرنك وعلى البروتستانت ١٠٣٣٠٠٠ وعلى اليهودية ٩٠٠٠٠ • وفي سنة ١٨٤١ بلغ عدد المسافرين في فرنسا ٦٣٣٠٠٠٠٠٠ نفس منهم ١٤٣٠٠٠٠٠٠ سافروا في سكة الحديد وفي سنة ١٨٥٥ بلغ عددهم بليونا منهم مليون وثلاثمائة واثنان وسبعون الفا سافروا في الارتال وبلغ ايراد الكمرك في سنة ١٨٥٦ ١٨٢٢٩٦٧٩٨ فرنك وفي سنة ١٨٥٧ بلغ ايراد الدولة نحو سبعين مليون ليرة انكليزية فكان نحو ايراد دولة الانكليز بل اكثر (٢) وفي السنة

---

(١) منذ التاريخ المذكور اتسعت تجارة فرنسا اتساعا عظيما فان جملة المجلوب اليها في سنة ١٨٧٩ بلغت ٤٥٩٤٨٣٧٠٠٠ فرنك وهي عبارة عن ١٨٣٧٩٣٤٨٠ ليرة انكليزية وبلغت جملة الخارج منها في السنة المذكورة ٣١٦٣٠٩٠٠٠ فرنك او ١٢٦٥٢٣٦٠٠ ليرة

(٢) ومنذ سنة ١٨٥٠ ازدادت ثروة فرنسا ازديادا عظيما حتى ان ايرادها بلغ في سنة ١٨٨٠ ٣١٣٠٧٢٥٢٨٨ فرنكا وهي عبارة عن ١٢٥٢٢٩٠١١ ليرة انكليزية اما المصاريف فانها بلغت ٣١٣٠٤٩٤٢٤٤ فرنكا او ١٢٥٢٠٩٧٦٩ ليرة

المذكورة كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة الف وامكن لها في اي وقت شاءت ان تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين الفا والمحروث من ارضها لا ينقص عن اثنين واربعين مليون هكتار وملاكها نحو سبعة ملايين من رؤوس العيال وبهذا يظهر لك الفرق بين المملكتين • وقال بعضهم بلغ مصروف دولة فرنسا في مدة عشر سنين آخرها سنة ١٨٦١ ٧٦٨ر٥٢٠ر٠٠٠ ليرة وبلغ ايرادها ٦١٩ر٦٨٠ر٠٠٠ ليرة فكان ايرادها في كل سنة ٦١ر٩٦٨ر٠٠٠ ليرة ومصروفها ٧٦ر٨٥٢ر٠٠٠ وكان مصروف اوستريا في مدة اربع سنين وهي من سنة ١٨٥٧ الى سنة ١٨٦٠ ١٥٤ر٢٠٠ر٠٠٠ ليرة وهو عبارة عن ٣٨ر٥٠٠ر٦٧٤ في كل سنة وكان ايرادها في المدة المذكورة ١١٥ر٥٠٠ر٠٠٠ وهو نحو ٢٨ر٨٥٧ر٠٠٠ ليرة في كل سنة و بلغ ايراد ايطاليا في سنة ١٨٦١ ٣٢ر٢٠٥ر٦٧٤ وايرادها ١٩ر٦٣٤ر٨٠ (١) و بلغ مصروف دولة شمال اميركا في سنة واحدة من مدة الحرب ٢٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة فاما سكان هذه الممالك فان عدد اهل فرنسا بلغ في سنة ١٨٦١ ٣٧ر٣٨٢ر٢٥٥ نفسا وزاد عدد الروسية في مدة خمسين سنة ضعفين وكانت الزيادة في انكلترة في تلك المدة ١١٩ في المائة وكانت زيادة بروسية من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٥٨ ٧٣ في المائة وزيادة اوستريا من سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨٥٧ ٢٧ في المائة وزيادة فرنسا من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٦١ ١٢ في المائة لا غير فتكون الولادة في فرنسا اقل من غيرها في سائر الممالك اما الزواج فذكروه على هذا التفصيل وهو انه يولد فيها ١٠٠ ولد من كل ٢٨٥ زواجا وفي بريتانيا ١٠٠ ولد من كل ٢٣٧ زواجا وفي اوستريا والروسية ١٠٠ ولد من كل ٢٢٣ زواجا وفي بروسية ١٠٠ ولد من كل ٢١٠ زواج فيكون ولادة الولد في بروسية في ظرف سنتين و خمسة اسابيع وفي فرنسا نحو سنتين و ٤٢ اسبوعا فاما الموت فن

---

(١) في سنة ١٨٨١ بلغ ايراد فرنسا ٢ر٧٥٢ر٧٩٤ر٨٣٠ فرنكا او ١١٠ر١١١ر٧٩٣ ليرة انكليزية والمصروف بلغ ٢ر٧٥٤ر٤٣٢ر٦٠٠ فرنك او ١١٠ر١٧٧ر٣٠٤ ليرات انكليزية و اما ايراد ايطاليا فقد بلغ في السنة المذكورة ١ر٤٢٥ر٥٨٣ر٩٦٥ فرنكا او ٥٧ر٠٢٣ر٣٥٨ ومصروفها مثل ذلك تقريبا .

كل

كل ١٠٠٠ر١ نفس فى بريتانيا يموت فى السنة ٢٢ وفى فرنسا ٢٨ وفى پروسية ٢٩ وفى اوستريا ٣٢ وفى الروسية ٣٣

﴿ وصف باريس ﴾

كانت مدينة باريس فى سنة ٣٨٠ تسمى باريسى وكانت عرضة لنهب النورمان وفى سنة ١٤٢٠ استولى عليها الانكليز وبقيت تحت يدهم خمس عشرة سنة وفى سنة ١٤٣٨ رزئت بالطاعون والمجاعة فمات بهما اكثر من خمسين الفا فكانت الذئاب تدخل اسواقها وتغتال من تغتال وفى سنة ١٨٤٠ حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النهر وبقلاع متفرقة وذلك مسافة خمسة عشر فرسخا وربع فرسخ بدئ به فى كانون الاول سنة ١٨٤٠ ونجز فى شهر اذار سنة ١٨٤٦ وبلغت نفقته ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤٠ فرنك او نحو خمسة ملايين ليرة ◆ قلت وقد جرى ذلك كما قصده ناپوليون الاول وهو فى جزيرة صنت هيلانة قال ولما دنت منها الاعداء فى سنة ١٨١٤ تبادر الناس الى انشائه على عجل لكنه كان غير محكم ثم اكمل وجعل حوله اربعة عشر برجا وقال آخر كانت باريس تدعى فى القديم لوكس سميت بذلك فى احد الاقوال باسم لوكوس مؤسسها والذى عليه الاتفاق انها من اقدم مدن الغال ولما غزا قيصر بلادهم كان يقال لها باريسى ولم تكن حينئذ الا عبارة عن خصاص مهينة كالجزيرة فى نهر السين مع انه لما اراد فتحها قاومه اهلها مقاومة شديدة لم تكن تخطر ببالة حالة كونهم خالين عن اسباب التمدن ثم اخذت فى التمصر والاتساع فى عهد ملوك كثيرة ولا سيما فى زمان يوليانوس وكلوفى واعظمهم فيليب اغوسط فى سنة ١١٨٤ ثم قام لويس الملقب بالصغير وانشأ فيها مدرسة فاقبل الناس اليها لطلب العلم حتى صار عدد الطلبة اكثر من اهل الصقع الذى بنيت فيه وهو الذى احاط بها سورا وصروحا ثم قام فرنسيس الاول وانشأ فيها اللوفر فقام هنرى الرابع وغير فيه تغييرات جمة وفى زمان لويس الرابع عشر صارت كأنها مدينة جديدة وما قصده ناپوليون الاول فى تحسينها وتنظيمها استحسنته عائلة البوربون وزاد عليهم اجمعين لويس فيليب فانه ظن ان حفظه ذكر ايام ناپوليون يكون ادعى لاستمالة خواطر الناس اليه فمن ثم اتم ما ابتدأ به ناپوليون فانشأ السور واتم الازج او القنطرة المسماة ارك دو ترايونف ونصب تمثال ناپوليون مرة اخرى على عمود

فندوم وفى عهده دفنت جثة ناپوليون • قلت وفى زمان ناپوليون الثالث كسيت من الرونق و البهجة ما لا مزيد عليه وقال غالنيانى فى كتابه الذى سماه المرشد الى باريس طبع فى سنة ١٨٤٤ اول من ملك فيها من ملوك النصارى كلوفيس وذلك فى سنة ٥٢٤ واول من بشر فيها بالانجيل كان ماردانيس وذلك سنة ٢٥٠ و اول كنيسة اسست فيها فيما علم كانت كنيسة مار اسطفانوس فى الموضع الذى ترى فيه الآن كنيسة نوطر دام وفى سنة ٥٨٧ احرقها النورمان ثم بنيت وقسمت المدينة الى اربعة اقسام ومن ثم يقال لكل جهة منها كارتيه وفى زمان لويس السمين كان الايراد من الباب الشمالى اثنى عشر فرنكا لا غير وهى تبلغ بحسابنا الآن ستمائة فرنك وفى القرن الرابع عشر انشئ فيها مدارس للعلم وفى عهد فيليب اغوسط كثرت فيها الابنية والمغانى والكنائس وبلط بعض الطرق والزم الاهلون تحصينها وفى سنة ١٢٥٠ انشأ فيها روبرت صوربن مدارس لم تزل تعرف باسمه وفى زمن شارلس المعتوه دخلها الانكليز ثم طردوا منها بعد ان اقاموا فيها ست عشرة سنة وذلك سنة ١٤٣٦ وفى عهد شارلس السابع خربت من القحط والوبآء والذئاب حتى انها صارت فى سنة ١٤٦٦ مأوى لاصحاب الجرائر والنقائص من جميع الاقطار وفى عهد لويس الحادى عشر بلغ عدد اهلها ثلاثمائة الف و اكتسبت رونقا وعمرانا فهدم اللوفر القديم وانشاه منشأ حسنا وانشأ مدرسة يعلم فيها كل نوع من العلوم مجانا وفى سنة ١٥٣٣ شرع فى بناء هوتل دوفيل وحسنت طرق وانشئت اخرى وفى سنة ١٥٦٣ انشئ التولرى ثم لما قامت الحروب الدينية على ساق تعطلت اسباب التمدن الى ان قام باعباء الملك و السياسة هنرى الرابع فاصلح ذات البين و مد على الناس ظل السلم و الرفاهية وزاد فى تبهيج المدينة غاية ما امكن وانشأ جملة محال وكبر التولرى وفى زمن لويس الثالث عشر انشئت طرق عديدة وانشئ قصر اللوكزمبور وبستان النباتات وغير ذلك ثم لما قام لويس الرابع عشر اتم ما كان قصده خلفه هنرى الرابع فانشأ اكثر من ثمانين طريقا وحسن القديمة وانشأ ساحة فندوم و ٣٣ كنيسة ومارستان السقط ومارستان النغول والمرصد وكبر قصر التولرى و نظمت المماشى وبلط كثير من الرصف وغرست غيضة شانزلزى وكذلك لويس الخامس عشر لم يأل جهدا فى ان افادها نضرة الملك حتى

وسعت

وسعت رقعتها فى زمانه ٣٫٩١٩ فدانا وانشأ عدة مدارس وعيونا جارية وفى ايام لويس السادس عشر انشئت فيها جملة ملاه وكنائس ومنازل سامية واسواق بهجة فصارت رقعتها ٩٫٨٥٨ فدانا وجعل للسور ستون بابا يؤخذ منها ضريبة على ما يدخل اليها من الخارج ووسعت الطرق واتم پالى رويال بما فيه من الحوانيت الظريفة وفى زمان الفتنة خرب كثير من الكنائس ثم رممت وانفق عليها اربعة ملايين ولما استرد الملك الى لويس الثامن عشر بنى مجالس المشورة العام وانشأ اسواقا كثيرة ومستشفيات عديدة ونصب عمود فندوم وانشأ خمس عشرة عينا وزين القصر وفى ايام شارلس العاشر زيدت فيها محاسن كثيرة جلها فى الكنائس وانشئت ثلاثة جسور فلما قام لويس فيليب فتحت طرق جديدة وربع بناء هوتل دوفيل ونصبت مسلة مصر واتم انشاء كنيسة لامدلين اى المجدلانية وپلاس دولاكنكورد وعمود النصر انتهى ملخصا قال وهى على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة او مائتين واربعة وخمسين ميلا ودورتها ٢٣٫٧٥٥ مترا او ٢٥٫٩٧٩ ياردا واطول ايامها ست عشرة ساعة وست دقائق واقصرها ثمانى ساعات وعشر دقائق وفيها اكثر من ٤٥٫٠٠٠ دار و ١٣٫٠٠٠ دكان و ١٫٢٦٠ طريقا و٣٨ ممشى و ٢١ بلفارا و ٩٩ عرصة اوفسحة و ١٨٣ سقيفة او معبرا مما يقال له پاساج و ٣٧ رصيفا ومسطح طرقها يبلغ ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ ذراع مربع وطولها ٤٨٠٫٠٠٠ او ١٢٠ فرسخا ومصاريف تنظيف الطرق تبلغ ٥٣٥٫٠٠٠ فرنك ومن قبل سنة ١٧٢٨ كانت الطرق عطلا عن الاسماء ثم بعد ان رقت غيرت مرارا عديدة وفى سنة ١٨٤٢ بلغت مصاريف تبليطها وتوسيعها ٧٥٠٫٠٠٠ فرنك • قلت جميع الطرق كانت من قبل مبلطة فلما صار الاهلون وقت الشغب والفتنة يتخذون حجارتها متاريس امر الآن بان تصير رضراضا ومن سنة ١٨٥٣ الى سنة ٥٧ بلغت مصاريف المدينة ٩٣ مليونا صرف منها فى البناء وتجديد الديار ٤٧ مليونا وفى الماء وتصليح الطرق ٣٣ مليونا وعلى بوا دوبولون ٥ ملايين وجل هذه المصاريف مما يرد من المدينة ولم يصرف الميرى من عنده اكثر من ستة ملايين وقبل ايام لويس السادس عشر لم تكن تنور الا مدة تسعة اشهر فى السنة وذلك عند غياب القمر فامر بان تنور فى كل ليلة وعدة

ما فيها من القناديل ١٣٫٢٢١ كلها تنور بالغاز وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها ٢٩٫٩٢٣ ومات ٢٦٫٠٢٨ وتزوج ٨٫٩٦٢ وكان عدد النغول ٩٫٨٣٠ وفيها نحو ٨٠٫٠٠٠ خادم وقال آخر كان اهلها في سنة ٥٦ ١٫١٤١٫٣١٦ وفيها من الحرس الامبراطوري ٩١٧ من جملتهم ٢٨ ضابطا ومصاريف ديوان الشرطة تبلغ في السنة ٥٫٣٣٥٫٢٩٥ وقال الاول ولا يزال في مستشفياتها ١٥٫٠٠٠ نفس وقدر من يدخل فيها ويخرج منها ستون الفا وفيها تسعة آلاف من ذوي الاحكام النظامية وهم اهل علم ودراية ولهم موضع مخصوص لاغاثة الفقرآء مجانا وذلك في يوم السبت ومائة واربعة عشر كاتبا للصكوك والعقود وتسعة سجون احدها للمقضي عليهم تبلغ مصاريفه ١٫١٤٥٫٠٠٠ ويعاملون فيه بغاية ما يمكن من الرفق والشفقة وعدها غيره عشرة وفيها احدى وعشرون مدرسة ملكية فيها من الطلبة ١٠٫٩٧٥ وايرادها منهم ٣٨٣٫٥٤٤ فرنكا وثلاثمائة وسبعة عشر مكتبا مما يقال له كومونال فيها من المتعلمين ٢٢٫٥٨٨ وايرادها ٢٢٧٫٦٩٣ ومائة وواحد عشر معلما يقال لها انستيتسيون فيها ٨٫٣٧٨ طالب علم وايرادها ٣٥٠٫٦٢٠ والف وسبعة مراب ويقال لها بنسيونات فيها ٢٣٫٥٣٨ نفسا وايرادها ٤٧٣٫٧٧٣ وفيها اربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير وبث الديانة ما عدا مواضع اخرى * قلت ان كثيرا من هذه المدارس والمكاتب يديره القسيسون فلا يأخذون من المتعلم الا نصف المصروف عليه فيمكن للوالد ان يضع ولده في احدها بمصروف ثلاثين فرنكا في الشهر فمن اجل ذلك ترى جميع الاولاد هنا مترشحين للعلوم والصنائع وللاخوات اللائي هن من جنس الراهبات فضل عظيم مشهور في تربية البنات وتمريض الرجال والنسآء في بيوتهن او في بيوت المرضى حتى ان بعضهن يداوي وبعضهن قوابل وقد يسافرن الى البلاد الشاسعة في فعل الخيرات ولهن لباس مخصوص يعرفون به على تنوعه * فهذه الطريقة انفع من طريقة الراهبات في الشرق اذ يحتجبن عن الناس في الدير فلا ينفعن احدا من الناس وهاتان المزيتان اي التعليم على الوجه الذي ذكرناه والاعتنآء بالمرضى لا توجدان في لندرة على ان التداوي في مستشفيات باريس هو على طرف الثمام وفي لندرة يحتاج الى ذرائع ووسائط * قال وفيها ستة وثلاثون مارستانا وقد علم من خلاصة صدرت في سنة ١٨٤٢ ان هذه المارستانات تقوم

بمؤنة

بمؤنة اثني عشر الفا من المرضى و العاجزين رجالا ونساء وفى كل سنة يدخلها نحو ثمانين الفا و ان مصاريفها فى السنة المذكورة بلغت اربعة عشر مليونا ونصف مليون لكن ايرادها اكثر من المنصرف وهو يتحصل من ضرائب على الملاهى ومن العقار الذى يشترى للمقابر وغير ذلك ويصرف فيها اى فى هذه المستشفيات من اللحم ٢٥٠ر٥٦٠ر٢ رطلا ومن الزبدة ٨٠٠ر٤٨ كيلوغرام ومن اللبن ٠٠٠ر٥٣٠ ليتر ويوجد ايضا ما عدا ذلك مواضع عديدة لاغاثة الفقراء وتشغيل البطالين قلت وقد علم من كتاب طبع فى سنة ١٨٥٥ ان هذه المستشفيات تقوم بمؤنة اكثر من اربعة عشر الف مريض يعالجون فيها و اقدمها المارستان المسمى هوتل ديو يتداوى فيه فى مدار السنة احد عشر الف مريض وتخدم فيه ستون راهبة وعدد اطبائه اثنان وسبعون طبيبا وقال آخر المحسوب ان نصف اهل باريس صناع وعملة وليس فيها اكثر من الف نفس ممن يحسنون اثبات كونهم سكانها فى باريس سلفا عن خلف من عهد لويس الثالث عشر وقال آخر ان ثلثى سكان باريس لا يقدرون على مصروف الجنازة وكل واحد من ثلاثة آلاف يقتل نفسه ومن كل ثلاثة مواليد يكون نغل وفى سنة ٥٣ ولد فى مدينة وياته من الحلال ٢٦٤ر١١ ولدا ومن الحرام ٦٨٦ر١٠ وفى سنه ٥٤ ولد من الاول ٦٥ر١١٢ ومن الثانى ٥٢٢ر٨٠١ر١٠ وفى سنه ٥٥ ولد من الاول ٦٥٠ر١٠ ومن الثانى ٥٢٣ر٩ وفى سنة ٥٦ ولد من الاول ٨٧٠ر١٠ و من الثانى ٣١١ر١٠ • وان من اهل باريس ثلاثين الفا من غير الذين يعيشون من الصدقات يقومون فى الصباح ولا يعرفون من اين يحصلون غداءهم ومنهم سبعة عشر الفا سكارى منهمكين فى القبائح وقال آخر وفيها تسعة اسواق كبار للماكولات وخمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها وتنظيمها ٠٠٠ر٥١٨ر١٦ وثم المسالخ و المدابغ العديدة وعدد الجزارين اكثر من خمسمائة وفى كل يوم يذبح فى احدها وهو المسمى مجزر مونت مارتر ٩٠٠ من الثيران و ٤٠٠ من البقر و ٦٥٠ من العجول و ٥٠٠ر٣ من الضان والمونة السنوية من المأكول والمشروب وما هو من قبيل ذلك تبلغ ٣٥٠ مليونا منها ٤٩ مليونا ثمن خمر و ١٢ ثمن لبن و ٧٨ ثمن شمع وسكر وبن وما اشبه ذلك ومليونان ثمن ملح وثمانية و ثلاثون مليونا ثمن خبز واربعون مليونا ثمن لحم

وخمسة عشر مليونا ثمن بقول و ٤٤٤٫٠٠٠ ثمن لحم والمونة من البطاطس فى السنة تبلغ ٣٢٥٫٠٠٠ كيلوغرام ومبلغ ما يباع فيها من التبغ فى كل سنة ٧٠٨٫٧٩٣ كيلوغرام ومؤنتهم فى كل يوم من الخلر ونحوه ٢٠٫٠٠٠ وكل يوم يأتى اليها عشرون عجلة مشحونة بالفصة وفى بعض الايام يباع فيها من الدقيق ما قيمته ٤٥٫٠٠٠ ويرد اليها من الخارج فى السنة ١٢٫٠٠٠ قارب مشحون بالفاكهة و القمح وقال آخر ومن جملة اسواق المأكولات بباريس السوق المعروفة بالهال اول حجر وضع فى اساسها وضعه الامبراطور فى سنة ٥٢ تباع فيها البقول والخضرة والفاكهة على انواعها فيرد اليها فى كل يوم ثلاثمائة وعشرون عجلة مشحونة بها وفى اوان الفاكهة يستخدم فى نقلها ٤٢٠ عجلة ونحوها ويباع فيها فى العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بمليون فرنك ونصف مليون ومن صنف من محار البحر يسمى الدزويتر بنحو ١٫٦٧٠٫٩٣٦ فرنكا • قلت والفاكهة والبقول فى فرنسا تعظم للغاية كما فى انكلترة فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقة للنساء تحوى مقصا وابرة ونحو ذلك • قال ويباع فيها فى سوق الزبدة بنحو ستة ملايين ومن البيض ٥٫٥٣٩٫٨٩٠ فرنكا قلت ومن هنا يعلم ان ما ذكره الشيخ رفاعه بك من ان اهل باريس يقطعون من البيض بخمسة آلاف فرنك سهو والظاهر انه اراد خمسة ملايين كيف لا وقد قال انهم يخلطونه فى نحو ثلاثمائة صنف من الطعام • وفيها اى فى باريس خمس مشيخات كبار اى اكادميات من جملتها الاكادمية الفرنساوية للنظر فى تهذيب اللغة وتنقيح اصولها وفروعها وكل من الف كتابا بديعا فى التاريخ والادب ينال منها جائزة وفيها ديار كتب عديدة اكبرها واعظمها المكتبة العمومية فيها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون الف كتاب بخط اليد ومائة وخمسون الف ميداى ومليون واربعمائة الف صفحة منقوشة وثلاثمائة الف راهنامج وفيها رسائل محفوظة من لويس الرابع عشر وكابير وكلبرت وكتاب واحد من اللورد بيرون ومن جملة تلك الكتب كتب مطبوعة من عهد فوست وشوفر وما من ديوان او محترف ميرى الا وفيه الوف من الكتب وجملة الكتب المطبوعة الموجودة فى المكاتب ما عدا المكتبة المذكورة ١٫٢٩٣٫٥٠٠ والتى بخط اليد عشرة آلاف ماعدا

ديارا

ديارا اخرى على حدتهـا بعضها يحوى عشرين الفا وبعضها اقل وهو كاف في بيـان ما لهذا الجيل من الحرص على العلوم • وفيها مطبعة ملكية من تأسيس فرنسيس الاول فيها حروف متنوعة يطبع بها كتب باحدى وخمسين لغة ويطابع فيها في ليلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع وعـدد المستخدمين فيها من ثمانمائة الى تسعمائة ومصاريفها ثلاثة ملايين (١) • وعلى نهر المدينة سبعة وعشرون جسرا منها سبعة معلقة وثلاثة من الحديد والحجر وواحد من الخشب والبـاقى من الحجر من جملتهـا جسر دو لا كنكورد بدئ به سنة ١٧٨٧ ونجز في سنة ١٧٩٠ وبلغت مصاريفه ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك طوله ٤٦١ قدما وعرضه ٦١ وآخر يعرف بجسر لويس فيليب بلغت نفقته مليون فرنك وآخر اسمه جسر روايال طوله ٤٣٢ قدما وعرضـه ٥٢ وآخر يسمى پون دزار اى جسر الصنائع طوله ٥١٦ قدما وعرضـه ٣٠ ومصـاريفه ٩٠٠٫٠٠٠ وقد اجرى اليها الماء في قنى من جملتها قناة مسافتها اربعة وعشرون فرسخا بلغت مصاريفها خمسة وعشرين مليونا واخرى انفق فيها اربعة عشر مليونا ومائتا الف فرنك • وقال آخر يوجد فيها ٧٢٧ من وكـلاء الدعاوى و ١٫٤٥٦ من الاطباء والجراحين و ٤٩٧ من باعة الادوية او الكيمـاويين و ٨١١ من البنائين و ٤٤٢ من المصورين و ٨٨٠ من النقاشين على الحجر والحديد ونحوهمـا و ٦٨٩ من الخبازين و ٤٨٧ من الجزارين و ٦٦٢ من الصيارفة و ١٫١٦٠ من التجار بالكومسيون و ١٫٨٤٥ من باعة الشمع والصابون والسكر ونحو ذلك و ٦٨٠ من صناع الساعات و ٣٫٩٧٩ خمارا و ٣٦٠ من باعة الشريط والقيطان ونحوهما و ٧٣٨ من صناع الزهر من الورق و ١٢٦ من المصورين على نور الشمس و ١١٧ من الحمـامات السخنة و ٢٤٠ معمـلا للورق و ٥٢٣ موضعـا للاكل و ١٫٠٣٠ موضعا للقهوة و ٣٣ محترفا لاشتهار الاعلامات و ١٢٨ موضعا للتخمين والتعهيد وفيهـا سبعة مواقف لسكة الحديد وسبعة وعشرون مأوى للجند من جملتها مأوى يسع خمسـة آلاف وثمانمائة رجل

---

(١) في سنة ١٨٧٧ بلغ ايراد المطبعة المذكورة ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ فرنك ومثل ذلك المصاريف

وثمانمائة فرس وفيها اثنا عشر حوضا وثمانية وعشرون ملهى اى ثياطرا ولم يكن فيها فى ايام لويس الرابع عشر سوى ثلاثة وفى سنة ١٧٩١ صدرت اجازة للاهلين من اهل المجلس المعروف بالاسامبلى بان كل من استطاع منهم ان ينشئ ملهى فهو غير معارض فبلغت ثلاثة واربعين وهناك ايضا محال اخرى للغناء والسهريات والحظ مما يطول شرحه قال والملهى الطلياني يرد اليه امداد فى السنة من خزنة الدولة بمائة الف فرنك وان كثيرا من الانكليز والنمساويين بل الروس ايضا يقصدون ملاهى باريس ليروا فيها من التمثيل ما لم يروه فى بلادهم الا غير كامل وكلهم يقر بافضليتها على غيرها وامداد الاوپيرة الفرنساوية ٧٥٠,٠٠٠ فرنك ما عدا مرتبا آخر لها قدره ١,٣٠٠,٠٠٠ فرنك قلت فى اول المرفع وفى نصف الصيام يصنعون فى هذا الموضع رقصا فتحشد اليه الرجال والنساء بلباس السخرية بحيث لا يعود الرجل يعرف زوجته ولا بنته ويبيتون هكذا الى الفجر وهذا الموضع يشتمل على نحو خمسين ثريا اونجفة وعدد الآلاتية فيه ينيف على خمسين قال وامداد الاوپيرة كوميك اى ملهى الضحك ٢٤٦,٠٠٠ وفيها عشرة منتديات مما يعرف بالكلوب وثمانية مراقص اصلية من جملتها مرقص يختص بطلبة العلم فاما المراقص التى تكون مجتمعا للدون فغير جديرة بالذكر وفيها احدى واربعون كنيسة كبيرة ونحو منها المعابد واقدم الكنائس واشهرها كنيسة نوطر دام اول حجر جعل فى اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث وذلك فى سنة ١١٦٣ ولم يتم بناؤها الا فى عهد شارلس السابع طولها ١٢٦ ذراعا وكسور وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣ وعلو برجها ٦٨ وفى المدينة خمسة اسواق للزهر على اجناسه وانواعه وفيها سوق للكلاب يعرض فيها للبيع فى كل يوم احد ٢٨٠ كلبا واخرى للخيل والحمير طولها ٤٨٠ ذراعا وعرضها ٨٨ وفيها ساحة للخمر وسعها ٣٦,٠٠٠ ذراع مربع يرد اليها فى كل يوم ١,٥٠٠ برميل وهى تسع منها ٤٥,٠٠٠ قال غالنيانى وبلغ ايراد الخزينة من الدخان ٧,٠٠٠,٠٠٠ وبلغ مكس باريس الوارد اليها مما جعل على الاسواق والحوانيت والمجازر والمخازن والعيار والدفن وغير ذلك خمسين مليونا وبلغ المصروف عليها خمسة واربعين مليونا من جملتها مصاريف الابنية والمستشفيات وديوان الشرطة والمكاتب والمتاحف والمماشى والزينة فى الاعياد وبلغت مصاريف الدواوين

الميرية

الميرية ١٫٣٨٩٫٢٠٨٫١٧٢ فرنكا اعظمها مصاريف دين الامة وديوان الحرب وبلغ ايرادها ١٫٢٤٦٫٨٨٠٫٣٣٦ ودين الدولة يبلغ ١٩٥٫٩١٦٫٩٠١ وبلغت مصاريف العسكر فى سنة ١٨٤٤ ٣٤٨٫٠٠٠٫٠٠٠ (١) والوزرآء هم وزير الامور الخارجية ووزير الحربية ووزير البحرية والمستعمرات ووزير المالية ووزير الزراعة والتجارة ووزير الداخلية ووزير الابنية الميرية ووزير العدلية ووزير المعارف ومن هؤلآء الوزرآء ومن مجلسى المشورة الخاص والعام ومن صاحب الملك تتألف دولة فرنسا وقال آخر وفى باريس تفرق المكاتيب سبع مرات فى كل يوم وذلك من الساعة السابعة ونصف صباحا الى الساعة لتاسعة مسآء واول من رتب البريد لويس الحادى عشر وفى سنة ١٧٩٢ اطرد ترتيبه كما نراه الآن ٭ وقد حان لى هنا ان اقول ان باريس تشبه لندرة فى كونها شطرين يفصل بينهما نهر الا ان نهر باريس صغير لا يسع المراكب الكبيرة وتخالفها فى احوال كثيرة ❁ احدها ❁ ان ديار باريس من الحجر فلا يزال ظاهرها ابيض انيقا بخلاف ديار لندرة فانها مبنية من الاجرّ فلا يأتى عليه سنتان او ثلاث الا ويسود من كثرة الدخان والضباب بل المنازل المبنية فيها من حجر تسود ايضا ❁ الثانى ❁ ان ديار باريس متناسقة الارتفاع فى الغالب متناسقة الظاهر فانها كلها بيضاء متناسقة وضع الشبابيك اما ارتفاعها فان بعضها يشتمل على سبع طبقات فربما ارتقى فيها الانسان مائة وثلاثين درجة حتى يصل الى غرفته فهى من هذا القبيل متعبة ولكل طبقة فانوس يشعل بالغاز ولكل دار رتاج كبير لا يزال مفتوحا الى نصف الليل وبواب يتبوأ كنا بالقرب منه فاذا خرج احد السكان اعطاه مفتاح غرفته ومتى رجع اخذه منه واذا غاب بعد نصف الليل اطن الجرس فيقوم البواب من فراشه ويفتح له ولا بد ان يعطيه شيئا فى مقابلة ذلك هذا اذا كان ساكنا فى دار مفروشة فاما اذا اكترى شقة من دار تشتمل على مبيت ومقعد ومطبخ فله ان يأخذ مفتاحه معه وعند ذلك يحتاج الى ان يستخدم امرأة لتصلح له مسكنه

---

(١) قد تقدم ذكر ايراد فرنسا اما ديونها فانها بلغت فى سنة ١٨٨١ ١٩٫٨٦٢٫٠٣٥٫٩٨٣ فرنكا وهى عبارة عن ٧٩٤٫٤٨١٫٤٣٩ ليرة انكليزية ومصاريف وزارة الحربية بلغت ٥٣١٫٠٠٤٫٦٢٤ فرنكا

او يستأجرها ساعة او ساعتين فى النهار وربما كانت هذه المرأة اجيرة عدة اشخاص فتذهب الى كل منهم فى ساعة معلومة ولا يمكن لغريب بل لاهلى ان يستأجر دارا من بابها بجميع مرافقها وذلك لكبرها وغلائها فكل دار فى باريس عبارة عن قصر فاما ديار لندرة فلا تزيد غالبا على اربع طبقات ثلاث ظاهرة وواحدة تحت الارض لادخار الفحم وغسل الثياب وما اشبه ذلك وبعضها كبير وبعضها صغير ومن ثم يمكن للانسان ان يستقل بدار منها ﴿ الثالث ﴾ ان درج باريس متين جدا ومبلط الغرف التى بنيت من عهد حديث من خشب متين جلى بهى ومبلط الديار القديمة من الاجر الاحمر وفرش المبلط بالبسط او الزرابى غير مطرد وانما يجتزئون عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها عند الموقد اما فى لندرة فان جميع المساكن مفروشة بالبسط ولذلك سببان احدهما ان البسط فيها رخيصة وفى باريس غالية والثانى ان خشب المبلط فى لندرة قبيح وسخ فكان لا بد من ستره ﴿ الرابع ﴾ ان جميع طيقان باريس تنفتح على مصراعين كالباب فيسهل غسلها وتنظيفها باهون سعى وطيقان لندرة لا يفتح الا نصفها الادنى صعدا ويبقى الاعلى مطبقا فلا يمكن تنظيفه فيكون لا بد من استخدام من ينظفه من الخارج وهو معنت شاق ﴿ الخامس ﴾ ان مواقد ديار باريس هى فى موازاة المبلط ولا يمكن طبخ شئ عليها وجل وقودهم انما هو الحطب لا الفحم المعدنى فانهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته وتوسيخه الثياب ولا يطبخون عليه اصلا وحين كنا نوقده للاستدفاء على عادة الانكليز كانت خادمتنا تتأفف منه وغير مرة غشى عليها منه وفى بعض الغرف والدكاكين يوقدون ما اطفئ من الفحم او الفحم مع الحطب فى كوانين عالية من الحجر القيشانى الظريف او من الحديد وقد تكون متصلة بقصبة من حديد نافذة فى الحائط ليخرج منها الدخان وقد لا تكون وفى الجملة فان مواقد لندرة احسن فانها مجعولة لان يوقد فيها فحم الحجر ولان يطبخ عليها وذلك لارتفاعها عن المبلط هذا فى الديار الصغيرة فاما فى ديار الكبراء فتكون ايضا فى حيز المبلط كما هى فى باريس والحكمة فى ذلك عندهم وعند اولئك ايصال الحرارة الى الارجل فانها احق الاعضاء بالدفء والحاصل ان الشتاء داخل الديار فى لندرة اهنأ واهون وذلك لاعتنائهم بفرش المساكن والدرج

ويكون

وبكون المواقد قابلة لوقيد الفحم كما مر وانت خبير بان بناء الحجر يحدث رطوبة اكثر من الاجر ﴿ السادس ﴾ ان لكل طبقة من ديار باريس مرحاضا ووراءه مصب للماء وفى ديار لندرة لا يكون الا مرحاض او اثنان فهى من هذا القبيل انظف وادنى الى الصحة ﴿ السابع ﴾ ان مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون غالبا من الحديد وفى لندرة من الخزف فتلك ابهج منظرا والحاصل انه لما كان النظر فى امور المدينة والديار بباريس موكولا الى ارباب السياسة كانت الديار وحدها تؤذن بابهة المكان وجلاله فضلا عن الدكاكين و الدواوين الملكية فكم فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة و ابواب مؤزجة مما يستوقف المجتاز وكذلك الدكاكين فانك تراها وضيئة بهجة والحاجات فيها زهية ناضرة فيود الانسان لو يشترى كل ما فيها فكان فى رقيع المدينة نورا يلقى شعاعه على المرئيات فيكسبها بهجة وطلاوة وكان القاعد على كرسى فى بيته انما هو قاعد على شوك القتاد ابدا يتحلحل ويتحرك للخروج ليرى الديار والحوانيت مما يشوق و يروق اما اثاث الديار وفرشها فالغالب انه فى باريس انفس و اغلى و اكثر ما يحمل على العجب منها سررهم التى يرقدون عليها فانهم ينضدون عليها عدة من الفرش حتى انهم يصعدون اليها على درج وذلك مطرد للغنى والفقير وخشبها فى الغالب من النوع الذى سماه الشيخ رفاعه بك الكابلى و يجعلون فوقها آطارا من خشب مذهب على هيئة التاج ومنه يسدلون الناموسية ولا بد وان يكون فى البيت مرآة كبيرة وساعة دقاقة يضعونها فوق رف الموقد وتفضل باريس لندرة ايضا فى كثرة العيون الجارية فى الطرق وفى كثرة الحمامات واذا شاء الانسان ان يستحم فى بيته اوعز الى قيم الحمام فى ان يبعث له بمغطس وماء حميم وهذا يكاد ان يكون معدوما فى لندرة ◆ ومن ذلك الكتابة التى تكون فوق الحوانيت والرواشن فان جلها مكتوب بماء الذهب وفى لندرة جلها بالحبر واذا كان بماء الذهب فلا يلبث ان يسود ◆ ومن ذلك ابواب الدكاكين والقضبان الفاصلة بين الواح الزجاج فانها هنا اكثر رونقا فاما من حيث السعة فدكاكين لندرة اعظم ◆ ومن ذلك الرصف التى على جانبي نهر السين فانها مبلطة نظيفة بحيث يمكن للانسان ان يقعد عندها و يسرح ناظره فى النهر وهو يشتمل على عدة حمامات ومغاسل كالبيوت تغسل فيها

النساء ثياب السكان • ومن ذلك وجود دكاكين اخرى فى الطرق للغسالات فانك فى كل طريق تجد منها واحدا او اثنين وذلك نادر فى لندرة جدا و انما يغسل النزيل ثيابه عند غسالة الدار التى يسكنها سوآء كانت نظيفة او وسخة وهى غالبا فى الريف ومن الغريب ان غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطارق وكل عنهن راض • ومن ذلك انه يوجد فى باريس مواضع يتخلى فيها الانسان لقضاء الحاجة ولا يخفى ان وجود ذلك فى المدن الغناء ضرورى فان من يخرج من داره و يضطر الى قضاء الحاجة لم يمكنه الرجوع اليها وذلك فى لندرة معدوم بل مواضع البول فيها على قلتها قذرة رديئة ما عدا ما صنع منها حديثا فى طريق استران وهوبرن فهى تعز عن النظير و اجدر بهذه الحاجة ان تكون فى باريس من المصالح وفى لندرة بالتحريف وما احسن ما قيل فى الفرنساوية من انهم يجعلون كل مقصد حرفة وكل حرفة مقصدا • وتفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر فان فيها وفى ضواحيها نحو مائة وخمسين الفا فلا تزال تسمع منهم الموسيقى وتنظر منهم الملابس الحسنة وهى احسن من ملابس عسكر الانكليز وقد جرت العادة بان يكون مع العساكر نساء للخدمة يتبعنهم وهن مترديات بلباسهم اما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها لم يكن احد يتكلف الطبخ فى بيته اما اصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ ومحل للمؤنة فى منازلهم فلا ينتابون تلك المطاعم الا فى الاعياد وهى نظيفة للغاية واول ما يجلس المستطعم يأتيه الخادم بدفتر فيه اسماء الطعام وبفوطة فيختار ما يشاء اما فى لندره فحين يجلس احد فى مطعم يأتيه الخادم ويصرخ فى اذنيه شوآء لحم بقر شوآء ضان كرنب جزر بطاطة وهنا تنتهى الفهرسة ولا يقدم له فوطة واى مطعم دخلت فى باريس رأيت فيه الرجال والنساء و الاولاد وربما تعمدت امرأة ان تجلس قبالتك لتخاطبها او تعرض عليها شيئا من المشروب فيكون فاتحة الالطاف وخاتمة المطاف ولا بد من ان يوضع امام الاكل نجات من الكبريت لاشعال السيكار وخلال لتنظيف اسنانه والخاصة من اهل باريس يأكلون مرتين فقط الفطور او الغدآء وهو فى الساعة الحادية عشرة والغداء او العشاء فى الخامسة ويفطرون على شواء الضان والمحار و العامة

يأكلون

يأكلون ثلاث مرات اما طعامهم فانه وان كانوا يتفننون فيه كثيرا فلا يستطيبه الا من الفه وذلك لانهم يسلقون اللحم اشد السلق ليتخذوا منه نوعا من الرعديد ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فيأتى مسيخا وقد قلت فى ذلك

* رب قوم يستمرئون طعاما * فيه شحم الخنزير والدم يحمى *
* وانا ان اكلت منه لماظا * بات شحم الخنزير يأكل شحمى *

وفى الجملة فانه الذ من طعام الانكليز كما ستعرف ذلك فى بابه غير ان الشواء عند الانكليز الذ منه عند الفرنسيس وهناك طريقة اخرى للمعيشة وهى ان بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها تابل دوت اى مائدة الضيوف فمن شاء ان يأكل فيها لزمه ان يذهب فى ساعة معينة ولعلها ارخص من المطاعم العمومية واطيب وثمن الغداء فى هذه نحو فرنك ونصف وثمن العشاء نحو فرنكين وهو يبتدئ غالبا بالشوربة ويختم بالسلاطة ثم بشئ من الحلو او الفاكهة وفى البلفار مطاعم لا ينتابها الا الاغنياء والمسرفون فان ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا او خمسون اما القهوة فاذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذى يشرب فيه الشوربة وبسكر جزيل وصب القهوة بمرأى منك ثم اتبعها الحليب المسخن وقد رأيت كثيرا من ذوى السمت والرواء يضعون نصف السكر فى الفنجان ويختبئون النصف الآخر والمطاعم ومحال القهوة فى هذه المدينة لا تحصى كثرة وهناك محال للقهوة تغنى فيها الرجال والنساء يدخلها الناس مجانا ولكن بشرط ان يشربوا شيئا يقوم عليهم قيمة شيئين • ومما يعجب منه فى باريس الدكاكين التى يباع فيها المربيات والشراب وذلك لنظافتها وانوارها وربما كانت سقوفها من مرايا وعندهم من اصناف المربيات والمعجنات والحلويات ما يزيد على ما عند الانكليز عشرة اضعاف الا انهم مثل الانكليز فى ان حلوياتهم جميعها معمولة بالسكر لا بالعسل • واعلم ان ارباب الرئاسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من المأكول والمشروب فلا يسمحون للباعة بان يبيعوا شيئا فاسدا او مضرا بالابدان او مغشوشا وكأن الخمر مستثناة من ذلك فلهذا كان كل ما يوكل ويشرب هنا الذ وازكى مما يوجد بلندرة بل البقول والفاكهة هنا اطيب والذ فمن ذلك الخبز وهو الزم ما يكون للمعيشة فانه فى غاية الطيبة وهو من محض الحنطة غير مخلوط بشئ من الشب

او البطاطس كخبز الانكليز وقد يصنعون منه شكلا فى طول قامة الرجل واللحم على ان الانكليز يدعون بان لحمهم اطيب ويعجبنى هنا نظافة دكاكين اللحامين فلا يمكن ان تشم منها رائحة كريهة بخلاف دكاكين لندرة وهم يقفلون دكاكينهم قبل ان يوقدوا الغاز فانهم يقولون انه يغير طعم اللحم ومن ذلك الزبدة والجبن ومحار البحر على انواعه والزيت والخل والخردل واللبن وقد يصنعون منه الرائب والقريشة كالموجود فى بلادنا سوآء وكذا الصابون والشمع بل الكبريت وحطب الوقود هنا احسن مما يوجد بلندره وعندهم كثير من البقول والفواكه مما لا وجود له فى تلك فاما جعتهم فغير طيبة ولكن قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر اما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان غير انه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الحجر وكانت مواقدها غير صالحة لوقود الفحم المعدنى كما مر كان البرد اشق وابلغ وزد على ذلك توالى الامطار شتاء وصيفا وقد شاهدت جما غفيرا حضروا من باريس الى لندرة وسألتهم عن الهوآء فكلهم اجاب بان المطر لم ينقطع مدة اقامته وكان فيها بلندرة صحو الا ان الناس لا يشعرون فى باريس بعنت المطر او الثلج لكثرة ما فيها من السقائف والمنتزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب اما فى لندرة فلن يجد الانسان من ذلك مهربا الا فى بيته وهذا حسب

وفى باريس عدة مواضع لا نظير لها فى الدنيا باسرها فان ابتدرتنى لتقطع على كلامى بان تقول وهل رأيت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك قلت انى لم ار الدنيا بل رأيت محاريث عقول اهل الدنيا اعنى اقلام المؤلفين ممن طوفوا وساحوا فى مناكبها فكلهم حكم لهذه المواضع بالاحسنية والافضلية ✻ احدها ✻ البلفار وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للخصر كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازى الوضع وبالدكاكين الظريفة والديار الشاهقة ومواضع القهوة الانيقة الحافلة فلا تزال ترى امامها الوفا من الكراسى يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقرؤون صحف الاخبار ويتفاوضون فى ادارة المصالح والاشغال فهى عندهم بمقام المصر وقد تكون حيطان المحل كلها مرآء وسقفه كسقف الكنائس مزخرفة منقوشة وفيها متكآت ومقاعد ومواقد نفيسة ولا تزال غاصة بالناس الى نصف الليل وقد يكون لها رواشن او مشربيات فيها مقاعد

يرى

يرى الانسان منها جميع ما يمر فى الطريق واكثر الملاهى هناك من جملتها مواضع للغناء واللعب وفى ختام اللعب تضعف انواره ويبرز فى محرابه نساء لابسات بزا رفيعا على هيئة الجسم ولونه فيحسبهن الناظر عرايا ويتمين كذلك فى اوضاع مختلفة من دون حركة فان برزت احداهن رافعة يديها بقيت كذلك الى ان تدور بهن المائدة التى برزن عليها دورتين ثم يسبل الحجاب وترجع الانوار ثم تضعف ويبرزن بهيئة اخرى وذلك كله يدوم نحو ربع ساعة ويقال لهذا المنظر تابلوفيفان اى الصور الحية واحسن محل فى هذا البلفار المحل الذى يقال له بلفار الطليان فثم ترى النساء يخطرن بالديباج والاستبرق والشيلان الكشميرية والمخمل والخز الرفيع وهن متلعات شافنات والرجال يرنون اليهن بافخر اللباس واحسن السمت وثم اظرف المحال للقهوة وفى طرف البلفار عمود شاهق من المرمر فى قنته تمثال ملك من نحاس واقف على كرة وهو يلمع فى مقابلة الشمس له كانه ذهب ويقال للملك ملك الحرية وعلى العمود اسماء الذين قتلوا من كبار الامة فى سجن باستيل مكتوبة بالذهب وتحته حوض يستقى منه وكان انشاء البلفار فى سنة ١٥٣٦ ❁ الثانى ❁ الموضع الذى يقال له بالى روايال اى القصر الملوكى وانما سمى كذلك لمجاورته قصرا كان مقر الملوك وهو عبارة عن صفى دكاكين متقابلين فوقهما منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة وبينهما اشجار وحوض ومقاعد وممشى للناس ففى الدكاكين ترى احسن الملبوس وانفس الحلى والتحف من المعادن والجواهر وهى وان كانت دون دكاكين البلفار فى الكبر الا ان حسن تنضيد ما فيها وبراعة ترصيفه وبهجة ذلك المكان يكسبها سعة فى النظر ومن رأى كثرة الجواهر والالماس فى هذا الموضع وفى غيره ايضا حكم بان اهل باريس اغنى من اهل لندرة الا ان الجوهريين من الانكليز لا يبرزون ما عندهم من الجواهر فى وجه الدكاكين وانما يخبئونها فى خزانة فلهذا لا يكاد الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة وفى تلك المطاعم جميع ما تشتهيه النفس فاذا قعدت للغداء رأيت الرجال والنساء والاولاد يمرحون فى تلك الروضة وصفة الحمامات صفة المطاعم وفى الروضة ايضا موضع قهوة عنده كراسى عديدة بعضها عند الحوض وبعضها تحت الشجر وثم تضرب العسكر بآلات الطرب ثلاث مرات فى الاسبوع وطول هذه الحديقة سبعمائة قدم

وعرضها ثلاثمائة وكان انشاء هذا المحل البديع فى سنة ١٧٢٩ ﴿ الثالث ﴾ الموضع المسمى شانزلزى اى روضة الاصفياء وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها الى حد الازج اكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها فى الاقل مائة وستون ولها مقاعد من خشب وكراسى على طول جهتى الطريق وبين الشطرين طريق واسع لمرور الخيل والحوافل والعواجل ففى ايام الاعياد ترى هذا الممر ملآن من تلك المراكب فان اهل الثروة يذهبون الى هناك متفاخرين بما فوقهم من اللباس وبما تحتهم من المركوب وترى النساء فى العواجل المفتوحة متكئات كأنما هن على نمارق وفرش والعجب والتيه يلمعان من جبنهن وكثيرا ما تراهن راكبات على هذه الصفة ودخان التبغ خارج من افواههن ومن العجب ان اهل باريس يخرجون الى هذا الموضع والى بوا دوبولون فى ايام الاربعاء والخميس والجمعة من جمعة الآلام قصد المباهاة والمفاخرة فيما يلبسون ويركبون فهى عندهم موسم التأنق والتظرف ومع ذلك فان الجزارين يخرجون من بيع اللحم يوم الجمعة اما احتراما له او حياء من الناس • وفى هذه الغيضة جاردن مابيل وهو بستان بهيج تتتابه الرجال والنساء للرقص فيه خمسة آلاف نور وبستان النساء ولا يمكن ان يكون فى العالم بستان اجمل منه على صغره فانه راموز الجنة وفيه عين فوارة يصعد الماء منها علو قامات وفيها قصر للزهور وموضع واسع ترمح فيه الخيل وخيام لا تحصى يباع فيها الشراب والنقل والحلواء وفيها زمر شتى كزمر باب الرميلة بمصر فمن بين مشعوذ ومغن وعازف ومحدث ومخبش وغير ذلك وفيها ثلاث قبب مزخرفة ذات بهجة وانوار يجلس فى كل منها ست نساء او خمس من القيان الحسان ويغنين على آلات الطرب وهن كاشفات عن الصدور والاكتاف ولكن لا يكون ذلك الا فى فصل الصيف فمن شاء ان يقعد على كرسى ويسمع الغناء لزمه ان يشرب شيئا من محل القهوة ويدفع ثمنه ضعفين واذا انتقل من كرسى الى غيره وجب عليه تجديد الشرب ومن وقف يسمع فلا تكاليف عليه وهناك من الحياض والتماثيل والملاعب والملاهى والصروح والاعلام ما ينسى الغريب وطنه وكان غرس هذه الغيضة فى سنة ١٦٧٠ ويقال ان فى باريس ثلاثة عشر الف شجرة من غرس سنة الى عشر سنين وعشرة آلاف شجرة من عشر

سنين

سنين الى ثلاثين سنة واكثر من اربع وثلاثين الفا من ثلاثين سنة فصاعدا وغالبها من شجر المِيس ﴿ الرابع ﴾ الساحة المسماة پلاس دو لاكنكورد وهى بين الغيضة المذكورة وبين حديقة التولرى يجوز الناس من هذه الى تلك ومن تلك الى هذه وفى هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما وفيهما تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل اربعة اولاد وبطة يخرج الماء من افواهها فيلتقى كلا المائين وينحدران الى الحوض وبينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر • قال غالنيانى هذه المسلة انتزعت من موضع بمصر امام هيكل طيبس بمصر الذى بنى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد واسمها لكسور محرفة عن لقصر وكانت احدى اثنين جاد بهما محمد على باشا على دولة فرنسا تذكارا لالفتهما ومودتهما والثانية لم تزل فى موضعها ولا بد من انها تجلب وقد انشئ لنقل الاولى سفينة مخصوصة فى طولون وذلك فى سنة ١٨٣٠ وفى سنة ١٨٣٦ نصبت بحضرة الملك لويس فيليب وآله واهل المناصب وبحضرة مائة وخمسين الفا من الاهلين وفى مدة نقلها ونصبها لم يحدث ادنى خلل ولا اذى طولها اثنتان وسبعون قدما ووسعها من اسفلها سبع اقدام ومن اعلاها خمس اقدام وكسر وزنتها ٥٠٠ر٠٠٠ ليبرة وآخر ما صرف على تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة الف فرنك وقال آخر انشئت هذه الساحة فى سنة ١٧٥٤ ونصب فيها تمثال لويس الرابع عشر على جواد وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والعدل والسلم ولم تكد هذه الساحة تتم حتى حصل فيها نائبة عظيمة فى يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا وهى هلاك مائة واثنين وثلاثين نفسا فى الزحام وفيها اى فى هذه الساحة قتل الملك المذكور وزوجته مارى انطوانت ومادام رولاند وغيرهم وشارلت كوردى وغيرهم • قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر وتزوج بنت ملكة اوستريا المسماة ماريا تريزيا واتهمه الفرنساوية بانه كان ذا ضلع عليهم مع النمسا فتحزب جمهورهم عليه وحكموا عليه بالقتل فلما جئ به الى مقتله قدم غير جزع ولا وجل وكلم الناس بصوت جهير قائلا ألا يا ايها الفرنسيس انى اموت بريئا من الذنوب التى تجنيتم بها على وانى اسامح جميع اعدائى واتضرع الى الله تعالى

ان تكون فرنسا العزيزة علىّ فما كاد يتم قوله هذا الا وصرخ رئيس اهل الفتنة ويعرف باسم صانتر بان تضرب الطبول ويضرب عنقه فلما صعد المكان الذى اعد لقتله ضبج القسيسون وهم يصرخون يا ابن مار لويس اصعد الى السماء وبعد ان ضربت عنقه حملت جثته ودفنت فى قبر ملئ جبسا وجعل حرس عند قبره الى ان بليت بالمرة وفى هذه الساحة نحو خمسة وعشرين عمودا لها قبب فى اعلاها وهى مضلعة مذهبة ولكل منها جناح يقل فانوسين مذهبين وهى تظهر للناظر فى الليل كأنها ابراج نجوم وطول هذه الساحة ٢٤٨ مترا وعرضها ١٦٩ فاما حديقة القصر الامبراطورى فلا يحكم لها بالفضل لسعتها وعظمها وان تكن انيقة زهية وانما لكونها مجتمعا للناس فتراها مشحونة بالكراسى والمقاعد يتنابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر وخصوصا فى الاعياد وفيها تماثيل عديدة ومحل ينال فيه الطعام والشراب ولهذه الحديقة درابزين من حديد جلى يطيف بها رؤوس رماحد مذهبة وقيل ان الكراسى التى فيه مضمنة بمائة الف فرنك فى العام فاذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك فى محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك ❊ الخامس ❊ عمود نابوليون الاول صنع على مثال عمود تراجان فى رومية من الف ومائتى مدفع من نحاس كان قد غنمها الامبراطور المشار اليه من عساكر النمسا والروس وقد نقش خارجه بصور الوقائع التى انتصر فيها وصور آلات الحرب يصعد الناس الى اعلاه لرؤية المدينة فى مائة وست وسبعين درجة وفى قنته تمثال نابوليون طوله احدى عشر قدما وارتفاع العمود مائة وخمس وثلاثون وزنته ٣٦٠٫٠٠٠ ليرة ويقال لهذه الساحة پلاس فندوم باسم دوك فندوم ابن الملك هنرى الرابع لزنية بدى بها فى ايام لويس الرابع عشر وفى يوم ميلاد نابوليون الواقع فى الخامس عشر من آب تأتى الناس باكاليل من زهر ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لمآثره ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية مدينة باريس كان من همهم بادى بدء ان يزيحوه فلم يقدروا وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فازيح فى سنة ١٧٩٢ قيل وكان اعظم تمثال صنع فان زنته بلغت ٦٠٫٠٠٠ ليرة ❊ السادس ❊ السقائف او المعابر المسماة بالپاساج وهى اسواق مسقفة بالزجاج ومبلطة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية

متناسقة

متناسقة الوضع يوجد فيها للبيع اغرب التحف واعجب الطرف والغالب ان ما يباع فيها يكون اغلى مما يباع فى غيرها ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال وفى زمن الشتآء تغص بالرجال والنسآء فهى ملطأ لهم من المطر والبرد ﴿ السابع ﴾ الغيضة المسماة بوا دو بولون وهى عبارة عن ندحة من الارض واسعة ممتدة كلها شجر وحياض وفيها طرق رحيبة للعواجل يخرج اليها اهل الثروة والجمال فى عواجلهم الفاخرة ولا سيما فى الآحاد والاعياد والايام الثلاثة التى مر ذكرها فى جمعة الآلام وفى هذه الغيضة حلت عساكر الانكليز عند فشل ناپوليون واعلم ان الغيضة فى مفهوم الفرنساوية هى الارض التى تكون اشجارها متماسة الرؤوس بحيث انك اذا جلست تحتها وقتك من المطر والشمس فاما عند الانكليز فهى قطعة من الارض يكون فيها شجرات معدودات ومرج تمرح فيه الماشية

فاما ما فى باريس من الصروح الفاخرة والمبانى السنية فمما لا يعد ولا يحصى ولكنى اذكر منها اشهرها • فمن ذلك القصر المسمى باللوفر وهو منقسم الى عدة اقسام الاول للتصاوير وهو يشتمل على الف واربعمائة وست صور من صنع اهل ايطاليا واسپانيا وفرنسا وهناك محل آخر يحوى اربعمائة وستا واربعين تصويرة من صنع مصورى اسپانيا خاصة ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله اكثر من عشر اذرع ومنه ما هو بديع الصنعة حتى لا يمكن للناظر ان يكف عن الرنو اليه وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة وترى هناك كثيرا من الرجال والنسآء يصورون عن بعض الصور المشهورة وقسته بخطواتى فكان طوله نحو سبعمائة وثمانين خطوة معتدلة وقست ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتى خطوة ولم ار هناك الا مصورة واحدة القسم الثانى للرسم وهو يشتمل على الف ومائتين وثمانية وتسعين رسما الثالث للاشيآء العادية وهو يشتمل على الف ومائة تمثال وصنم الرابع للتماثيل الحديثة الخامس للمنقوشات السادس للادوات البحرية كالسفن والمدافع وترى كل سفينة موضوعة فى بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة السابع للدراهم الثامن متحف لبدائع مصر التاسع متحف الاثوريين العاشر متحف لبدائع اميريكا الحادى عشر متحف لبدائع الجزائر ورأيت من جملة تلك الغرائب

ملابس الملوك وسلاحهم من جملتها عدة اردية مطرزة وغير مطرزة كان يلبسها نابوليون الاكبر وسروج خيله منها سرجان عربيان كان يركب عليهما بمصر ومن ذلك كتاب فى الهندسة كان يطالع فيه دائما وهو بلا جلد وادوات كان يستصحبها فى اسفاره ومن جملة هذه الغرائب ايضا سيف كان لشارلمان وطست غريب الصنعة جئ به من بلاد المسلمين وكان هذا الموضع فى الزمن السابق مقرا لهنرى الرابع المشهور بحسن السياسة والتدبير وقبل ان ولى الملك كان على دين البروتستانت فلما رآه اهل باريس انه يصلح للملك لمآثره الجليلة وانه لا يقوم باعباء الملك غيره اختاروا توليته بشرط ان يدين بدين الكنيسة الرومانية فاجابهم الى ذلك وقال لعمرى ان باريس تساوى قداسا ومع كونه كان بمنزلة والد لاهل فرنسا اجمعين وفى ايامه نسم الناس الراحة وبلهنية العيش لم يعدم من تصدى لقتله وكانت ولادة هنرى الرابع فى سنة ١٥٥٣ ووفاته فى سنة ١٦١٠ وخلفه فى الملك ابنه لويس الثالث عشر وهذا القصر كان دائما منفردا عن قصر الملك المسمى بقصر التولرى وكان فى عزم الملك لويس فيليب ان يصله به فلم يتهيأ له الى ان قام نابوليون الثالث فجعلهما متصلين قال فى معجم الاوقات هذا الصرح الشهير كان مقرا للملك داغوبرت فى سنة ٦٢٨ وفى عهد فرنسيس الاول وضع اساس المحل الذى يقال له الآن اللوفر القديم وذلك فى سنة ١٥٢٢ وفيه وضع احسن ما امكن جمعه من الصور والتماثيل وتحف الصنائع المعروفة فى الدنيا وجلها جلب من ايطاليا حين كان نابوليون مستوليا عليها ولكن رد منها كثير على اهله ومن ذلك قصر التولرى وتفصيل ما فيه يغنى عنه قولنا انه مقر لملوك فرنسا وانه فيه سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ومبلطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والالصاق بذته كاترين دمديسى واتمه لويس الرابع عشر ثم سكنه لويس السادس عشر فى سنة ١٧٨٧ وفى سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بايديهم ليقدموا عرضا للملك وهم على اهبة الفتنة وافضى الامر اخيرا الى ان قضوا عليه بالقتل كما مر ثم تبوأه نابوليون قبل ان لقب امبراطورا وبعده ايضا ثم عائلة البربون ولما كان لويس العاشر قارا فيه هجم الناس عليه وغلبوا على عساكره والجأوه الى النفى وذلك فى سنة ١٨٣٠ وفى سنة ١٨٤٠ هجموا فيه على لويس فيليب والجأوه الى الفرار فلحق باسلافه وهو

آخر

آخر من ملك من البربون و دام ملكه ثماني عشرة سنة ٭ وقرأت في بعض الاخبار انه لما هجم الناس عليه وجدوا في دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين الف زجاجة مملوءة من الخمر الفاخر ٭ ومن ذلك قصر لوكزمبور بني في سنة ١٥٩٤ وهو وان لم يكن بناؤه بديع الصنعة الا انه متين مهندم وكان مقرا للويس الثامن عشر ثم جعل في زمن الفتنة سجنا ثم جعله نابوليون مجلسا خاصا وهو الآن كذلك و يحضره الملك بنفسه وعنده حديقة عظيمة يتنابها اهل تلك الناحية وهي اكبر من حديقة الملك وفي طرفه رصد الكواكب بني في سنة ١٦٦٧ وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنساء في الصيف للرقص وهذا الموضع وان يكن عاما الا انه يعرف بمحل طلبة العلم ولاجلهم يباح فيه للنساء ان يتخلعن ويتفككن في الرقص وفي غيره يحظرهن الشرطة ٭ ومن ذلك هوتل دوفيل انشئ في سنة ١٦٠٥ على عهد هنري الرابع ولكن لم تكمل محاسنه كما هو الآن الا في سنة ١٨٣٦ ٭ ومن ذلك قصر كاي درصي كان لويس العاشر يريد ان يجعله معرضا لبدائع الصنائع وكان نابوليون يريد ان يجعله مقرا لسفراء الدول وهو الآن ديوان الحسابات ولم يتم بناؤه قبل سنة ١٨٣٥ و بلغت نفقته اكثر من ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك و بجنبه قصر آخر بني في عهد لويس الخامس عشر وهو من ابهج قصور باريس ومن ذلك مجلس المشورة العام ابتدئ به سنة ١٧٢٢ وكان اول ما نهب في دولة البوربون ثم جعل مجلسا لنواب الاقاليم وعدتهم خمسمائة وفي سنة ١٨٢٩ عرض لان يباع بخمسة ملايين ونصف وجملة ما صرف عليه الى غاية سنة ١٨٤٠ بلغت ٢٤٫٢٤٣٫٣٩٣ ٭ ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظريفة والمحكمة الكبرى بني منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مبان كثيرة حتى صارت من احسن ما يرنى اليه طولها ٢١٦ قدما وعرضها ٢٨ ودار مجتمع العلماء ويقال له الانستيتو اسسه الكردينال مازارين ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقا يبلغ في كل عام ٤٥٫٠٠٠ و هؤلاء العلماء هم الذين ينقحون كتب اللغة و النحو وينكرون المرذول من الكلام ويثبتون الفصيح فان للفرنساوية اعتناء عظيما بفن الادب بخلاف الانكليز ٭ ومن ذلك دار السكة اتم انشاؤها في سنة ١٧٧١ وهي تحوي اثني عشر دولابا زنة كل منها ثمانون الف رطل وتضرب في كل دقيقة ستين دينارا وثمانين.

ريالا وفيها دنانير من عهد جميع ملوك فرنسا وفيها ايضا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب • ومن ذلك قصر فى شانزلزى بنى فى سنة ١٧١٨ وكان مقرا لاميرة من عائلة البوربون ثم سكنه نابوليون • ومن ذلك المصر اى مجتمع التجار طوله ٧١ ذراعا فى عرض ٤٩ او ٢١٢ قدما فى عرض ١٢٦ يحيط به ٦٦ عمودا ونصف سقفه من بلور وهو مقبب وصحنه كله مبلط بالرخام يسع الفى رجل بدئ به سنة ١٨٠٨ وبلغت نفقته ٨٫١٤٩٫٠٠٠ وهو من المبانى البديعة قال مؤلف فرنساوى وله من داخله روشن يتنابه الناس ليشاهدوا منه التجار الذين يجتمعون فى الساعة الثانية بعد الظهر للتعاقد والتبايع فاذا سمعهم احد ظن انه بين بحور تمهم • ومن ذلك المصرف اى البنك انشئ فى سنة ١٨٠٣ قيمة ما فيه من الكواغد التى بالف فرنك وبخمسمائة ٢٣٤ مليونا والحاصل فى خزينته ٢٢٨ مليونا وكان رأس المال الذى وضع فيه اول انشائه خمسة واربعين مليونا • قلت لم تتداول الكواغد التى قيمتها اقل من ذلك القدر الا بعد الفتنة وقرأت فى بعض الاخبار فى هذه السنة ان المخزون فى البنك بلغ ١٢٫٩٨٠٫٧٥٠ فرنكا والكواغد المتداولة ٥٣٥٫٦٩٣٫٦٠٠ ومن الازاج العظيمة الازج الذى يقال له ارك دوطريونف اى قنطرة النصر او الظفر صور عليه الوقائع التى انتصر فيها نابوليون وبلغت نفقته ٩٫٧٢٣٫٤٠٢ وآخر امام قصر الملك من جهة اللوفر بلغت نفقته ١٫٤٠٠٫٠٠٠ وفى البلغار وغيره ازاج كثيرة اضربنا عن ذكرها • ومن الكنائس العظيمة كنيسة نوطردام وقد مر ذكرها طولها ٣٩٠ قدما وعرضها ١٤٤ وارتفاعها ١٠٢ وعلو صومعتها ٢٠٤ فيها ارغن ارتفاعه ٤٥ قدما وعرضه ٣٦ يشتمل على ٣٫٤٨٤ قصبة وهى ام كنائس باريس وفيها تتوج الملوك واول حجر جعل فى اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث فى سنة ١٫١٦٣ ولم يتم انشاؤها الا بعد ثلاثة قرون ومن ذلك كنيسة لامدلين اى المجدلانية وهى كنيسة ذات بهجة ورونق وصنع بديع داخلها مزخرف بالنقش والعمد من المرمر النفيس ومبلطها من الرخام وسطحها من حديد ونحاس طولها مائة ذراع وعرضها اثنان واربعون ويحيط بها اثنان وخمسون عمودا ويصعد الى بابها فى ثلاثين درجة وكان فى عزم نابوليون ان يسميها هيكل الفخر تذكارا لفخر فرنسا وان يصور على اعمدتها جميع الذين حاربوا معه من الابطال.

المظفرين

المظفرين ولذلك بنيت على شبه هياكل اليونانيين ولم يبق نقاش ولا مصور فى المدينة الا واشتغل بها وقال اول حجر وضع فى اساسها وضعه لويس الخامس عشر وكان فى قصد ناپوليون ان يخصصها للعسكر ولم تتم الا فى ايام لويس فيليب وهو الذى خصصها بمريم المجدلانية بعد ان كان الناس يظنون انها تخصص لجوبيتر ومن ذلك الكنيسة التى يقال لها الپنثيون بنيت فى سنة ١٧٦٤ على اسم مار جنيفيف ثم جعلت مدفنا لمشاهير الفرنساوية فى العلم او الحرب وفيها دفن فلتير وجان جاك روسو وغيرهما ثم حولت كنيسة فى داخلها مائة وثلاثون عمودا وبخارجها نحو من ذلك وبلغت مصاريف نقش قبتها مائة الف فرنك ورقى ناقشها الى مرتبة بارون ودورتها ٦٢ قدما ودورة الكنيسة كلها ٣٫٢٥٦ قدما مربعا وطولها ٢٨٨ قدما ومن ذلك كنيسة صان صلبيس وهى فى حارة النبلاء يقال ان كراسيها مضمنة بستين الف فرنك فى العام بنيت سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدا ومن ذلك كنيسة نوطردام دلورت بلغت نفقتها ٢٫٠٥٠٫٠٠٠ ووظيفة قسيسها فى السنة ٣٠٫٠٠٠ فرنك وقس الباقى على ما ذكرناه واهل باريس يذهبون الى الكنائس صباحا وفى المساء الى الملاهى وهو عند الانكليز من اعجب العجب • ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان السقط بنى فى ايام لويس الرابع عشر وهو يحوى ٦٫٠٠٠ نفر ما بين مرضى وخدمة وتخدم فيه ٢٥ راهبة ويسع ١٠٫٠٠٠ نفس وهو مخصوص بالعساكر وكل من قضى فى الخدمة العسكرية ٣٠ سنة فله حق ان يدخله ومرتب مديره ٤٠٫٠٠٠ فرنك ويعين لمن فيه فى كل يوم رطل من اللحم وليتر من الخمر طول حديقته ١٫٤٤٠ قدما وعرضها ٧٨٠ وعنده مدافع غنمها الفرنساوية من بروسية والجزائر وعنابه وطول المارستان ٦١٢ قدما وفيه مكتبة نفيسة وكنيسة طويلة نصب على مشرفتها جميع الرايات التى اخذها ناپوليون من جيوش الدول التى انتصر عليها احسبها تبلغ ٢٠٠ ومن جملتها عدة رايات من عساكر المسلمين قال وكان فى الكنيسة ٤٫٠٠٠ راية وسيف لفريدريك الكبير فلما دخلت عساكر الدول المتفقة باريس صدر امر من وزير الحرب عن لسان يوسف بوناپارته بان تحرق الرايات ويكسر السيف فخشى المأمورون تبعة ذلك ولم يحرقوها الا بعد ان راجعوه فى امرها ثلاث مرات

قال وفى هذه الكنيسة دفن نابوليون وامرآء عسكره ووضع على قبره تاجه ونيشانه وسيفه وصرف فى القبر مليون ونصف • قلت لا يخفى ان نابوليون لم يمت فى باريس بل مات فى جزيرة صانت هيلان غير ان دولة فرنسا فى ايام لويس فيليب استأذنت دولة انكلتره فى نقل جثته من هناك فاجابت الى ذلك فارسل الملك ابنه فى بارجة اسمها بل بول ونقلوا جثته اليها وذلك فى السادس عشر من اكطوبر سنة ١٨٤٠ وفى الخامس عشر من دسمبر دفنوها فى كنيسة هذا المارستان بغاية ما يكون من الاحترام والاحتفال مما لم يشاهد مثله فى فرنسا قط وحضر جنازته مليون من الخلق ومائة وخمسون الفا من العسكر والملك وآله وجميع الامرآء والنبلآء والعظمآء مع ان جميع اقارب نابوليون كانوا غيابا فمنهم من كان منفيا ومنهم من كان مسجونا وكانت ولادة نابوليون فى الخامس عشر من اب سنة ١٧٦٩ وقد صار هذا اليوم عيدا تتخذه الدولة فى كل سنة وكانت وفاة نابوليون فى الخامس من شهر ماى سنة ١٨٢١ فى تلك الجزيرة ولم يخلف الا ولدا ولد له فى سنة ١٨١١ ولقب اولا ملك رومية وفى سنة ١٨١٥ لقب امبراطورا باسم نابوليون الثانى مع انه لم يكن وقتئذ فى فرنسا لانه نقل فى الحادثة التى وقعت قبلها الى بلاد اوستريا وبقى هناك الى ان مات وذلك فى سنة ١٨٣٢ والفرنساوية يحجون الى قبر نابوليون كحج المسلمين الى الكعبة • ومن ذلك بستان النباتات تنبت فيه جميع النباتات وتحفظ فيه سائر الحيوانات وهو يشتمل على عدة مواضع الاول للنبات فيه بيوت من زجاج لتنبيت ما لا ينبت فى البلاد الباردة الثانى مشرفيات فيها اشياء عديدة تعين على علم حياة الحيوان المسمى عند الافرنج تاريخ الطبيعيات الثالث مشرفية للتشريح الرابع مربض الحيوانات ومحل مونتها الخامس مكتبة تشتمل على كتب فى تاريخ الطبيعيات السادس محل يلقى فيه التدريس فى العلوم يسع ١٫٢٠٠ شخص وجملة انواع النبات التى فى البستان ١٢٫٠٠٠ نوع والتى فى المشرفية ٥٫٠٠٠ وعدد الطيور ستة آلاف وعدد السمك خمسة آلاف وعدد الاعضآء للتشريح ١٥٫٠٠٠ وجملة النباتات المجففة المحفوظة ٣٥٫٠٠٠ ومن الشجر والحب اكثر من اربعة آلاف ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية باريس كان من هم الدولة ان تحميه من غوائلهم فبقى مصونا الا ان كثيرا مما جلب اليه من

البلاد

البلاد الخارجية رد على اصحابه وفيه شجرة من ارز لبنان اهداها طبيب انكليزي اسمه غولنصون الى الدولة وقد رأيت فيه عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر اذرع وجثة سمكة وكأنها هي الذي يقال له بلادنا الجمل طولها من الرأس الى الذنب نحو خمس وعشرين ذراعا وفي ظهرها سبع واربعون فقرة كل واحدة كأنها رفش ولها ثلاث عشرة ضلعا عند رأسها كأنها ترائبها طول كل ضلع نحو اربع اذرع من كل جانب وراسها نحو قارب وفي فكها الاسفل من كلا طرفيه ثلاث وعشرون سنا قدر كل سن كالموزة وغاية الكلام ان باريس تفضل لندرة في المباني والمطاعم والمتنزهات ومحال العلم فهي معدن العلوم واللذات ولذلك ترى الوفا من عيال الانكليز الاغنياء يأتونها مستوطنين وما احد من اغنياء الفرنسيس يذهب الى لندرة ليتخذها له وطنا وانما يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلا لمعيشتهم • ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلاثة ايام في المرفع وهي التي يسمونها الكرنيفال وقد ذكرناها في الكلام على مالطة فلا ينبغي اعادتها وانما نقول هنا انه في هذه الليالي يدومون في المراقص حتى الصباح وفي يوم خميس السكارى يطوفون بثور مسمن وامامه طائفة الجزارين بلباس السخرية ويغطون الثور بثوب مزركش وعلى رأسه اكاليل من الزهر وكانت العادة سابقا ان يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك الجزارين ويمسك باحدى يديه سيفا وبالاخرى صولجانا فاما الآن فانه يقعد في نحو محفة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان • ومن ذلك عيد رأس السنة وهو ثلاثة ايام ترى فيها جانبي البلفار مشمولا بالخيام لبيع التحف والطرف التي يتهادى بها وترى ايضا غيضة شانزلزي مشحونة بظلل وقبب واخبية فيها جميع انواع الطرب والشعوذة والرقص على الحبال وثم ترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه في المملكة كلها وقد رأيت مرة امرأة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر ما لم يكن على رجل وكأنها هي التي ذكرها صاحب المعجم حيث قال ارسلت امرأة الى باريس لها لحية كثيفة وجميع بدنها مغشى بالشعر قال وقد علم ان نساء كثيرة لهن شوارب ولحى وشعر مسترسل على اكتافهن وسواعدهن من جملتهم امرأة اتى بها الى حضرة بطرس الاكبر وكانت لحيتها نحو ذراع ونصف وفي الخامس عشر من اغسطوس تصنع

الدولة عيدا حافلا يحتشد اليه مئات الوف لرؤية الانوار وشهب البارود • وفي الجملة فان ايام باريس كلها مواسم واعياد و ان ليلها ابهج من نهارها هذا وعلى قدر ما فيها من المحاسن الفائقة والارناء الشائقة فان ضواحيها ابهى واشهى • فمن ذلك صان كلو وهو على بعد نصف ساعة من باريس فيه قصر يصيف فيه الملك وغيضة غضة انيقة دورتها اربعة فراسخ وهذا القصر كان اشتراه لويس الرابع عشر وسكنه ناپوليون الاول وشارلس العاشر بنى في سنة ١٥٧٢ واثاثه اجد من اثاث قصر فرصاي وفي الغيضة مياه خرارة ولعلها هي الشلالات وبالقرب منه قصر فرصاي الذى كان مقرا للويس الرابع عشر وهو يشتمل على تصاوير بديعة لا نظير لها من جملتها صور جميع ملوك الافرنج من مات منهم ومن هو حي وصور وقائع نابوليون وصور سائر الملوك والسلاطين وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستعملها هو وآله وسرير فراشه وهو نحو صفة وفيه ملهى كان اذا امر الملك باجراء التمثيل فيه ينور بعشرة آلاف شمعة ويصرف عليه في تلك الليلة مائة الف فرنك وفي القصر ديوان فسيح كان يجتمع فيه رجال دولته ولم يكد مع رحبه يسعهم وبعد ان تنقضي فرجة الناس من القصر وذلك نحو الساعة الرابعة تطلق مياه الغيضة صعدا وتضرب آلات الطرب فيقعد الناس على الكراسي للسماع والنظر وهو منظر يسحر فان الحديقة ناضرة زاهية والعيون غزيرة ووسع الغيضة الكبرى عشرون فرسخا وقد انفق على حوض فيها مليون ونصف فاما جملة ما انفق في القصر وفرشه وفي الغيضة فقد اختلفت الاقوال والذى صح انه بلغ نحو اربعين مليون ليرة انكليزية فاما بلد فرصاي فانه كان قبل الفتنة عامرا فكان اهله مائة الف نفس والآن ليس فيه اكثر من ثلاثين الفا • ومن ذلك صان جرمان وهو على بعد خمسة فراسخ من باريس او سفر ساعة في سكة الحديد وهي بلدة مشهورة من القديم لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الارض يسرح الناظر منها نظره في مدى مديد كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور واعلام حتى يود لو يرى في جملتها صخرا من صخور مالطة وفي هذه البلدة قصر كان في الاصل مقرا لفرنسيس الاول وكان هنري الرابع يستطيب المقام فيه وكذا لويس الثالث ولويس الرابع عشر

وفيه

وفيه اقام جامس الثانى ملك الانكليز ديوانه اثنتى عشرة سنة ثم صار فى زمن الفتنة محلا للعساكر ثم جعل الآن سجنا لهم وهذه المواضع يقصدها اهل باريس فى ايام الآحاد والاعياد فى ارتال لها مقاعد فى سطوحها مكشوفة فترى وانت فى رتل منها عدة ارتال سابقة ولاحقة ولا يمكن استيفاء الكلام على هذه المحاسن من دون رؤيتها عيانا وكل ما تراه فى باريس وضواحيها من المحسنات والمتنزهات فانما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جماعات على عدتها كما هى العادة فى لندرة فان الملك هنا لا يغفل شيئا مما يؤول الى ابهة الملك وشرف المدينة ورونقها واذا علم مثلا ان فى بعض الشوارع ديارا قديمة متهدمة اشتراها من اصحابها من دون غبن وجدد بناءها وفى ايام ملكها الآن هدمت حارة كبيرة برمتها ثم بنى فى مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهى ديار البلفار فاما فى لندرة فان جميع الانشاآت والتنظيمات موكولة الى جماعات من الاهلين وليس على الدولة الا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوش •

اما ملابس اهل باريس فانها فى الجملة وضيئة فاخرة واكثر انواع الثياب التى تباع عند البزازين ولا سيما الحرير احسن مما يوجد بلندرة الا الكتان فاما الملابس المخيطة فليس لعمرى من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع هناك فان من يشترى ثوبا مخيطا فى لندره يلزمه ان يستأجر معه خياطا ليصلحه له فى كل يوم ولاهل باريس تنطس زائد فى اشياء كثيرة مما لا يعبأ به الانكليز الا ان نساءها اللواتى يعشن من كد ايديهن يلبسن احذية كاحذية الرجال وذلك منكر فى لندرة واذا خرجن فى الاسواق خرجن من دون برنيطة ولا شال وللاكتفاء عن البرنيطة سببان الاول الزهو والعجب فانهن يعرضن شعورهن واعناقهن للرنو والتعجب والثانى غلاء سعرها حيث كانت اجر اللائى يصنعنها كثيرة فان صناع باريس تكسب اكثر من صناع لندرة وبعكس ذلك الرجال وهاتان الصفتان من المنكر ايضا عند نساء لندرة ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب ولهن ايضا عناية بليغة بتنضيد اثاث البيت وبهن تليق جميع الاعمال وفى الواقع فانهن ازكن والقن من سائر نساء الافرنج وما من امرأة فى باريس الا وتعرف شيئا من المداواة ومن طبعهن التبكير فى القيام

وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتوانى والاضجاء فى النوم ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى فى اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون فى الليل ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى فى لندرة وهن اللائى يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشترى شيئا من المأكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن وان تكن بعولتهن حاضرة ولهن مزية مشهورة بين الناس فى النطق بالغيبات كما يزعمون واذا استنطقت واحدة منهن لزمك ان تعطيها عشرة فرنكات ولم اسمع عن نساء لندرة هذه الدعوى الشائعة عن نسآء باريس وقد اتفق لى مرة ان سرقت لى كراريس من كتاب القنه وعزمت على عدم افشائه وقلقت لذلك كل القلق ثم رد على بعضها من لندرة فاخذنى الذهول فلما اطلعت بعض اصحابى على ذلك قال لى عليك بالسمنمبول فذهبت معه الى واحدة من اعرفهن وكان هو ايضا يريد ان يسألها عن حاجة مهمة له وتبعنا آخر لم يكن له مأرب سوى الامتحان فقط فلما سألناها حضرت امرأة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحدق النظر فى المرأة وبعد عدة دقائق غمضت المسئولة عينيها ثم تنفست الصعداء واشارت الينا بالجلوس وعيناها مطبقتان فناولتها حينئذ قطعة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشمتها وقالت هذه القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضا واصل شرائها كان من تلك البلاد قلت نعم ولكن اريد ان اعرف من سرقها قالت اين كان مسكنك حين سرقت قلت فى روبلانش قالت نعم فى الطبقة الثالثة وقد سرقها رجل كان كثير التردد عليك قلت من هو وكيف هو قالت ليس هو بفرنساوى بل غريب مثلك قلت ما زيه قالت ليس كزينا ولا كزيك وانما يلبس ردآء طويلا قلت ما سنه قالت فى حد الثلاثين قلت بل اكثر من ذلك بثمانى سنين ففكرت هنيهة ثم قالت لست اراه الا كما قلت لك فكانت صادقة فى كل ما قالت الا فى السن ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناظره انه جاوز الثلاثين ويقال ان هؤلآء المنبئات انما ينبئن كما يضمره السائل فانى كنت اضمرت شخصا كان على تلك الصفة وكان يتردد على كثيرا وجزمت بانه هو الذى فعل الفعلة

ثم تنصتت لحس معدتي فقالت ان هــذا الشخص الذى سرق الورق صديق لمطران حاول مرة ان يسمك باطلاع ثلاثة رجال معــه ثم انى وضعت بيدهــا خصلة شعر من شعر امرأة وكانت وقتئذ مريضة بداء الخفقــان وقد قاست من الاوجاع والاطبــآء ما يطول شرحه فاخذت الشعر وشمته وقالت هــذا شعر امرأة مريضة واصل مرضهــا فى المعدة والقلب وقد مس هذا الشعر امرأة اخرى قلت صدقت ولكن لا اعلم ان امرأة اخرى مسته قالت بلى قد لمسته وان صاحبته صارت عرضة للاسقاط والولادة تسع مرات وهى ذات نشــاط وحدة فاذا غضبت تخرج عن المعقول ويخشى عليها من اللمم فينبغي ان تداريهــا وتحوطهــا وتستعمل لها العلاج الفلانى ثم سألها صاحبي القلق بعد ان ناولهــا اثرا من المسئول عنه فقالت له انك تقيم فى باريس سنتين بعد ثم تسافر الى بلادك وكذا وقع له اما الثالث فانه سألها عما فى جيبه فقــالت له ورق قال على اى شئ يشتمل قالت انا لا احسن القرآءة حتى انبئك بما اشتملت عليه قال منذ كم قدمت الى باريس وما اشبه ذلك قالت قد استحوذ عليّ صداع ولم تجــاوبه باكثر من ذلك وخرجنا من عندها وهى على تلك الحالة ثم انى لما رجعت اخبرت المريضة بما وقع فقالت اما الشعر فقد لمسته الخادمة واما الاسقاط والولادة فكما قالت • ويقال انه حين تكثر السؤال على المسئولة تضعف قوتها ويخدر ادراكها ثم انه لما كانت هذه الحرفة مضادة للديانة وللطب كان القسيسون والاطبآء اشد الناس مقاومة لهــا ولقد عجبت كيف ان الدولة تسوغ معاطاتها ان لم تكن حقــا فانا اذا اعتقدنا بصدق ما تقوله هؤلآء النســاء لم يكن بينهن وبين الانبيــآء من فرق اللهم الا ان نقول ان انبآءهن غير وارد فى الالهيات وان يكن تدجيلا وتمويها فلم لم تمنعهن الدولة من غبن الناس واختلاس اموالهم وتحكم بخروجهن من الجماعة اخذا بنص التوراة على ان بعض المتفلسفين فى باريس يدعون ايضا بان فى الانســان خاصية او جاذبية تسرى منه حتى الى الجمــاد فينفعل بهــا فضلا عن تأثيره فى انسان نظيره وعلى ذلك شاعت الاخبــار بان الموائد تميد بلمس عدة رجال لها وان الكراسى تمشى والسكاكين ترقص الى غير ذلك والذى يخطر لى على قدر ما ادركه انه كان ينبغي امتحان هؤلآء النسـاء وبعد ذلك اما ان يحظرن او يقررن على صنعتهن وقيل انهن امتحن فوجدن صادقات فى امور كثيرة

حتى لم يكن حظرهن وانه انما رخص لهن فى الانباء رجاء ان تظهر وسيلة اخرى لاتقان هذه الحرفة حيث لم يستبعد ذلك على تمادى الزمن اما ما قيل عن بوسكو فلم ار من شعوذاته ما يصدق كلام الناس فيه فان كل ما صنعه امام الناس لم يصنعه الا بادوات وقد شاع عن روبرت اودن انه كان عنده زجاجة وكان يسأل الناس اى شراب يبغون منها فكان كل يقترح عليه شيئا فيسقيهم كلهم منها ثم رأيت هذه القنانى تباع بثمن غال ولا ادرى شانها والله اعلم • اما اخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمنا طويلا لان الطبيعة البشرية فيهم لحمتها من نوع وسداها من نوع اما اولا فلأن سحنهم وبنية اجسامهم متفاوتة جدا فاهل جنوب فرنسا سمر كاهل البلاد الحارة واهل شماليها بيض شقر والثانى ان ما يظهر منهم للغريب اولا انما هو الانس وحسن المعاشرة فاذا رأى ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من مؤانسته والفته وان هذا الانس لا بد وان يتبعه كرم وصداقة ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الانكليز على حالة الانقباض والعبوس ولكن هيهات فان انيسك منهم اليوم اذا رآك غدا ظننت ان ملاقاتكما انما كانت حلما وعلى فرض استمرار الالفة بينك وبينه فلا يدعوك الى منزله ولا يعرفك باهله • ومن ذلك ان اهل البلاد الباردة كباريس وغيرها تراهم اخف حركة واحفد الى الاشغال من اهل البلاد الحارة او المعتدلة كرسيلية ونحوها فان الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض فمن قدم اليها من باريس ورأى بلادة اهلها عجب كل العجب فاين هم من اهل مالطه الذين يبادرون الى العمل بادنى اشارة • ومن ذلك ان كثيرا منهم ولا سيما اهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة ويأتى لهم بنون وبنات وهم على هذه الحالة ولا يتزوجونهن زواجا شرعيا فكيف يحب الرجل امرأة ولا يتزوجها لا سيما وقد ولدت له اولادا وربتهم وزواجهم الشرعى هو الذى يعقد فى الديوان لا فى الكنيسة ومنهم من يعقده فى كلا الموضعين وهم المتدينون العابدون • ومن ذلك انهم مائلون بالطبع الى حب النساء ومخالطتهن ومداراتهن ومع ذلك فانهم يدعونهن يعملن الاعمال الشاقة ليكسبن بعض شئ ويمكن هنا ان يقال ان نساءهم مائلات بالطبع الى حب الكسب وليست الراحة عندهن الا بتحصيل المال

المـال ومن هذا القبيل ان الرجال من فرط عشقهم يقتلون انفسهم ويرتكبون اقصى الاخطـار لارضائهن ومع ذلك فليسـوا يقيمون على ودادهن فتبديلهن عندهم اهون من تبديل اللباس ومع اعتقادهم بان نسـاءهم اكيس النساء واظرفهن و احذقهن جميعا فلا يأنفون من زواج الحبشيات وغيرهن • ومن ذلك انك ترى ادباءهم وكيسيهم ابدا يترددون على الملاهى والملاعب ليسمعوا فيهـا ويروا ما سمعوه ورأوه مرارا وانت خبير بانه يكرر فى هـذه المواضع تمثيل الحوادث كثيرا اذ لا يمكن اختراع شئ حديث فى كل ليلة ومهما يكن الشئ الممثل بديعا فاذا اعيد زالت طلاوته • ومن ذلك انك لا تزال ترى الخاصة منهم والعامة يتمشون فى الحدائق والغياض ومواضع الفرج والغناء حتى تظن ان اهل باريس كلهم سباهلة لا شغل لهم ولا عمل ومع ذلك فهم يتأنقون فى المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش فلا ادرى فى اى وقت من الاوقات يكسبون المال • ومن ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم اكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم فى الشوارع والطرق عرضة للاخطار او يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن التكفف فى المستشفى او عن الطر والاختلاس فى الشوارع كما هى العادة فى لندرة غالبا ومع هذا فانهم عقب ولادهم يبعثونهم الى الريف ليتربوا عند المراضع والانكليز على خلاف ذلك • ومنها انهم على بلادهم وجنسهم اغير من الرجل على امرأته فلا يسلمون بان فى الدنيـا بلادا تشبه بلادهم او جيلا يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها لغير موجب وحيثما ساروا بثوا وسـائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم وربمـا كانوا لهم اعداء لعمرى انى ارى طريقة ملك الصين فى منعه مخالطة رعيته بغيرهم اولى او ليس ان الدولة حين تنصب الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها الى بلاد تلك الدولة فاى الخارجين انفع لها وافضل الرجل ام الاداة • ومن ذلك انهم حين يكونون متغربين فى بلاد الناس يختلطون بهم ويجانسونهم ويخالقونهم حتى يصيروا كأنهم منهم واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به فغـاية ما يخصونه به من الاكرام انمـا هو ان يسألوه من اين قدمت واين تقصد وكيف اعجبتك باريس • ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن الحقـائق ويودون لو يعلمون كل امر من فصه وقد حذقوا كل علم وبرعوا فى

كل فن ومع ذلك فقد عزب عنهم اهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤوس ولو سلمنا لهم بان الكيسي واهل المعارف والادب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الاخلاق او حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب لم نسلم بان الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولولا ذلك لاكل القوى الضعيف فان قلت كيف يأكله والحاكم من ورآئه قلت ليس في كل الامور يمكن استحضار الحاكم او الاستغاثة به ألا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان في مكان خال وبطش القوى منهما بالضعيف أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة او اذن سامعة للقصاص فكم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد اهل السياسة والايالة ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك اعظم رادع ووازع فاتصاف امة بعدم الدين من اعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها • ومن ذلك انه لم يزل دابهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة وارباها ولم يخطر ببالهم قط ان يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذى يجرى في عبارات اهل السياسة والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم امام الله والناس بانهم لا ذوق لهم ولا المام بشئ من الادب • ومن ذلك انهم ينكرون على اهل اللغات الشرقية وخصوصا اللغة العربية كثرة الاستعارات والكنايات مع ان لغتهم تطفح بها طفحا ولولاهما لضاقت بهم العبارة عن تأدية اكثر المعانى وسيأتى الكلام على ذلك بالتفصيل وانما اقول هنا انى لما اردت ان اترجم من قصيدتى التى مدحت بها الامبراطور نابوليون قولى

ولا تملل وقت توأمى عدة * له وانجازها بل قلما سئلا

قال المصحح ان ذلك لا يكون مفهوما بلغتهم ولو جاء بهذه الاستعارة احد مؤلفيهم لحسبت من البلاغة بمكان ومن طبعهم في التأليف والكلام ان ينتقوا الالفاظ الجزلة الفخمة يكسون بها سخيف المعانى فتسمع منهم جعجعة ولا ترى طحنا وهذا دآء فاش فيهم اجمعين • ومن ذلك ان نساء عامة الفرنسيس مع زهوهن واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل تراهن يتعاطين من الاعمال الخسيسة ما تأنف منه اخس نساء الانكليز كتكنيس الطرق وحمل الاحمال

وتنظيف

وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحيض ونحو ذلك ولا بد من ان تخاطب كل واحدة من هؤلاء الخسيسات المبتذلات بلفظة مادام فاما الستات المترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار فان ما نقص من مترفية سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن وافيا فهن نساء صورة وشكلا ورجال امرا ونهيا وحيث قد استوفيت الكلام عليهن فى كتاب الفارياق فلا حاجة الى اعادته وانما اقول هنا انهن لا يعترفن بفضل الرجل على المرأة فانهن يقلن ان الله تعالى لم يخص الرجل بمزية الا وعوض المرأة عنها باخرى فجعل بين ذلك توازنا حتى تستتب الالفة والوفاق بينهما فمما اختص به الرجل القوة والشدة ليمكنه تحمل المشاق فى تحصيل اسباب معيشته فعوض المرأة عنها بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية اولادها واختص الرجل بسطة الجسم والمهابة فعوض المرأة عنها بفتنة الحسن والروع فهما يكن الرجل متترعا الى السوء تردعه عنه من نظرات المرأة روادع واختص الرجل بطول النظر والفكر فى العواقب فعوض المرأة عنه بالبديهة العتيدة وسرعة الجواب المقنع واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس فعوض المرأة عنه بالتصاون والحياء وهكذا • ويحكى عن احدى الخواتين انها استأجرت مقعدا فى بعض الملاهى حيث اريد اجراء التمثيلة المعروفة بالبروفت اى النبى وكان الناس يتزاحمون الى رؤيتها لانها كانت اول ليلة فاتفق ان مرض زوجها بغتة فاقبل اليها بعض اصحابها ليبدوا لها التأسف على حرمانها من الذهاب وهى فى خلال ذلك تتأوه وتفرك يديها ثم قالت ان هذا المخلوق لم يأت فى عمره كله الا ما يغيظنى وسترون الآن انه يموت عمدا ليحرمنى من الخروج الى الملهى اه وفى الجملة فان كل ما تفعله احدى هؤلاء الخواتين فانه يعجبها واهلها وجيرتها واهل المملكة اجمعين • ولا شئ يعجبنى من احوال الفرنسيس اكثر من معرفتهم للناس فان هؤلاء الذين يخرقون على الانكليز لو اقاموا بين الفرنسيس سنين لم تكسبهم مخاريقهم خرقة يسترون بها عورتهم او رغيفا يفثأ جوعهم واعلم ان امة الفرنسيس امة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم فى المعارف والمساعى العظيمة حتى ان اهل المشرق اطلقوا اسمهم اعنى الافرنج على سائر سكان اوربا وكما ان بلادهم ولا سيما باريس لم تزل مقصدا للناس فى الكياسة والحضارة

كذلك ما برحت الممالك المشرقية منتابا لهم ولم تكن دولة من دول الافرنج قبل استعمال البواخر تذكر بالنسبة اليهم نعم ان الانكليز اشتهروا فى الهند منذ اكثر من قرنين الا انهم لم يكونوا يجولون فى بلادنا ولم يكن يرد اليها منهم غير الفاصل ولكن لم تكد خاصية البخار تعرف عند الكيمياويين حتى ملأت سفائنهم البحار وامتعتهم وبضاعتهم جميع الحوانيت والاسواق وحينئذ عرف انهم ذووا كد واجتهاد فادركوا من تقدمهم فى متقادم الزمن وقد جرت العادة بان سكان الجزر ابدا يكونون ناشطين الى التجارة والاسفار ضرورة انهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة الا ان الانكليز لا يتطبعون بطباع اهل البلاد التى يتنابونها ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الاحوال المغايرة لاحوالهم والمباينة لطباعهم بخلاف الفرنسيس فان بلاد الله كلها لهم بلاد والذى زاد هؤلاء ايضا شهرة ونباهة هو ان نبغ اناس منهم تفردوا فى عصرهم بمآثر ومزايا لم يشاركهم فيها جيل آخر فمنهم شارلمان فى العز والسطوة فانه دانت لعزه ايطاليا وجرمانيا وكان فيصلا عند جميع ملوك اوربا قيل انه كان سعيدا كاغسطوس ومقداما فى الحرب كادريانوس وهو اول من انشأ مشيخة للعلوم فى باريس وكان هو من جملة اعضائها ومنهم لويس الرابع عشر فى المجد والكرم كان فى شهرته بالغرب نظير هارون الرشيد فى الشرق وفى دولته نبغ كثير من العلماء والادباء والفضلاء وذلك كفينلون مؤلف تليماك خطب فى الكنائس وهو ابن خمس عشرة سنة ولد فى سنة ١٦٥١ وبوسوا الشهير فى التاريخ والفصاحة ولد فى سنة ١٦٢٧ ومولير الشاعر البارع ولد فى سنة ١٦٢٢ وبوالو وهو ايضا من الشعراء المفلقين ولد فى سنة ١٦٣٦ وراسين وهو بمنزلة شكسبير عند الانكليز ولد فى سنة ١٦٣٩ ولافونتين وهو وان لم يحظ عند الملك الا انه كان من الفضل والعلم بالمكان الاعلى ولد فى سنة ١٦٢١ والامير كوندى جعل قائد الجيش وهو ابن ٢٢ سنة وقهر جيوش اسبانيا والنمسا وهولاند ولد فى سنة ١٦٢١ وغيرهم كثيرون ونبغ من قبله هنرى الرابع الشهير فى التدبير والايالة وقد مر ذكره ومنهم فلتير فى العلوم ولا سيما فى التاريخ والادب وسعة الاطلاع والعبارة ولد فى سنة ١٦٥٤ وفلنى فى التاريخ والادب ايضا ولد فى سنة ١٧٥٧ وبوفون فى الطبيعيات

ولد

ولد فى سنة ١٥٩٦ و دكرا فى الفلسفة و لد فى سنة ١٧٤٩ ودلامبير فى الهندسة ولد فى سنة ١٥٩٦ ومونتيسكيو فى الفلسفة والادب وعموم المعارف ولد فى سنة ١٦٨٩ ونابوليون الاول وناهيك باسمه، واصفا على ان الانكليز الآن يتنافسون فى كل شيء يقال فيه انه فرنساوى فاذا ارادت التجار منهم ترويج شيء من سلعهم كتبوا عليه فرنساوى وكذلك اصحاب الملاهى يكتبون فى اعلامهم ان مادام كذا تلعب الليلة فى الملهى وموسيو كذا يحكى كذا وما تكون هذه المادام او هذا الموسيو الا منهم وفيهم ولا تكاد ترى شيئا فى باريس مروجا باسم الانكليز ويمكن ان يقال انه لم تستتب فى الدنيا واقعة خطيرة الا وكان للفرنسيس فيها يد فانهم هم كانوا سبب الحرب المعروفة بالصليبية فى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى وذلك ان بعض ضباط الفرنسيس المسمى بطرس الارميت اى الناسك كان قد سافر الى الارض المقدسة فى سنة ١٠٩٣ واجتمع ببطرك اورشليم فشكا البطرك ما تقاسيه النصارى هناك من جور المسلمين فلما فصل عن المكان اصحبه بكتاب الى البابا اوربان الثانى فجرده البابا لان يطوف على ملوك النصارى ويحرضهم على القتال فاخذت بقوله وهاجوا لارسال الجيوش ثم قام من بعده راهب من بريتانى اسمه ارلوان ثم صان لويس ألا ولولاهم لم تستقل دولة اميركا بامورها كما نراها الآن وتفصيله ان دولة الانكليز كانت قد كلفت المستوطنين فى اميركا من المكس والضرائب ما لم يكونوا يعهدونه وكان الحامل للدولة على ذلك ما ركبها من الدين بسبب الحروب التى تقدمت كما يرد تفصيله فلما بلغت الاوامر الى بستان او بستون تعصب اهلها على ان لا يدفعوا شيئا مما لم تجر به العادة ثم عقدوا مجلسا عاما ورأسوا عليهم جورج واشنطون وفوضوا اليه التدبير والامر وفى سنة ١٧٧٦ شهروا انفصالهم عن الانكليز وبعثوا بنيامين فرنكلين الى ديوان فرنسا ليعرض ما استقر عليه رأى القوم واستنجدوا بالملك لويس السادس عشر فارسل لهم اثنتى عشرة بارجة من طولون فتوجهت البوارج الى رود وهى جزيرة كانت تدخر الانكليز فيها جهاز الحرب فما كادت تصل الى هناك حتى ثارت عليها الرياح العواصف فبادت عن آخرها ثم ذهب من فرنسا لاعانة الاميركانيين كثير ممن شهروا بالبسالة والنجدة اشهرهم لافايت وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة لا غير فلما

وصل الى هناك حظي عند واشنطون حظوة عظيمة و وقتئذ اتفقت دولة فرنسا مع دولة اسپانيا بعد ما كان بينهما من المنافرة على اعانة الاميركانيين ثم امدهم الجنرال روشامبو بستة آلاف من العسكر لاستخلاص جزيرة رود ثم استخلصوا ايضا مدينة يورك واستأسروا من الانكليز ثمانية آلاف وعندها تم انعقاد الهدنة بين الدول و جرى تحريرها في باريس سنة ١٧٨٣ انتهى ملخصا من فلتير ◆ قلت ثم اضطرمت الحرب بين الانكليز والفرنسيس فقام الاميركانيون مقام من لا ضلع له مع احد الفريقين ثم اشتعلت ايضا بين الانكليز والاميركانيين وذلك في سنة ١٨١٢ فلم تدم الا بعد ثلاث سنين قال في معجم الاوقات اصل حروب فرنسا التي تغلغلت فيها الانكليز نحو مائتي سنة نشأ عن امرآء نورماندى وهم ملوك الانكليز فانهم كانوا يضبطون هذا الاقليم كأنه وقف لتاج فرنسا حتى فتح وليم الاول انكلترة فصارت هذه الولاية ملحقة بها ولكنها انسلخت عنها في عهد الملك يوحنا وذلك في سنة ١٢٠٤ قال وقد تعددت حروبنا مع الفرنسيس ونصرنا عليهم نصرات متعددة وفي عهد هنرى الرابع طرد الانكليز من فرنسا وبعد ان خرجت من يدهم بقيت الحروب تعاقب المهادنة والمهادنة تعاقب الحروب مددا طويلة فجملة ما وقع من الحروب بيننا وبينهم ثماني عشرة حربا وقد قضت الانكليز ستا وخمسين سنة في الحرب واثنين وستين في السلم فصرفوا في حرب سنة ١٦٨٨ ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة وفي حرب اسپانيا اثنين وستين مليونا وفي الحرب الثانية معهم اربعة وخمسين مليونا وفي الحرب التي دامت سبع سنين مائة واثني عشر مليونا وفي حرب اميركا مائة وستة وثلاثين مليونا وفي حرب فتنة الفرنسيس اربعمائة واربعة وستين مليونا وفي حرب نابوليون الفا ومائة وتسعة وخمسين مليونا فتكون جملة المصاريف في مدة مائة وسبع وعشرين سنة وذلك من وقت الفتنة التي جرت في سنة ١٦٨٨ الى آخر مدة نابوليون في سنة ١٨١٥ ٢٫٠٢٣٫٠٠٠٫٠٠ وقد حسب بعضهم عدد القتلى من الفرنسيس في ست وقائع في حرب جرت بينهم وبين عسكر اسپانيا فكانت ٦٠٫٠٠ ومثلها من اهل اسپانيا وممن كان يتحزب لهم وبقيت اقطار البلاد عرضة للتخريب والمصائب من كل وجه ◆ قلت وقد بلغت مصاريف حرب الهند في هذه الايام الاخيرة ٩٫٥٠٠٫٠٠٠ اما نابوليون الاول فانه دان له

اكثر

اكثر ممالك اوربا فقهر پروسية والروسية و سويد حين تواطؤوا مع الانكليز على حربه ودخل مملكة پروسية منصورا فاجتمعت عليه دول الروسية واوستريا وپروسية وغيرهم ثم عنوا لطاعته في مدينة درسدن وكانت هذه خامس مرة تواطأت فيها الدول على خلعه ثم لم تمض برهة حتى حشد جيشا عظيما وتوجه بهم الى الروسية فلم يجد ممانعا له حتى بلغ مدينة المسكوب فلما اشرف عليها هو وجنده تعجبوا من كثرة ما فيها من[1] الكنائس والقبب المذهبة اذ كان فيها نحو ٨٠٠ كنيسة فيها الوف من الاجراس فقال عند رؤيته ذلك هذه مدينة المسكوب ثمرة تعبكم وجهادكم من زمن طويل وهي تكون خاتمة مساعيكم واتعابكم ثم انهم دخلوها فوجدوها خالية على عروشها فان ملكها كان قد اخلاها خدعة فظن نابوليون ان نصرته تحققت وان ملكه قد استتب فلبث فيها اياما ثم لم يشعر ذات يوم الا والنار تضرم في اطرافها فلحقه من ذلك الفشل واضطر الى اخلائها فلحق به جيش الروس وما كاد يتخلص منهم الا بعد اخطار شاقة فلما رجع الى باريس رأى اهل الشورى قد تغيرت خواطرهم عليه فاضطر الى ان يخلع نفسه وسار الى جزيرة ادلب فخلفه في الملك لويس الثامن عشر لكنه ابدى من سوء التدبير ما امال خاطر بعض رجال الدولة الى نابوليون فجرت بينهم المكاتبة والمراسلة ثم لم يشعر الناس بعد مدة الا وهو يجول في البلاد ويحرض حزبه على قتال العدو وجعل يعدهم ويمنيهم فمالت قلوب الناس اليه فما برح سائرا حتى دخل باريس ففرحت به رجال الدولة وفر منه لويس ثم انه جمع جيشا عظيما وتوجه لقتال الانكليز وپروسية عند فلوروس فانتصر على جيش پروسية فقتل منهم يومئذ ٢٢,٠٠٠ الا ان عساكر اعدائه كانت اكثر عددا من عساكره باضعاف ثم زحف الى قتال الانكليز عند واطرلو وكاد ان يظفر بهم لولا ان تداركتهم جيوش پروسية فاحدقوا بعساكره فلم يطيقوا الثبوت ويومئذ تقطعت به اسباب الآمال فجعل يتلقى رصاص البنادق والمدافع وهو كاشف صدره ومع ذلك فلم ينله ضير فرجع منكسر الخاطر مهيض الجناح فحكم اهل الشورى بخلعه فعرض عليهم ان يقاتل العدو في رتبة امير لواء فابوا فصمم على ان يسير الى اميريكا حتى اذا سار بشرذمة من حزبه الى روشفورت وكانت سفن الانكليز تطوف هناك امسكوه وتوجهوا

به الى جزيرة صانت هيلان وهناك قضى نحبه • اما اتحاد بروسية مع الانكليز فكان سببه ان نابوليون كان يريد ان يعطى مملكة هنوفر للانكليز فى مقابلة صقلية فهاجت حمية ملك بروسية على نابوليون وبلغ من غيظ زوجته انها كانت تركب وتدور فى شوارع المدينة وتحرض الناس على القتال وهى مترديه بلباس الجند ووقتئذ تواطأت الدولتان ودولتا الروسية وسويد على نابوليون الا انه غلب الجميع حيث دخل قاعدة مملكة پروسية منصورا مظفرا كما تقدم فاما تواطؤ سائر الدول عليه فانما كان خوفا منه ان يستولى على ممالكهم اذ كان لا يرده شئ عما نواه ووقتئذ سولت دولة الانكليز لملك الدانيمرك ان يواطئها عليه فابى فارسلت بوارجها الى كوبنهاك فاطلقت المدافع عليها فهدموا منها ٣٠٠ بيت واستولوا على بوارجها وكانت ٥٣ بارجة انتهى ملخصا من فلتير • ومن ابطال نابوليون المشاهير مورو الذى قهر امبراطور النمسا وبدد عساكره حتى اضطر الى طلب المهادنة فاجابه بشرط ان تنفصل دولة النمسا عن دولة الانكليز فانهما كانتا متواطئتين على فرنسا وسيأتى ايضا ذكر نابوليون عند ذكر الامير نلسون الانكليزى وغيره فى وصف لندرة • وممن تفرد فى البسالة والحماسة من هذا الجيل اى الفرنسيس جان دارك الشهيرة وكانت فى الاصل خادمة فى بعض الحانات وكانت تركب الخيل بلا سرج لجرأتها وقوتها وتدعى انها تقدر على استخلاص فرنسا من يد الانكليز فاحضرت بين يدى دوك دورليان فى برج ثم بعد ان علم انها بكر وانه كان يوحى اليها فوض اليها ان تقود جيشا وتسير بهم لاستخلاص اورليان وكانت حينئذ تحت حصار الانكليز فلما بلغت البلد القت خطابا بليغا على من معها من الجيش وحرضتهم على قتال الانكليز فاخذتهم الحمية والحماسة وتقدمتهم الى القتال وبيدها راية فلم تمض ساعات حتى هزمت جيش الانكليز واستنقذت البلدة • قال فى انجديبة الاوقات لما كانت الانكليز محاصرين اورليان زعمت جان دارك بان الله اوحى اليها ان تطردهم منها فقلدها شارلس الثامن تدبير الجيش فسارت بهم الى الموضع المذكور وذلك فى سنة ١٤٢٩ وضايقتهم حتى اضطرتهم الى ترك الحصار واستردت منهم عدة مدن كانت تحت يدهم وهزمتهم فى واقعة باتى المشهورة ولم يكن احد يجد فيها محلا للوم والقذف فانها جرحت عدة مرار

حكى

حكى والعهدة على الراوى انها لما كانت ذات مرة سائرة مع ابيها فى بستانه وهى بنت خمس سنين ابصرت حولها نورا ساطعا فى الهوآء فالتفتت فرأت صورة الملك ميخائيل رئيس الملائكة فاوعز اليها ان تكون مطيعة لما يجب عليها وان الله يحميها فلما سمع ابوها بذلك وكان رجلا شرسا عاملها بالعنف والقساوة حتى اضطرت الى ان تفارقه وتخدم عند ارملة صاحبة فندق وهناك ابدت من صدق السعى والاقدام على الاعمال ما فطرت عليه فكانت تركب الخيل لتسقيها وتسافر فى قضاء حاجة سيدتها من دون خوف وكانت فى الصلاح على اعظم من ذلك قال المعلم سريس انه كان على طلعتها سيماء الحياء والبهجة واللين مع العزم والمضاء وكان كلامها سديدا والعفة قرينة اعمالها كلها ثم انها رجعت الى بيت ابيها بعد خمس سنين وعادت الى رعاية ماشيته حتى بلغت ثمانى عشرة سنة وكانت امور فرنسا اذ ذاك على شفا جرف هار من البوار والخراب وكان قد بلغ الجارية ما اصاب اهل بلادها من الضيم وملكهم من الهزيمة والفشل وفى غضون ذلك رأت ما الم بمعارفها من البؤس بسبب الحرب التى وقعت فى فرنوى فكانت تبصر رؤى وتسمع اصواتا سماوية اكثر مما كانت ترى وتسمع من قبل الى ان ارجف الناس بسقوط اورليان فى يد الانكليز اذ كانوا وقتئذ محاصرين لها قال فابصرت الملك ميخائيل والقديستين كاترينة ومرغاريت يحرضونها على ان تخصص نفسها لانقاذ بلادها فقالت انى فلاحة مسكينة ولا دراية لى بمثل هذه الخطوب فأكد لها الملك انها تعطى مقدرة وحكمة وان القديستين تصاحبانها وان كل شئ يجرى على وفق المراد ثم ظهرتا لها ايضا فى نور عظيم وعلى رؤوسهما تيجان بهية مرصعة ولهما صوت رخيم وكانت البنت تذكر رواية جرت بين الناس مجرى النبوة وهى انه كما ان خراب فرنسا نشأ عن امرأة شريرة اعنى ايزابلا من بافاريا كذلك يكون استردادها على يد بنت غير ذات عيب تتجرد لانقاذ بلادها وان هذه المنقذة تأتى من جهة بواشسنو ثم كثر توارد الاصوات عليها وكثر حثها لها حيث كانت امور فرنسا تختل بالكلية واوشكت ان تكون فى البحران

واشارت اليها انها هي تلك البكر المعنية فاستحوذ عليها الكرب والكآبة وكانت كثيرا ما ترى باكية عند مفارقة الرؤيا لها وكان ابواها لا يصدقان بما ترى فارادا ان يزوجاها منعا لها عن الخروج مع الجند فاعرضت عن عرضهما حيث كانت قد نذرت البتولية واتفق وقتئذ ان جماعة من حزب الانكليز مروا بقريتها فنهبوها واحرقوا الكنيسة فاضطرت الى الفرار مع والديها فلما رجعوا ورأت ما نزل بالقرية اشتد غيظها وجأشها فامرتها الاصوات بان تذهب الى بعض الحكام فى ذلك الجوار وتطلب منه ان يوصلها الى الملك وانها ان لم تفعل ذلك تعدم خلاص نفسها وانها حين تمثل فى حضرته تخبره بانها ارسلت لكف حصار اورليان ولتتويجه فى رام فقصدت الحاكم وطلبت مقابلته فابى اولا ان يراها فما زالت تلح عليه حتى اذن لها فلما دخلت نظر اليها نظر المزدرى وامر خالها بان يردها الى بيت ابيها وان تجلد فقالت له ان ذلك عمل سيدى ولا بد من انجازه قال ومن سيدك قالت ملك السماء فايقن بانها مجنونة وصرفها فلبثت فى تلك الجهة وكانت تبتهل فى كل يوم وتقول ان الاصوات تلح عليها بانجاز العمل فشاع خبرها فى البلد فكانوا يهرعون الى رؤيتها ويعجبون من تقواها وحسن سيرتها فارسل اليها احد الامرآء ان تأتيه وتشفيه من دآء به فارسلت تقول له انى لم ابعث اليك وان الاصوات لم تذكر لى اسمك وفى جميع هذه الحوادث كانت افعالها وكلامها على حد سوى وكانت مالكة هوى نفسها فلم تكن تبدى شيئا من الجفآء او السرف وكان ذهنها يزيد صفآء وتوقدا ولم يكن لها مأرب سوى اغاثة اورليان وتتويج الملك فعرض عليها احد الرهبان ان يعضدها بامرأة زعم ان لها قدرة علوية فوق الطبيعة فقالت له لا حاجة لى بها ثم قالت من حيث ان الحاكم لم يكترث بى فانا اذهب الى الملك وحدى ماشية اذ ليس احد من الملوك يغيث فرنسا حتى ولا بنت ملك سكوتلاند فما من اغاثة الا بى على انى لو خيرت لاخترت المقام بدار ابى والغزل بازآء امى ثم الح الناس على الحاكم بان يجيبها الى ما طلبت قال وبعد ان رش عليها القسيس المآء المبارك واختبرها وعلم انها ليست بساحرة ارسل معها بعضا من خواصه فسافرت فى شهر شباط من سنة ١٤٢٩ وكان الملك بعيدا عن ذلك الموضع مسافة مائة وخمسين فرسخا فى اقطار مشحونة بالحرس والعسس

والمخاوف

والمخاوف فركبت الجواد فى زى رجل وتقلدت السيف وطمنت قلوب السائرين معها فجابوا تلك النواحى من دون ان يصادفوا احداً من الاعدآء حتى اذا اشرفت على مقر الملك بعث من يخبره بقدومها فلما سمع بذلك اندفع فى الضحك وان كان وقتئذ فى حالة يصدق عليها قول من قال انه يتعلق بحبال الهوآء فاشار عليه بعض وزرآئه ان يقابلها وسخر منها الآخرون وظل رجال الديوان ثلاثة ايام فى هذه المذاكرة والملك لا يدرى بايهما يجزم الى ان قر الرأى اخيرا على ان يؤذن لها فى الدخول ولاجل ان يختبرها تزيا بزى رجل من العامة وجعل احد خواصه فى زيه فلما دخلت خرقت صفوف الحشم والتبع حتى وصلت اليه وجثت بين يديه وقالت ملاك الله بالعمر ايها الملك الحليم فتعجب وقال لها لست انا الملك وانما ذاك و اشار الى الوزير فقالت باسم الله ليس الملك الا انت انا جان العذرآء ارسلنى الله اليك لاغيثك والمملكة وعن امره ابين لك انك تتوج فى مدينة رام فاخذها الملك ناحية وبعد ان ذاكرها هنيهة قال لقد اطلعتنى على امور لم يكن احد يعرفها الا الله تعالى والا انا وانى اول من صدق بانها ارسلت لانقاذ المملكة وقال فلتير فى كتابه الذى سماه «لاپوسل درليان» ان الملك سألها عما جرى بينه وبين محبوبته فى تلك الليلة ولعل ذلك تهكم منه على عادته قال الراوى وفى الغد القابل رآها الناس علانية على جواد تركضه وتضبطه احسن ضبط وكانت تعتقل الرمح وتبدى من الفروسية ما لم يعهد لغيرها وكانت مهفهفة القوام ولها شعر اسود مسترسل على كتفيها وعمرها فى حد سبع عشرة سنة فعجب الناس لما شاهدوها على هذه الحالة وهتفوا باصوات عالية تنبئ عن تصديقهم لها غير ان الملك لم يستخلص سريرتها فامر بان يمتحنها جماعة من الاطباء والمتكلمين فالقوا عليها مسائل صعبة مدة ثلاثة اسابيع وحاولوا ان يعرقلوها بالكلام وكان ذلك عبثا فانها اصرت على قولها الاول وهو انها انما ارسلت لكف حصار اورليان وتتويج الملك فى رام وكانت وقتئذ بيد العدو ولم تزد على هذا شيئا فاقترحوا عليها آية فقالت ارسلونى الى اورليان مع جماعة من العسكر تعلموا حقيقة ما اقول اعنى كف الحصار وكانت حين تنصرف من عندهم تقضى اوقاتها بالدعآء والخلوة حتى اذا فرغوا من القاء المسائل عليها على انواعها ونضحت بالماء المبارك عادت متسلحة من الرأس الى القدم فى زى الفرسان

الاقدمين فكانت تركب الجواد ورايتها امامها والرمح بيدها وتبدى من طرق الفروسية ما يعجب الجيش وكان اهل اورليان اذ ذاك فى كرب شديد وكانوا قد سمعوا بخبر الفتاة فارسلوا يطلبون مددا والتمسوا بان تكون الجارية على رأس الجيش فطلبت ان تعطى سيفا قديما زعمت انه موضوع فى قبر فى كنيسة القديسة كاترينة فبحث عنه وسلم لها فتقلدته وسارت مع جماعة من مشاهير ذوى الامر والنهى بفرنسا واول ما بلغت المعسكر طردت منه النساء الدنيئات اللائى كن يصحبنه وحتمت على كل جندى بان يعترف ويتناول ثم سارت بالجيش الى اورليان وسار صيتها بين يديها فاستقبلها الانكليز اولا بالاستخفاف والاحتقار ثم بالخوف الخفى واخيرا بالرعب الذى تمكن فيهم فكانت تأمر الجيش بالتقدم على مقتضى تبليغ الاصوات واتفق مرة انها امرتهم بالزحف على البلد من جهة يمين الشط الا ان احد الضباط ممن لم يكن له اعتقاد بها انزلها فى فلك هى والجيش واخذ جهة اليسار مخافة ان يقابل المحاصرين من الانكليز فى الجهة التى رسمت بها فثارت عليهم ريح عاصفة اضطرتهم الى الرجوع والى ان يأخذوا عين الطريق التى امرتهم بها اما اهل البلدة فحيث كان قد بلغ الضنك والجوع منهم كل مبلغ استقبلوها بالمشاعل والاكرام واحتفلوا بها غاية الاحتفال لاعتقادهم ان نجاتهم تكون على يدها وصنعوا لها وليمة فاخرة لكنها ابت ان تنال منها وآثرت ان تتعشى فى دار خازن مال الملك على الخبز مبلولا بالخمر فاستحوذ الرعب على قلوب الانكليز وكانوا قد سمعوا مذ شهران بانها قادمة لمحاربتهم حيث كانت كتبت الى رئيسهم تنذره بان الله امرها بطردهم من فرنسا واختلفت فيها الاراء والمذاهب فاعتقد الفرنسيس بانها رسول من السماء واعتقدت الانكليز بانها رسول الشيطان ثم قالوا ان تكن من البشر فنحن لا نخاف بشرا وان تكن من الشيطان فلا قبل لنا بها فاجتهد رؤساء عسكرهم فى ازالة هذا الوهم الذى اثر فى الجيش بقولهم انها دنيئة الاصل وجاهلة وان هى الا آلة استعملها الفرنسيس ليهولوا بها عليهم ولكن كان ذلك عبثا فانهم اعتقدوا انها من اعظم السواحر ورسخ تأثير ذلك فيهم فكانت حيثما تظهر تفر منها عساكرهم فجعل الفرنساويون يدخلون ويخرجون بلا مانع وزحفت مرة على الانكليز وهى راكبة جوادها الابيض

وامامها

وامامها رايتها البيضاء وورآءها جوق من القسيسين يرتلون فغشيهم من الدهشة والرعب ما غشيهم ثم نصبت سلالم على برج طورنل وارتقت فيه ودعت من كان فيه من عسكر الانكليز الى ان يخلوه او يحيق بهم شر فشتمها احد الامرآء وعيرها رعايتها البقر فقالت له بئس الفارس انت انك غير جائز من هنا انما انت مقتول ثم امرت جندها بان يهجموا هجمة واحدة وكانوا حينئذ قد نشموا فى الحسد لها فواعدوها الى غد ليكون الفخركله لهم فانصرفت لتستريح فما هو الا ان نزعت درعها حتى نهضت ولبسته وقالت قد امرتني الاصوات بالقتال فالبدار البدار ثم لما اقدمت رأت الفرنسيس مرتدين على اعقابهم اذ كانوا هجموا من دون علمها وقد هلك منهم كثير فاشتد غيظها وتقدمت الجند بنفسها واخذت تحض على صدق الحملة فاستخلصت ثلاث قلاع ثم سارت الى برج طورنل وتهددت جميع من يخالفها بالعقاب فواطؤوها حينئذ مواطأة رجل واحد وهجمت عليه فمانعها الانكليز ممانعة قوية فلم ينقص ذلك من عزيمتها شيئا واعلنت ان الله قد سلم الانكليز ليد الفرنسيس ثم اخذت سلما وركزته عند حضيض البرج والرمى عليه متواصل واخذت فى الارتقآء فاصابها سهم نفذ فى درعها ما بين صدرها وكتفها فانطرحت فى الخندق فاهل الانكليز من فرحهم وظنوا انها ماتت ثم حملت الى المقدمة واخرج منها السهم فافاقت وجثت تصلى ثم عاد اليها نشاطها فنهضت وقالت ليس ما قطر منى دما وانما هو ظفر وان الاصوات تدعونى الى اتمامه ثم استأنفت القتال باشد صولة وامنع باس فلما بصر بها الانكليز فشلوا وخاروا فقتل منهم يومئذ ستة آلاف رجل من جملتهم ذلك الامير وغيره ممن انبأت بهلاكهم فعقد احد قواد الانكليز المسمى صفولك مجلس مشورة وفاوض اصحابه فى الحرب فلما رأوا هلع الجند عزموا على كف الحصار حتى اذا كان اليوم القابل جمع الجند كلهم وعبأهم للقتال واوهم انه يبدى ممانعة ومغالبة وهو فى الواقع منسحب بالجيش ثم بعث الى الفرنسيس ان ينازلوه بلقاهم سواء كانت فاجرة او نبية او ساحرة فرسمت الجارية على العسكر بان لا يفارقوا البلد لانه كان يوم الاحد وان يقضوا النهار بالعبادة لله الذى نصرهم فانتظر صفولك ساعات فلما لم يأته احد احرق البرج وما حوله وانسل بعسكره فنهت الجارية جندها عن ان يعقبوهم وعند ذلك اسرعت للقآء الملك فى بلوى وكانت فى ممرها

تزدحم عليها اهل القرى لمس قدمها او ثيابها او فى الاقل لمس جوادها فاستقبلها رجال الديوان بغاية الاكرام وامر لها الملك بمأدبة فقالت له ليس الآن وقت القصف والرقص واللذات فان علىّ بعد ان اسعى لفرنسا ومدتى قريبة لان الاصوات انذرتنى بانى اموت بعد سنتين ثم دعته ليتقدم معها الى رام لتتوجه وتترك الانكليز فى يد الله فتقدم الملك بمن عنده من الجند حتى وصل الى لوار ثم ارتأى ان يخرج الاعدآء اولا من المعاقل والحصون ليأمن السير الى تلك الطية فسارت بالجيش الى جارجو حيث كان صفولك مخيما بعسكره فقاتلتهم عشرة ايام حتى استولت على المحل عنوة وقبضت على صفولك اسيرا وكانت هى اول من ارتقى فى السلم وعند بروز رأسها بادرها احد الجند من داخل الحصن بضربة جندلتها فى الخندق فصرعت حتى لم تقدر على النهوض والمت جدا لكنها كانت تصرخ وتقول تقدموا يا رجال ولا تخافوا شيئا فان الرب سلمهم ليدنا فدخلت الحمية فى قلوب الجند لبسالتها وثقتهم بكلمتها فهجموا هجمة شديدة واستولوا على البلد فقتل من الانكليز يومئذ ثلاثمائة رجل فلما بلغ الخبر مسامع الامير طالبو الانكليزى اخلى جميع البلدان وانصرف الى باريس ثم سارت الى باتى فلبث جندها هناك ينتظرون مددا من الفرسان فقالت لهم دعوا التلبث واقدموا فليس عليكم الا ان تضربوهم ثم زحفت عليهم فحاق الفشل بالعدو من كل وجه مع ان رماتهم كانوا من احذق الرماة ولطالما اثخنوا الفرنسيس فقتل منهم فى ذلك اليوم الف ومائتا رجل وكان حزب كبير من القسيسين ينتظرون الملك والجارية ليوصلوهما الى البلد وفى الخامس عشر من تموز سنة ١٤٢٩ سارا ومعهما رؤساء الضباط والقواد وبعد يومين توج الملك فى الكنيسة ففرح الناس واستبشروا بطيب العيش والراحة وتمكن اعتقادهم بها فكانوا يرون حول رايتها حينما سارت اسرابا كثيرة من الفراش الابيض البهيج وبهذه الراية كانت واقفة على رأس الملك عند التتويج ولما فرغ من تتويجه جثت عند قدميه وعانقتهما وهى باكية وقالت الآن تم سعيى وكل ما وعدت به باسم الله فقد انعم به فالتمس من الملك ان يطلقنى الآن لاذهب الى بيت ابى واسير سيرتى الاولى فابى الملك ذلك اذ رأى ان خلاص الامة متوقف عليها وانها فعلت فى الزمن القصير ما لا يفعله غيرها فى الزمن المديد الا انها من تلك الساعة تغيرت احوالها بالكلية

فان

فان الروح فارقها وانقطعت عنها الاصوات وذهب عنهـا ذلك الرأى الرشيد واستحوذ عليها الغم والابتئاس فكان اذا طلب منهـا ان تقضى امرا تضطرب افكارهـا فيه واذا امرت بشئ ترتاب وترجع فيه فاعادت الالتماس من الملك وهى جائشة النفس شكرى العين لان يأذن لها فى الانصراف لان عملهـا قد تم وكانت قد علقت دروعها فى كنيسة رام اشارة الى انهـا قضت ما وجب عليها فاشـار عليها الملك بان تلبسها فامتثلت امره الا ان ضباط العساكر حينئذ كانوا قد اضمروا لها السوء حسدا فصاروا يشنعون عليهـا ويسيئون معاملتها واغروا العسـاكر بان تنبزها بالالقاب الذميمة لا بل حاولوا ان يهتكوا حجابهـا ليفضحوها بين الناس ويكفوا كلمتها عنهم فردتهم اقبح الرد ولم يكن يجالسهـا سوى النساء العفيفات ولا تنام الا ومعها امرأة فى الفراش ثم اشـارت على الملك بان يتوجه الى باريس فسـار وعنت له بلدان عديدة حتى وصل اليهـا وامر بالهجوم على فوبور دوصانت اونرى فجرحت البنت هنـاك وصرعت مدة ساعات ثم قامت وعلقت دروعها مرة اخرى وطلبت من الملك الانصراف فابى ووعدها بان يرقيها فى رتبة شريفة ويجرى عليها وظيفة الارل وان يعفى قريتها من الخراج ابدا فاجابت الى ذلك ثم فى تلك الاثناء قام راهب اسمه ريشارد ومعه امرأة زعم انهـا نبية واخذا يحثان النـاس على جمع المال امدادا للملك فابت جان ان توادثهما وقالت انما النجاح على اسنة الرماح وفى سنة ١٤٣٠ سارت بامر الملك لكف الحصار عن كومبان وكان عليهـا دوك برغندى فسارت على عادتهـا فى الاقدام والبسـالة الا انها لمـا اوقعت بالمحاصرين خذلها اتباعها فلمـا قاربت باب المدينة رماها احد الرماة فوقعت على الارض واستسلمت للامير فندوم فذاع خبر اسرها فى جميع الامصار فوردوا ينظرون اليها وخذلها الملك لؤما منه ولم يسع فى افتكاكها ثم باعها فندوم للكسمبوروغ وباعهـا هذا للانكليز بعشرة آلاف فرنك وتخلى عنهـا معارفها وتواطأ الناس على احراقها كساحرة وكان اهل باريس يشمئزون من ذكرها حتى انهم احرقوا مرة امرأة لقولها ان جان رسول من السماء وفى الثالث عشر من شباط سنة ١٤٣١ اقيمت عليها الدعوى فاحضرت فى الديوان ست عشرة مرة والقيت عليها المسائل المعرقلة الزائغة من كثير من القسيسين وفقهاء الشرع والاطباء وكانوا زهاء مئة

وبذلوا كل ما عندهم من الدهاء في ان يتصيدوها بكلمة تدل على ان فعلها الذي فعلته كان بقوة الشيطان فلم تنطق بشئ كما توقعوا ولبثت صابرة متجلدة وهي تقول ان الله هو الذي قيضها لذلك حتى الحمت قضاتها غير مرة فسألوها عن الكنيسة فقالت اني ما زلت مواظبة على العبادة فيها ولكني كنت اطيع الاصوات حين كانت تأمرني بشئ مخالف لها فحكم عليها اهل الديوان بانها مبتدعة وصوب ذلك اهل مجلس الشورى والمدارس والاساقفة فلما صدر الحكم بسجنها اخذ الرهبان يترددون عليها وينذرونها هول يومها ثم اخرجت يوما وجعلوا يقبحون عليها فعلها وينعون على الملك فعند ذلك ثارت حميتها الى تبرئة الملك والمناضلة عنه فحكم عليها بالسجن المؤبد وان تقتات بالخبز والماء فقط ثم حكم عليها ان لا تتردى بلباس الرجال وهددت بانها اذا خالفت ذلك يوجب عليها القصاص بالموت ثم كادوا لها مكيدة وهي انهم كانوا ينزعون عنها ثيابها عند النوم ويضعون مكانها ثياب الرجال فكانت اذا رأتها تلبث في الفراش الى ان تضطر الى القيام فتلبسها اذ لم يكن عندها شئ غيرها وبينما هي كذلك ذات يوم اذ هجم عليها الحراس واستاقوها وهي في هذا الزي الى الضابط فحكم عليها بانها حنثت في يمينها وانها جديرة بالاحراق ثم اعيدت الى السجن فاقرت لله بذنب ضعفها وفشلها في كونها لم تصرح غاية التصريح بان قدرة الله هي التي ساقتها لعمل ارادته في انقاذ فرنسا فعاودتها الاصوات فامتلأت عند ذلك شجاعة ورأت رؤى بهيجة الا انها حين اخرجت ورأت ما اعد لها من العذاب المهول خارت قواها فسيقت اليه وهي تئن وتتوأه ثم اضرمت النار وادخلت فيها فجعلت تدعو الى الله وتبتهل حتى ان عدوها الكردينال بوفور لما شاهدها على هذه الحالة لم يطق بعد ان ينظر اليها فقام عجلا هو ومن كان معه من الاساقفة والدموع منحدرة من مآقيهم وكان احراقها في الثلاثين من شهر ايار من السنة المذكورة في موضع يقال له لابلاس دولا بوسل اي موضع البكروذرى رمادها في نهر السان ثم بعد عشرين سنة قام مطران باريس ومطران رام فنقضا الحكم الذي جرى عليها واثبتا براءتها اه • قلت قد وجدت هذه القصة المحزنة في تاريخ بلاد الانكليز فنقلتها بتمامها لغرابتها ثم وجدتها في كتاب آخر مروية بعبارات مخالفة

لما تقدم بعض الخلاف ولا غرو فانه لا يكاد راويان يتفقان على رواية واحدة او على رأى واحد وكيفما كان فان ما جرى على هذه الفتاة التى تفردت بهذه المزايا الحسنة يبقى معرة وخزيا على اسماء جميع الذين تسببوا فى اهلاكها سواء كانوا من الفرنسيس او الانكليز على ان موتها لم يفد الانكليز فائدة كبيرة لان اهل فرنسا اذ ذاك كانوا قد تنشطوا الى مغالبتهم ومقاواتهم بعد ان ذاقوا طعم الفوز والظفر وسرى فيهم روح الحمية للذب عن اوطانهم و بما ذكر تعلم ان الناس فى ذلك العصر كانوا متسكعين فى ظلام الجهل والوسواس فكانت الاساقفة واهل المدارس اقل كياسة من عامة هذا العصر • قلت ولولا ناپوليون هذا العصر لم يبق للبابا كرسى برومية ولم يقف فى وجه الروس واقف وذلك مستغن عن البيان ولم يقم احد فى بلاد الافرنج كلها من برع فى اللغتين العربية والفارسية مثل البارون دساسى ولم تقم امرأة تؤلف الكتب النفيسة مثل مادام جورج ساند وليس الآن من شاعر فى اوربا يقارب طبقة دولا مرتين ولا من مؤلف ينظر باوجان سو اوبالكسندر دوماس فهذه بعض درارى جيل الفرنسيس الغابرة والحاضرة التى بزغت فى افق المعالى ولم يكن لها فى عصرها ند ولا مثيل على انه لا ينكر ايضا ان قد نبغ من الانكليز وغيرهم كثير من الفلاسفة والحكماء والعلماء والادباء ممن اشرق بهم الزمان ولهج بحمدهم اللسان • ثم اقول ايضا انه قد ظهر لى على قدر ما ادركته ان كثيرا من المصالح فى باريس احسن استتبابا وانتظاما منها فى لندرة اما ﴿ اولا ﴾ فانى مكثت فى هذه نحو ثلاثين شهرا ولم اسمع عن بيت فيها انه احترق الا مرة فقط وفى لندرة لا تكاد النار تخمد عن احراق دار اودكان اومعمل ونحو ذلك ففى سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفى ضواحيها ٩٥٧ حريقة منها ٣٩٣ حريقة كانت متلفة جدا وبلغ عدد الحرائق فى فرنسا كلها فى مدة ثلاث سنين وذلك من سنة ١٨٦٤ الى آخر سنة ١٨٥٦ ٢٢٫٠٣٨ نعم ان ديار باريس هى من الحجر وديار لندرة من الآجرّ غير ان اثاثها من جوهر واحد ﴿ الثانى ﴾ انه لا يعرف فى باريس تداول نقود زائفة اوكواغد بنك مزورة وفى لندرة كثيرا ما يقع ذلك واذا دفعت الى تاجر فيها قطعة من الفضة او الذهب فلا بد وان يختبرها ﴿ الثالث ﴾ ان ارتكاب القتل فى باريس بالنسبة الى لندرة نادر جدا لاسيما الآن

حيث اجازت دولة انكلترة للخلعاء والمنفيين ان يرجعوا الى بلادهم بعد انقضاء مدتهم ﴿ الرابع ﴾ ثقب الديار والحوانيت والطرّ والاختلاس من الديار والمحترفات والدواوين ولاسيما البوسطة فهو على نسبة القتل ﴿ الخامس ﴾ العوارض التى تحدث للمسافرين فى الارتال فانها فى بلاد الانكليز كثيرة والحق بها ايضا العوارض التى تقع فى طرق المدينة بمرور الحوافل والعواجل وسائر انواع المراكب ﴿ السادس ﴾ المضار التى تحدث من بيع السم والمسبت والمأكولات المنتنة والمشروبات الكريهة فانها فى لندرة بلية من بلايا الله والحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة فى بيع الادوية من دون وصف الطبيب وبيع المفاتيح لاى ما كان وفى باريس يجب على المحتسبين ان يسعروا الاصناف ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما اشبه ذلك على حين غفلة من الباعة فاذا وجدوها مغشوشة او فاسدة غرموهم وشهروهم فى صحف الاخبار ولا يباح ايضا بيع الفاكهة فجة وذلك كله فى لندرة موكول الى ارادة الباعة فلا تكاد تجد شيئا خالصا حتى ان الجنازة فى باريس مسعرة من الديوان فاقلها خمسة فرنكات واغلاها ٣٫٣٦٨ كذا فى غالنيانى ﴿ السابع ﴾ تولية المراتب من يستحقها فان دولة فرنسا لا تولى جاهلا مرتبة الا ما ندر فاما عند الانكليز فتولية المراتب اما تكون بالمحاباة والاختصاص او بتعريضها للبيع وهذا الاخير مستفيض فى مراتب العساكر البرية وما زال الناس يمنون انفسهم باصلاح هذا الخلل وما برح كتاب الاخبار ينددون به وينصحون ارباب الامر والنهى بتلافيه ﴿ الثامن ﴾ ترتيب الشرطة حيث يزدحم الناس كالملاهى والمراقص ومواقف سكة الحديد فان اكثر هذه الاماكن فى لندرة لا يكون فيها شرطى او يكون وراء الباب فترى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى وغير مرة رأيت نساء يغشى عليهن فى الزحام وغير مرة يموت عدة اولاد ومنهم من يستهزئ ومنهم من يضحك وفى داخل الملهى ترى الاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم فاما فى باريس فلا يخلو مكان من احد هؤلاء الشرطة وترى الناس فى الملاهى ساكتين منصتين فكأنما هم فى الكنيسة ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان جون بول لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيهات فان اوباشهم ارذل خلق الله ﴿ التاسع ﴾ تعهد ديوان المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس

وراحة العباد فيدخل فى ذلك ترتيب المستشفيات فهى فى باريس احسن وانظف والمقابر فهى هنالك لا تكون الا خارج البلد وفى لندرة كانوا يدفنون الموتى فى ساحات الكنائس ولم تبطل هذه العادة الا منذ ثلاث سنين فقط ثم المناصع وهى المواضع التى يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة فالاولى فى لندرة قليلة جدا على ردآءتها والثانية معدومة رأسا ثم تنظيف الطرق فان طرق لندرة عند وقوع الامطار تكون لكثرة المارين وحلة للغاية وليس من يرى فى ذلك مشقة ولا شينا ثم وجود مقاعد يستراح عليها ففى باريس كلما اعيا الماشى وجد دكة او مصطبة يجلس عليها وفى لندرة لا يمكن للانسان ان يقعد الا فى بيته او فى محل قهوة وبئس ذلك مقعدا ثم التطريب بآلات الموسيقى ففى باريس تضرب العساكر بهذه الآلات فى عدة مواضع وخصوصا فى الآحاد والاعياد وفى لندرة لا شئ من ذلك وقد عزف بها بعض ايام فى احدى الغياض المنتابة فابطلها رئيس المطارنة بدعوى انها مناقضة لنص الانجيل ﴿ العاشر ﴾ وجود دكاكين فى باريس فى اى موضع كان سوآء كانت للاكل او الشرب او غير ذلك وفى لندرة جميع الحارات التى يسكنها الكبرآء والاغنيآء خالية من الدكاكين فانهم يرسلون خدمتهم الى الاسواق ليشتروا منها ما يلزم او تأتيهم المؤنة مرتبة من عند اصحاب الدكاكين ﴿ الحادى عشر ﴾ النظر فى امر المومسات فانهن فى باريس يمتحن فى كل اسبوعين فاذا رأى الطبيب احداهن مريضة بالدآء المعروف ارسلها الى المستشفى لتتداوى هنالك فلا تخرج منه الا بعد ان تشفى فاما فى لندرة فقد تطوف المومسة والدآء افسد آرابها واحشاءها فيمكن انها فى ليلة واحدة تعدى جمعا ولا جرم انه حيث كانت هذه المفسدة فى المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه وكانت هؤلآء المتهالكات على الدينار وقاية لعرض الحرائر كان النظر فى احوالهن يعد من المصالح ولا سيما اذا ابيح لهن التطواف انآء الليل واطراف النهار كما هو الواقع فى لندرة اما فى باريس فلا يباح لهن التطواف فى الليل بعد الساعة العاشرة ﴿ الثانى عشر ﴾ اباحة استعارة الكتب من المكاتب الملكية فى باريس فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم ان يستعيروا كتابا ليطالعوه فى بيوتهم ويستفيدوا منه وفى لندرة لا يباح ذلك ﴿ الثالث عشر ﴾ سهولة تحصيل العلم والصنائع اما الاول فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة الى غيرها

حتى ان الانكليز يبعثون اولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم واما الثاني فلأن الاب اذا شاء ان يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع احد الصناع على ان يبقيه عنده ثلاث سنين ففي اول سنة يعطيه شيئا في مقابلة التعليم وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلا لتعليمه وفي الثالثة يبتدئ ان يكسب شيئا وفي لندرة يلزم المتعلم ان يبقى عند معلمه سبع سنين ومصروفه في خلال ذلك ثقيل على والده ﴿ الرابع عشر ﴾ الحماية الجنسية فقد اسلفت لك ان حماية الانكليز لا تفيد الا لثراء الاملاك وهناك امور اخر غير هذه تراها في باريس على احسن انتظام وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل وكيفية ايقاد الغاز وتسعير المأكول والمشروب وترتيب الحمالين مما هو في لندرة مغفل او مضيع • قال بعض الفضلاء الحاكم في فرنسا هو خصم المذنب فلا يصح للمفترى عليه ان يصفح عن المفترى وعند الانكليز يلزم المصروف او يطلق الجاني وعلى كل نوع من الضرب قصاص وعند الانكليز يغرم من دون قصاص وكل بلد هناك له صندوق ينفق منه وآخر للايراد وله ديوان مكس على المأكول خاصة فلا تتكلف السكان بشيء وفي لندرة يجب على السكان اصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور وغير ذلك وفي فرنسا معاش القسيسين والقيام بمصاريف الكنائس مرتب من خزنة الدولة وهنا موكول الى الرعية وهناك ديوان للتجارة وآخر للعرائر وآخر لاحوال متنوعة وهنا ديوان واحد وهناك طبع التجار مائل الى المناقشة والنزاع على اشياء لا طائل تحتها وهنا جل التجار متكبرون شيمتهم الضبط والرشد وهناك ترى الفقراء اعداء الاغنياء وهنا يهابونهم ويكرمونهم وهناك القوانين والاحكام اقوم واعدل الا ان الذين يباشرونها ويجرونها هنا اصلح وافضل وهناك تقضي الناس سائر اوقاتهم خارج منازلهم وهنا بعكس ذلك وهناك يطمع التاجر الكبير في ربح كثير لقلة تجارته وهنا يجتزئ بالقليل من الكسب لكثرة تجارته وهناك تختلط الاكابر بالاصاغر وهنا كل ينحاز الى شكله وندّه وهناك تفتخر الشبان بالفجور وهنا يأتونه اضطرارا وفي هذا القدر كفاية • قلت وهنا يحق لي ان اقول في الانكليز والفرنسيس ما قاله الآمدي في ابي تمام والبحتري وهو ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنسيس والرديء من هؤلاء خير من الرديء من اولئك ومآل الكلام ان عامة الفرنسيس افضل وان خاصة الانكليز

الانكليز اجل وامثل • واعلم ان الفتن والمعامع التى وقعت فى فرنسا ولا سيما فتنة سنة ١٧٩٣ قد غيرت كثيرا من اخلاق هذا الجيل فما يقال عنهم من البشاشة والانس والاحتفاء بالغريب فليس على اطلاقه كذلك سمعته منهم ثم هم ابش من الانكليز هذا ولما كنت ذات يوم مفكرا فى وحشة الغربة ومقاساة تعلم اللغة بعد ان ولى عنى نشاط الشباب والاهلية الى الاحتكال اذا بالخورى غبرائيل جباره دخل علىّ وفى طلعته من البشر والطلاقة ما يترجم عما انطوى عليه من حسن الاخلاق فان الخلق كثيرا ما يدل على الخلق ثم بعد ان دارت بيننا كؤوس المنافثة قال لى انى اود ان اذهب الى انكلترة فهل لك ان تكون لى رفيقا فانى اجهل لغة القوم واحوالهم والآن يذهب الناس اليها من جميع الاقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيس اكسبوزسيون فاجبته الى ذلك وسافرنا من باريس الى كالى وذلك فى تاسع شهر جون ومنها الى دوفر ودوفر هذه اول ما نزل فيها يوليوس قيصر حين غزا بريتانيا وذلك فى سنة ٣٦ قبل الميلاد وفيها قلعة قيل انها من بنائه ومدفع يعرف بداغرى جيب الملكة اليصابت اهدته اليها دولة هولاند، وهو مدفع عظيم من نحاس طوله اربع وعشرون قدما ويومئذ طلب منا ابراز الجواز وذلك لكثرة الذين كانوا يردون الى بلاد الانكليز ثم سرنا الى لندرة فوجدت اجرة المساكن وثمن المأكول والمشروب على ضعف ما كنت اعهده وثانى يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع فى الشتاء حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت ثم توجهنا الى معرض التحف وكان سبب انشائه ان الفرنسيس كانوا عقدوا مجلسا فى باريس لاجل عرض بدائع الصنائع ثم تكرر ذلك مرارا حتى اغرى الانكليز بمحاكاتهم فى انشاء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد وذلك فى سنة ١٨٥١ وكان قد استقر الرأى اولا على ان يبنوه من الآجر ولكن لما كان مقصودهم به انما هو الى مدة قصيرة ارتأوا ان يبنوه من الزجاج فحسبوا ان نفقته تبلغ سبعين الف ليرة اذا كان ينقل وينتفع به والا فنحو ١٥٠٫٠٠٠ فتبرع فى العطاء لانشائه اكثر من ١٠٠٫٠٠٠ من الانكليز بدئ به فى جولاى سنة ١٨٥٠ وفتح فى اول ماى سنة ٥١ وجعل طوله ١٨٥١ قدما على مقدار عدد السنين وعرضه ٤٠٨ اقدام وفى اول شهر ماى

دخلته الملكة وزوجها وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الانكليز وارلاند وسكوتلاند والنصف الثانى لسائر الدول وكان يعطى لكل وكيل دولة موضع وهم يعنون بوضع الاصونة والخادع لصون بضائعهم وتحفهم واذا اشترى احد شيئا منها لم يكن يخرج الا بعد انقضاء المدة وكان فى بنائه من الحديد ٤٠٠٠ طن و ١٧ من الزجاج فى سقفه ما عدا ١٥٠٠ طاقة وبعد انقضاء مدته بيع بسبعين الف ليرة ونقل الى سدنام وجمع لتنظيمه وتركيبه هناك ٥٠٠٠٠٠ ليرة ثم زادت حتى بلغت ١٠٠٠٠٠٠ وكان يشتغل به من العملة نحو ٦٤٠٠ وكان احقر موضع فيه الموضع الذى نضد فيه ما بعث من اقطار مصر وسبب ذلك فيما بلغنى ان البرنس البرت لما ارسل كتبا الى جميع الدول يخبرهم بهذا المقصد وطلب اليهم ان يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم ترجمت لخديو مصر لفظة الصنائع بالارض اذ كانت صورة الخط فيها متقاربة تقاربها فى النطق فان مرادف الصنائع فى الانكليزية ارتس ومرادف الارض ارث فلذلك لم يبعث من مصر الا القطانى وبعض اشياء اخرى لا طائل تحتها وقد رأيت فى هذا المعرض حلى الملكة من جملتها ثلاثة حجارة من الالماس قدر الكبير منها نحو الجوزة تبلغ قيمته فيما قيل ٣٠٠٠٠٠٠ وكان فيه ايضا صوان لحلى ملكة اسبانيا وتحف اخرى بديعة لم ير مثلها قط من جملتها فرو لقيصر الروس قيمته ٣٠٠٠ ليرة ومرآة لم يصنع اكبر منها فى العالم باسره واول من صنع المرآة كما هى الآن اهل فينيسيا وذلك فى سنة ١٣٠٠ وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس ولم تعرف فى انكلترة الا فى سنة ١٦٧٣ فانظر الى التمدن كيف يفعل والى الايام كيف يداولها الله بين الناس وكان فيه آلة تصنع ٢٨٠٠ مغلف للكتب مصمغة مطوية فى ساعة واحدة وآلة تصف حروف الطبع بنفسها ونحو ١٧٠ نوعا من التوراة والانجيل وكان يجتمع فى هذا المحل كل يوم نحو ٦٠٠٠٠ يؤدى كل شلينا وكان يوما الجمعة والسبت مختصين بالكبراء والاعيان ويقال ان الملكة دخلته يوما فاعجبها ثوب مزركش فى محل البضائع التركية فسألت قيمه عن ثمنه فقال ٣٠ ليرة فقالت هذا غال جدا ويقال ايضا ان الفرنسيس احرزوا قصب السبق فى كذا وكذا نوعا من الصنائع والمشهور عند الناس عموما ان الانكليز فى الاعمال القينية امهر منهم والله اعلم وغاية ما اقول ان كل ما يصنعه

الفرنسيس

الفرنساوى يظهر عليه الرشاقة و المشق و الطلاوة وما يصنعه الانكليز يكون جزلا متينا حتى ان هؤلآء فى تصويرهم السخرى يصورون الفرنسيس نحافا ضعافا و اولئك يصورونهم ضخاما جساما فاما صنعة الطبع فلا شك انها عند الانكليز اتم و احسن وهم يقولون ان الاختراع من شان الفرنسيس لكن الاتقان والاحكام من شاننا ومن الديار العظيمة التى فتحت للمتفرجين اوان المعرض دار دوق زثمبلاند وهى دار عظيمة البنآء و الفرش و الاثاث فيها تصاوير نفيسة وتحف غريبة حتى ان اطر مواقدها كانت من فضة بدل الحديد ثم ان هذا المعرض لم يفد الانكليز فائدة مال الغربآء فقط بل افاد ايضا اهل الفظاظة منهم حسن المعاشرة والمجاملة نوعا ما فانهم كانوا قبل ذلك على غاية النفور من لحى الغربآء وشواربهم ثم سرت الى حديقة فكس هال المشهورة ورأيت المنطاد وهو المعروف باسم البالون وهو قبة فى كبر الخيمة على شكل الاجاصة يصنع من الحرير المدهن ببعض الادهان ويملأ داخله غازا وذلك بان يجعلوا باسفله قربة من جلد متصلة بانبوبة من حديد يدخل فيها الغاز من موضعه ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له وبها ينوطون اكياسا ثقيلة فكلما امتلأ جانب منه من الغاز خفضوا الاكياس حتى يرتفع فتى امتلأ كله زموا فمه من اسفل وربطوا به نحو ناووس من خشب او غيره ليقعد عليه من يتولى امره ومن شآء ان يسافر معه ثم يزيحون الاكياس ويطلقونه فيندفع صعدا ومديره تحته وربما اقتضى لمثله عدة ساعات فاذا اراد مديره ان يخفضه اداره بحبلين متصلين به هما كالعنان له فينزله حيث شآء اللهم اذا كانت الريح عاصفة تغلبه فربما القته على محل غير مقصود الا انهم لا يصعدونه غالبا الا فى يوم ذى سكون وما يقال من ان الناس يصعدون او يسافرون فى البالون فليس المراد بذلك انهم يدخلونه فان داخله ملآن من الغاز اذا الم به نور او نار تميز كلا فاحرق ما حوله و انما المراد انهم يقعدون تحته وربما اخذوا معهم حصانا ونحوه و قد رأيت منطادا آخر انبسط تحته امرأتان وكان رأس احداهما تحت قدمى الاخرى وقبل انبساطهما على هذه الحالة حجبوهما عن اعين الناظرين بنحو خيمة ثم لم نشعر الا وهما فى الجو تشيران بالمناديل وقد ظهر فى باريس من ادعى بانه يقدر ان يصنع منطادا من الخشب على شكل سفينة ليكون اوعب للناس واسلم عاقبة وبعد ان تصدى

لذلك وركب الالواح لم تأذن له الدولة في ان يجرى ذلك فعلا بالقرب من باريس مخافة ان تقع السفينة على الناس فتعطبهم وحيث لم يكن غاز الا فيما وليها حبط عمله وقد رأيت هذه السفينة وظهر لى ولغيرى عدم امكان اصعادها بالغاز لطولها وضخامتها غير ان منشئها كان ذا لسان ذلق فكان يموه على السامعين احتمال ذلك واظن ان ما خسره فى صنعها ربحه من المتفرجين * واصل انشاء المنطاد كان فى فرنسا سنة ١٧٨٣ وكان الناس قد ذكروا من قبل ذلك شيئا يشبهه ولكن هذا اول ما عرف وفى سنة ١٧٨٥ صعد فيه رجلان على ان يسافرا من بولون الى انكلترة فاحترق فهلكا ومن هذه الادوات ما يصعد فى الجو مسافة ٢٣٫٠٠٠ قدم ومنها ما يدوم فى الهوآء ثمانى عشرة ساعة واول من صنع المنطاد فى انكلترة السنيور لوناردى وذلك فى سنة ١٧٨٤ وكانت مادام بواتفيان تصعد تارة وهى قاعدة على ثور على مثال اوريا وتارة على جواد فكره بعض الناس منها ذلك لكونه من ظلم الحيوان وهو ممنوع فكفت عنه فاما كيفية ادخال الغاز فى انبوبة المنطاد وكذا فى الانابيب التى توصل الانوار فى المدن فهو ان يوقد الفحم فى موقد مخصوص ويجعل فيه قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين فينحصر روح الفحم فى تلك الانابيب فاذا ادنيت نارا من رأسها اشتعلت وبقيت كذلك الا ان تطفئها ونورها اشد سطوعا من نور الزيت والنفط والشمع وليس له دخان لكنه قوى مضر بالعين وقد ارى ان غاز باريس اشد صفآء وبياضا من غاز لندرة ويمكن ان يكون ذلك لصفآء جو تلك وسيأتى الكلام على الغاز ومخترعه وفوائده فى وصف لندرة ان شاء الله تعالى ثم خطر ببالى ان اطلب من وزير الامور الداخلية بلندرة حماية جنسية لكونى اقمت فى مالطة عدة سنين وفى بلاد الانكليز بضعها فكتبت اليه عرضا فجآء الجواب مؤذنا بان اكل ذلك الى فقيه من فقهآء الشرع اذ لا يصح معاطاة امر من الامور الشرعية الا بهم كما انه لا يصح معاطاة مصلحة كبيرة من المصالح التجرية الا بواسطة السماسرة وكان مما لزمنى مباشرته فى ذلك ان اخرج للفقيه اربع شهادات ممن لهم بيوت وملك من الانكليز تؤذن بصحة ما اقول ففعلت * واعلم ان الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الانكليز على عدد سنين يلبثها الغريب فى بلادهم وانما هى منة من قبل مخولها ولو ان انسانا لبث فى بلادهم عشرين

سنة

سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقهــا وجل نفعها انمــا هو تأهيل صاحبها لان يشترى املاكا كالدار والعقــار والسفينة وما اشبه ذلك وعليه ان يحلف ان يتخذ دارهم وطنا له فاذا استوطن غيرها فلاتتصل المقيم هنالك ان ينكره اما حماية فرنسا الجنسية فتتوقف على عشر سنين ولكنها تكون بعد ذلك حماية ووقاية لصاحبها فى كل مكان وزمان والتملك فى انكلترة على اربعة انواع الاول ان يكون شبيها بالاجارة الى مدة معلومة من السنين الثانى ان يكون الى ٩٩ سنة الثالث الى ٩٩٩ سنة الرابع الى الابد والثانى هو الاشهر وهذه ترجمة الحماية « انى اشهد ان فلانا المقيم الآن فى طريق كذا فى خط كذا الكائن فى اقليم كذا فى اعمال بريتانيــا الكبرى من حيث انه عازم على استيطانها عرض عرضا لى انا سرجورج كرى بارونت احد رؤساء كتاب الدولة مضمونه انه من بلد كذا ومن رعية الدولة الفلانية وله زوجة واولاد وحرفته كذا وان فى عزمه ان يبقى ساكنا فى هذه المملكة والتمس منى حالة كونى كاتب الدولة هذه الشهادة المذكورة وحيث انى بحثت عن حقيقة الحال واتانى من البينة ما اعتمدته ضروريا لاثبــات صدق ما اودع فى ذلك العرض فالآن بموجب الامر الذى فوض الىّ حالة كونى كاتب الدولة فى الحكم الفلانى اعطى فلانا المذكور عند اجراء اليمين المذكورة فى ذلك الحكم جميع الحقوق والاهلية الخاصة بمن يكون مولودا من اهل بريطانيا ماعدا اهلية ان يكون عضوا من مجلس اهل الديوان الخاص او عضوا من اعضاء مجلس المشورة وما عدا الحقوق والاهلية المختصة بمن يكون مولودا بالطبع من اهل بريتانيــا خارج الممالك المنسوبة الى التاج البريتــانى وما يليهــا » فقد علمت ان اعطــاء هذه الحمــاية لم يتوقف على سنى الاقامة وانمــا هى لنواله كالوسيلة ثم انى لمــا رأيت ان الفقيه لا يقدر على اخراجها الا بعد مدة ولزمنى العود الى باريس طلبت منه انه اذا حان انجاز هذه الطلبة يعلم بها كاتب الجمعيــة ورجوت من هــذا ان يبعث بهــا الىّ فى باريس وســافرت وبعد ايام ورد خبر بقبول ملتمسى ولزوم حضورى لاجراء اليمين فســافرت الى مدينة هافر فبلغتها بعد نحو سبع ساعات ومنهــا الى سوث امبطون وكانت ليلة مشؤمة فقد ثار علينا النوء حتى كانت السفينة تتقلب فى البحر كالسمكة مع ان الوقت كان فى صميم الحر وكان من همى قبل كل شئ اجرآء اليمين وهذه ترجمتهــا

« انا فلان اعد واقسم صادقا بانی اکون امینا ومخلصا الطاعة لسعادة الملكة فكطوريا واحامی عنها بغاية جهدی وطاقتی ضد جميع من يتحالف عليها او يهم بسوء عليها سوآء كان على شخصها او تاجها او شرفها وابذل غاية جهدی فی ان اكشف لسعادتها ولورثتها ولمن يخلفها جميع الخيانات والخائنين والمتغاوين عليها او عليهم واعد بامانة انی ابذل غاية استطاعتی فی ان احفظ واسند واجير خلافة التاج المعبر عنه فی الاحكام بحكم كذا الخ

ثم عدت الى باريس واتفق حينئذ ان تولى الملك الآتی ضبط الامور السياسية وهو يومئذ رئيس مجلس الشورى وقهر مناوئه وحاسده فاشار علیّ بعض معارفی ان امتدحه بقصيدة فانه ذو المام بالعربية وله اطلاع على لغات كثيرة فنظمت له هذه القصيدة الآتية وهی

* من شان اهل الهوى ان يفرطوا الغزلا * قبل المديح والا غازلوا الطللا *
* اما النسيب فلا حسناء تشغلنی * اذ قلب ذی الحسن عن حسن الوفاء خلا *
* لكن انا ناسب وجدا بطيف كرى * ما كنت اعرفه من قبل ان وصلا *
* اتى على غرة والليل معتكر * من صبغ همی وما جنح له نصلا *
* وهمته غادة جاءت تغررنی * فحين صحت به مستنكرا جفلا *
* ان لم انم لم يزر ايضا وان هو لم * يزر فما ناظری بالغمض مكتحلا *
* يا حسنه زائرا ما شانه صلف * ولا يرى شانفا كالخود او شكلا *
* عف نزيه خفيف الناموس يبعده * وكم جميل به خال قد اشتغلا *
* حلو الشمائل لا طرفا يمل ولا * عتبا يدل ولا مستحقبا بدلا *
* لا يزدهيه رياش حين ترمقه * كانما هو طاووس به رفلا *
* ولا يبوح بسر اذ يبين ولا * يكون امعة مع كل من بذلا *
* رقت محاسنه حتى استرق بها * قلبی وقد جعل التذكار لی شغلا *
* دعنی وشانی فما ذو الجد تشغله * شكوى الهوى انها شغل لمن هزلا *
* من رام مأثرة فليمدحن رجلا * بين الرجال يراه وحده الرجلا *
* لويس نابولیون الراق منزلة * فی الملك ما ان يرى الرائی لها مثلا *
* من ذا الذی ليس يثنی فی الانام على * من فی المكارم والمجد السنیّ علا *
* وليت شعری هل فی الكون من لغة * تحوی كلاما يوفی حق ما فعلا *

لولاه

* لولاه باتت فرنسا فى معامع لا * تكاد تطفئها حرب ونحو طلى *
* لما تفرقت الآراء واحتدمت * نار التراثى وظن الخطب قد عضلا *
* تدارك الامر لا عيا ولا فشلا * ومن بالعفو لا عجزا ولا مللا *
* وبات بالملك والتدبير مشتغلا * وبات حاسده باليأس مشتعلا *
* حق على الناس ان يدعوا له ابدا * فان معروفه كلا لقد شملا *
* وكيف لا وفرنسا دولها سبب * يديل فى غيرها الاملاك والدولا *
* فكان تدبيره للارض قاطبة * امنا وهذا الذى كل الورى املا *
* وحرمة الدين لولا عزمه انتهكت * وعرضه صار بعد الصون مبتذلا *
* فعال من تمسك الدنيا بساعده * والدين خيفة ان يستقبلا زللا *
* يرى من الامر حزما فى اوائله * ما غيره عنه فى صيوره وهلا *
* فما قضى قط الا و هو ذو ثقة * ولا نوى خطة الا وقد فصلا *
* ولا تخلل وعد تو أمى عدة * له وانجازها بل قلما سئلا *
* فانما هو يولى العرف مبتدرا * والعفو مقتدرا والمن مرتجلا *
* فما انا قائل ما قال بعضهم * يرتاح عند سؤال المجتدى ثملا *
* فان ذى شيمة فيه ملازمة * له وما احد عن دأبه انتقلا *
* من بشر طلعته بشرى لناظره * ومن تفوهه توكيدها حصلا *
* تلقاه مبتسما والحرب دائرة * ونافلا وسواه لا يمن بسلا *
* يزين باريس مرآه وهمته * حتى ترى للملوك العصر ذا نزلا *
* وكل ايامها تغدو مواسم اذ * لم يبق حسن بها الا وقد كملا *
* ما لاح من باعث فيه لها دعة * الا وبادره من يومه عجلا *
* له الولاية حتما لا عدال بذا * فان خير ملوك الارض من عدلا *
* لئن مضى عمه ذاك الهمام فقد * ظلت معاليه فى جيد الزمان حلى *
* أكرم بفرع زكا عن دوحة بسقت * كل الى ظلها الممدود قد وألا *
* لله يوم به مادت عساكره * من حوله كجبال تنبت الاسلا *
* كأنه البدر قد حفت كواكبه * به وما من سها من بينهم ضؤلا *
* قد كاد يذهب بالابصار لمع سنا * سلاحهم يد التأييد قد صقلا *
* ما ان ترى فيهم عيناك اذ برزوا * الا فتى فارسا او راجلا بطلا *

* نالوا من الشرف الاوفى بطاعته * ما لم يذر احدا عن أثرة عطلا *
* ولو خلوا عن سمات قاسمه لهم * مغن فما احد اجلاله جهلا *
* فى رأيه النسر لكن فوق موقعه * من السما رأيه المربى على زحلا *
* قد كان فى دارة المريخ حشدهم * لكن لسلم فكل راح ممتثلا *
* فكنت تسمع من ضرب الطبول ومن * رعد المدافع ليلا صاهلا زجلا *
* وزهر نار من البارود قد طلعت * فى ليلة ذات دجن نجمها افلا *
* يرى المجوسى فيها حجة وهدى * على السجود لها انى نوى جدلا *
* زانت زهورا بجعل اسم الامير بها * كأن جثمانه فيه قد اتصلا *
* وعاد والخلق قد طابت خواطرهم * وبالدعاء له كل قد ابتهلا *
* والسعد يقدمه والعز يخدمه * والله يعصمه ما سار او قفلا *
* فليأتين كل ذى ملك يهنئه * ومن ونى حسدا فليبعثن رسلا *
* وليعلم الناس ان ما خاله جللا * سواه كان عليه هينا جللا *
* كن يا امير المعالى كيف شئت فمن * يقصد رضى الله لم يحبط له عملا *
* ومن تحرى سبيل الرشد فاز ومن * اطاع داعى الهوى لم يدرك الاملا *
* هذى الممالك والاملاك غابطة * هذى التواريخ يدريها الذى عقلا *
* فافتد شوارد احوال برمتها * ورض صعاب امور تلقها ذللا *

وقد يسر الله لى نظم هذه القصيدة فى يوم واحد الا انه بقيت الصعوبة فى تقديمها لاعتاب الممدوح حيث لم تجر العادة عند ملوك الافرنج بان يقرؤوا قصائد مدح فيهم ولا غيرها ايضا مما يخاطبون به وانما يقرأ ذلك كله كتاب اسرارهم وهم يجاوبون عنها المخاطب بحسبما يرونه صوابا وفى الجملة فان نظم القصائد سواء بالعربية او غيرها اسهل من تقديمها للممدوح من ملوك الافرنج وقد كنت مدحت ملكة الانكليز بقصيدة وقدمتها لضابط البلد وهو وكل بها زوجته لتهديها الى بعض القائمات بخدمتها وترجمتها ايضا الى لغتهم والى الآن لم يأتنى عنها جواب ولا اعلم هل وصلت او لا وكل من تعلم لغات الافرنج من علية الترك واشرافهم سلك هذه الطريقة فانى كنت نظمت قصيدة فى و . باشا سفير الدولة العلية فى باريس واخرى فى ن . باشا واخرى فى آخر ولم تنتج احداها سلبا ولا ايجابا بل

ضاعت

ضاعت الاوليان واضاعا عليّ كراسين من ديواني ذهبت كل منهما بالكراس الذي اشتمل عليه ولم يكن مقصودي بهذا المدح سوى تمهة الشعرآء المعدية الى تحمير دواوينهم بقولهم وقال يمدح الملك وقال يمدح الامير ثم انه لا شيء افظع عند الافرنج من ان يروا في قصائد المدح تغزلا بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل نجلاء العينين سوداء الفرع وما اشبه ذلك فشعرهم كلهم خصي وافظع منه التشبب بغلام واقبح من هذا وذلك نسبة شيء من صفات المؤنث الى المذكر كقول الشاعر كأن نداماه حقان فانهم اول ما يبتدئون المدح يوجهونه الى المخاطب ويجعلونه ضربا من التاريخ فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد اسمائهم ولما ترجم موسيو دوكان قصيدتي التي مدحت بها المرحوم احمد باشا والى تونس وطبعها مع الترجمة كان بعضهم يسألني هل اسم الباشا سعاد وذلك لقولي في مطلعها زارت سعاد وثوب الليل مسدول فكنت اقول لا بل هو اسم امرأة فيقول السائل وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا وهو في الحقيقة اسلوب غريب للعرب • قال العلامة الدسوقي اعلم انه قد جرت عادة الشعرآء انهم اذا ارادوا مدح انسان ان يذكروا اقبله الغزل لاجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة في الوصف وترويح النفس ورياضتها اه قلت كما ان الافرنج ينكرون علينا هذه العادة كذلك ينكرون المبالغة في وصف الممدوح واما تشبيهه بالبحر والسحاب والاسد والطود والبدر والسيف فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ولا يعرضون له بالكرم وبان عطاياه تصل الى البعيد فضلا عن القريب فهم اذا مدحوا ملوكهم فانما يمدحونهم للناس لا لان يصل مدحهم اليهم ومع علمي بهذه الحال لم يمكني مقاومة نزغة النهمة العربية الى تقديم القصيدة المذكورة ولا سيما لما سمعت بان الممدوح يعرف لغتنا فاجتمعت بالفاضل اللبيب والصديق الاديب الخواجا روفائيل كحلا وطالعته في ذلك فقال انا اعرف وسيلة لتقديمها ولكن ينبغي ان نترجمها الى اللغة الفرنساوية فان معانيها لا تضيع بالترجمة اذ هي منسوقة على نسقهم لولا التغزل بالطيف لكنه شيء عدمي ولا سيما انك اشرت في مطلع القصيدة الى انكار الغزل قبل المديح فمن ثم ترجمناها واطلعنا عليها احد ادبائهم فقال بل الاولى ان ترسلوها غير مترجمة فان الملك

عنده مترجمون يترجمونها له فقدمت كما هى وبعد ايام لم نشعر الا والبريد يطرق الباب واذا بيده رسالة من كاتب الملك باسم الخواجا المذكور وباسمى مضمونها ان القصيدة بلغت جنابه العالى وحسن موقعها لديه وانه يشكرنا على ذلك شكرا جزيلا ثم انه فى خلال هذه الاوقات استقل الملك المشار اليه بولاية الملك ولقب الامپراطور فنزغنى نازغ آخر من وقال يمدح الامير الى ان اهنئه بقصيدة واقدمها على يد رئيس تراجم بابه الكونت دكرانج الذى مر ذكره فلما فرغت منها وقرأتها عليه قال ليس من هذه الصفات التى نسبتها الى الملك ما هو مختص به وحده فانه يصلح لان يخاطب به اى ملك كان وهى مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ولو قدمتها كما هى لما استحسن منها غير الخط والشكل فقط فلهذا اضربت عن تقديمها وشكرته على نصحه ولكنى لا اضرب عن قيدها هنا حتى ينتفخ بها بطن هذا الكتاب وهى هذه

* للويس نابوليون حق السؤدد * والملك اذ هو فى المعالى اوحد *
* فلتقدم الاملاك داعية لــه * بالتهنئات وشانه فليحمدوا *
* بشرى لــذى ملك يزور نديه * ولمن ينبأ عـدله فيقلــد *
* ولمن يبـايعه ويشرى نفسـه * بولائه لجـزاء مـسـديد يد *
* نظر الزمان بسعيــه ابطـاءه * من قبل فاستحيا فاقبل يحفد *
* فجلا لنـا فى ظرف عام منه ما * لم يجـله للنـاس دهر سرمد *
* امن الورى فى ظـله وتنعموا * والى الترفه والتترف اخلدوا *
* حتى خشوا ان البلاهة من دوا * عيهـا بلهنية وعيش ارغد *
* يتهجد العـافون امنا وهو من * شفق على اغفـائهم يتهجد *
* اضحى لهم من بعد انواء العنـا * عيش بطالع سعده لا يجهد *
* تنسى الثواكل حزنهن فعـاله * فهى التى ما بينهن تعـدد *
* ضبط الامور بحزمه واقتدهـا * فبما حبـانا اليوم يأتينـا غد *
* قيـد الاوابد رأيه ما حادث * عنـه ينـد ولا قديم يشرد *
* وضجيعه الفكر المنير يريه ان * اضحى فينهض للامور يفرد *
* ما بعد ان ظهرت مكارمه يرى * احد يلوم لفائت او ينكد *

عن

* عن حلمه تروى الشهود لغائب * وبفضله كل البرية تشهد *
* هذى المآثر فاهتدوا بمنارها * يا ايها الثقلان ثم به اقتدوا *
* هذى المفاخر فأتنا بمثالها * يا من مديح ملوك عصرك تنشد *
* يستسهل الراؤون مطلع صاعد * شرفا ولكن ما كذا من يصعد *
* ويروق مخر المنشئات لناظر * ما خاض لج اليم وهو يهدد *
* قل للمشبه قد غويت فهاتنا * بنظيره ان كنت ممن يرشد *
* لا تدرك الابصار لولا الشمس ما * جرم الهباء ولا يراها ارمد *
* هبنا اسمه حتى نجل سميه * حبا به ولنا اليه تودد *
* فات الملوك فخاره ورضوا بان * يدعوا ببعض صفاته كى يسعدوا *
* ولربما حاكى السراب الماء عن * بعد واظمأ من اتاه المورد *
* يا من تولى عرش عز صانه * ذو العرش وهو بما حباك مؤيد *
* شرفت تاج الملك حين رضيته * وازداد وهو عليك فخرا يخلد *
* جلت فرنسا طلعة كانت لها * ايام عمك عبده المستعبد *
* ما زال مذ عرف الورى املاكهم * يطأ الممالك من حماها سيد *
* فاسلم ففى يمناك غبطة اهلها * وبعزها الارضون طرا تحمد *
* دم آفقا قدرا ورأيك ارشد * ومسابقا فخرا وجدك اسعد *

وفى غضون ذلك شرعت فى تأليف كتاب الفارياق الذى تنمر طبعه الخواجا روفائيل كحلا المومأ اليه، وبعد ان طبع منه عدة صحائف اقتضى لانجازه سبك حروف جديدة فانتظرت مدة حتى اذا قنطت اوكدت اقنط من ذلك وكانت نفسى قد تاقت الى فقع لندرة وفقاعها سافرت على نكظ فتعرفت حينئذ بالخواجا مخائيل المخلع فقد كان قدم لمعاطاة التجارة ومما اعجبنى منه كرمه وسعة اطلاعه فقلما يرد ذكر شاعر الا ويروى عنه او نكتة ادبية ويسردها اقام فى لندرة عاما ونيفا وسافر وهو يدرى جميع احوالها وقد اهدانى نسخة من كتاب كلستان الذى ترجمه اخوه من الفارسية الى العربية فلما تصفحته وتأملته حق التأمل ظهر لى ان خبره دون مخبره اذ لم اجد فيه من المعانى المبتكرة ما اوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال العظيم فانه عندهم بمنزلة مقامات الحريرى عندنا غير ان عربيته فصيحة فلما قابلته

المرة الثانية وجرى ذكر هذا الكتاب قلت له لقد طالما سمعت بذكر كلستان غير انى لم اجده يستحق هـذه الشهرة وقد حدثتنى نفسى بان انشئ كتابا على نسقه لكن التزم فيه الهزل قال فافعل فانشأت فى اليوم القابل هذه الحكايات الآتية ولما قرأتها عليه وقت الاجتماع قال قد افرطت فى محاكاته وهو فوق ذلك وابى الا التنويه به هذا ولما كان باب الانشاء قد ارتج علىّ باندرة لكثرة قعقعة العواجل والحوافل فيها بحيث لا يمكن لمستمعها آناء الليل واطراف النهار ان يجمع افكاره او يبتكر معنى حسنا حق لى ان اثبت هنا ما كتبت محاكيا لصاحب كلستان

﴿ حكاية ﴾ رأيت قوما يتسابقون حشدا ويتزاحمون حفدا فمن بين ضاغط جاره ومهطع كأنه يشن الغاره فقلت تالله ما اجتمعت هذه الجماعة الا لامر عظيم ولا قصدت الا مقصد خير عميم ثم قلت لنفسى بعد استصواب حدسى

* انهض الى المكرمات مستبقا * ولا يصدنك عائق عنها *
* وان تجد عصبة سعت جهة * فاسع اليها ثم استفد منها *

فجاريتهم وانا اظن انى اكون اول الفائزين * ومقدام البارزين * فلما بلغت حلقة الرجال * وكانوا ما بين حرقة وطويل وطوال * خرقت صفهم * وخرقت مصطفهم * واذا فى وسطهم خطيب كنت اعرفه مذ عهد غير قريب * فاول ما وقع عليه الطرف * وانست منه الظرف * قلت له السلام عليك يا خطيب يا امام * فاجابنى بديها وعليك السلام *

﴿ حكاية ﴾ بينما كنت اطوف فى مدينة القاهرة * وانظر ما فيها من المحاسن الباهرة * واحدق فى وجوه الشوافن * فى الرواشن * اذ لمحت فى روشن غادة فاقت النساء بالظرف والجمال * والصباحة والدلال * فقلت منشدا * وانا على غير هدى *

* بالله رقى لمغرم دنف * قد اسلمته الى البلى عينه *
* تصدقى بالوصال عليك ان * تشفيه حشاه فقد دنا حينه *

ثم غشى علىّ من شدة اللوعة * ثم افقت طمعا ولم ابرح اسير الهوى وطوعه *
وناديتها

وناديتها بلسان مبين * ألا انى اليك من التائقين العاشقين الخاضعين * فقالت وانى لك لمن السافقين الصافقين الصافعين *

﴿ حكاية ﴾ كنت امشي فى اسواق الاسكندرية * وعرضى لالسنة الناظرين الى كالدرية * اذ كنت لابسا نعلا بالية وثوبا صفيقا * وقد انحل حزامى فكان يكنس البلد طريقا فطريقا * فصادفت عجوزا تلحظنى فقلت علام القوم يضحكون * وفيم يتهكون * فقالت وقد قهقهت * وعن انيابها المتهتمة جلقت * من مكنستك هذه الحرير * وطورك الذى لم ير له نظير * فقلت

* من احب المعروف فليكرم الضـيف بايناسه وابلاغ سوله *
* ليس يبغى قرى ولا بذل مال * منتهى ما يؤم فى تأهيله *

فقالت أما ان شئت ان نقول لك اهلا وسهلا * فانت ادينا مؤهل ومسهل والا فلا * ثم هرولت عنى وعن عينى اختفت * فاتبعتها اللعنة التى بها التحفت *

﴿ حكاية ﴾ قصدت الرشيد * لما فيها من الحظ العتيد * والحدائق الناضرة * والمسارح السارة * فلما دخلتها لاح لعينى غلام كالقمر * يخجل الحور بالحور * فتفاءلت بنضرته * وعجبت من عدم شهرته * فانشدت بمسمع منه

* لبعض الناس فعل دون ما اسم * وبعضهم له اسم دون فعل *

واردت ان افتح معه الكلام * فاستدللت منه على الحمام * فقال لى بلهجة فصيحة * وعبارة صحيحة * أانت جنب مذ خروجك من البيت او فى الحال فقلت

* ان كان يمكنك اصطناعى عاجلا * فافعل ولا تسأل عن الاسباب *
* فلربما اخرت معروفا وما * قدمت غير مساءة الاصحاب *

فدلنى عليه فاذا ابوه قيم فيه فنوه عنده بى * واثنى على ادبى * فلما خرجت من ذلك النعيم * كخروج آدم من الجنة وهو مليم * بش بي الرجل وادبنى تلك الليلة الى طعامه * فلبيت دعوته واجزلت له الشكر على انعامه * وسرت اليه وفى امعائى وقوب * ولاضراسى رقوب * فلما حظيت بانهيه وحصلت

فى مجلسه وضع الخوان * وهو يميد من الطعام بالوان * فأكلنا وشربنا * ولعبنا وطربنا *

❋ حكاية ❋ ما زلت مذ عرفت حلو الاستراط * ومر السراط * انشوف الى رؤية دمياط * لما بلغنى عنها من كثرة سمكها واطيارها * ورخص اسعارها * وكان بى نهم الى اكل السمك شديد * وقرم الى العصفور ما عليه من مزيد * وقد قال فى الاول * من اجاد القول جدا وهزل *

* ما ان ندمت على شرآء الحوت فى * وقت وان افرغت فيه الكيسا *
* ان كنت انفق فيه فلسا واحدا * ألقاه فيه قد استحال فلوسا *

فلم اكد ابلغ ساحلها * حتى رأيت صيادا قد القى شبكته فى البحر وهو مبتئس ولها * وفى طلعته سمة الضجر فتقدمت اليه * وسلمت عليه * فقلت اجذب الشبكة باسم الله على بختى * وان كنت اعهده يرد دائما من تحتى * فان اشتملت على حيتان صغيرة اديت اليك قيمتها موفورة * وان حوت الكبيرة * كان لى ان انال منها مجانا حصةً وفيرة * فرضى بذلك * وقال حسبى الله الوالى المالك * فلما اخرجها اذا بها قد استوعبت من كبار السمك * ما لم يكن عهد مذ درج وسلك * فجاد علىّ منه بحصة * وقد اجرضه من الشرط غصه * فاوقدت جنبه نارا * وبعثت الى السوق من اشترى لى خبزا وعقارا * وملحا وابزارا * وما زلت اشوى وألتقم التقافا * واشرب اشتفافا * حتى منيت بالهيضة والزحير * واستحال علىّ التقدم والتأخر فى المآب والمصير *

❋ حكاية ❋ وجدت فى صدرى ضنكا من مجالسة الرجال * ومطارحتهم الحديث والامثال * وقد جبل الانسان على حب التبدل * والتحول والتنقل * فيسأم النعيم اذا طال * و يرى فى المثابرة الثبور والوبال * وفى الادمان الدمن والوبال * فتحريت مجالسة الصبيان * والخوض معهم فى صار وكان * فلم اكد اخرج من غرفتى حتى رأيت زمرة منهم يلعبون بالقتال والاوتاد * ويضجون ضجيج الناس فى يوم الجراد * فتوهمت ان بى صمما او لمما اذ لم اسمعهم على قربهم من الغرفة ولو انى سمعتهم لعظم علىّ لغطهم على هذه الصفة فدعوت احدهم فشد الىّ حفزا * وكلمنى ركزا * فسكن

روعى

روعى عند سماع نغمته الرخيمة وايقنت ان حاسة سمعى بقيت فى سليمة فحمدت الله تعالى على لطفه بى * وزاد فى عشرة الاولاد اربى * انتهى •

ثم ورد الىّ كتاب من الخواجا روفائيل كحلا يؤذن بنجز حروف للفارياق فسافرت الى باريس ولما علمت ان طبعه لا يتم فى مدة قصيرة رجعت الى لندرة وكانت صحف الطبع ترسل الىّ هنا لاصلحها ثم اعيدها وهكذا نجز الكتاب ثم لما فتح معرض التحف فى باريس وذلك فى ١٥ ايار سنة ١٨٥٥ سافرت ايضا لاشاهده وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس فى كبر معرض تحف لندرة ولم يكن يحوى بضائع متنوعة ما حوى ذاك الا ان من حذق الفرنسيس انهم ينضدون الامتعة بنوع تبدو به للعين رائعة فائقة وفضلا عن ذلك فان الناس كان همهم فى تلك السنة اتقاء مضار الحرب وغوائلها وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين الفا منهم عشرة آلاف من الغرباء وقد رأيت فيه حلى الملكة زوجة الملك وهى مما يفوق الوصف ثم عدت الى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين الى باريس ثم عدت وكانت عودتى هذه المتممة للعشرين مرة من زيارتى لندرة وحيث وجدت نفسى هذه المرة قارا فيها وجب علىّ ان اصف ما فيها مما يحمد ويذم وصفا تاما وافيا وانما لم اطل الكلام فى وصف باريس لما تقدم آنفا من ان الشيخ رفاعه بك الف رحلة فيها ولان البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية اكثر من لندرة ويجب قبل الشروع فى الوصف ان تعلم ان ما قيمته من المأكول والمشروب فى باريس فرنك ففى لندرة شلين غالبا وان نفقة السفر من لندرة الى باريس فى المحل الثانى من الرتل لا تزيد على احد وعشرين شلينا سواء كان على طريق هافر او ديان او بولون او كالى وذلك فى ظرف خمس عشرة ساعة بعضها فى سكة الحديد وبعضها فى البواخر وهذه الباخرة التى تجرى ما بين سواحل انكلترة وفرنسا ليست كتلك التى تجرى فى بحر الروم فانها قذرة وقل ان تجد فيها فراشا للنوم فان قصر المسافة بين الارضين قصرها على ان تكون للتجارة اولى من ان تكون للركاب واقصر المسافات هى التى يسافر فيها من دوفر الى كالى والاوفق لمن يجهل احوال لندرة اذا سافر من باريس ان يجعل قدومه اليها فى النهار لانه يصعب عليه فى الليل وجدان محل يبيت فيه لما ان الحوانيت والمبايت كلها تقفل فى الساعة الثامنة ليلا فاما فى باريس

فلا يعدم ان يصادف ميتا فى اى وقت واى منزل شاء

الكلام على لندن او لندرة

كان عدد اهل لندن فى سنة	١٨٠١	٩٥٨ر٨٦٣
وفى	١٨١١	١ر١٣٨ر٨١٥
وفى	١٨٥١	٢ر٣٦٢ر١٣٦
وفى	١٨٥٧	٢ر٦٢٥ر٠٠٠ (١)

قال بعض المؤلفين ان دورتها سبعة وخمسون ميلا ونصف ميل وذلك عبارة عن سفر نحو ثلاثة ايام اذا كان يسافر فى كل يوم قدر عشرين ميلا وتفصيلها من شسويك الى كنتش تون اثنا عشر ميلا ومن كنتش تون الى ملول سبعة عشر ميلا ونصف ومن ملول الى شسويك ثمانية وعشرون ميلا • وقال آخر ان لندن اصح مدن العالم هواء والدليل على ذلك ما ذكر فى احصائيات الموت من انه يموت فيها من كل الف خمسة وعشرون وفى غيرها يموت من الالف من ثلاثين الى اربعين • وقال آخر ان لندن اغنى مدن العالم واكبرها زعم بعض انها كانت مدينة من قبل الميلاد بالف ومائة وسبع سنين وقبل تأسيس رومية بثلاثمائة واربع وخمسين سنة وانها كانت مقرا للطرينوبنت وللموكهم قبل الميلاد باربع وخمسين سنة وفى سنة ٦١ بعد الميلاد كان الرومانيون يسمونها لنديئيوم وهو اسم لمقر التجار فى ذلك العصر ولسوق المعاملات والمبايعات وزعم بعض انها مشتقه من لود اسم لملك قديم فى بريتانيا والاصح انها مشتقة من لين دين اى بلد على بحيرة وزعم آخر انها كانت تسمى فى الزمن القديم لندنبورغ كما يقال الآن لقاعدة سكوتلاند ايدنبورغ • وقال آخر موقع لندن على نهر التيمس على بعد نحو خمسين ميلا من فوهته وقد صدق ما وصفها به ساى بقوله ليست لندن مدينة واحدة وانما هى اقليم مغشى بالبناء وفى سنة ١٨٤٩ لزم لاهلها من الدقيق ١ر٦٠٠ر٠٠٠ كوارتر (نوع من الكيل) ومن الغنم ١ر٠٠٠ر٠٠٠ ومن الثيران ٢٤٠ر٠٠٠ ومن العجول ٢٨ر٠٠٠ ومن الخنازير ٣٥ر٠٠٠ وفى احد اسواقها

(١) وبلغ عدد سكان لندرة فى سنة ١٨٨٠ ٣ر٧٠٠ر٠٠٠ ومساحة المدينة وتجارتها وجميع متعلقاتها زادت ايضا بنسبة ذلك

المسمى

المسمى « ليدن هل » بيع فى سنة واحدة من الطيور ٤٫٠٢٤٫٠٠٠ ومن السمك المسمى « سمونا » ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وهذا القدر من المأكول غسل من المشروب بمقدار ٤٣٫٢٠٠٫٠٠٠ كالن من المزر كل كالن يملأ نحو خمس زجاجات من زجاج الخمر المعتاد وبمقدار ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من الارواح وبمقدار ٦٥٫٠٠٠ قصبة من الخمر كل قصبة فى عرفهم تسع ستين كالنا وفيها ١٣٫٠٠٠ بقرة للاحتلاب و ٣٦٠٫٠٠٠ قنديل يشعل بالغاز ينفد منها فى كل اربع وعشرين ساعة ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ قدم مكعب من الغاز وتمد الاهلين من الماء بنحو ٤٤٫٣٣٨٫٣٢٨ كانا فى كل يوم ويستعمل لاجل اصطلائهم ولوازم المعامل اكثر من الف سفينة لنقل الفحم فيحمل فى العام اكثر من ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ طن وكثيرا ما رؤى دخان النار منها على بعد ٣٢ ميلا وفيها من الخياطين ٢٣٫٥١٧ ومن الاساكفة ٢٨٫٥٧٩ ومن الخياطات وصانعات روابط النساء اكثر من ٤٠٫٠٠ ومن الخدمة ١٦٨٫٧٠١ • وقال آخر يوجد فى لندرة من اهل ارلاند اكثر مما يوجد فى دبلين قاعدة بلادهم ومن اهل سكوتلاند اكثر مما يوجد فى ايدنبرغ ومن اليهود اكثر مما يوجد فى فلسطين ومن الرومانيين ١٠٠٫٠٠٠ وهو اكثر مما يوجد فى رومية ومن الجرمانيين ٦٠٫٠٠٠ ومن الفرنسيس ٣٠٫٠٠٠ ومن الطليانيين ٦٫٠٠٠ وقال بعض المؤلفين من الفرنسيس ان مدينة لندرة فى قول ايسان مرسلان قديمة جدا واشتقاقها من لفظة لون بمعنى سفينة ودنياس اى مدينة فكأنك قلت مدينة السفن وذهب بعض الى ان اشتقاقها من لون اى غيضة ودن اى مدينة فكأنك قلت مدينة فى غيضة قال اما موقعها فهو فى اقليم مدل سكس على تسعة وستين الف ذراع من فم نهر التيمس وعلى ثلاثمائة وتسعة وسبعين الف ذراع من باريس وهى اكثر مدن العالم اهلا رقعتها مائة الف ذراع مربع واهلها ٢٫٠١٣٫٠٠٠ منها ١٫٠٧٦٫٩٥٦ ذكور والباقى وهو ٩٣٦٫٠٤٤ اناث • قلت وقد تقدم ما زادت به الى سنة ٥٧ فينبغى ان تقيس عليه سائر الزيادات ويولد فيها فى العام نحو ٨٥٫٠٠٠ ويموت نحو ٧٤٫٠٠٠ والمحسوب انه يولد فيها فى الاسبوع نحو الف وثمانمائة نفس منهم ٩٦٠ ذكور و ٨٤٠ اناث ويموت فيها نحو ١٫٣٠٠ نفس • وممن ولد فيها من المشاهير ملطون ويوب الشاعران واللورد بيرون الكاتب الشاعر الاديب

ودفن فيها من الشعرآء الكبار خمسة وعشرون قال وهى تحتوى على ٢٨٨٫٠٠٠ دار تغل فى العام ٢٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك وعلى ١٥٫٠٠٠ شارع وزقاق وتربيعة وقد اتسعت من مدة خمسين سنة اكثر من ضعفين مما كانت فى السابق • وقال مؤلف الهر الد كانت لندرة فى سنة ١٨٣١ تشتمل على نصف ما تشتمل عليه اليوم (اى سنة ٦٢) او اكثر فكان فيها من السكان مليون وثلاثة ارباع ومن المساكن ١٦٠٫٠٠٠فصار فيها من النوع الاول ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ومن الثانى ٣٦٠٫٠٠٠ • وقال آخر ويرد اليها ويصدر عنها من السفائن التجارية نحو ٥٫٠٠٠ سفينة واربعة آلاف اخرى مستخدمة لثمانية آلاف نوتى واربعة آلاف صانع ورأس المال الذى اخرج فى عمل الاقنية والمجارى وغير ذلك مما يختص بالغاز بلغ ستة وسبعين مليونا وثلاثمائة وخمسين الفا من الفرنك والمصروف على التنوير فى العام يبلغ ستة عشر مليونا وفى لندن ثمانية مواقف لسكة الحديد وست غياض وثلاثمائة واربعون كنيسة ومعبدا للمتأصلة وربما كان المعبد داخل الكنيسة و ثلاثمائة وسبعون معبدا للمتفرعة وثلاثمائة واربعون مكتبا للتعليم واربعة عشر سجنا وثمانية دواوين للشرطة و ٢٢ ملهى اى ثياطرا و ٥٠ سوقا لبيع المأكولات من اللحم والدجاج والبقول ونحوها وسوق القمح فيها كلف ٩٠٫٠٠٠ ليرة وعدد ما يذبح فى العام من البقر لطعام اهلها ١٩٠٫٠٠٠ راس ومن الغنم ٧٧٦٫٠٠٠ ومن الخرفان الصغار ٢٥٠٫٠٠٠ ومن العجول قدرها ومن الخنازير ٢٧٠٫٠٠٠ يبلغ وزنها فى الجملة ثلاثمائة وثلاثة وسبعين مليونا ومائتين وثمانية آلاف رطل من ارطالهم ورطل لندرة قدر رطل تونس وهو عبارة عن ست عشرة اوقية وثمنه ثمنه فاذا قوم كل رطل بنصف شلين فى اجمال بعضه ببعض بلغ ثمنها مائة وسبعين مليونا وسبعمائة الف وخمسة وخمسين الف فرنك يخص كل انسان على حدته ١٤١ رطلا وهو اكثر مما يخص كل واحد فى باريس بضعف مثله والمصروف من السمك ١٣٠ الف طن ومن الزبدة او السمن ١١٫٠٠٠ طن ومن الجبن ١٣٫٠٠٠ ومن القمح ٣٦ مليونا من الكوارتر ومن الفحم ثلاثة ملايين طن ومن اللبن ٤٠ مليون زجاجة ومن الخمر ٦٥ الف برميل والبرميل عبارة عن ستة اطنان ومن الارواح ٨٠ مليون ليتر ومن المزر والجعة مليونا برميل • قلت وفيها ٤٫٥٥٧ حانة يباع فيها المزر وسائر انواع الشراب قال وفيها ١٦٫٥٠٠ اسكاف

و

و١٤٫٥٠٠ خياط و١٣٫٢٠٠ نجار و٦٫٨٣٠ بناء و٢٫٣٢٠ صانعا فى الرصاص و٥٫٠٤٩ جلفاطا و٢٫٦٧٠ صانعا للبرانيط و٢٫٦٤٠ فى الساعات و ٥٫٤٠٠ فى الخشب و ١٫٠٩٩ بائع ادوية و٢٫١٤٠ صانعا للبراميل و٣٫٧٠٠ طباع و١٫٠١٠ صناع لعجلات المراكب و٢٫١٠٠ حلاق و ٩١٠ من صناع الحلوآء و ٤٫٣٣٠ جزارا و ١٫٥٩٠ تاجرا فى الجبن و ١٫٠٨٠ فى السمك و ١٫٠٩٠ فى التبغ و ٢٫١٧٠ تاجرا فى العواجل والعجلات و ٥٫٦٦٠ و٤٫٦٤٠ تاجرا فى الشمع والسكر والصابون ونحوها و٤٫٢٠٠ بزازا و١٠٫٤٥٠ بائعا للحليب و٢٫٨١٠ للجواهر و٧٫٨٠٠ سائق عاجلة وحافلة و ٧٤٢ باخرة تجرى فى نهر التيمس كما تجرى الحوافل فى طرق المدينة وذلك ما بين رشمند وكرافسند وما حولهما واشهر المواضع فيها التربيعة المعروفة باسم ترافلكر (محرفة عن طارف الغرب) فيها عمود فلسون مبنيا من الرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما وفوق العمود تمثاله وعلى جانبي الساحة عينان نضاختان قبالتهما صورة الملك شارلس الاول من نحاس • قلت قال بعض ان عمود فلسون هو من حجر جلب من بورتلاند وكان نصبه فى سنة ١٧٤٣ وعليه شرف من نحاس صنعت من مدفع اخذ من الفرنسيس ولخزى الدولة واهل البلاد بقى غير متمم وقد بلغت نفقته ٣٣٫٠٠٠ ليرة وممن تبرع فى العطآء لانشآئه قيصر الروس فانه اعطى خمسمائة ليرة وهو اكثر ما تبرع فيه لهذا الانشآء وعنده تمثال كرلوس اوشارلس الاول صنع فى سنة ١٦٣٣ اه • واعلم ان نلسون المذكور هو الذى ظفر بمراكب الفرنسيس التى سار فيها نابوليون وجنده الى مصر فاحرقها عند ابى قير وذلك فى سنة ١٧٩٩ واتلف ايضا بوارج فرنسا واسپانيا فى الحرب المعروفة بترافلكر عند رأس فنستير وذلك فى سنة ١٨٠٥ وكانت سفن الانكليز ٢٨ سفينة وسفن الدولتين المذكورتين ٣٢ ويومئذ قتل وهو عند الانكليز معظم الذكر لا يزالون يلهجون بمساعيه البحرية لهجهم بمساعى دوك ويلنكطون البرية وكان مولده فى سنة ١٧٥٨ • وفى معجم الاوقات ان نصرة الانكليز فى الحرب المذكورة هى اعظم نصرة حازوها وكان للفرنسيس من البوارج ١٨ وللاسپانيول ١٥ وللانكليز ٢٧ و بعد قتال شديد اسر اميرال الفرنسيس وغيره وتلف لهم ١٩ سفينة غير ان الاميرال نلسون لاقى منيته يومئذ فقام مقامه ولكن وود

وكان اسم سفينته فكطورى اى نصرة وآخر اشارة صدرت من نلسون قبل الشروع فى القتال قوله ان انكلترة تتوقع من كل انسان ان يقضى الواجب عليه وكان ذلك فى ٢١ من تشرين الاول سنة ١٨٠٥ قلت وهذا عندهم من الكلام البليغ ولذلك كتبت هذه الجملة على العمود الذى تقدم ذكره وفى كتاب آخر يسمى تعليقات ومسائل ان بعض خدم نلسون وكان به غفلة قال كان سيدى اذا باشر الحرب يلبس احسن لباسه المنصى فكنت انهاه عن ذلك فيقول لى مه فانى اقضى الحرب بافخر لباس لى فاقول له بل الاولى ان نلبسه بعد ان تفرغ من الحرب قال ولو انى كنت حاضرا يوم تافلكر لما اصابه ما اصابه بذلك اللباس الذى ترداه قال المؤلف الاول وفيها ايضا عمود آخر بنى تذكرة للحريق الذى وقع فى لندرة سنة ١٦٦٦ بلغت نفقته ١٣٫٧٠٠ ليرة وارتفاعه مائتا قدم وقدمان وهو اجوف يشتمل على ٣٤٥ درجة وارتفاع شرفته ٤٢ قدما وآخر نصب فى سنة ١٨٣٣ عليه تمثال ابن الملك جورج الثالث ارتفاعه ١٢٤ قدما وعلو التمثال ١٤ قدما قال واعظم كنيسة للبروتستانت كنيسة مار بولس فى المدينة المذكورة بنيت على هندسة كنيسة مار بطرس برومية ابتدئ ببنائها فى سنة ١٦٦٦ ونجز فى خمس وثلاثين سنة وبلغ جملة ما انفق عليها ٣٧٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك جمع ذلك من طسق جعل على الفحم وطولها خمسمائة قدم وارتفاعها اربعمائة واربع اقدام ووسعها ٣٠ فدانا انتهى قلت وسيأتى ذكر لهذه الكنيسة • ثم ان هذه المدينة شطران يخترقهما نهر التيمس احدهما ليس فيه شئ يسر الناظر فانه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت والثانى وهو الذى تقيم فيه الاشراف والاعيان يشتمل على اشياء كثيرة بديعة سير ذكرها بك ان شاء الله وهذا النهر مبنى عليه عدة جسور ❊ احدها ❊ وهو اول ما يراه القادم الى لندرة الجسر الذى يقال له جسر لندن طوله ٩٢٨ قدما وهو مبنى من حجر صلب ويشتمل على خمس قناطر علو كل منها ٢٨ قدما بدئ به سنة ١٨٢٥ وفتح فى سنة ١٨٣١ وانفق فيه نحو مليونى ليرة عليه فوانيس للتنوير صنعت من مدفع اخذ فى حرب اسبانيا ولا يزال مزدحما للناس والخيل والحوافل والعواجل حتى ان من يشاء ان يمر فيه من جهة الى اخرى يعرض نفسه للخطر فيلزمه ان يسير على سمت واحد ومن ير ازدحام الناس عنده

ولم

ولم يكن قد الف احوال البلد يظن ان الناس متأهبون للخروج الى الحرب والقتال اذ يمر عليه فى كل دقيقة نحو عشرين مركبا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما اشبه ذلك وعنده عمود شاهق من حجر وتمثال للملك وليم الرابع من رخام قال بعضهم يرد فى كل يوم الى الستى ستون الفا من مراكب البر على اختلاف انواعها فى نحو خمسين شارعا منها اثنا عشر الف مركب يمر على جسر لندن فى ظرف اربع وعشرين ساعة فاذا حسبت رجوعها عليه كان لكل ساعة الف مركب ﴿ الثانى ﴾ الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ اقدام وله ثلاث قناطر من حديد بدئ به سنة ١٨١٥ وفتح فى سنة ١٨١٩ وبلغت نفقته ٨٠٠ر٠٠٠ ليرة ﴿ الثالث ﴾ الجسر المسمى بلاك فرير بدئ به فى سنة ١٧٦٠ وفتح فى سنة ١٧٧٠ وهو يشتمل على تسع قناطر طوله ٩٩٥ قدما وبلغت مصاريفه ١٥٢ر٨٤٠ ليرة ﴿ الرابع ﴾ جسر واترلو وهو اعظم جسر فى المسكونة بدئ به سنة ١٨١١ وفتح سنة ١٨١٧ وبلغت مصاريفه اكثر من مليون ليرة ماعدا القرض الذى اخذ من الدولة وقدره ستون الف ليرة وهو بديع الصنعة كله من حجر المرمر يشتمل على تسع قناطر سعة كل منها ١٢٠ قدما وارتفاعها خمس وثلاثون وطول الجسر ١٣٨٠ قدما وقد جعل على كل مار به بنى فجاء المجموع من ذلك فى سنة واحدة ٤ر٦٧٦ ليرة وعده بعضهم من عجائب الدنيا • قلت وكانت واقعة واطرلو المشهورة فى سنة ١٨١٥ قال بعض المؤلفين زحف نابوليون على الانكليز ومعه من الجيش احد وسبعون الفا وكان يرجو ان يفنيهم بكثرة العدد اذ لم تكن عساكرهم تنيف على ثمانية وخمسين الفا لكنهم صابروا ودافعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحا الى السابعة ليلا فلما رأى منهم الجلادة والثبات ابتدأت عساكره ان تتراخى ثم اتصل بالانكليز بولو ومعه خمسة عشر الفا وحينئذ امر دوك ويلنكنطون بالاطلاق عليهم فاحتدمت نار القتال بينهم اى احتدام فقتل من الانكليز مائة وعشرون ضابطا والف وستمائة واحد وخمسون نفرا وجرح ٤٣٦ ضابطا وخمسة آلاف واربعمائة وستة وخمسون نفرا ولكن قتلى الفرنسيس كانوا اكثر ويومئذ اضطر نابوليون الى الرجوع الى باريس ليجند جيشا آخر فلم يوافقه اهل الشورى لانه كان قد تلف معه اربعة جيوش من قبل فاضطر الى ان يخلع نفسه على ما ذكر

سابقا ﴿ الخامس ﴾ الجسر الحديد المسمى بالمعلق لانه غير مبنى على قناطر له ثلاث فتحات واسعات جدا وهو اعلى جسر فى الدنيا من هذا الطرز بدئ به سنة ١٨١٤ وفتح سنة ١٨١٩ زنة ما فيه من الحديد ٥٠٨ر٥ اطنان ﴿ السادس ﴾ جسر وستمينستر بدئ به سنة ١٧٣٨ وتم فى سنة ١٧٥٠ طوله ١٢٢٨ر١ قدما وعرضه ٤٤ وله ١٥ قنطرة و بلغت نفقته ٣٨٩ر٥٠٠ ولما شرع فى بنائه حسبه المهندسون من احسن جسور الدنيا ﴿ السابع ﴾ جسر فكسهال صنع من حديد صب بدئ به فى سنة ١٨١١ وفتح فى سنة ١٨١٦ طوله ٧٩٨ قدما وهو يشتمل على تسع قناطر ﴿ الثامن ﴾ جسر همرسميث طوله مائة واثنتان وثمانون قدما وغير ذلك مما ذكره يطول • ومن العجب ما بنى على هذا النهر والاحرى تحته المجاز المعروف بتميس طنل وهو موضع انشئ تحت الماء طوله ١٣٠٠ر قدم ارتؤى انشاؤه فى سنة ١٨٢٥ ثم اغلق لطمو المياه عليه ثم استؤنف العمل فيه وفتح سنة ١٨٤٣ بلغت نفقته ٦١٤ر٠٠٠ ليرة وجملة ما يؤخذ له من المتفرجين عليه فى كل سنة نحو خمسة آلاف ليرة وينزل اليه فى نحو مائة درجة من الحديد ويدفع على ذلك بنى واحد انشأته جماعة تعرف بجماعة الطنل ومعنى الطنل القبو او السرب او النفق وقال ان نقر ذراع واحد منه فى بعض المواضع انفق فيه الف ومائتا ليرة وبعضه ١٣٠ ليرة والفائدة من انشائه مرور الناس فيه من جهة لندرة الاولى الى جهتها الاخرى فهو بمنزلة الجسر الا انى ذهبت اليه غير مرة فلم ار فيه الا المتفرجين وقيل ان الغرض منه ذكر شرف للدولة وترى البواخر تجرى منحدرة وصاعدة فى هذا النهر مشحونة بالرجال والنساء كما تجرى الحوافل والعواجل فى الطرق وحين تمر تحت القناطر تميل قصب الحديد التى هى مداخنها ليمكنها الدخول فاذا جاوزتها اعادتها كأنها قطعة واحدة وعدة المراكب المنسوبة الى هذا النهر بلغت فى سنة ١٨٥٠ ٢ر٧٣٥ وعدة البواخر ٣١٨ يستخدم فيها ٣٥ر٠٠٠ نفس من الرجال والغلمان وفى سنة ٤٨ ورد الى مرساه ٤٢ر١٤٥ سفينة ورد من المكس عليها الى الكمرك ١ر١٩٣ر٠٧٧ ليرات وكانت قيمة الخارج منه ١١ر٠٠٠ ليرة وعدة المراكب التى تسير فى المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة آلاف وعدة الصنف المسمى هكنى كرج ٤ر٣٥٠ وعلى الكبيرة وهى المعروفة باسم امنيبوس ترى اسماء الحارات

والاماكن

والاماكن التي تسير اليها ولا بد ان يكون مكتوبا عليها اسم البنك فانها كلها تمر به الا ما قل وكل منها يسع اثنى عشر شخصا بداخلها وتسعة بخارجها ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعية واحدة مع لوازمها من الخيل والعدد باربعمائة الف ليرة فتكون كل واحدة منها بنحو سبعمائة ليرة وهي بالنسبة الى حوافل باريس معيبة من وجوه ❊ احدها ❊ انه ليس في داخلها شيء يتمسك به الانسان فاول ما يدخلها يستمر سائقها في السير فيترنح الداخل يمنة ويسرة وربما وقع على بعض الجلوس وكثيرا ما يعجل البواب الى اطباق الباب على يد الداخل وكثيرا ما وردت شكاوى الركاب في هذه الى القضاة فمنهم من حصل ارشا ومنهم من خاب ❊ الثاني ❊ انه اذا كان بين الستة رجلان سمينان ضاق الموضع بالباقي اذ لا يكاد يسع هذا العدد الا باللز والتضام وقد وقع غير مرة نزاع افضى الى الشرع ما بين هؤلاء السواق وبين الرجال السمان فان السائق يأبى ان يأذن للسمين في ان يتبوأ موضعين ويدفع عليهما اجرة واحد فاما في باريس فبين كل قاعدين فاصل من قضيب نحاس فالقاعد فيها مقعدا لا يكاد يمس جاره وكأنما هو قاعد على كرسي بداره ❊ الثالث ❊ انه قد يتفق ان يكون اليوم باردا ويبتدر احد الجلوس الى فتح احدى الطيقان من دون ان يسأل جاره هل يستطيب ذلك او لا فان كل واحد من الناس عموما ومن الانكليز خصوصا يرى ان في صلاح نفسه صلاح غيره ❊ الرابع ❊ ان الداخلين لا يدفعون الجعل عند الدخول كما يفعل في باريس بل عند الخروج فيدفع الخارج الاجرة الى السائق ويذهب في خلال ذلك الوقت عبثا ما بين تصريف الدراهم والقال والقيل والبواب هنا ابدا معرض رأسه للمطر والشمس اذ لا جنة تقيه بخلاف البواب في باريس ولبوابي حوافل باريس شريط من قصب على اطواق ملابسهم وصفحة على صدورهم تؤذن بمهنتهم ومتى وجد احدهم موضعا فارغا عند باب الحافلة قعد فيه وافاض في الحديث مع جاره وعد نفسه من جملة الركاب بلا محاشاة وهناك فرقان آخران بين حوافل لندرة وباريس وهو ان حوافل باريس ليس لها مقاعد على ظهرها فكل ركابها يقعدون في داخلها فلهذا كانت اطول واوسع من حوافل لندرة وهي اشق على الخيل غير ان الفرنسيس لما كان دأبهم وولعهم التبديل والتغيير صاروا

الآن يصنعون حوافلهم كحوافل الانكليز في الصغر وفي جعل مقاعد لها على ظهرها وسواق العواجل في لندرة ذووا شطط وجفاء فانهم يتقاضون الغرباء اكثر من المرسوم عليهم من الميرى وحيث انهم يعلمون ان اصغر القضايا لا تفصل الا بحضرة القاضي بعد قال وقيل وانه ليس كل احد يروم التشرف بمجلس الاحكام فلا يألون جهدا في غبن الراكب واخذ شئ منه زائد على المرتب ومن لؤمهم ايضا انهم قلما ينبهون الماشين في الطريق قبل ان يدركوهم واذا تكلفوا ذلك نبهوهم بنوع من الشتم اما في باريس فان للسواقين شيخا في كل خط فمتى حصل بين احدهم وبين المستأجر نزاع فصله الشيخ ومتى دخلت العاجلة اعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته لتهديك الى معرفته عند الاقتضاء والجعل على المضمار في باريس بعيدا كان او قريبا نحو شلين ولا فرق في عدد الركاب فاما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين اذا كان راكب واحد ولكن اذا كانت المسافة مثلا ميلين وادعى السائق انها ثلاثة لم يفصل بينك وبينه غير البأس والبطش فان رآك اضعف منه الزمك ثلاثة فاما اذا اكتريت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينان وفي باريس فرنكان غير انه يوجد في هذه عواجل مفتوحة تشبه عواجل الامرآء والكبرآء وربما جرها حصانان وفي لندرة لا وجود لها ومن الغريب ان الحوافل التي جعلها في لندرة اغلى تكون ابدا مشحونة بالركاب والرخيصة يعرض عنها ❊ وعن بعضهم ان هذه العواجل الكبيرة هي من مخترعات الفرنسيس في زمن فرنسوا الاول ولكن لم يكن منها حينئذ الا اثنتان وفي سنة ١٥٥٠ كان منها ثلاثة وواحدة لهنري الرابع ولكن من غير سيور ولم تتقن الا في عهد يوحنا دولافال فانه لعظم جثته لم يكن يقدر ان يسافر الا بها وكانت ملوك فرنسا من قبل ذلك تسافر على الخيل والملكات في محفات والخواتين يركبن ورآء الامرآء واول عاجلة رؤيت في انكلترة كانت في زمن الملكة ماري وذلك سنة ١٥٥٣ وفيه نظر ❊ وفي لندرة تسع جمعيات لامداد سكانها وما يليها بالمآء ينفذ منه في كل يوم ستة واربعون مليون كان منها عشرون مليونا من نهر التامس وستة وعشرون مليونا من النهر الجديد ومن موارد اخرى وهذا النافذ مواز لنهر عرضه تسع اقدام وعمقه ثلاث وجريه في كل ساعة قدر ميلين ومشروب السكان كله من النهر الجديد ومن نهر آخر

يسمى

يسمى « لى لا » من نهر التامس وطول النهر الذى حفر حديثا ثمانية وثمانون ميلا وقد تم حفره فى سنة ١٦٢٠ واسم من نهره سر هف ميدلطون ◆ قال وكان سير مراكب البر فى انكلترة بطيئا جدا حتى ان احد المؤلفين قال ان الخورى آدم على ترهله كان يمشى اسرع منها وكانت كثيرا ما تنشب فى الوحل وتفرقع وقال آخر لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الانكليز فقدم اليهم فى التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شلبير فاستعملها عندهم والآن يوجد لها جمعية ايرادها نصف مليون ليرة فى العام ورأس مالها نحو ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وعدد الحوافل التى لها رخصة ٣٫٠٠٠ وكل حافلة فى لندرة يلزم لها عشرة رؤوس من الخيل وعلف الحصان يقوم فى اليوم بنحو شلينين ويوجد ايضا فى لندرة ٧٦ جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك وقل ان يوجد دار عظيمة او حانوت كبير او شئ آخر نفيس من دون ضمان وصورتها اذا خاف انسان على داره او سفينته او امتعته من النار او السرقة ذهب الى جمعية منها والزم نفسه ان يدفع لهم فى المائة شيئا معلوما الى اجل مسمى فاذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته فاما ضمان المعيشة فهو ان الانسان يلزم نفسه ان يدفع فى كل سنة شيئا حتى اذا مات قامت الجمعية بمؤونة عياله ولكل سن مبلغ فان القوى المظنون تعميره يدفع اقل مما يدفع الطاعن فى السن وقبل تدوين اسمه فى دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفى او لا فان علم ان به علة لم يقبل او يكلف دفع مبلغ وافر وللميرى ايضا شئ مما تأخذه الجمعية اذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية او احداث شئ شرعى فى بلاد الانكليز من دون غرم للخزنة وفى المحترفات الكبيرة والديار العظيمة يتخذون اصونة من حديد لصون المال والحلى وكواغد المصرف وغيرها ◆ وعن بعض المؤلفين لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل ١٧٠ سنة فكان من يرزأ بالنار يجمع له مدد من الناس الى ان انعقدت الجمعية المسماة اليد باليد فى سنة ١٦٩٦ ثم اقتدى بها جمعيتان اخريان فلما ان نجحت مساعيهما تابعتهما على ذلك اخرى حتى بلغت الآن فى المملكة ٧٤ جمعية وفى سنة ١٨٠٥ قومت الاملاك التى ضمنت من خطر الحريق بمائة وواحد وثمانين مليون ليرة وفى سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠ وقد اطفؤوا فى سنة واحدة ٣٩٠ حريقة وانجوا ٧٠ نفسا

وفى لندرة ٨٨ محلا للصيارفة ولكن لا ينبغى ان تفهم من لفظة الصيرفى هنا ما تفهمه منها فى البلاد الشرقية فتظن انه يصرف الليرة مثلا بشلينات ويأخذ عليها فلسا او فلسين وانما الصراف هنا هو من تأتمنه الاغنياء والكبراء على اموالهم فيدفعونها ويأخذون منه فائدتها فى العام وكل واحد من هؤلاء الصيارفة عنده عدة من الكتاب والحساب والخدمة فمحترفه عبارة عن ديوان يدخل فيه الناس افواجا افواجا وفى لندرة من المواضع المنشأة للبر وفعل الخير ما يصعب عده ويعسر حده قال بعض المطرين على الانكليز واظنه امرصون الاميريكانى المشهور ان الانكليز اكثر الخلق فعل خيرات واظن ذلك يصدق عليهم من دون مراء وها انا ابين لك بوجيز من القول عظم ما تفعله هذه الامة من البر والاحسان فاذا سمعته فاقض لنفسك بما تراه الحق فاقول ان فى لندرة مستشفيات للمجانين والجذمى وناقصى الاعضاء وللمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعمى والمحتاجين والاشقياء ولسائر من حلت به نكبة وفدحته مصيبة وللمحرومين من الرزق وللعاجزين من الشيوخ وللايتام وللنغول وللغرقى والارامل ولارشاد الضالين وتحرير الرقيق والرفق بالحيوان ما عدا محال التعليم والعبادة ونشر التوراة والانجيل وغير ذلك مما يبلغ مئات ففى مستشفى صانت برثولومى ٥٨٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها على سبعين الف شخص فى كل سنة منهم اربعة آلاف بداخله وفى غيره مستشفى آخر ٥٣٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها قدر ما يوزع من ذلك وفى مستشفى صانت جورج ٣١٧ فراشا ويوزع منه ادوية وغيرها على كثير من المرضى والزمنى ويوجد مثلها ستة اخرى لشفاء الامراض والجراح ولتربية النغول يربى فيه نحو ٤٠٠ ولد وآخر لاجل تربية اولاد العساكر البحرية واولاد اهل سكوتلاند وآخر لتربية اولاد العساكر البرية فيه الف ولد ومحال اخرى للايتام اكثر من ان تعد • هذا وللجمعية الانسانية مساع جيدة لاستنقاذ الغرقى فانها تستخدم اناسا لاستخراج الغارقين بآلات مخصوصة وتبذل جهدها فى مداواتهم وشفائهم وتجود بالجوائز على كل من ينقذ اخاه فى البشرية وكذلك يوجد جمعية لاغاثة الذين يصابون بالنار وفى كريست هسبيتال يربى اكثر من الف ولد وقل كذلك فى الباقى اه • قال صاحب الكتاب الذى منه نقلت

ان

ان جملة المستشفيات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها الى حد كريتش وهى على عشرين دقيقة من لندرة لا تنقص عن اربعمائة واحد وتسعين محلا وتفصيلها كما يأتى

	عــــدد
مستشفيات عمومية	١٢
موزعات مخصوصة لادواء كالجدرى والسل ونحوهما	٥٠
موزعات عمومية (وهى المواضع يعطى منها الدواء)	٣٥
جمعيات ومنشآت لحفظ الحياة والادب وحسن السيرة	١٢
جمعيات لمنع الجرائر والشر	١٨
جمعيات لاغاثة الذين هم فى الضيق والفاقة على العموم	١٤
جمعيات نظيرها على الخصوص	١٢
جمعيات لمساعدة ذوى الكد والكدح	١٤
جمعيات للصم والبكم والعمى	١١
مدارس ومستشفيات ومحال للصدقة على العاجزين من الهرم	١٠٣
جمعيات خيرية تجرى ارزاقا عمومية مما يعرف عند العامة بعلوفة	١٦
جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة	٧٤
مستشفيات للايتام ولغيرهم من الاولاد المخذولين	٣١
محال للتربية والتعليم	١٠
محال اخرى مثلها	٠٤
جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى	٤٠
جمعيات للتوراة والانجيل والمرسلين	٣٥

تبلغ مصاريفها فى وجوه مساعيها المتنوعة فى كل سنة ١٫٧٧٤٫٧٣٣ يجمع منها اكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير اه ويقال ايضا ان جملة ما فرق على الفقرآء فى بلاد الانكليز من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتى مليون ليرة وايراد المستشفيات الكبار من الوقف وعدتها اربعة عشر يبلغ ١٠٩٫٦٨٧ ويقال ان فى مستشفى صان برثولومى يصرف فى كل سنة نحو ثلاثمائة ليرة ثمن خمر تسقى للمرضى ونحو ٢٫٠٠٠ رطل من زيت الخروع و ٢٠٠ كالن

من الارواح ثمن الكالن ١٧ شلينا و ١٢ طنا من بزر الكتان و ١٠٠٠ر١ رطل من السنا و ٢٧ قنطارا من الملح و ٥٠٠٠ر٥ يارد من البفت للربائط و ٧٠٠ر٢٩ علقة وطن ونصف من ازب و ٥٠ رطلا من العشبة فى كل اسبوع وقس على ذلك ومصروف مستشفى كرينج فى السنة عشرون الف ليرة وفى هذه السنة صرف على التعليم فى بريتانيا ٥٤١ر٢٢٣ ليرة وعلى العلوم والفنون ٧٣ر٨٥٥ ليرة ولما سنت الانكليز تحرير الرقيق فى سنة ١٨٣٨ تطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضا لمواليهم وبلغ ما جمع لهم فى لندرة فى عام واحد ٤٦٤ر٣٦٠ر١ وفى سنة ١٨٤٨ كان منهم فى المستشفيات ٣٢٣ر٥٦ منهم ٥٨٨ر٩ نغلا امهاتهم فى المستشفى و١٧٥ر٤ امهاتهم فى الخارج وجميع الجمعيات تنال مددا من الملكة ومن زوجها وعلى قدر هذه الجمعيات المتواطئة على البر والاحسان فاذا رأيت الفقرآء فى لندرة توهمت ان ليس احد فيها يعمل الخير فانك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات باخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من ابدانهن وكثيرا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق ونفاية ما يرمى به من الطعام من الديار ولا يباح للفقير هنا ان يتكفف واذا وجد احد الشرطة انسانا مادا كفه اخذه واودعه السجن غير ان بعضهم لا يتحرج من ذلك ليلا اذا علم ان الشرطى لن يبصره واكثر من يفعل ذلك النساء وخصوصا نساء ارلاند فهن يجرين مع المارين ويلحفن فى الطلب الحاف الغريم فاذا لم تنل احداهن شيئا من غريمها لعنته وانصرفت وكذلك لا يباح لاحد ان يكسب مالا بغير الوجه الذى يؤهله الى ذلك فلا يسوغ مثلا لاحد ان يتعاطى الطب وهو جاهل به او صنعة من الصنائع من دون ان يأخذها عن آخر ويشهد له استاذه بانه اتقنها ولكن هم فى ذلك اقل ضبطا وتحرزا من الفرنسيس واكثر عرضة للتدجيل والمخرقة • وبقى لى هنا ان اقول ان زى الاولاد الذين فى المدارس والمستشفيات الخيرية بهذه المدينة من اقبح ما يكون فان الاولاد الذين فى بلوكوت سكول اعنى مدرسة الردآء الكحلى وهى من اشهر المدارس يلبسون اردية من هذا اللون طويلة الى اوساط سوقهم ويتحزمون بالجلد كالرهبان عندنا ولهم جوارب صفر ولا تزال رؤوسهم مكشوفة صيفا وشتآء مع انهم من ابناء الوسط فاين هم من اولاد مدارس باريس الذين

يلبسون

يلبسون لباس ضباط العسكر فتحسب كلا منهم ضابطا او ضويبطا ويقال ان اللون الكحلي في بلاد الانكليز كان في السابق خاصا بالخدمة والصبيان فلم يكن احد من الخاصة يستليقه لنفسه حتى استعمله ضباط العساكر البحرية اولا فصار مرغوبا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الاشراف من اهل المجلس فصار الآن خاصا بالعظماء والنبلاء • وذكر مؤلف الجدية الاوقات جماعة تعرف بجمعية البيل قال من شان هذه الجمعية في فرنسا وانكلترة جمع الاموال لمقاصد خيالية على اي وجه من السحت كان وغير مرة تقع في العنت وسوء العاقبة وقد انهمكت بانكلترة في هذه الايام في رأس مال يبلغ ثلاثمائة مليون ليرة اه • والحاصل ان في لندرة جمعيات كثيرة للخير والشر وكل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة والمساعي الجليلة فانه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة بخلاف مصالح باريس كما سبقت الاشارة اليه واقدم جمعية للتجارة هي الجمعية المسماة ستيل بارد كان انعقادها في سنة ١٢٣٢ واقدمهن في المساعي الدينية جمعية انتشار المعارف المسيحية كان انعقادها في سنة ١٦٩٨ وفي الستي وحدها احدى وتسعون لجنة اي كومبانية لاصناف التجارة والمبايعة منها اثنتا عشرة لجنة تنعت بالهونورابل اي المكرمة • وفي لندرة نحو سبعة آلاف شرطي وهم يتناوبون عس المدينة ليلا ونهارا وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد وهم على غاية من النظافة والوضاءة ولا يكون مع الشرطي سلاح بخلاف شرطة باريس وانما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج فاذا عصاه احد من ذوي الشرور القاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف ويكون معه فانوس مضلع فاذا اراد ان يتعرف شخصا عن بعد اداره فوقع النور على وجهه حتى يراه كأنه بجنبه ولا يسمح للشرطي بان يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة خلافا لشرطة مرسيلية وغيرها ولا ان يلطأ من المطر او الثلج ولا ان يرفع فوق رأسه ظلة تقيه منهما او من الشمس ومن هؤلاء الشرطة من يتزيا بزي العامة حتى لا يكون معروفا ويسمى الثقاف ويجب على كل منهم ان يتعهد ابواب الديار والحوانيت ليلا ليعلم هل هي محكمة القفل او لا فاذا رأى احدها غير مقفل نبه مالكها عليه وان ينظر الى انوار الغاز في المواضع المذكورة وينبه على اطفائها بعد فوات الوقت وان يمنع من رمي المياه القذرة وغيرها من

الشبابيك وييسر المرور في الطرق للماشين والراكبين وان يبذل جهده في فض الجموع ومنع الخصام في الطرق وفي ازالة كل ما يخل بالحياء والادب وليس له ان يدخل البيوت الا باستدعاء سكانها وقد يدخلها في بعض الاحوال بامر رئيس الديوان وذلك عند التفتيش على اشياء مهمة واذا طلب منه احد ان يدله على طريق او دار فلا يألو جهدا في ارشاده ويجب عليه ان يتعرف اهل الشرور والمساوي ويراقبهم ولا سيما اذا اجتمع منهم اثنان او ثلاثة واذا اراد احد مثلا ان يشتري شيئا من حانوت او يستكري عاجلة فامتنع مالك الشئ من بيعه او اكرائه فللشرطي ان يلزمه بذلك نفيا للمحاباة ويجب حضور واحد او اكثر من الشرطة في جميع المحال التي يكثر انتياب الناس اليها منعا لما عسى ان يحدث من الجلبة والخصام اما في باريس فان الشرطي يتبوأ موضعا في داخل المحل واما في لندرة فانه يقف خارجا او في دهليز المحل وربما دخل ايضا للتفرج كآحاد الناس ولكن حده في ذلك معروف عند المنتابين ويجب على الشرطي ايضا ان يمنع الفقراء من التكفف في الطرق او من الاضطجاع امام الابواب وفي الاماكن المطروقة واذا وجد ولدا تائها عن مأواه ارشده فان لم يعلم له مأوى آواه في ديوان الشرطة وكتب اسمه وصفته في صحف الاخبار حتى يأتي من ينشده واذا بلغه احد الاهلين شكوى عن لص او ذي عدوان تتبع اللص والمتعدي حتى يثقفهما فاذا وجد المذنب ساقه الى الديوان برفق الا اذا كان شرسا فحينئذ يستدعي بشرطي آخر لاعانته ويكون معه آلة يصوت بها لاحضار من استدعى به وعليه ايضا ان يرى الكلاب مقيدة ولا سيما في زمن الصيف وان يمنع الرعية من حمل السلاح ظاهرا او خفية ومن اذى الحيوانات وتحميلها ما لا تطيق ويجب على كل منهم ان يكون معه كتاب فيه اسماء الطرق المسلوكة والمواضع المشهورة وحد اجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريمين وان يعرف قدر المسافة من طريق الى غيرها وفي كل يوم صباحا ينظر رئيس الشرطة في ملبوس المستخدمين في هذا الديوان وفيما يلزم ابقاؤه نظيفا فاذا رأى احدا منهم قد اهمل نظافة شئ او تصليحه غرمه على ذلك وفي يوم الاربعاء يكون تفتيش عام على الملابس ومرتب الشرطي في لندرة من ستة عشر شلينا في الاسبوع الى خمسة وثلاثين واكثرهم يموت بداء الصدر

من

من طول الوقوف وهم انفع طائفة للمدينة والناس • وفى الجملة فان شرطة لندرة خير من شرطة باريس فان جل هؤلاء من الفلاحين وهم على غاية من الفظاظة والتكبر ولا سيما الذين يلبسون برنيطة نابوليون وفى سنة ١٨٤٨ بلغ عدد الشرطة فى انكلترة ووالس ٢٫٧١٦، أكثرهم فى انكلترة وبلغت مصاريفهم ١٦٣٫٩٤٤ ليرة منها ١٣١٫٢٠٢ مرتب وظائف لهم و ٣٢٫٧٤٤ لدواع اقتضتها الضرورة و بلغت مصاريفهم فى سنة ٥٦ ٤٣٤٫٠٨١ لكن عددهم زاد على ما تقدم وفى لندرة ثلاث فرق من المشاة وكتيبتان من الفرسان وهؤلاء الفرسان نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال والاعتدال فاذا رأيت منهم نفرا حسبته رئيس عسكر ولهم سراويل من جلد ابيض وجزم طويلة تفوت ركبهم وعامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم مجانا وفيها ٦٠٠ موضع للاكل و ٩٠٠ موضع للقهوة و ١٨ ملهى وهو المسمى عندهم ثياطرا اعظمها الملهى الكائن فى « هاى ماركت » يقال انه أكبر ملهى فى الدنيا ومثله او أكبر منه ملهى ميلان فى ايطاليا يسمى « لاسكالا » كان بناؤه فى سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من النمسا ثم غير بعض التغيير فى سنة ١٨١٨ واكرى بعض اكنانه العليا بثمانية آلاف ليرة وبعض مقاعده فى الحضيض باربعة آلاف ومن ذلك الاوپرة الطليانية الملوكية فى كافن كاردن اسست فى سنة ١٨٠٨ وفتحت فى سنة ١٨٠٩ واقتضى لانشائها وتهيئتها مبالغ وافرة وبلغ مصروف محل الغناء فيها فى سنة ٤٨ ٣٣٫٣٥٩ ليرة ومحل الرقص ٨٫١٠٥ ليرات ومحل الموسيقى ١٠٫٠٤٨ ليرة وصرف على الآلاتية ٧٫٠٠٠ ليرة واجارته فى العام ٦٫٠٠٠ ليرة واستخدمت فيه امرأة لاعبة من الفرنسيس على ثمانية اشهر بمبلغ ١٢٫٥٠٠ ليرة وحسب ان نفقته فى كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة وقد احترق الآن ثم بنى واقدم ملهى بلندرة هو المسمى « درورى لان ثياطر » ولكنّ بناءه غير قديم فانه احرق مرتين وهدم مرة واحدة واخسها المحل المسمى فيكطوريا ثياطر كما ان فيكطوريا پارك هو اخس الغياض وفيكطوريا كافى هوس اخس محال القهوة واكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة وحينئذ يمكن للغنى والصعلوك ان يراها وزوجها واولادها الا ان الغالب انه متى ذهبت الى ملهى ما تنافس الناس فى الذهاب اليه فتغلو المقاعد بحيث لا يعود يتبوؤها الا اهل الاستطاعة وربما ارخيت ستارة المحل الذى تقعد فيه وليس حضورها بمانع

مما الفه اللاعبون والمتفرجون فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها واولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعصى عليها اصناف كثيرة خسيسة من جملتها زوج نعال واعلم ان التمثيل فى الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والادب وفيه تمثل الحوادث والوقائع الماضية فتصير كأنها مشاهدة بالعيان وفيه تنشد الاشعار الرائقة والقصائد البليغة ويقع من المحاورات الادبية جدا وهزلا ما يسرى به عن الثكلى حزنها وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذى تسلمه علماؤهم وادباؤهم فان اعظم شعرآء الافرنج الفوا فيه وما من خطيب مصقع او اديب بارع الا ودون شيئا من هذه المحاورات ومن طريقة اللاعبين فيه ان يخصصوا كل شخص منهم بحال فمن كان مديد القامة جهير الصوت ابنع خصصوه بان يمثل الامور التى فيها حماسة ووعيد وتدمير ومن كان لطيفا رخصا خص بما شانه الاستشفاع والملاطفة والتملق ومن كان حزقة خص بالامور السخرية المضحكة وقس على ذلك ولو عرفت قدر ما يسرده هؤلآء اللاعبون عن ظهر القلب لاعظمته جدا فان كلا منهم يحفظ من القصص والنوادر ما يكون اكبر حجما من ديوان المتنبى ولا يكاد احدهم يتلعثم فى عبارة وقد يوارون شخصا بيده الكتاب الذى تحفظ منه تلك الحكايات فى مكان حتى اذا ذهل المتكلم عن شئ رده ولكن وقوع ذلك نادر ويقال ان هؤلآء الفصحآء فى ملعبهم اولوا عى فى غيره وفى هذه المواضع من الآلات والادوات والمناظر ما يحير الناظر لانه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغى ان يكون اختلاف الادوات اللازمة لتمثيلها مثال ذلك اذا اريد تمثيل ما جرى بين السموأل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه ان يسلمه الدروع التى كان اودعها عنده امرؤ القيس نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاؤا بدروع وسيوف وشخصين مثيلى امرئ القيس والسموأل فيكون هذا لابسا لباس الملازم لبيته المشتغل بامور نفسه وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشرع الشخص الممثل لامرئ القيس فى ان يخاطب الآخر بان قام له هم فى النفس اضطره الى مفارقة الوطن ومباينة السكن فان المعالى لا تدرك الا بجهد النفس والمخاطرة وازالة المصون من النفائس والرغائب وما اشبه ذلك من الكلام الحكمى وينشد فى خلال ذلك ابياتا يتمثل بها كقول المتنبى مثلا

* تريدين ادراك المعالى رخيصة * ولا بد دون الشهد من ابر النحل *

❋ او قول الآخر ❋

* يغوص البحر من طلب اللآلى * ومن رام العلى سهر الليالى *

ويتأوه فى اثناء الخطاب ويحرك رأسه وينظر نظر البائس الشاكى الى ان يفرغ من الانشاد والناس منصتون لا تسمع لاحد منهم نأمة ثم يأتى بالادرع والسلاح ويسلمها السموأل فيأخذها منه وبعد ان يتوادعا وينشد كل منهما ابياتا دعاء لصاحبه على ما يقتضيه المقام يدخل السموأل حصنه ويرخى الحجاب وبعد قليل يرفع ويأتى الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ومعه جند واعوان شاكى السلاح ويطلب الدروع من السموأل وهو متهدد له ومتوعد ويتمثل بابيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين اقرانه كقول الفرزدق مثلا

* وكنا اذا الجبار صعر خده * ضربناه حتى تستقيم الاخادع *

❋ او كقول المتنبى ❋

* الخيل والليل والبيداء تشهد لى * والرمح والسيف والقرطاس والقلم *

فيجيبه السموأل من حصنه بالمنع وينشد ابياتا تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه ثم تدور بينهما المحاورة الى ان يقنط الحارث من اخذ الدروع فيعمد الى ابن السموأل فيأخذه ويذبحه بمرأى منه وهنا يرخى السجف وبعد قليل يظهر السموأل وبيده الدروع ويذهب بها الى اقارب امرئ القيس ويسلمها لهم وينشد ابياته المشهورة وهنا يتم الفصل وهذا التمثيل يجرى فى اكثر من ساعة لما يتخلله من المحاورات كما ذكرنا وليس الخبر كالعيان •

ثم ان التمثيل عندهم على نوعين الاول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب واخذ الثار ويقال له عندهم « تراجيدى » والثانى وهو عكسه ويقال له « كوميدى » وكلاهما يعدان من الادبيات غير ان النوع الثانى يكثر فيه التوريات والمواربات والتجنيس ولغة الانكليز فيما اظن اطوع على ذلك من غيرها وان اللغات فى هذه الملاعب وان اختلفت وفضل بعضها بعضا الا ان الحركات والاشارات جميعها واحدة واشهر اللاعبين عند الافرنج اهل ايطاليا ولعل ذلك بالنظر الى الانشاد والغناء فان اللغة الطليانية اطوع على الغناء من غيرها لكثرة ما فيها من الحركات وهم اول من احيا طريقة التراجيدى وذلك فى القرن السادس عشر ولكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظاهر القلب كما هى العادة عندنا الآن ثم اقتدى

بهم اهل فرنسا لكن الحلوق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية واول من الف فى هذا الفن من اليونان اورويبيدوس وذلك قبل الميلاد باربعمائة وثمانين سنة فاما فى تمثيل المحزنات ونحوها وفى خفة الحركات واللباقة فالمزية لاهل فرنسا والانكليز تبع لهم فاما فى المضحكات فهؤلآء هم المتبوعون وذلك لسعة لغتهم ومن العجب هنا انه معما يظهر فى وجوه الانكليز من العبوس والانقباض فان لسانهم ادعى الى البسط والضحك من السنة سائر الافرنج ومن الطليانيين من ينشد فى هذه المواضع ابياتا بل قصائد على البديه بان يختار احد الحاضرين لفظة ويقول للاعب انشد ابياتا على هذا الروى فينشده دون توقف وقد سمعت احد الانكليز ينشد ابياتا زعم انه مرتجلها وذلك بان يصف مثلا احد الحاضرين بانه لابس لباسا بلون كذا او ان بيده عصا او انه متكئ وعند التحقيق علم انه انما كان راويا لها فقط على ان ارتجال الشعر عند اى جيل كان من الافرنج هين لان كلامهم كله مجزوم اى خال عن الاعراب وليس بين الكلام المتعارف عند خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير الا ان يقال ان مهابة الجمع تفحم الشاعر غير ان من الف رؤية الجموع فى كل ليلة تساوى عنده قلهم وكثرهم فمثله كمثل العائم فى البحر يستوى عنده قاموسه وضحضاحه وعلى كل حال لهم المزية الكبرى فى كثرة الحفظ وفى حسن الاداء ثم انه كما يتعلم من هذه المشاهد كثير من المحامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك يتعلم المترددون عليها ولا سيما النساء كثيرا من الحيل والاسباب الموصلة الى الوصال وتبديل البعولة بالعشاق لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق الممثلين نصب اعينهن وخصوصا تكلف العجب والتيه من اللاعبات على الرجال فانهن يبدين من هذه الحركات والصفات ما يغرى كل امرأة بمحاكاتهن وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة والتجبر ما يشوق كل امرأة الى ان يكون لها بعل او عاشق نظيره ولا سيما حين يلبسون الديباج ويتقلدون السيوف ويأمرون وينهون واعظم ما يعجب النساء من تلك المناظر هو ان يرين الرجال يتضاربون بالسيوف ونحوها او ان يأخذوا ثارهم ممن افترى على حرمهم وقد تلبس الرجال فى هذه الملاعب ملابس النساء والنساء ملابس الرجال واحسن ما تبدو المرأة به ما اذا لبست لباس الكمى وعلى رأسها خوذة وفى الواقع فان كل ما يلبسن هناك يليق بهن ومن اعجب ما يرى

من

من احوال هؤلاء اللاعبين واللاعبات هو ان الشيخ منهم يتفتى فى زيه واطواره وكلامه حتى لا تحسبه الا فتى والفتى يتشيخ بحيث تحسبه همّا هرما فلو ظهرا فى المرة الآتية ما عرفت منهم احدا بل يغيرون ايضا اصواتهم ولهجتهم وسحنتهم وشعورهم ويتحادبون ويتعارجون ويتمارضون ويتناومون ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضاحكون ويتحامقون ويتجانون ويحاكون الملوك والقضاة والعلماء والاطباء والفقهاء والمتحذلقين والجنى وكل صنف من الناس ومن اعظم ما اضحكنى من محاكاة التثاؤب تمثيلهم اميرا من امرآء باريس قدم الى لندرة واستوخم هوآئها فكان كلما قال كلمة تثاءب وتناعس اشارة الى ان هوآء البلاد قد ثقل عليه وان جميع الانكليز ذووا وجوه كالحة ومن يرهم اول وهلة فربما حسدهم او تمنى ان يكون فى زمرتهم اذ يراهم مغازلين للنساء الحسان ومتردين باللباس الفاخر وربما اكلوا فى الملعب الطعام القدى وشربوا الشراب اللذيذ الا انه عند التروى يعلم ان حرفتهم لمن اشق الحرف لان اللاعب يلزمه ان يعيد لعبته عدة ليال متتالية كما هى وكذا المغنى والمنشد والشئ اذا تكرر تكرج وربما لزمهم فى الليالى الباردة ان يلبسوا الثياب الرقيقة وفى الصيف عكس ذلك وخصوصا انهم يعلمون من انفسهم انهم ان هم الا مستأجرون وان استبرقهم ان هو الا عارية وهى عار وحيث قد جرت العادة بان ابتدآء اللعب يكون غالبا فى الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشرة كان كثير من العابهم سخيفا فلو قصروا الوقت واجادوا اللعب لكان اولى وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمى نوفل وهو ان يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات فيسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والسمين وقد رأيت غير مرة امرأة تبرز فى ثياب رثة ثم تغسل وجهها وتمشط شعرها والناس يغربون من ذلك فى الضحك واعرف اناسا كثيرين يحرمون انفسهم من لذة الاكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه الملاهى ولا يملون من ان ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار وفى الواقع فان نصف تمثيلهم انما هو هزء بالمتزوجين وكذلك اكره من تمثيلهم انهم يجعلون المرأة الضعيفة الصوت تنشد اشعارا فيها حماسة ووعيد وكذا يجعلون الانسان مشتركا اى يحدث نفسه فيقول المحب مثلا وقد اعيته الحيلة فى وصال محبوبته كيف افعل الآن وقد سدت علىّ مذاهب الآمال فلم يبق لى

الا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا او يقول انا لا استحم الليلة قبل ان انام وكذلك استحمق بروز المرأة مثلا في الملعب و بيدها كنارة او آلة اخرى للطرب ولا تعزف بها وانما يعزف عنها بعض العازفين من تحت الملعب وهي مع ذلك تمر يدها على الآلة وتوهم الناس ان الصوت خارج من آلتها * وبودى لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة او انهم الفوا فيها ولا يبعد عندى ان شعراء العرب حين كانوا يتناشدون الاشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات ولا شك ان في هذا التمثيل يكتسب كلام الشاعر رونقا اكثر مما لو بقى في الكتب او انشاد مجرد انشاد ولا شك ان مبدأ الملاهي عند اليونانيين كان مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان نفسها تكون في مبدأها ضعيفة ومن انواع هذه الالعاب اللعب الذى يقال له پنطوميم وهو لعب بالاشارة و الحركة من دون محاورة و لا يلعب فيه الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر والواقع ان للاشارات شجونا و فنونا اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى واحسن هذه الاضاحيك ما وقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او اكثر بلباس سخرية وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلما ضربت المرأة بالعصا على الحائط خرج منه شئ او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى وقد يجئ مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربته امرأة بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثاثه فصار بيتا بديع الاستحكام وربما رأيت كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر ومن احسن ما رأيته في هذه المواضع على كثرة ترددى اليها تمثيلهم فتح الاسبانيوليين مدينة پيرو في اميركا واجتماع اهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية وقام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون لها ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا يأتى عليه ضوء القمر

وجاء

وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى رؤوسهن اكاليل وكان يرى لهن ظل فى ضوء القمر ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى فى جمتها شبيها بالسعف فصارت كالشرائط فامسكت كل جارية بشريطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر ومن ذلك انه برز فى الملعب مائة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة ارخى الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلألأ بالانوار الملونة البهجة الساطعة وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الآخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت رؤوس ست جوار من فوق حيز فصفقت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هؤلاء الست وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلمع وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاصعاد اذا بالجوارى الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلاث جوار ووقفن بين الصفين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلمع ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلاث جوار اخر ووقفن فوق الصف الثانى وبايديهن صفائح لامعة ثم ادلى ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرن متدليات فى الهواء المنير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتألق كأنها الثريا التى تعلق فى السقف وهى فى داخل الهيكل وبيدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتألق تألق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين ايضا بصفة هؤلاء الجوارى فلم يكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البنطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة وقد يصعدون النساء والاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات ومرة اخرى رأيت سفينة فى بحر او شئ شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا ويطلعون قببا مذهبة محفوفة بالانوار المتألقة والبرق يحفها ثم تنشق عن رؤوس نساء ثم تأخذ فى النزول والنساء فى الظهور الى

ان تغيب القبب بالكلية وتبرز النساء فى الملعب ويلبس الرجل هيئة ديك والمرأة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طاووسا يمشى وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك مما يقصر الوصف عنه ومما اعجبنى ايضا تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والآخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك فى قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة فى قبة الآخر وامام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى ومرة اخرى مثلوا حالة المتزوج مع امرأته بعد عقد الزواج بيوم واحد وذلك ان رجلا غضوبا تزوج امرأة مثله وكل منهما كان يعلم حال صاحبه وكان فى نوبة غضبه يركس من امتعة البيت ما يمكن ركسه ويكسر ما يمكن كسره ثم يدعو خادمه ويعبث به ويؤذيه وكذلك المرأة كانت تركس وتكسر وتفعل بخادمتها فلم تأت عليهما ليلة الا وقد اتلفا جميع ما فى الدار فكنا نرى اوراق الكتب تتناثر فى الجو والقماش يمزق والكراسى والموائد تركس وكان مرة اخرى يؤتى لرجل آخر غضوب بطبق فيه طعام فيرمى به فى الملعب فحيث انتهى الطبق يطلع رأس انسان من كوة فى الملعب ويدخل فيه واعلم ان الرقص فى هذه الملاهى مخالف للرقص المعهود فى المراقص فانه هنا اكثر خفة وصنعة وموازنة فقد ترقص المرأة على رؤوس اصابعها عدة دقائق وتمشى كذلك القهقرى وقد تخلع وتتفكك تخلع الراقصات فى بلادنا تقريبا بحيث لا يبدين شيئا مخلا بالحياء الا انه كثيرا ما يرفعن سيقانهن فى وجوه الناس وحين يدرن دورا متتابعا يرى الرائى افخاذهن المستترة تشف من الخز ومع ذلك فلا يعد هذا مخلا بالحياء وكذا التقبيل فأن الرجل يلثم المرأة فى فمها وخديها ولا حرج وتعلم الرقص فى بلاد الانكليز اصله من بلاد ايطاليا وذلك فى سنة ١٥٤١ • ونقلت من كتاب معجم الاوقات ان مبدأ هذه التمثيلات فى بلاد الانكليز كان لاشياء روحية دينية واول تمثيلة اجريت متقنة كانت على عهد الملكة اليصابت وان اول تمثيلة اجريت متسقة ومنتظمة كانت فى رومية بحضرة البابا ليو العاشر وذلك سنة ١٥١٥ • وفى لندرة اثنان وعشرون موضعا يرى فيها صور البلاد والمدن والاشخاص من وراء الزجاج ويقال لها پانورامه اعظمها المحل الذى يسمى كوليسيوم يصعد الى قبته فى درج او فى قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين لا تسع اكثر من اثنين فاذا استقرا فيها حركت بآلة من تحتها كآلة الباخرة فتنبعث صعدا

فاذا

فاذا بلغ الانسان القبة وهي ذروة المحل رأى صورة لندرة او باريس بكل ما فيهما من الديار والطرق والانوار والمواضع المرتفعة والمنخفضة حتى يظن ان المرئى شئ محسوس ويخيل له ان المسافة التي بينه وبين اطراف المدينة بعيدة كسافة المصور ويرى ايضا القمر يسير والنجوم تنقض وتزمهر والثلج يتساقط ويسمع زمزمة الرعد وغير ذلك مما يذهله • ومن المواضع الشهيرة دار الاختبارات العلمية وهوموضع يشرح فيه خواص الاشياء وكيفية العلوم والصنائع ومن اعظم الآلات فيها جرس كبير ينزل الناس فيه في حوض ماء وهناك ماء رأيت الناس يغمسون فيه اصابعهم وينزعونها بعجلة لان فيه خاصية الارجاف الكهربائية •

واعظم بناء في لندرة بل في الدنيا كلها مجلس المشورة اول حجر وضع في اساسه كان في السابع والعشرين من نيسان سنة ١٨٤٠ ودام بناؤه عشرين سنة ومساحته اكثر من ثمانية جربان فيه اكثر من ١٨٠ر١ حجرة و ١٩ ديوانا و ١٢٦ مرقى وبلغت نفقته ٠٠٠ر٥٠٠ر٣ ليرة طول مجلس الاعيان فيه ٩٧ قدما وعرضه ٤٥ وارتفاعه كذلك فيه عرش تجلس عليه الملكة وكرسيان عن يمينه وشماله احدهما لزوجها والثاني لولدها وهويشبه كنيسة صغيرة لكنه من دون كوى وعلى مدار حيطانه زجاج ملون عليه صور ملوك الانكليز وارتفاع مجلس النواب ٤٥ قدما وعرضه كذلك وطوله ٦٢ وهو يفتتح في شهر شباط ويغلق في تموز فتكون مدة انعقاده ستة اشهر وقبل الشروع في المذاكرة والنظر في المصالح تقام الصلاة وكذا هي العادة عند الانكليز قبل كل امر ذي بال ولاسيما قبل القتال وحين تحضر الملكة لفتحه او لاغلاقه يقدم لها احد ارباب المناصب العلية خطابا وهو جاث على ركبتيه فتأخذه منه وتتلوه ايذانا بما ذكر وقبل حضورها بساعتين تفتش اسرابه ودهاليزه جريا على العادة من سنة ١٦٠٥ وذلك ان اهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يوما وكان دين البروتستانت قد استتب حديثا حاول بعض من الكاثوليكيين ان يحرق المجلس واهله ببارود كان قد خزنه تحت اسسه فانتبه لهذه المكيدة بعض الحاضرين وفسدت على الرجل حيلته وقد فرضت كنيسة الانكليز المتأصلة صلاة معينة لذلك اليوم وهو الخامس من شهر نوفبر وفيه يخرج رعاع الناس بتصاوير وتماثيل كثيرة يمثلون بها ذلك الرجل والباب

وغيرهما ممن يحسبه الانكليز عدوا لهم و بعد ان يطوفوا بهما المدينة بضجة وزأط يحرقونها عند برج لندن و يسمون هذا اليوم كي فكس ٭ واعلم ان اهل المجلس ينقسمون الى قسمين الاول يقال له مجلس الاعيان والثانى مجلس النواب اما اعضآء مجلس الاعيان فقد يكونون من اصحاب الوظائف العالية سوآء كانت دينية اودنيوية وعدتهم ٤٦٢ منهم ٣٦ من مطارنة ارلاند و٢٨ من اعيانها وما حكم به هؤلاء السائدون لا ينقضه اصحاب مجلس النواب الا فى امور مخصوصة ولكل منهم ان يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى و يبدى الاسباب التى يستصوبها خطا واذا لزم اثبات ما قرره يكتفى بمجرد قوله على شرفى وفى غير ذلك يحلف واذا قضى اهل مجلس النواب بشئ فلا بد وان يعرضوه على مجلس الاعيان وللملكة ان تبطل حكم المجلسين ولكن قلما تجرأ على ذلك ولكل من الوزراء ٥٫٠٠٠ ليرة فى السنة ولاحد الدوكات من رزقه فى كل يوم الف ليرة ولرئيس المجلس ٨٫٠٠٠ ليرة ودار يسكنها وعدة اعضآء مجلس النواب ٦٥٨ ينتخبهم اهل اقاليم انكلترة وهى ٥٢ اقليما واهل المدن والمدارس ولا بد من ان يكون لنائب الاقليم ايراد ٦٠٠ ليرة فى العام من رزقه ولنائب المدينة ٣٠٠ والحكمة فى ذلك ان يكونوا قادرين على التفرغ للنظر فى مصالح الرعية واول مجلس مشورة عرف للانكليز كان فى عهد هنرى الثالث سنة ١٢٦٦ وفى سنة ١٣٤٠ انقسم الى مجلس الاعيان ومجلس النواب كما تقدم ومصاريف المجلس تبلغ فى السنة نحو ١٦٢٫٣٣٠ ليرة منها مصروف الطبع يبلغ ٧٥٫٩٥٤ ٭ وعروض الحال التى تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها فى السنة نحو ١٠٫١٢٨ وعدد التوقيع او الامضآء ١٫٦٨٧٫٩٣٣ ٭ ومن المبانى العظيمة فى لندرة المتحف البريتانى وهو الموضع الذى فيه التحف الغريبة والاشيآء العادية والحجارة المعدنية ويقال له بريتش موزيوم بنى من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٥١ واصل انشائه ان رجلا من الاعيان اسمه هانس سلون توفى سنة ١٧٥٣ واوصى بعشرين الف ليرة لمشترى تحف توضع فى محل مخصوص للتفرج عليها فاعجب ذلك مجلس المشورة وفى ذلك التاريخ جمع ٣٠٠٫٠٠٠ بامر المجلس لانشآء ذلك الموضع وفيه من الغرائب حجر يقال انه سقط من الجو فى ولاية السالك حين كان الامبراطور مكسيمليان عازما على ان

يوقع

يوقع بالفرنسيس لحفظ فى كنيسة انسهم الى اوائل فتنة الفرنسيس ثم نقل بعد ذلك الى مكتبة كلمار زنته ٢٧٠ رطلا انكليزيا. ويوجد فيه ايضا حجارة اخرى سقطت من الجو بعضها سقط فى سنة ١٧٩٠ وبعضها بعد ذلك باربع سنين وبخمس وفيه جميع الحيوانات مصبرة وصور وتماثيل وكسى اهل البلاد الاجنبية وآلات طربهم واثاثهم والعصافير المصبرة والطيور والوزغ والاسماك والاصداف والعظام والقرون والجماجم واسنان الفيلة والبيض ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جملتها سلحفاة جلبت من الهند وقد دفع فى ثمنها ١٠٠٠ ليرة وفيه موضع آخر لجميع اصناف الجواهر المعدنية وآخر لاصناف الدراهم والدنانير القديمة رأيت فى جملتها دنانير ضربت على عهد هارون الرشيد بالخط الكوفى وهى كبيرة رقيقة وفيه موضع آخر للكتب تبلغ اكثر من ٦٥٠٠٠٠ كتاب واذا اعتبرتها بحسب الاجزاء تبلغ اكثر من ٩٠٠٠٠٠ وهذا القدر يساوى مقدار كتب برلين وويانه ولكن دون القدر الموجود فى باريس ومونيش وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة ١٥ ميلا من جملتها الكتب التى كانت الملوك الانكليز تبرعوا بوقفها على المحل المذكور منها كتب مجلدة بالمخمل كانت للملكة اليصابت ولجامس الاول ولشارلس الاول وغيرهم وكتب كانت لجورج الثالث وهى ٨٠٠٠٠ واعظم موضع فى هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠٠٠٠ ليرة فيه توراة قديمة طبعت فى متس سنة ١٤٥٥ وامثال لقمان الحكيم طبعت فى ميلان سنة ١٤٨٠ واول نسخة طبعت من اشعار اوميروس طبعت فى فلورانس سنة ١٤٨٨ ونسخة اشعار فرجيل طبعت فى فينيسيا سنة ١٥٠١ وفيها صوانان قيمة ما فيهما من الكتب ربع مليون وهذه المكتبة يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة وفى كل نصف سنة يجدد الاذن ولا يؤذن للمطالع ان ينسخ كتابا منها برمته وانما ينسخ منه جملا ولا ان يستصحبه ولا ان يطلب كتابين فى تذكرة واحدة وقد بلغ عدد المطالعين فى سنة واحدة ٧٠٠٠٠ وعدد كتب الخط ٣٠٠٠٠ وثمن خزانتين منها فقط ٢٥٠٠٠٠ فى جملتها كتاب توراة كتب لشارلمان وكتاب صلوات للملكة اليصابت غشاؤه من صنع الابرة عملته بيدها وفيها ٣١٧ كتابا باللغة السريانية • قلت لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريا على عادة اهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا وان يكن

قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون فى لغة شرقية قط وحين كنت اذهب الى هذا الموضع للمطالعة لم يتهيأ لى ان اعرف اسمآء الكتب العربية بجملتها لان اكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية ومعلوم ان الاسم العربى لا يظهر بها حق الظهور ومما رأيت فيها من الكتب الجليلة ادب الكاتب لابن قتيبة والنوابغ للزمخشرى ومدح الشئ وذمه للجاحظ وديوان ابى تمام وهذا التحف هو من بعض ما تمكن رؤيته مجانا بلندرة يفتح ثلاثة ايام فى الاسبوع وهى الاثنين والاربعاء والجمعة من السابع من سبتمبر الى اول شهر ماى ولا يدخله من الاولاد من كان سنه دون ثمانى سنين وعند بابه عسكريان بالسلاح اعتبارا للمحل وقد ضمن بعض الكتب بلندرة بثلاثة آلاف ليرة وبيعت نسخة من بوكاتشو بالفين ومائتين وستين ليرة وقومت نسخة من توراة مكاين بخمسمائة وكسور • ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة بنى فى سنة ١٨٣٠ وهو يشتمل على تحف نفيسة من جملتها سيف كان يتقلده اكرامول المشهور وجثة الحصان الذى كان يركبه نابوليون الاول فى حرب واطرلو يقال له مارنتو ذو اللحية وفيه ايضا صورة تلك الواقعة ولوح من وجه السفينة التى انتصر فيها نلسون وآخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بنى فى سنة ١٨٣٥ وفتح فى سنة ١٨٥١ بلغت نفقته ٣٠ر٠٠٠ ليرة وهو يشتمل على الجواهر المعدنية وعلى ما يوجد من اصناف الحجر فى بلاد الانكليز وغيرها من البلاد وعلى الآلات المتعلقة بهذا العلم وآخر يعرف بمتحف المرسلين يشتمل على اشياء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان وعلى مشاهير آلهة الوثنيين واشيآء اخرى عديدة جلبها هؤلآء المرسلون من البلاد التى جالوا فيها وآخر يعرف بمدرسة الجراحين بنى فى سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته ٤٠ر٠٠٠ ليرة يفتح لاهل المدرسة ولمن يكون له اجازة من احدهم وذلك فى ايام معلومة من الاسبوع وهو يشتمل على ٢٣ر٠٠٠ قطعة من الاجسام المصبرة ومن الاعضاء والآراب وعلى جثة جبار من اهل ارلاند طولها ثمانى اقدام مات وهو ابن اثنين وعشرين سنة وذلك سنة ١٧٨٣ ولما مات قيست فكانت ثمانى اقدام وربعا وفيه جثة رجل حزقة من صقلية طولها عشرون اصبعا • قلت ومن مشاهير القصار فيليطوس الكوسى كان من صغره اذا خرج يضع فى جيبه كرات من الرصاص خيفة ان تطيره الريح وكان شهيرا ايضا فى عصره بالعلم ونظم الشعر وآخر يسمى البيوس

الاسكندرى

الاسكندري كان طوله قدما وخمس اصابع ونصف اصبع وكان له شهرة ايضا بالمنطق والفلسفة قال وفيه جثة جبار آخر من ارلاند طولها ثماني اقدام وسبع اصابع ونصف وقدر ذراع من جثة جبار فرنساوي كان طولها سبع اقدام واربع اصابع وجثة فيل جلب من الهند وكان يؤذي الناس لدآء اعتراه فكان لا بد من قتله برشق من الرصاص ولما اريد قتله اناخ على صوت قائده ليصوب بعض المقاتل في جسمه فلم يمت الا بعد ان اطلق عليه مائة رصاصة وثم جثث اجنة اسقاط واختان توأمان ولدتهما امهما وهي بنت سبع عشرة سنة من دون مقاساة الم ولم تزل اجسامهما متحدة وفيه شكل احشاء نابوليون مظهرة لانتشار الدآء الذي اودى به • وآخر يقال له متحف صون بالقرب منه بني في سنة ١٨١٢ يشتمل على اربع وعشرين مقصورة فيها تماثيل وتصاوير وحجارة ثمينة وغير ثمينة وتحف وكتب فمن جملة تماثيله تمثال احد آلهة المصريين المسمى ازيس ثمنه ٢٠٠٠ ليرة وفيه فرد مرصع (طبنجة) كان الملك بطرس الاكبر اخذه من قائد الجيوش التركية في بحر الخزر سنة ١٦٩٦ ثم اهداه الملك الكسندر الى نابوليون عند الهدنة التي وقعت في تلسيت سنة ١٨٠٧ واستصحبه نابوليون الى جزيرة صانت هيلان ثم جاد به على بعض ضباطه وانتقل اخيرا الى لندرة • ومن ذلك الموضع الذي يقال له روشن الامة بني في سنة ١٨٢٤ وبلغت نفقته ٩٦٠٠٠ ليرة وهو يشتمل على ٣٩٠ صورة منها ٣٨ صورة قومت بسبع وخمسين الفا وست عشرة ليرة ثمنها ٧٥٠٠ وهو دون نظرائه في بلاد اوربا • ويوجد ايضا محال اخرى عدتها خمسة عشر محلا لجماعات الجغرافية والبناء ومعرفة المعادن والتصوير ولالقاء الخطب وغير ذلك • ومن المباني الجليلة البنك انشئ في سنة ١٦٩٤ مرتب ناظره في السنة اربعة آلاف ليرة وللوكيل ٣٠٠٠ ليرة ولكل من المباشرين وهم ٢٤ رجلا ٢٠٠٠ ليرة وعدد المستخدمين فيه ١٠١٦ منهم ٨١٤ كتاب وسنويتهم من الخمسين ليرة الى الالفين فجملة مرتبهم في السنة ١٩٠٠٠٠ ليرة وكل كاغد يعاد اليه يلاشى ودين الدولة للبنك يبلغ ١١٠١٥١٠٠ ولا يسمح بان كواغده تزيد على ١٤٠٠٠٠٠٠ ليرة وقيمة ما يتداول منها في ثلاثة اشهر تزيد على ثمانية عشر مليونا ومن هذه الكواغد ما تساوي قيمته الف ليرة واظن ان اغلى كواغد فرنسا لا يساوي اكثر من الف فرنك وفيه سبائك

ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلا وقيمته ثمانمائة ليرة وفيه عدة موازين من جملتها ميزان يزن من سبائك الفضة من خمسين رطلا الى ثمانين وآخر يزن فى كل دقيقة ٣٣ ليرة وقد جعل بحيث يزن الدينار الرائج ويرميه فى صندوق والزائف فى صندوق آخر وفيه آلة لطبع الكواغد ورسم اعدادها من الواحد الى مائة الف بغاية ما يكون من الضبط والاحكام وبجانب هذا المحل الدار التى تجتمع فيها التجار فتحتها الملكة فى سنة ١٨٤٤ وبلغت نفقتها ١٨٠٠٠٠ ليرة وفى وسطها تمثال الملكة وعلى حيطانها رواميز ما عند اصحاب الصنائع والتجارة من الادوات والتحف وامامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس راكبا على فرس فوق عمود من الرمر ● وقال صاحب المعجم كواغد البنك التى تداولها الناس فى سنة ١٨٥٥ بلغت ١٩٫٦١٦٫٦٢٧ ليرة وفى بعض الاحايين زادت على هذا القدر وقيمة السبائك التى فيه بلغت فى سنة ٥٣ ٢٠٫٥٢٧٫٦٦٢ وفى سنة ١٨٢٨ تفرع عنه فى المملكة عدة فروع ● ومن ذلك الكمرك بنى من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٧ وفى سنة ١٨٤٩ بلغ عدد المستخدمين فيه ٢٫٢٢٨ شخصا يصرف عليهم من المرتبات ما يبلغ فى السنة ٢٧١٫٢١٣ ليرة ودونه كمرك ليفربول كان فيه من المستخدمين فى ذلك التاريخ ١٫١٤١ نفسا وايراد الكمرك الاول وافرجدا وفيه مقصورة طولها ١٩٠ قدما وعرضها ٦٦ ● ونقلت من بعض صحف الاخبار ان ما دخل من التبغ فى سنة ١٨٤٨ بلغ ٢٧٫٣٠٥٫١٣٤ رطلا ومقدار ما دفع عليه من المكس ٤٫٣٦٥٫٢٣٣ ليرة وعدد من ثقفوا من مدخلى الصنف المذكور من دون مكس ٢٫١١٥ وفى سنة ١٨٥٠ بلغ المجلوب منه نحو ٤٣٫٥٠٠٫٠٠٠ رطل واما اسم التبغ فيقال انه منقول عن اسم اقليم فى اسپانيا الجديدة باميريكا واول ما علم امره كان فى سنة ١٦٩٤ وفى سنة ١٧٢٠ استعملته الاسپانيول فى يوكاتان واكثروا منه وفى سنة ١٥٦٥ جلب الى بلاد الانكليز فكان يصنع فيها اولا لاجل ارساله الى الخارج وفى سنة ١٥٨٤ شهر استعماله فى ازلنطون ثم منع وفى سنة ١٦١٤ ضرب عليه اداء على كل رطل نحو سبعة شلينات وفى عهد شارلس الثانى منع تنبيته وغرسه ثم ابيح ● ومن ذلك المألك العام اى البوسطة بنى من سنة ١٨٢٥ الى ٢٩ يبلغ عدد المستخدمين فيه ٢٫٠٠٠ وعدد المستخدمين فى ضواحى لندرة ١٫٢٠٠

ويبلغ

وبلغ الصافى من ايراده فى سنة ٥٦ ١٫١٩٤٫٣٩٨ ليرة (١) وبلغ مصروف المحل ١٫٧٣٠٫٨١٥ منهـا للجامكيات ٩٤٨٫٥٧٣ وللمرتب ٢٩٫٣٦٧ وللبناء ٤٢٢٫٩٤٣ ولارسال المآلك (المكاتيب) فى سكك الحديد ١٦٧٫٨٢٣ ولارسالها فى عجلات ونحوهـا ١٢٫٢٩٨ وبلغت كمية المكاتيب التى سلمت لاصحابها فى بريتانيا فى سنة ٥٧ ٥٠٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فيكون لكل واحد نحو ١٧ والمحسوب ان كل واحد فى انكلترة يتسلم ٢١ رسالة وفى سكوتلاند وفى ارلاند ٧ وفى سنة ٥٦ بلغ عدد الجرنالات التى سلمت فيهما اى فى بريتانيا ٧١٫٠٠٠٫٠٠٠ وصدر منها حوالات بمبلغ ٦٫٣٨٩٫٧٠٢ قيمتها ١٢٫١٨٠٫٢٧٢ ليرة وعدد مراكز البوسطة فى المملكة كلها يبلغ ١٫٨٦٦ منهـا ٨٤٥ اصول والباقى فروع وفى لندن وحدها يوضع فى كل يوم نحو ٥٠٠٫٠٠٠ رسالة • قال بعضهم وما يفرق الآن من الرسائل فى مسافة ١٢ ميلا حول عموم مركز البوسطة الاصلى يكون قدر ما كان يوزع منها فى الزمن القديم فى جميع جهات المملكة واجرة المستخدمين فى بوسطة صقع لندرة تبلغ فى الاسبوع ١٥٫٠٠٠ ليرة وعدد المباشرين لهذه المصلحة العظيمة فى المملكة كلها سنة ٥٧ وذلك ما بين رؤساء ونظار ومباشرين وكتاب وحمالين وخدمة ٢٣٫٧٣١ منهم ١١٫١٠١ مديرون و ١٫٦١٠ كتاب و ٢٠٥ حراس و ١٠٫٥٨٢ لتبليغ الرسائل وغير ذلك قال والمحسوب انه من كل ٢٠٠ رسالة ترجع واحدة الى مرسلها لعدم العلم بمقر المرسل اليه فاذا وقع امر مثل هذا ابقيت الرسالة فى المحل وفى العام الماضى كان من هذه الرسائل نحو ١٫٠٠٠٫٧٠٠ قال وجملة الرسائل التى سلمت فى الروسية فى سنة ١٨٥٥ بلغت ١٦٫٤٠٠٫٠٠٠ وهو نحو القدر الذى سلم فى مدينة منشستر وضواحيهـا فقط وجملة الرسائل التى فرقت فى فرنسا فى سنة ١٨٤٧ بلغت ١٢٧٫٤٨٠٫٠٠٠ وفى سنة ٥٦ ٢٥١٫٩٩٦٫٧٠٠ ما عدا ٢٫٨٦٧٫٩٠٤ رسالات بقيت فى البوسطة لعدم بيان عنوانها وعدد المستخدمين فى بوسطة هذه المملكة

---

(١) بلغ ايراد نظارة بوسطة انكلترة فى سنة ١٨٨٠ ازيد من ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة والمصاريف بلغت ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة.

اى فرنسا ٨١٥ر٢٥ نفسا • واول من رتب البريد لويس الحادى عشر ملك فرنسا ولكن ليس على هذا المنوال الذى نراه الآن وانما كانت الكتب تبلغ الى اصحابها على يد رسل من الملك من بلد الى آخر وبقى هذا الترتيب مجهولا عند غيره من الملوك مدة طويلة وهو الذى عدل الميزان والكيل واول من نعت بنعت ماجستى اى عظمة واول من اخترع هذا الطابع الذى يلصق بالرسائل رجل من اهل السويد اسمه تريكنبر وذلك فى سنة ١٨٢٢ وبقى اهل هذه البلاد الى القرن الحادى عشر خالين عن المعارف وكان دأبهم التنقل والترحل الى البلاد الاجنبية • وفى لندرة ٣٦ منتدى ويقال لها الكلوب وهى ديار رحيبة يجتمع فيها اغنياء الانكليز للمذاكرة والمعاملة والمطالعة والاكل والشرب منها ما يجتمع فيه ٣٠٠ ومنها ١٠٠٠ را واكثر ولا يدخل فيها احد الا بشهادة بعض من اهلها واداء الدخول من ٩ ليرات الى ٣٢ ليرة وفى كل سنة يدفعون ايضا شيئا لمصاريف خدمتها وفرشها وانوارها وذلك من خمس ليرات الى اثنتى عشرة ليرة وكلها حديثة عهد بالبناء وهذه المحال لا يدخلها النساء واذا رضى احد من اهل هذه المواضع عن احد من الغرباء ادخله فى زمرتها اكراما له • وفيها عدة كنائس عظام اقدمها وستمنستر ابى كانت فى الاصل ديرا للرهبان الباندكتيين اسست فى سنة ٦١٦ ثم وسعت وجددت وفيها تتوج ملوك الانكليز وملكاتهم من عهد ادورد المعترف الى عهد الملكة فكطوريا وقد جلست على الكرسى الذى تتوج عليه الملوك وهو كرسى عال قديم مغشى بالجلد ككراسى الكنائس والاديار فى الزمن القديم خال عن الزخرفة مطلقا وكثير من ملوك الانكليز واعيانهم وعلمائهم قد دفنوا فى هذه الكنيسة من جملتهم هنرى الثالث ومارى ملكة سكوتلاند وكنكراف الشاعر صنع له قبر فبلغت نفقته عشرة آلاف ليرة صرفت من هانرته زوجة الدوك اوذنشس مالبولور وفيها قبر لسر اسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة وآخر لشكسبير ولما سئل يوب الشاعر ان يكتب تأبينه كتب ما ترجمته هكذا « اهل بريتانيا يحببوننى ويحفظون صيتى سالما عن اسم بربر او بنصون » يعنى ان هذين الرجلين كانا لا يحسنان الرثاء والتأبين مع كونهما كانا متعارضين له • ومن ذلك كنيسة صانت پول اى مار بولس وقد تقدم ذكرها اول حجر وضع فى اساسها كان فى سنة ١٦٧٥ وآخر حجر فى سنة ١٧١٠ وذلك بعد ٣٥ سنة فى عهد اسقف واحد

واحد وبلغت نفقتها ٧٤٧٫٩٥٤ ليرة و٢ شلين و٩ پنس جمعت من مكس جعل على الفحم ولذلك يقال انها تزينت بلباس اسود كما تراها الآن • قلت بل جميع مباني لندرة مترديه بهذا الرياش حتى ان مجلس المشورة مع كون البناء فيه متواصلا يظنه الناظر قد مضى عليه احقاب من الدهر قال وشكلها على شكل صليب لاتيني وطولها من الشرق الى الغرب ٥٠٠ قدم وعرضها ١٠٠ وطول صومعتها ٢٢٢ قدما وارتفاعها من الحضيض الى ذروة الصليب ٤٠٤ اقدام وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها ٢٫٥٠٠ بلغت نفقتها ١١٫٢٠٢ ليرة ونصف شلين ودورتها ثلاثة ارباع ميل • قلت جميع التربيعات والحدائق والغياض بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرابزين من حديد لعل ثمنها يوازى ثمن مدينة باسرها • وداخل الكنيسة مبلط بالرخام الاسود والابيض وسقفها عقد من دون زخرفة ولها قبة عظيمة دورتها من داخل ٣١٦ قدما واذا طلعت الى اعلاها من داخل الكنيسة خطوت ٦١٦ درجة ومن شان هذه القبة انه اذا وقف رجل فى جهة منها ووقف آخر فى جهته المقابلة واسر اليه كلاما بان يضع فمه على حائط القبة سمعه الآخر وفى داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الانكليز وابطالهم عندها تماثيل ملائكة بصورة نساء يقدمون لهم الاكاليل اشارة الى انهم ماتوا فى سبيل الله وثم ايضا تماثيل نساء بارزة نهودها ولها اربعة ابواب فى كل جهة باب وقدام الباب الاكبر ١٢ عمودا من اسفل و ٨ فى الطبقة الثانية ولكل من الباقى ٤ اعمدة ولها قبتان متقابلتان فى كل منها ساعة دقاقة وفى يوم معلوم من السنة يهيئون موضعا فيها لترتيل الاولاد تبلغ نفقته ٣٠٠ ليرة وفى اليوم الثانى يزاح وهذه الكنيسة هى اكبر كنيسة للبروتستانت فى الدنيا ودون كنيسة رومية وهى تشبه بعض الملاهى فى انها لا تفتح الا فى ساعة معلومة من النهار ولا يمكن رؤية جميع ما فيها الا باداء نحو خمسة شلينات • وايراد رئيس اساقفة كنتربورى فى السنة ٢٥٫٠٠٠ ليرة وايراد رئيس اساقفة يورك ١٥٫٠٠٠ وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لمطران لندرة وجملة ما يصرف على الكنائس نحو ٥٠٠٫٠٠٠ ليرة وايراد اسقف لندرة فى السنة ١٥٫٠٠٠ ليرة ولكن خليفته يكون له ١٠٫٠٠٠ فقط وايراد باقى الاساقفة من ٤٫٠٠٠ ليرة فصاعدا فهم بمثابة وزراء الدولة فان سنوية اول لورد فى ديوان نظارة البحرية ٤٫٥٠٠ ليرة ثم انه كما ان هؤلاء الرعاة المتبتلين الى الله

تعالى ماثلوا الوزرآء والامرآء فى اخذ الارزاق والوظـائف كذلك ماثلوهم فى الرفعة والشان والانفراد عن الرعية فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز اصعب من مواجهة البرنس البرت زوج الملكة وقد اضطررت مرة الى ان اكتب اليه فى امر ما فورد الجواب منه فى رقعة قدر نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب ونفى فيه ما لم يكن محله النفى احترازا من ان اكلفه بخطاب آخر ولكن اى لوم عليه اذا لم يجاوب احدا لان رئيس الكنيسة الذى ايراده ٢٥٠٠٠ ليرة فى السنة ليس عليه ان يجاوب من ليس له صلدى واحد من كل ليرة تدخل خزانته الرسولية وقد كان الخورى مخائيل شاهيات حضر الى هذا الطرف وكتب ثلاث رسائل احداها الى البرنس البرت والثانية الى اللورد پلمسطون والثالثة الى المطران المشار اليه فجاءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب ولا ايجاب واقسم لو ان يهوديا غنيا من امستردام وفد عليه فى عاجلة ورواء لاحتفل به واكرمه غاية الاكرام ولكن ليت شعرى ما معنى كلام من قال اما الذين يرومون الغنى فانهم يقعون فى المحنة والفخ وفى شهوات كثيرة سفيهة ضارة تغرق الناس فى العطب والهلاك لان حب المال اصل كل شر وهو الذى اشتهاه قوم فضلوا عن الايمان وطعنوا انفسهم برزايا كثيرة فاما انت يا رجل الله فاهرب من هذه الاشياء واقتف البر والتقوى والايمان والمحبة الخ وقال ايضا من حيث ان لنا القوت والكسوة فلنقتنع بهما اما التقوى مع القناعة فانها مكسب عظيم ورب معترض هنا يقول ان الكنيسة الآن ليست كالكنيسة فى مبدأ النصرانية اذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فاما الآن فان عزها يرجع الى عز الدولة وان رئيس الاساقفة الآن يلزمه ان يكون من اهل مجلس المشورة وان يزور الوزرآء ويكون مزورا منهم وان يصنع مادب للاعيان ويتكلف نفقات كثيرة فلا بد له والحالة هذه من رزق وافر يجرى عليه ومن صرح وعاجلة وخدم واوانى فضة ونفيس اثاث • قلت اذا كان الاسقف تزوره ارباب الدولة وتدعوه الى الولائم مع اقتصاد حاله او بالحرى مع تقشفه كان ذلك ادعى الى كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك فانه شاغل له عن اداء ما يجب عليه من تعهد الرعية وتفقد احوالهم وهذا هو اصل معنى الاسقف فان قيل ان امور الكنيسة الآن قد استتبت وانتظمت فلم يبق حاجة الى تكليف

الاسقف

الاسقف او رئيس الاساقفة النظر فيها والتعهد لهما قلت اذن هو اقرار على انفسهم بعدم لزومهم على انى لا اتعرض لمثل هذه المسائل فان لكل كنيسة اساقفة ومطارنة وحيث ان امامهم قد ذكر اسم الاسقف فلا بد من وجود مسماه ولكنى ارى شيئا على من يعير غيره شيئا وهو متلبس به فان الانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط مع ان رؤية بطاركة انطاكية ممكنة لكل احد ولا يخفى ان انطاكية فى الدين اشرف من لندرة ٭ ومن المبانى العظيمة بيت الهند اى بيت الجماعة التى بيدها تدبير مملكة الهند بنى فى سنة ١٧٩٩ وفى سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة وحينئذ صدر امر من مجلس الشورة باقرارها على حالها وفيه متحف واصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك ونقلت من بعض الكتب ان جمعية الهند استتبت للتجارة فى تلك البلاد سنة ١٦٠٠ ثم صارت تاجرة ومحاربة معا فطردت الجمعية الفرنساوية وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على اكثر البلاد وقال آخر ان اول سعى ابدته الانكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلاث سفائن وذلك فى سنة ١٥٩١ ولكن لم يصل منها الا واحدة فقط وبعد سفر ثلاث سنين رجع الربان فى سفينة اخرى لان الملاحين غلبوه على سفينته فلما ان رجع اخبر الاهلين بما جرى له وبما رأى فجد بهم الحرص لارسال سفن اخرى تجارية وتم انعقاد ذلك فى سنة ١٦٠٠ فجمعوا ٧٢٫٠٠٠ ليرة جهزوا بها اربعة مراكب ونالوا اربهم واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا وفى سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية اخرى ثم التحمت مع الاولى فصارتا جمعية واحدة وذلك فى سنة ١٧٠٢ ثم بنى بيت الهند فى سنة ١٧٢٦ وفى سنة ١٧٩٩ وسع وكبر وفى سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهند اه ٭ قال فلتير ان براهمة هذا العصر ما زالوا على مذهب اسلافهم الذميم من اغرآء النساء باحراق انفسهن بعد موت بعولتهن والعجب ان هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الانسان او البهيمة يرون ان ابر المناسك هو احراق نسائهم ولكن هذا شان الوساوس والاضاليل ابدا تأتى بافعال متناقضة ومن زعمهم انهم يقولون ان برهام هو ابن الله نزل الى الارض واتخذ ازواجا كثيرة فلما مات تطوعت احب ازواجه له الى ان تحرق نفسها رجاء ان تلحقه فى نعيم

السماء ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السمجة ولكن ليت شعرى كيف يتأتى للنساء ان يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلا وبعضهم فيلة وبعضهم بوما وكيف يمكن لهن ان يميزن الحيوان الذى دخل فيه روح الميت غير ان هذا الاشكال لا يعسر على هؤلاء الكهان فان التناسخ عندهم انما يكون للعامة فقط فاما ارواح الخاصة فمن حيث انها كانت من جملة الملائكة الذين مردوا فلا بد من انها تسعى فى التنق والتطهر وكذا ارواح النساء اللائى احرقن انفسهن تنعم بالنعيم السماوى حتى يجدن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ اربعة آلاف سنة مع كونهم قوما ودعاء لا يتجرأون على قتل الجرادة ولكن لا يمكنهم ان يجبروا الارملة على الاحتراق لان سر الشريعة انما هو ان تتقدم المرأة الى ذلك عن طيب نفس والتى تكون اقدم عند زوجها لها ان تأبى الاحتراق وكذا التى بعدها الى الاخيرة ويحكى ان سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد وكان من الرجاة ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قل استعمال هذه العادة ثم قلت ايضا بمخالطة الافرنج لهم الا ان هذا المنظر السيئ المحزن قل ان فات واحدا من حكام مدراس وبنديكرى فقد قال مسترهلول ان ارملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة احرقت نفسها بمرأى من زوجة الاميرال رسل وكانت بديعة فى الحسن ولها ثلاثة اولاد ولم تلن لدموع الباكين عليها ولم تقبل طلبتهم فاقسمت عليها الست المذكورة لتعدلن عما نوته شفقة على اولادها فما كان منها الا ان قالت ان الله الذى خلقهم لا يتركهم ثم شرعت فى تنضيد الحطب بيديها فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احترقت وهى صابرة متجلدة ورأى احد الانكليز مرة اخرى فتاة حسناء سائرة الى النار فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرا وساعده على ذلك بعض اصحابه ثم سار بها الى منزله وتزوجها فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم ولكنى اقول ما بال الرجال لا يحرقون انفسهم ليلحقوا بازواجهم ولم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب أفكان ذلك لان الرواية لم تذكر ان بعض الرجال تزوج ابنة برهام بل ذكرت ان برهام تزوج امرأة هندية نعم ان قدماء البراهمة كانوا يحرقون انفسهم ولكن انما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله بل

بالحرى

بالحرى ليعجب منهم الناس ولعل كالانوس لم يكن يدنو من النار لولا ان الاسكندر كان ناظرا اليه ولو ان شرع البراهمة حكم بان المرأة لا تحرق نفسها الا ومعها واحدة من العجائز لبطلت هذه العادة من قبل الآن اه ◆ قلت زعم الذين لهم معرفة بلغة البراهمة ويسمونها صانسكريت انها افصح اللغات واوسعها اساليب فى التعبير وانها ام للغة اليونان فلا يبعد اذا ان تكون محاسن هذه اللغة هى التى مهدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامة فان اهل البلاد الشرقية ابدا عبيد الفصاحة والبلاغة فاما قول فلتير انهم قوم ودعاء لا يجرأون على قتل الجرادة فما وقع فى هذه الايام الاخيرة يناقضه وهو كثيرا ما يتعصب لهم ولاهل الصين ايضا ◆ فاما عدد المسلمين فى بلاد الهند فقيل ٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠ وقيل اكثر ◆ قال فى الابجدية اول من كشف السفر الى الهند على طريق الرجاء الصالح فاسكو داكاما وذلك فى سنة ١٤٩٧ وبعد ان استولت عليه دولة هولاند ضبطته دولة الانكليز ثم رد ثم قر الرأى على ان يبقى فى ملكها وذلك فى سنة ١٨١٤ وذكر فى تاريخ مصر انه فى حدود العشرين بعد التسعمائة ظهرت الفرنج البورتغال على بلاد الهند استطرقوا اليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر منبع النيل وغاصوا فى ارض الهند فوصل اذاهم وفسادهم الى جزيرة العرب وبنادر اليمن وجدة فلما بلغ ملك مصر ذلك جهز اليهم خمسين غرابا مع الامير حسين الكردي وارسل معه عسكرا عظيما من الترك والمغاربة وجعل له جدة اقطاعا وامره بتحصينها الى ان قال ثم توجه بعساكره الى الهند فى حدود احدى وعشرين وتسعمائة فهربت الفرنج من البنادر حين سمعوا بوصوله اه ◆ وعلم من خلاصة حديثة من مجلس المشورة ان مساحة بلاد الهند تبلغ ١ر٤٦٦ر٥٧٦ ميلا مربعا (١) لدولة الانكليز منها ٨٣٧ر٤١٢ وللاهلين ٦٢٧ر٩١٠ ولفرنسا والبورتغال ١ر٢٢٤ وعدد سكانها ١٨٠ر٨٨٤ر٢٩٧ تحت دولة الانكليز منهم ١٣١ر٩٩٠ر٩٠١ وتحت حكومة الاهلين ٤٨ر٣٧٦ر٢٤٧ ولدولتى فرنسا والبورتغال ٥١٧ر١٤٩ وعلم ايضا

(١) فى سنة ١٨٧٦ بلغت مساحة الهند التابعة لدولة انكلترة ٨٩٩ر٣٤١ ميلا وعدد سكانها بلغ ١٩٢ر٠٠٠ر٠٠٠ نفس

من خلاصة اخرى ان عدد ضباط الانكليز فيها يبلغ ٥٫٢٤٩ وعدد عساكر الانكليز وغيرهم من الافرنج ٤٣٫١٤٩ وعدد عساكر الاهلين ومن جملتهم الشرطة ٢٨٨٫٥٩٦ واذا اضفت اليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط بين الاهلين والدولة يبلغ العدد ٣٩٧٫٩١٨ وفي الجملة فكل عسكري واحد من الانكليز لخمسة عشر من الهنود * ونقلت من صحف الاخبار ان عدد من دخل في طاعة دولة الانكليز من الهند وما يليها بلغ ١٦٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من النفوس وجميع ما فيها من الانكليز ٥٠٫٠٠٠ منهم ٣٠٫٠٠٠ في الخدمة العسكرية والعساكر المستخدمة في دولة الهند تنيف على ٢٠٠٫٠٠٠ وقد زادوا الآن بسبب الغيرة من دولة الروسية في سنة ١٨٢٧ بلغوا ٣٠٠٫٠٠٠ منهم ١٥٫٧٨٢ مدافعية و ٢٦٫٠٩٤ من فرسان من الهنود و ٢٣٤٫٤١٢ من المشاة منهم ايضا و ٤٫٥٧٥ مهندسا وعدد العسكر الملكي ٢١٫٩٣٤ فجملة ذلك ٣٠٢٫٧٩٧ وان ايراد دولة الهند يبلغ في السنة نحو ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة (١) وكل عسكري يبعث من انكلترة الى هناك يكلف الدولة خمسمائة ريال وان جميع ادوات الحرب وجهاز العسكر تصنع في انكلترة وترسل الى تلك البلاد وان حاكم الهند له في السنة ٢٥٠٫٠٠٠ روبية ولكل من اهل ديوان المشورة ١٠٠٫٠٠٠ وللقاضي ٢٥٫٠٠٠ ولكل من كتاب الديوان ٢٥٫٠٠٠ ومثلها لناظر الملح اه * ومن العجب ان اهل هذه الدار الذين يحكمون على هذه المبالغ من الناس والبلاد والعساكر ليس يبالون بان يعينوا عسكريا واحدا امام الباب كما يفعل لسائر الدواوين الميرية ولو كانت هذه الدار في باريس لكنت ترى عندها جوقا من العسكر يحرسونها ليلا ونهارا * وفي اخبار العالم ان ايراد الدولة من الهند يبلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ومصاريف العساكر تبلغ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وقدرهم نحو ٢٥٠٫٠٠٠ وان دولة الانكليز متسلطة الآن على بر واحد وعلى ١٠٠ جزيرة متصلة بالارض و ٥٠٠ قب او رأس و ١٫٠٠٠ بحيرة و ٢٫٠٠٠ نهر و ١٠٫٠٠٠ بضيع اي جزيرة غير متصلة بالارض واذا اضطرت

---

(١) في سنة ١٨٧٩ بلغ ايراد الهند ٦٥٫١٩٩٫٥٩٢ ليرة والمصروف يبلغ ٦٣٫١٦٣٫٣٥٦

الى

الى الحرب جهزت ٥٠٠٫٠٠٠ عسكرى و ١٫٠٠٠ سفينة حربية و ١٠٠٫٠٠٠ بحرى وان دول الاثوريين والرومانيين والفرس والعرب وقرطاجنة واسبانيا لم تحصل على هذا العز والبسطة والسعة وانه ليس من اطيلة او اسكندر المقدونى او ناپوليون او تيمور او هلاكو من بلغ ما بلغت اليه من الفخر والسطوة • قلت فى سنة ١٨٥٠ بلغت البواخر المختصة ببلاد الانكليز وارلاند وسكوتلاند ١٫١٨١ سفينة وفى سنة ١٨٥٢ بلغ جملة ما دون منها فى مراسى تلك البلاد كلها ١٫٢٢٧ سفينة (١) ثم ان اول من فكر فى استنباط اداة لاصعاد الماء بواسطة النار كان مركيز ورسستر وذلك فى سنة ١٦٦٣ وهو الذى ينسب اليه ايجاد تبليغ الاخبار من بلد الى بلد بواسطة خارجية ولكن الظاهر ان فكره هذا لم يهم اهل عصره لان يتعلقوا بالاسباب الموصلة اليه وقال آخر لا شك فى ان مركيز ورسستر هو مخترع آلة البخار وذلك فى زمن شارلس الاول وفى سنة ١٦٦٣ الف كتابا سماه عصر الاختراع وذكر فيه استنباطات عديدة على سبيل الاختصار والغموض الا ان اهل عصره لم يبالوا بذلك وكذلك ذكر بالتدقيق بعضا من مخترعاته واول تجربة اجراها كانت فى مدفع وذلك بان ملأ نحو ثلاثة ارباعه ماء ثم سد خرقه وفمه ثم ادناه من النار اربعا وعشرين ساعة فانفلق بدفع شديد فدله ذلك على ان قوة البخار هى اعظم مما يدركه الانسان وروى عنه انه قال قد جعلت الماء ينبعث من الجدول ارتفاع اربعين قدما والاناء الذى فيه بخار يرفع اربعين اناء ملئت ماء باردا الا ان الناس لم يتنبهوا لذلك الا فى آخر ذلك القرن ثم اخترع القبطان صفرى آلة لرفع الماء فى سنة ١٦٩٣ فهذان الرجلان هما المخترعان لهذه الطريقة وقد نسبت الفرنسيس استنباط ذلك الى احد فلاسفتهم المسمى دكطر پاپان وذلك سنة ١٦٩٥ والحق ان عمليته لم تجر عندهم الا بعد مدة طويلة واول ما اجريت عملية القبطان المذكور كان فى معادن كورنوال ثم قام مستر نيوكومن ومستركين فتزجرالد وهودن بلور ووط وبلطون وبعد

---

(١) فى سنة ١٨٧٩ بلغ عدد السفن الشراعية فى انكلترة باسرها ٢٠٫٥٣٨ وبلغ عدد بواخرها ٥٫٠٢٧ باخرة

ذلك قام القبطان شانك فانشأ سفينة لتسافر الى كندة فى مدة حرب الاميركانيين ونجح وفى سنة ١٦٨١ اخترع پاپان آلة من هذا القبيل ثم قام صفرى فصنع اداة لاصعاد الماء وذلك سنة ١٦٩٨ وفى سنة ١٧٨١ اخترع واط السكوتلاندى آلة مزوجة ثم قام غيرهم كثيرون وكل منهم زاد شيئا او اتقن آلة وقال الفاضل لارندر انه يمكن اصعاد البخار من طاستى ماء باوقيتين من الفحم وفى حال تبخيرها تكثر فتصير ٢١٦ كالونا من البخار فيمكن والحالة هذه ان ترفع بقوة آلة معها سبعة وثلاثين طنلاته ارتفاع قدم واحد • ويقال ان جملة القطع التى تركب فى آلة النار تبلغ ٥٫٤١٦ قطعة • واول تجربة عملت على نهر التامس كانت فى سنة ١٨٠١ • واول باخرة انشئت فى انكلترة كانت فى سنة ١٨١٥ وفى ارلاند سنة ١٨٢٠ • واول باخرة سافرت الى بلاد الهند كانت فى سنة ١٨٢٥ وكان انشاء البواخر الحربية فى انكلترة سنة ١٨٣٣ • واعلم ان اول من عرف فن الابحار اى ركوب البحر هم اهل فينيقية وذلك منذ سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد • واول سفر طويل عرف منهم كان سفرهم الى افريقيـة وذلك سنة ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور ثم عرف فى الاسكندرية الى ان صار كانه من خصائص الرومانيين ثم عبر من اهل فينيسيا وجينوى الى اهل البورتغال واسپانيا ومنهم الى انكلترة وهولاند ولم يكن اليونانيون يعرفون الابحار فى بحارهم الضيقة الا على الطوف وهو عبارة عن خشبات يشد بعضها الى بعض الى ان عرفوا ركوب البحر فى السفائن من داناوس المصرى حين قدم عليهم هاربا من اخيه راماسيس وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد • وهذا الطوف الذى يستعمله النوتيون الآن هو دون ما كان يستعمله اليونانيون فان ذاك كان مجعولا بحيث يمكن تدبيره وادارته عند هيجان البحر واول ما عرف للانكليز مراكب حربية ملكية مرتبة تحت ديوان معين كان فى عهد هنرى الثامن سنة ١٥١٢ وكانت عدة البوارج فى زمان الملكة اليصابت ثمانيا وعشرين وفى سنة ١٨١٤ كان لبريتانيا الكبرى تسعمائة سفينة وفى سنة ١٨٣٠ كان لها ٦٢١ سفينة وفى سنة ١٨٤١ كان مجموع سفائنها الكبيرة والصغيرة ١٨٣ وفى سنة ١٨٥٠ بلغت مراكب الانكليز الملكية ٥٠٠ من جملتها ١٦١ باخرة وفى سنة ١٨٥٤ زاد هذا القدر فبلغ ٥٢٦ ما عدا سفائن اخرى كانت تستعمل فى مصالح اخرى وفى

سنة

سنة ١٨٥٥ بلغ مجموعها ٦٠٢ • وعدد ما اتلفت او غنمت من السفائن في فتنة الفرنسيس الى غاية سنة ١٨٠٢ كان ٣٤١ من سفن الفرنسيس ومن سفن هولاند ٨٩ ومن سفن اسپانيا ٨٦ ومن دول اخرى ٢٥ فجملتها ٥٤١ سفينة • وعدد ما اتلفته او غنمته في حربها مع دولة فرنسا الى غاية سنة ١٨١٤ كان ٥٦٩ سفينة منها ٣٤٢ لفرنسا و ١٢٧ لاسپانيا و ٦٤ لهولاند و ١٧ للروسية و ١٩ للاميركانيين فمجموع ذلك كله ١١٠ر١ سفائن فاما بوارج فرنسا فيمكن ان يقال انها بلغت اعلى شانها في سنة ١٧٨١ ولكن باد كثير منها في حربها مع الانكليز وفي سنة ١٨٥٤ بلغ مجموعها ٦٩٧ منها ٤٠٧ بواخر • وفي الاحصائيات ان عدد البواخر التي انشئت من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٥٧ بلغ ١٨٠٥ سفن وفي سنة ٥٧ كان منها في خدمة البلاد ومصالح البلاد الاجنبية ٨٨٩ ومن سفن الريح ١٨٫٤٢٩ سفينة فاما احداث البارود فكان سنة ١٣٣٦ وذلك قبل استعمال المدافع بعشر سنين ولا يعرف محدثه وانما يظن انه من مخترعات راهب من پروسية اسمه مخائيل شوارتز • والحق انه كان معروفا عند اهل الصين من قبل تاريخ الميلاد باحقاب كثيرة الا ان استعمالهم له كان للصلاح لا للتدمير وذلك كتمهيد الطريق ودك التلال وحفر القنى وان يكن قد ظهر من ادوات سلاحهم ما يحقق انه مجعول له الا انه لم ينقل عنهم انهم استعملوه قط في حرب قال واول ما استعمل في الحروب فيما علمناه كان في الحرب التي وقعت بين الانكليز والفرنسيس وذلك في سنة ١٣٤٦ وقد نبغ في الانكليز عن قريب ضابط من ضباط العسكر اسمه ورنر اداه الاجتهاد والتبحر الى ان اخترع شيئا يقدر به على اتلاف اى سفينة كانت من مسافة ثلاثة ارباع ميل من دون مماسة البارود اياها وقد جرب ذلك بحضرة مأمورين من طرف الدولة عند مدينة بريطون وصحت تجربته لا بل زعم انه يتلف المركب من مسافة خمسة اميال • قلت فلا يبعد اذا ما ذكره لوقيان وغالن عن ارشميديس من انه احرق مراكب الرومانيين في حصار سيراقوسة بواسطة الزجاج وذلك قبل تاريخ الميلاد بمائتين واثنتي عشرة سنة • قال وقد اراد الضابط المذكور ان يبيع هذا السر للدولة لكنه اشط في الطلب فلم تشتره منه • قال وقد نبغ ايضا شنبين الكيمياوي من برلين في هذا الفن واحدث شيئا يفعل فعل

البارود بل اكثر وهو ان يغمس القطن فى اجزاء متساوية من النطرون والكبريت ثم ينشف فياتى كالبارود فى الثقل والدفع وهو اسلم عاقبة منه • وقيل انه باع هذا السر فى بلاد الانكليز باربعين الف ليرة الا ان دولتى فرنسا وانكلترة ابتا استعمال القطن فى البنادق بدل البارود وذلك لكثرة سخونته فان البندقية اذا ملئت منه مرات تشتد بها السخونة بحيث انها تنطلق بنفسها من قبل ان تطلق • ويقال انه استعمل ايضا نوع من النبات يسد مسد البارود • وفى سنة ١٥٤٤ استعملت فرسان الانكليز الفرد اى الطبنجة • وزعم بعض ان استعمال المدافع كان فى سنة ١٣٣٨ • وزعم آخر انها عرفت فى حرب كرسى ولك فى سنة ١٣٤٦ وقيل ان الانكليز استعملوها فى حصار كالى سنة ١٣٤٧ • وقيل انها استعملت فى الموضع المذكور فى سنة ١٣٨٣ اه • وقال فلتير ان برنس والس المعروف بالاسود لسواد درعه وريشته انتصر على فيليب فلوى ملك فرنسا عند نهر سم وكان من اقوى الاسباب التى اعانته على ذلك استعمال بعض مدافع كانت مع عسكره فان المدافع لم يشهر استعمالها قبل تلك الواقعة الا بنحو ١٢ سنة ولم يعلم من كان المخترع لها اه • قلت فيليب المشار اليه ولى الملك فى سنة ١٣٢٨ • واكبر مدفع فى الدنيا فيما علم مدفع نحاس صنع فى بلاد الهند سنة ١٦٣٥ وفى برج فى جرمانيا مدفع طوله ثمانى عشرة قدما ونصف قدم ووسع قطره قدم ونصف ووزن كلته ١٨٠ رطلا وملؤه من البارود ٩٤ رطلا • ويعلم من نقش رسم عليه انه صنع فى سنة ١٥٢٩ • وكلة المدفع الصغير تذهب مسافة ٤٠٠ يارد وابعد ما تذهب اليه من ٥٠٠ الى ٦٠٠ وهو عبارة عن نصف ميل ومن المدفع الكبير من ميل ونصف الى ميلين • ومن ذلك اى من المبانى العظيمة بيت ضابط البلد فى السى وقال له منشن هوس بنى فى سنة ١٧٣٩ وبلغت مصاريفه ٧١٠٠٠ ليرة وبعض اثاثه من ١٠٠ سنة وبعضه من ستين وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه المحلة فى كل سنة وذلك فى التاسع من تشرين الثانى ويوم انتخابه يجعل فى الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل وتغص المدينة بازحام فيضغط الناس بعضهم بعضا فلا يبقى احد من اهل البطالة الا ويخرج للتفرج او بالحرى للتلزز فيخرج الضابط من الديوان المسمى كلدهال فى موكب عظيم ويجلس فى عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة افراس

ثمنها٠

ثمنها فى الاصل ١٠٦٥ر١ ليرة ويصرف على زينتهــا فى كل سنة ١٠٠ ليرة و يجلس معه رئيس المحاكم بقبــاء احمر وهو متقلد سيفه وشعار سلطنته وتقف فى ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق وتمشى صفوف شتى وهم يحملون اعلاما مختلفة وآخرون يضربون بآلات الطرب وآخرون ينفخون فى الابواق وآخرون متكمون بالدروع على منوال المجاهدين الاقدمين وتوضع امامه آلات الحرث على عجلة مزينة وما تنبت الارض وسفينة ذات قلوع تجرها ستة افراس و يسير معه اصحــاب المراتب السنية والمناصب العلية وضــابط البلد المعزول وعند وصولهم الى محل معلوم تلاقيه سفرآء الدول ووزآء الدولة و رؤسآء المحاكم و اركان مجلس الشورى وغيرهم من ذوى الشــان حتى اذا رجع الى مقره دعا اولئك النبــلآء الى وليمة فاخرة تشتمل على ٦٣٧ر٢ صحفة كبيرة وصغيرة ولا بد من ان يوضع امامه صحفة فيها نوع من السمك الصغير اشارة الى انه ضــابط نهر التامس الذى هو عند الانكليز اعز من نهر كنكا عند الهنود وعلى ذكر الوليمة يحسن هنا ايراد ما وجدته مكتوبا فى اوراق تسمى تعليقات ومسائل من ان ضــابط نوريش من اعمال انكلترة صنع مادبة فاخرة فى عهد الملكة اليصابت سـنة ١٥٦١ و دعا اليها جماعة من اعيان ذلك الصقع وكبرائه فبلغت مصاريفهــا ليرتين و ١٣ شلينا و ١١ بنسا كان ثمن الوزة فيهــا ثلث شلين وفخذ الضان ربعه وكذا ثمن الدجاجة و ١٢ بيضة وثمن ١٦ رغيفــا ثلث شلين وثمن برميل من الجعة شلينان وثمن ٤ ارطال من السكر سدس شلين وفواكه و لوز ٧ بنس وقس على ذلك والولائم التى يصنعها اهل الستى تكون فاخرة جدا تشتمل على صحاف من الذهب و اكواب من الفضة وسنوية الضابط ٠٠٠ر٨ ليرة ولكنه يصرف فى مدة ولايته اكثر من هذا القدر و ايراد تلك الجماعة ٠٠٠ر١٥٦ ليرة يستوردونها من ضرائب على الفحم والاسواق و الديار والسماسرة وهذه الجماعة ينتخبهم الاهلون الذين لهم عقــار وديار ومن خصائص الضــابط مدة ولايته ان يتولى امور المدينة غير معــارض وقد نازع الملك جورج الرابع فى هذه السلطة وحاول ابطالهــا غير ان الانكليز كما ذكرنا سابقا لا يحبون تغيير العادات القديمة فمن ثم بقى الحال كما كان واذا اتفق موت الملك فى ايامه فله ان يجلس فى ديوان الشورى الخاص و يوقع قبل اربابه وله ايضا ان

يغلق باب الموضع المعروف بتمپل بار وهو اول خط المدينة فى وجه الملكة حين تذهب الى المدينة ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول بل بقصد ادخالها جريا على العادة وتفصيل ذلك ان صاحب الملك اذا اراد التوجه الى المدينة يصل الى ذلك الباب فيجده مغلقا فينفخ بين يديه رجل فى البوق ويقرع الباب آخر ويقع بينه وبين الضابط محاورة وكلام هنيهة ثم ينفتح الباب و يدنو الضابط من صاحب الملك ويقدم له سيف المدينة فيأخذه منه الملك ثم يعيده اليه ثم يدخل ومعه الضابط سائرا بركابه وهذا الباب هو مبدأ خط الستى بنى فى سنة ١٦٧٠ وعنده تمثال الملكة اليصابت والملك جامس الاول وكرلوس الاول وكرلوس الثانى وهو لا يغلق الا فى ذلك اليوم غير ان توجه صاحب الملك الى المدينة لا يقع الا نادرا وذلك كأن يذهب الى كنيسة مار بولس ليهدى الشكر لله على فتح او ظفر بالعدو او ليفتح بناء عموميا كدار مجتمع التجار او البنك ونحو ذلك والحاصل ان تدبير هذا الخط الذى يقال له ستى وهو عبارة عن اول ما انشئ فى لندرة من الابنية والحوانيت والمحترفات مفوض بالاستقلال الى الضابط واولئك المديرين ومصاريف محكمة هذا الخط تبلغ ١٨٢ر١٢٠ ليرة فى العام ومصاريف شرطته ١١٨ر١٠ ومصاريف محل فيه اسماء نيوكات ٢٢٣ر٩ ومصاريف الحبس فيه ٦٠٢ر٧ ومصاريف حبس المديونين ٩٥٥ر٤ ومصاريف النهر ١١٧ر٣ (١) وشعار المدينة هو سيف مار بولس وصليب مار جرجس وفى العام الماضى كان الضابط يهوديا وقيل ان الضابط الذى نصب فى هذه السنة كان نفرا من العسكر ومن الغريب هنا ان الضابط يعزل فى كل سنة وخدمته يبقون الى ما شاء الله وسيأتى بقية الكلام على الستى • ومن ذلك كلد هال وقدتقدم ذكره وهو ديوان احكام الستى فيه توقيع بخط شكسبير من شعراء الانكليز اشتراه المديرون بمائة وسبع و اربعين ليرة وبالقرب منه دار عظيمة ايضا لختم ما يصاغ من الذهب و الفضة فيها الكاس التى شربت بها الملكة اليصابت عند تتويجها • ومن ذلك

(١) جميع هذه المصاريف زادت الآن اضعافا

البرج

البرج الذى يقال له تور اف لندن اى برج لندرة وهو اعظم برج فى بريتانيا وهو حصن للمدينة ومقر لصاحب الملك عند عقد هدنة ونحوها وسجن للمجرمين من ارباب الدولة لا يعلم متى كان انشآؤه وانما يظن انه بنى فى سنة ١٠٧٨ فيه امتحن كاى فوكس الذى عمل على احراق مجلس المشورة على ما تقدم ذكره والملكة مريم ملكة سكوتلاند ويوحنا ملك فرنسا وكرلوس دوك اورليان وابو لويس الثانى عشر والملكة انه او حنة بوليان ضرب عنقها سنة ١٥٣٦ والملكة كاترين هاورد زوجة الملك هنرى الثامن والاميرة رشفورد وسر توماس مور ورئيس الاساقفة كرانمر ورئيس الاساقفة لود وسبعة اساقفة آخرون وغير ذلك وقتل فيه هنرى الخامس وادورد الخامس وغيرهما وهو يشتمل على الدروع والسلاح التى كانت تستعمل فى الزمن القديم وعلى مدافع ثمينة من جملتها مدفع اخذ من ناپوليون الاول وكان هو قد اخذه من مالطة وهو بديع الصنعة ومدفعان عظيمان اخذا من البلاد الاسلامية طول كل ٢٣ شبرا وفيه دروع جامس الاول وهنرى الرابع وادورد الرابع والملكة اليصابت وغيرهم وتاج يقال له تاج صانت ادورد صنع لتتويج كرلوس الثانى ثم توارثه جميع الملوك من بعده وهو التاج الذى يضعه رئيس الاساقفة على رأس صاحب الملك عند المذبح وفيه ايضا تاج جديد صنع للملكة وهو نحو طربوش من مخمل احمر محيط به اطار من فضة مرصع بالالماس زنته رطل وثلاثة ارباع وفى التاج ياقوتة غير مجلوة يقال انها كانت فى تاج الملك ادورد الملقب بالاسود وقيمة التاج كله ١١١٫٩٠٠ ليرة وفيه تاج لامير والس من ذهب غير مرصع بالجواهر وآخر لزوج الملكة مرصع بالالماس والدر وغيرهما من الجواهر وفيه صولجان يسمى صولجان العدل او صولجان الحمامة لان فيه حمامة وطوله ثلاث اقدام وسبع اصابع وهو من ذهب مرصع بالالماس وغيره وآخر للملكة عليه صليب بديع الصنعة مرصع بالالماس وآخر يسمى صولجان الملك عليه تفاحة مرصعة بالياقوت والزمرد والالماس طوله قدمان وتسع اصابع وفيه صليب من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة وآخر يسمى قضيب صانت ادورد من ذهب مطرق طوله اربع اقدام وسبع اصابع فى اعلاه دائرة وصليب ويقال ان فى الدائرة قطعة من صليب المسيح وفيه ايضا سيوف العدل الكنائسية

والمدنية وركب (جمع ركاب) من ذهب تستعمل يوم تتويج الملك او الملكة ووعآء للماء المبارك فى شكل نسر وملعقة من ذهب للمناولة يوم التتويج وطست من فضة مذهب يستعمل يوم معمودية ولد صاحب الملك وغير ذلك من التحف مما يطول شرحه وقيمة ما فيه من السلاح بلغت فى سنة ٤٩ ٦٤٠٫٠٢٣ ليرة • قلت لما رأيت هذا الموضع اخبرنى الدليل بان الياقوتة الحمرآء التى فى مقدم تاج الملكة وهى نحو البيضة الصغيرة تساوى ٥٠٫٠٠٠ ليرة وثمن التاج كله مليون وثمن التيجان الاخرى مليونان والله اعلم • وقد جرت العادة بان تاج الملكة يودع فى هذا الحصن وعند الحاجة اليه يؤخذ منه ثم يرد اليه وقد سرق مرة مع سائر الجواهر وذلك سنة ١٦٧٨ واعجب من جميع ما ذكرت ان هذا البرج الاميرى الملكى التاجى لا تمكن رؤيته الا بعد ادآء شلين • وفى لندرة اربعة قصور اصاحب الملك اعظمها وهو الذى تسكنه الملكة الآن فى الشتآء القصر المسمى باكنهام فى اسطبله عاجلة لها تساوى نحو ثمانية آلاف ليرة وطول حديقة القصر ٣٤٥ قدما قال فيه بعضهم قد لزم لترميمه وتصليحه ٥٠٫٠٠٠ ليرة مع انه لا يصلح لسكنى الملوك وبنى فيه قنطرة من رخام صرف فيها ثمانون الف ليرة مع انه لا يمكن ابقاؤها حيث هى وقبلا صرف على القصر ٧٦٣٫٢٢٦ ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والاثاث وكان يمكن ان ينشأ بهذا المبلغ قصر جديد فاخر خير من هذا القصر الذى ان هو الا عبارة عن مواضع ملفقة وبعد ان صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم الآن صرف مبلغ عظيم والله يعلم الى اين وصرف ايضا على قصرها الذى تسكنه فى الصيف فى ونصروهو على مسافة نحو اربع ساعات من لندره ١٠٫٠٠٠ ليرة وذلك لاجرآء الماء اليه وثانى مرة صرف عليه ٦٫٠٠٠ ليرة لوقايته من النار وقد تبين من دفاتر المصروف انه من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣١ بلغ المصروف على هذا القصر ١٫٤٩٨٫٥١٦ ليرة فاذا اضفتها الى المبلغ اللازم الآن بلغت جملة ذلك ١٫٥١٥٫٠٠٠ ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر الملحقة به وبلغ مصروف الاثاث ٢١٦٫٠٠٠ ومصروف التحف ٣٫٠٠٠ قال فهذان مليونان صرفا على قصرين هما سخرة وهزء لاهل اوربا

اوربا جميعا ويقال انه يصرف فى السنة على ترميم القصور والمبانى الميرية ٧٨٠ر١٧٠ ليرة والقصر الثانى ويسمى قصر صان جامس اصله مستشفى للبرص ثم صار مقرا للملك هنرى الثامن ومنه تصدر الآن الاوامر الملكية وهو مبنى من الآجرّ وما تحته طائل ونحوه الباقى ٠ وفى تاريخ بلاد الهند انه لما مات هنرى الخامس احبت زوجته الملكة كاثرين رجلا والسيا من العسكر الذين يحرسون الملك اسمه اوين تودور فتزوجته سرا فهو ابو ملوك الانكليز من بعده وكانت وفاتها فى سنة ١٤٣٧ واول اولاده قيل له اولا ادمند ارل رشموند ثم عرف باسم هنرى السابع وهذه الملكة الجالسة الآن على كرسى الملك اسمها اليكساندرينا فكطوريا بنت دوك كنت ولدت فى الرابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٨١٩ ووليت الملك فى العشرين من حزيران سنة ١٨٣٧ وتوجت فى الثامن والعشرين منه سنة ٣٨ وتزوجت ابن عمها البرنس البرت من صكس فى العاشر من شباط سنة ١٨٤٠ ويقال انه لم يقم قبلها ملكات نلن الملك بالاستحقاق سوى اربع وكان لاهل هنكاريا كراهة لتمليك النساء زائدة حتى انه حين كان يتولى عليهم ملكة كانوا يسمونها ملكا واول ملكة عرف لها الولاية فى الدنيا سميراميس ملكة اثور وذلك فى سنة ٢٠١٧ قبل الميلاد وهى التى حسنت بابل وكبرتها حتى صارت اعظم مدينة فى العالم وللملكة فكطوريا اخلاق حميدة واحترام ليوم الاحد عظيم يحكى عنها ان بعض الوزرآء ذهب الى قصرها فى ونصر فى ليلة السبت متأخرا وهو عندنا ليلة الاحد فعرض لها ان معه اوراقا مهمة تتوقف على مطالعتها قال ولكن لا اكلفك الليلة تصفحها فانها طويلة وقد فات الوقت ولكن فى صباح غد فقالت له كيف فى صباح غد وهو يوم الاحد فقال نعم فانها من مصالح الحكم قالت اجل يجب مداركتها ولكن سانصفحها بعد الخروج من الكنيسة فلما كان الغد ذهبت الى الكنيسة وذهب الوزير ايضا فلما انقضت الصلاة قالت له كيف اعجبتك الخطبة قال لقد اعجبتنى جدا فقالت لست اكتم عنك الآن انى اوعزت البارحة الى القسيس فى ان يحرر الخطبة على محافظة يوم الاحد وقد سمعت ما سمعت ولكن تعال غدا فى اية ساعة شئت قال فى الساعة التاسعة قالت من حيث هى اوراق مهمة كما ذكرت تعال فى هذه الساعة تجدنى مستعدة وكان كذلك اه وهذه الساعة باعتبار ايام البلاد

هنا باكرة جدا ومن ذلك عدم الاسراف فى الملابس والابهة فانها لا تتميز
به عن كرائم خوادمها واسراف الملابس منع فى بلاد الانكليز فى عهد ادورد
الرابع سنة ١٤٦٥ ثم فى عهد اليصابت فى سنة ١٥٧٤ واشهر من عرف
فيه سر ولطر والى كانت كسوته تساوى ٦٠٠ر٦ ليرة وكان له دروع من
الفضة وسيفه مرصع بالالماس والياقوت والدر وكان دوك باكنهام صفى الملك
جامس يلبس حلة مرصعة بالالماس ترصيعا غير وثيق بحيث اذا شآء ينفضها
فتلتقطها خواتين القصر ولا بأس هنا بايراد جملة من الكلام مفصلة نذكر
فيها ايراد الممالك وما خصص للملوك منها فنقول ان ايراد الملكة فى السنة
٣٨٠٫٠٠٠ ليرة ولكن لا يدخل فى كيسها من ذلك كله غير ٦٠٫٠٠٠
ليرة والباقى يصرف فى ابهة الديوان وملاهيه واذا لزم لها زيادة مصروف
على القدر المذكور اخذ من الخزنة على سبيل القرض الى ايراد العام
القابل وهكذا وبلغت وظائف الحشم والخدام وحساب التجار فى سنة
واحدة ٣٧١٫٨٠٠ ليرة وبلغ المكس والضرائب والاتاوة فى العام الماضى
٧١٫٣٤٨٫٠٦٦ والمصاريف ٨٨٫٣٠٧٫٤٧٧ وفى سنة ١٨٤٨ كان ايراد
الدولة ٥٢٫٩٣٣٫٦٩٢ ومصروفها ٥٢٫٥٦٣٫٣٤٠ وخرجت خلاصة من
مجلس المشورة فى مبلغ ما صرف فى عامى الحرب وذلك من ١٣ اذار سنة ٥٤
الى غاية اذار سنة ٥٦ مضمونها انه فى سنة ١٨٥٤ بلغ الايراد من جميع
موارده ٦٤٫٠٩١٫٠٠٠ وبلغ المصروف ٧٠٫٢٣٦٫٠٠٠ ونقلت من كتاب
آخر انه فى سنة ١٨٤٢ بلغ الايراد من ديوان الكمرك ٢٣٫٥١٥٫٣٧٤

ومن التبغ والمسكرات	١٤٫٦٠٢٫٨٤٧
ومن المألك اى البوسطة	٠١٫٤٩٥٫٥٤٠
ومن اتاوة الارض	٠١٫٢١٤٫٤٣٠
ومن اشيآء متفرقة	١١٫٤٢٠٫٤٠٢
فجملة ذلك نحو	٥٢٫٢٤٨٫٦٣٣
وكانت اتاوة فرنسا على الارض	٢٣٫٢٠٠٫٠٠٠
وسائر الضرائب والمكس	١٧٫٥٠٠٫٠٠٠
واتاوة الروسية	٠٣٫٩٩٠٫٠٠٠

وسائر

وسائر الضرائب ٣٫٦٦٧٫٠٠٠ ليرة واناوة اوبستريا ٨٫٧٩٥٫٠٠٠ وسائر الضرائب ٧٫٧٠٠٫٠٠٠ ومن ضمن تلك المتفرقات التي وردت الى خزنة دولة انكلترة فى سنة ١٨٥٦ ما اخذ على التركات وقدره ٢٫٨٥٠٫٨٧٣ وعلى الخيل ٣٤٠٫٨٩٨ وعلى العقود والصكوك ١٫٢٢٥٫٢٣٤ وفى سنة ١٨٥٢ اخذ على نحو احد وسبعين مليون رطل من الشاى ٥٫٩٠٢٫٤٣٣ وفى سنة ١٨٥١ اخذ على نحو اربعة وخمسين مليون رطل منه ٥٫٤٧١٫٦٤١ ويصرف فى كل سنة على اشخاص مرتزقين لا عمل لهم نحو ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ وفى بعض الاحصائيات الرسمية ان ضريبة الايراد وحده تبلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ والمراد بالايراد هنا ما يدخل للناس من كسبهم وسعيهم وارزاقهم وكان ايراد ديوان المكس فى ايام الملكة اليصابت ٢٠٫٠٠٠ ليرة وفى ايام شارلس الثانى ٣٩٠٫٠٠٠ ليرة وكان جميع ايراد الملكة اليصابت ٦٠٠٫٠٠٠ ليرة وايراد شارلس الاول ٨٠٠٫٠٠٠ وكان ايراد دولة الانكليز فى زمان وليم الفاتح ٤٠٠٫٠٠٠ ليرة وفى زمان هنرى الرابع ٦٤٫٩٧٦ وفى زمان الملكة مارى ٤٥٠٫٠٠٠ وفى زمان جامس الاول ٦٠٠٫٠٠٠ وفى زمان شارلس الاول ٨٩٥٫٨١٩ وفى سنة ١٨٥٠ بلغ ٥٢٫٨١٠٫٨٠٠ وفى سنة ١٨٥٢ ٦٢٫٨٧١٫٣٠٠ (١) قال فلتير وكانت املاك سليمن بن داود تساوى ١٫١٢٩٫٥٠٠٫٠٠٠ فقد رأيت مما تقدم ان ايراد دولة انكلترة ومصاريفها يأتى نحو ايراد دولتين او ثلاث من الدول العظام فان ايراد دولة فرنسا كان شأنه ان لا يزيد على ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وايراد دولة اوستريا ١٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ومصروفها

(١) منذ سنة ١٨٨٠ تغيرت احوال دول اوربا تغيرا عظيما فبلغ ايراد دولة فرنسا فى سنة ١٨٨٠ ١٢٧٫١٣٩٫٢٠٤ ليرات انكليزية ومصاريفها بلغت ١٢٢٫٠٢٤٫٩٩٣ ليرة وهذا الايراد الوافر تسبب من كثرة الضرائب بسبب الديون التى تحملتها دولة فرنسا بعد حربها الاخيرة مع المانيا فان هذه الحرب كلفتها ٣٧١٫٥١٥٫٢٨٠ ليرة واما ايراد انكلترة فانه بلغ فى السنة المذكورة ٧٠٫٣٥٧٫٠٧٩ ليرة والمصاريف بلغت ٧٣٫١٩٧٫٨٤٤ ليرة واما ايراد اوستريا فانه بلغ ٣٨٫٢٧٦٫٨٩٤ ليرة والمصاريف بلغت ٤١٫١٨٢٫٣٩١ ليرة وايراد الدولة العلية بلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ وكذلك المصاريف

يزيد على ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ وايراد الدولة العلية نحو ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ تقريبا الا ان كثيرا من ايراد دولة انكلترة يذهب فى فائدة الدين وجملته ٧٨٠٫٠٠٠٫٠٠ ليرة واعلم هنا انه اذا قيل ان دولة انكلترة مديونة فلا تتوهم من ذلك انها ضعيفة فان نفع هذا الدين يؤول الى رعيتها حتى ان جل الدائنين لا يريدون استيفاء دينهم مرة واحدة لانهم ياخذون فائدته فى كل سنة وهو مأمون لهم ما دامت الدولة قائمة ومعلوم ان غنى الدولة يكون من غنى رعيتها وسعادتها من سعادتهم ولا يخفى ان جميع الدول مديونة فدين دولة اوستريا يبلغ ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وفائدته فى كل سنة ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ ودين الدولة العلية يبلغ نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة ودين دولة فرنسا لعله زاد الآن عما ذكر ضعفين فاما دولة امريكا فقد كانت قبل هذه الحرب الاخيرة على غاية من الاقتصاد فكان دينها نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة ثم لما تهورت فى الحرب تمادت فى الاسراف المشط فصار مصروفها فى كل يوم ١٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال وبلغ دينها ٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال (١) وهذا الدين على الدول هو من قبيل لجام للرعية يكبحهم عن المطامع والفتن فان الدائنين الذين هم بالضرورة وجوه اهل البلاد واغنياؤها لا يرضون بانقلاب الدول مخافة ان يؤول الحكم الى الرعاع فيحرموا منه ونقلت فى بعض الكتب ان ملك الانكليز وراثة ولمجلس المشورة ان ينقله من عيلة الى اخرى وانه بعد ان خلع جامس الثانى نفسه عن الملك وذلك فى سنة ١٦٨٨ صار الملك محصورا فى الملوك الذين على دين البروتستانت ولما لم يكن لشارلس الاول خلف نقل الملك الى نسل جامس الاول وهم من البروتستانت وهذه العيلة المستولية الآن هى من نسل صوفيا بنت ملك هنوفر والواجب على

(١) هذا بيان ديون الدول الى غاية سنة ١٨٨٠ دين فرنسا ١٠٫٨٦٢٫٠٣٥٫٩٨٣ فرنكا فائدتها السنوية تبلغ ٧٤٨٫٤٠٤٫٩٥٢ فرنكا (كل ٢٥ فرنكا عبارة عن ليرة انكليزية) — ودين دولة انكلترة ٧٧٤٫٠٤٤٫٢٣٥ ليرة انكليزية فائدتها السنوية ٢٧٫٤٨٨٫١٨٥ ليرة — ودين اوستريا ٢٩٨٫٧٣١٫٠٦١ ليرة انكليزية فائدتها السنوية نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠ ليرة — ودين ايطاليا ٣٩٠٫٣٠٤٫٥٣ ليرة انكليزية ودين الروسية ٣٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة انكليزية — ودين الدولة العلية نحو ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة وقس على ذلك بقية الدول

الملك

الملك يوم تتويجه ان يحلف على محافظة ثلاثة امور ﴿ الاول ﴾ سياسته بحسب القوانين والاحكام ﴿ الثاني ﴾ اجرآء الحكم بالرحمة ﴿ والثالث ﴾ اقراره مذهب الدولة وهو دين البروتستانت وللملك خصائص ومزايا ينفرد بها عن غيره بحسب ما ارتقى اليه من الشان والشرف منها ان له قدرة على ان يأذن بالحرب والصلح وان يبعث من قبله سفرآء الى الدول ويرضى بسفرائها وان يعفو عن ذوي الجنايات وان يخص من شاء بالشرف والالقاب السنية وان ينصب الحكام ويولي الوظائف العسكرية برا وبحرا لمن يراه اهلا وان يرفض ما يقدم له اهل المجلس من الدعاوى والقضايا ليوقع عليها وهو رأس الكنيسة التي عليها رجال الدولة وهو الذي يولي الدرجات والمراتب للاساقفة الا انه لا يمكنه تنفيذ هذه الامور الا على يد الوزرآء فهم المطالبون بكل ما يصدر عنه من الاوامر ولهذا يقال ان الملك لا يخطئ وله ايضا خصائص اخرى منها انه لا يغرم شيئا فقد لاحد الامة وان دينه يقدم على دين غيره ولا تقام عليه دعوى ولكن لكل من الرعية حق في ان يعرض له على يد وزيره ما يدعى به من الاملاك ولعيلة الملك ايضا مزايا امتازت بها فيحق لزوجته ان يقال لها ملكة وان يحترم مقامها ولو بعد وفاة زوجها ولها استطاعة على ان تشتري وتبيع ما تشاء باسمها وان تحيل ما يرد عليها من الدعاوى الى اي ديوان دولة شاءت ولابن الملك البكر حق من يوم ولادته ان يدعى امير والس ومن منصبه ان يدعى دوك كورن وال وارل شستر وجميع اولاد الملك ينعتون بالنعت الملكي فيقال مثلا جنابه الملكي او حضرته الملكية • وفي لندرة ست غياض اعظمها الغيضة التي يقال لها هيد بارك اي غيضة لهو وهي فسيحة عظيمة مساحتها من الارض عبارة عن ٣٨٧ فدانا باسفلها قنطرة بلغ مصروفها ١٧٫٠٦٩ ليرة وباعلاها قنطرة اخرى انفق فيها ٨٫٠٠٠ وكانت اولا في غيضة صان جامس فنقلت وبلغت مصاريف نقلها ١١٫٠٠٠ وفي هذه الغيضة ترى كبرآءها وعظمآءها في احسن المركوب والملبوس والحشم وخصوصا من شهر نيسان الى تموز واكثر النبلاء يسكنون هناك • قال فيها بعض الفرنسيس صور لنفسك سهلا فسيحا ذا اشجار وبرك وحقول ومرج تمرح فيه الثيران والشآء سربا سربا كأنك في اقليم دوفنشير الانيق فتلك صفة هيد بارك ثم صان جامس پارك وهو المتصل

بقصر الملكة ومع ان المظنون من وضعه وصفته ان يكون منتاب ذوى الفضل والشان فهو مجمع الخدمة والحرافيش والاولاد ثم كرين پارك وريجنت پارك وپارسى پارك وفكطوريا پارك وهو اخسها كما ان فكطوريا ثياطر هو اخس الملاهى وما عدا هذه الغياض فثم حديقتان احداهما لنبيت النباتات كبستان النباتات فى باريس غير ان دخولها مقصور على اصحابها او على من يؤذن له منهم • والثانية للحيوانات الحية والميتة والاداء على دخولها شلين وفى ضواحى لندرة ايضا متنزهات ينتابها الناس فى الصيف وذلك كريتشموند وكيو وهمستد وكرافزان وهمبطون كورت واحسنها كريستل پالس فى سدنام وهو القصر الذى نقل من غيضة هيد پارك وهو يعز عن النظير • وقد حان الآن ان اتكلم على احوال لندرة الخصوصية ممهدا لذلك بمقالة قالها بعض الفرنسيس ثم اشرح جميع ما يتعلق بها قال « اما لندرة فان كل ما فيها انما جعل للتمتع به داخل الديار واما باريس فان طيب عيشها انما هو فى الاسواق والشوارع وان الاولى تحير الناظر باحتشان حالاتها وبكثرة ما فيها من الدكاكين وبترفه الاعيان والعظماء واسرافهم وان الثانية تسحر بتفنن شؤونها واختلاف المشاهد فيها وبما يتنعم به اهلها من العيش الذى يحكى عيش النور (الجنكنه) المتنقلين من حال الى حال وفى الجملة فان لندرة تحكى خلية العسل وباريس تحكى منهلا عذبا لكل وارد وما احسب جود الانكليز الذى يصفهم به اهل باريس الا من هذه الحالة التى لا تفاوت فيها اه • وقال آخر ليس فى لندرة مطاعم انيقة ومحال قهوة فاخرة كما فى باريس فيلزم الغريب ان يأكل فى المنزل الذى يسكنه او فى بيوت الاكل وهى عبارة عن مواضع مظلمة لا تأنق فى فرشها ولا فى مطابخها واذا دخلت احدها مما يتردد اليه وجوه الناس احضر لك الخادم فى وقت الغداء خمس صحاف مغطاة باغطية مفضضة فتحسب ان فيها شيئا يفتح منك اللهى فاذا كشفت عن احداها ظهر لك الشواء ويليه البطاطة ثم الخلر على حدتهما ثم خسة وفى الخامسة زبدة مذابة مع آنية الابازير واذا شئت التفنن احضروا لك سمكا مسلوقا اما الشراب فالجعة لانك لو اردت ان تشرب الخمر لزم ان يكون دخلك فى العام دخل امير فى غيرها اه • قلت قد اشرت فى وصف باريس الى بعض ما بينها وبين لندرة من الفرق فى السكنى والمعيشة والآن استوفى ذلك بناء على ما

ما قال الفرنساوى من ان طيب العيش فى لندرة انما هو داخل الابواب وفى باريس بخلاف ذلك فاقول ان اهل الاستطاعة فى لندرة كالتجار وغيرهم يستأجرون بيوتا ويستقلون بهـا وذلك لصغرها خلافا لديار باريس فلهذا كان صـاحب العيلة يؤثر التنعم فى بيتـه مع اهـله على الخروج اما الغربآء الذين ينزلون فى الديار فيكون لاحدهم حجرة او حجرتان فيمكنهم ان ينالوا طعامهم صبحا ومسآء فى منزلهم وذلك بان يشتروا هم ما يريدون اكله ويأمروا الخادمة بطبخه ويعطوهـا شيئا زهيدا فى مقابلة خدمتها وذلك اولى من انهم يأكلون فى المطاعم بل هو انظف وارخص وفى هذه الخطة تفضل لنـدرة باريس فان الغربآء فى هذه لا ينزلون الا فى منازل كبيرة مشاعة فيضطرون وقت الاكل الى الخروج الى احد المطاعم فان الاكل فى المنازل غال جدا وهناك مزية اخرى وهى ان النزيل فى لندرة يستأجر الحجرة فى الاسبوع وفى باريس يستأجرها مشاهرة وان كان مياومة لزم ان يدفع الضعف ضعفين وايضا فان صاحب الدار فى لندرة يعطى النزيل مفتـاح داره ليمكنه ان يدخل ويخرج ايان شآء وفى باريس لا بد من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البواب غير ان النزيل فى ديار لندرة لا يمكنه ان يخلو بالنسـآء فى حجرته وفى باريس لا حرج فى ذلك فان طلوع المرأة الى حجرة النزيل فيهـا اهون من طلوع رغيف الخبز كما ان طلوع المرأة فى لندرة اليه اصعب من طلوع الفرن بناره وهذا شذوذ عن الاصل المتقدم ان قلنا بانه من طيب العيش الا ان أكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج ولاصحاب هذه المنازل غالبـا عادة ذميمة وهى انهم يستولون على مفـاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان حتى اذا علموا ان ليس فى صناديقهم ما يقوم باجرة المسكن انذروهم الخروج وهناك طريقة اخرى للسكنى فى كلتا المدينتين وهى ان من شـآء ان يمكث طويلا يستأجر حجرة او حجرتين فى دار من غير اثاث ويؤثثها كما احب ولـكن يلزمه فى لندرة ان يفتح البـاب لقاصده وينور له فى الدرج وفى باريس لا يلزمه ذلك هذا ولما كان ارباب الحكومة فى لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارهـا كانت ديار لنـدرة بالنسـبة الى ديار باريس حقيرة جدا اذ كل انسان يبنى داره كما تقتضيه حاله فمنها ما كان مشتملا على طبقتين فقط ومنها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها وهندمتها ومساواتها او يقال

ان الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان هم صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبناء دون الزخرفة وناهيك ان في لندرة ٢٦٠ر٢ دارا مشرفة على السقوط وما عدا ذلك فان من يكون قاعدا في حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها فحاسن لندرة كلها متصورة على الحوانيت فاذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان وحقارة الطوب وتفاوت الطبقان وخساسة المداخن البارزة من السطوح من الخزف وضعة البناء وما اشبه ذلك واعظم ما يشعر الناظر بهذا ما اذا قدم من باريس فانه يرى الفرق عظيما جدا وخصوصا اذا اتفق قدومه في يوم الاحد حين تكون الحوانيت مغلقة فيحسب نفسه انه في قرية صغيرة الا ان في داخل الديار هنا مرافق لا توجد في باريس منها حسن المواقد وقد سبقت الاشارة اليه وكونها مشتملة على صهاريج للماء على طيبه وفي باريس يلزم الساكن ان يشتري الماء من السقائين على رداءته ومنها قلة درجها وذلك نتيجة كونها غير شاهقة ولعل صاحب العيلة اذا استأجر دارا من بابها يهنئه العيش هنا اكثر مما يهنئه في باريس على كثرة ما يوجد في هذه من البدائع فان الغيور على عرضه لا يهون عليه اذا كان نازلا في الدرج ليخرج الى محترفه ان يرى آخر صاعدا محاذرا له ولهذا تقول الانكليز ان هناءهم جوّي وان ديارهم ادعى الى السكون والهناء من ديار غيرهم واذا سكن هنا في الدار ٢ او ٣ واتفق تلاقيهما في الدرج فما احد يكلم صاحبه واذا زاره اخوه او اخته واطالا المكث عنده الى نصف الليل فما يدعوهما الى المبيت عنده • اما قوله باحتشان حالاتها وبكثرة دكاكينها وبترفه الاعيان والعظماء فيها فاحتشان حالاتها هو كون جميع الازمنة والامكنة فيها متساوية اما في الازمنة فليس عند الانكليز في ايام السنة كلها يوم للحظ واللهو فلا تعرف فيها رأس السنة من ذنبها وليس عندهم ايام للبطالة ما عدا ايام الاحاد سوى عيد الميلاد ويوم الجمعة الكبيرة ولكن يوم البطالة هنا هو يوم الانقباض والاكتئاب اذ لا ترى شيئا يقر العين فقد اسلفنا ان جميع الحوانيت تكون يومئذ مغلقة ومن العجب هنا انه يؤذن لباعة التبغ في فتح دكاكينهم يوم الاحد ولا يؤذن لباعة الخبز واللحم فكان التبغ الزم للمعيشة من غيره ثم لا مشابة للناس ينبسطون بها سوى التردد على تلك الغياض وهي خالية من المطاعم

والمشارب

والمشارب وآلات الطرب على قلة ما فيها من المقاعد. وهى فى الغالب بعيدة عن سكنى العامة والوسط وانما هى مجعولة لحظ الكبرآء القاطنين فى الديار المجاورة لها فان كل شئ هنا معنى به اسم العلية وقد مرت الاشارة الى هذا نعم ان فى صباح الاحد فى لندرة لذة لا تقدر ولا تنظر بالنسبة الى نحس الايام الاخر وهى قلة قرقعة العجلات وسائر المراكب فقد كنت احسب نفسى فى صباح كل احد انى ساكن فى الريف فاما فى سائر الايام فان توالى هذه القرقعة داهية من اعظم الدواهى فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم ولا قعود ولن يمكنه ان يجمع افكاره فى رأسه واذا مشى اثنان فى الطريق لزم المتكلم ان يصرخ باعلى صوته ليسمعه الآخر فاعوذ بالله من ذلك فاما كثرة الحوانيت فقد تقدم ذكرها فى اول الكلام على لندرة وبقى هنا ان اقول انك فى جميع حوانيت لندرة تجد ما يلزم للملبوس والمفروش ناجزا عتيدا فاذا دخلت مثلا حانوت اسكاف وجدت عنده عشرة آلاف زوج نعال معرضة للبيع فاخترت منها ما شئت وقس على ذلك سائر اصناف الملبوس ومن شاء ان يفرش صرحا فى ثلاث ساعات وجد كل ما خطر بباله من الادوات والاوانى ونحو ذلك حوانيت باريس فاين هذا من البلاد التى لا تجد فيها حاجتك الا بعد ان توصى عليها فاذا حضرت وجدتها على غير المراد فتغصك ذلك وافضى بك الى القيل والقال • واعظم طريق فى هذه المدينة هى ريجنت سركوس ويذكر غالبا باسم ريجنت ستريت وهو على خط منحن نحو نصف دائرة طوله ١٫٧٣٠ ذراعا وهو يشتمل على دكاكين فاخرة بهية اكثرها مشرف بشعار الملك وذلك ان الملكة اذا اشترت شيئا من صاحب الدكان ساغ له ان يضع عليه صورة الاسد ووحيد القرن واذى الى الميرى شيئا عليه فى كل سنة وثم ترى الثياب الفاخرة من كل صنف ولون ومن كل صقع ومكان وقد يكون طول لوح الزجاج فى عرض الحانوت نحو ست اذرع فاكثر وعرضه نحو ذراعين فيكون العرض كله من اعلاه الى اسفله لوحين او ثلاثة وثمن اللوح نحو عشر ليرات وديار هذه الطريق مبيضة الخارج او يقال نصفها ابيض ونصفها اسود. وثم ترى اجمل نساء لندرة يخطرن بالديباج والثياب الفاخرة ويجررن اذيالهن على الارض جرا ولا سيما ليلة الاحد وهى ليلة السبت عندهم فاذا رأيت واحدة منهن جزمت بانها اجمل

من رأيت ثم ترى اخرى فتجزم بانها اجمل من تلك وهلم جرا وكذلك هن في كافن ستريت وهاى ماركت والواقع ان هذه الليلة في جميع الاسواق لندرة هي ليلة البهجة والتصوف والفرح وهي ابهج الليالي اما عند العلية فلعلمهم ان اليوم التابل هو يوم الانقباض فينصبون فيها الى اللهو والخلاعة في جميع الاماكن المقصودة واما عند السفلة والفعلة فلكونهم يأخذون اجرتهم في مساء كل سبت فتى انصرفوا من المشاغل اقبلوا على الحانات والحوانيت لشرآء مونة يوم الاحد فترى جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنسآء وكثيرا ما يتفق ان الرجل حين يقبض اجرته يذهب الى الحانة وينفقها فيها فيرجع الى اهله صفر اليدين فيقوم الشنار بينه وبين زوجته او ان يعطيها لزوجته فتذهب هي وتنفقها في المسكرات ففي هذه الليلة ترى النسآء يتضاربن بعضهن مع بعض او مع بعولتهن او مع غيرهم وكذا شان الرجال وكثيرا ما رأيت النسآء يغلبن الرجال ويجررنهم بنواصيهم وكثيرا ما ترى امرأة مشرومة الانف او مابوقة العين او مخلوعة اليد او صرعى في الطريق من السكر والضرب كل ذلك من بركات هذه الليلة ولولا ان اصحاب الحانات مشروع عليهم ان يقفلوا حوانيتهم في نصف الليل ومن خالف ذلك يغرم خمس ليرات لبقوا وبقين على الجن والروم والجعة الى الصباح والواقع ان العملة من الانكليز وذوى الحرف اقرب الى مزية الكرم منهم الى البخل فانهم في تلك الليلة ينفقون انفاق من لا يخاف الفقر ويشترون قطع لحم كبيرة ويتخذون حلوآء من الفاكهة وغيرها وفي يوم الاحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة وبالسكر الابيض الكرر وهلم جرا واما عند اصحاب الدكاكين فلعلمهم ان يوم الاحد ليس فيه بيع ولا شرآء فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء ان يكسبوا شيئا زائدا يكون عوضا عن بطالة الاحد فلهذا ترى الطرق والاسواق في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالي وكذلك ليلة عيد الميلاد وبعض ليالي قبلها فان الدكاكين تبقى فيها مفتوحة وبعضها يكون مزينا وفيها تسمع آلات الطرب من جهات شتى وترى الناس في اقبال وادبار ومرح وارتياح • ودون الطريق الذي مر ذكره في الغنى والرونق طريق اكسفورد الا انه اطول واقدم وهو يفضي الى هيد بارك وطوله ٣٠٤ر٢ اذرع وقد ترى في هذه الطريق وفي غيره عشرين دكانا للبرانيط ومثلها للنعال ومثلها للكتب ونحوها

للخبز ولا ترى من مطعم واحد او نصف محل للقهوة • ثم الطريق الذى يقال له استراند طوله ١٣٦٩ر١ ذراعا وهو اكثر الطرق ملاهى فيه فرع من المالك الكبير عنده جرس ذو مادة كهربائية يدل على اوقات البلدة وعليه تضبط مواقف سكك الحديد الساعات والاوقات وفى الساعة الحادية بعد الظهر يهبط عن مركزه بنفسه • ثم بيكاديلى طوله ١٦٩٤ر١ ذراعا ثم نيو رود اى الطريق الجديد طوله ١١١٥ر٥ ولكنه ليس من الطرق المنتابة ونحوه ستى رود وطوله ١٦٩٠ر١ ثم نيوپون ستريت فيه دكان جوهرى رأس ماله خمسمائة الف ليرة وتحت يده من الصاغة والصنائعيين ما يزيد على خمسمائة رجل وهو اغنى جميع صاغة المملكة وكثيرا ما تستخدمه ملوك الافرنج من جميع الاقطار فى صوغ آنية لقصورهم ثم هوبرن وهو اوسع الطرق لكنه غير طويل فيه دكانان للبز والحرير لا ينقص عدد المستخدمين فى احدهما عن مائة نفس ومن هوبرن فصاعدا نحو الشمال بنى فى سنة ١٦٠٧ وفى زمن الملكة اليصابت منع من تكثير البيوت وامر بان كل عيلة تسكن فى بيت واحد • ثم هلوى ول ستريت مشهورة بالدكاكين التى يباع فيها كتب الفسق وصور النساء وما اشبه هذا ثم طرق اخرى حسنة ايضا ولكنها ليست نظير هذه وعدد الطرق المبلطة فى لندرة يبلغ ٥٠٠٠ر٥ وتمتد اكثر من ٢٠٠٠ر٢ ميل ويوجد فيها نحو ٥٠ طريقا باسم كين ستريت اى طريق الملك ومثلها كوين ستريت اى طريق الملكة ونحو ٦٠ طريقا باسم وليام ستريت ومثلها جون ستريت واكثر من ٤٠ طريقا باسم نيو ستريت • وقد تذاكر الناس هذه السنة فى انشاء سكك الحديد فى قلب لندرة بدل الحوافل فان جعل هذه يبلغ فى السنة ٣٠٠٠٠٠ر٣٠٠ ليرة والسير فى الاول لا ينفق فيه اكثر من ٣٠٠٠٠ر٣٠ ليرة فقط وجميع اسواق لندرة وشوارعها وازقتها تنور بجمال النساء عامة الليل وناهيك انه فى محلة واحدة وهى محلة مارى لابن من جملة نحو ٦٠ محلة يوجد ٣٠٠٠٠ر٣٠ مومسة منهن ٢٠٠ر٢ لهن بيوت خاصة بهن وحيثما تكثر انوار الغاز يكثر ترددهن ولكثرة الانوار فى الدكاكين والطرق تكون المدينة فى الليل شتاء ادفأ منها فى النهار وكذلك مدينة باريس والغاز فى طرق لندرة يوضع فى فوانيس على عمد قائمة من حديد فهى من هذا القبيل احسن من باريس لان كثيرا من فوانيس هذه

تجعل فى الحائط الا انه ليس فى طرق لندرة شجر ولا محال للقهوة على نسق ما فى باريس لان الشرطة لا يأذنون لاحد فى ان يضع كرسيا فى الطريق ويقعد عليه •

ثم ان اختراع الغاز هو من اعظم البركات التى يتنعم بها الانسان فى الليل ومن اقوى الوسائل المعينة على الامن والسلامة ولا سيما فى المدن الكبار فان لندرة منذ مائة سنة كانت ممنية باللصوص والنهاب فى مسالكها بعد العتمة حتى ان السالك فيها كان يعرض نفسه اما للقتل واما للسلب وكانت الاولاد تحمل بايديهم مشاعيل ويجرون بها بين يدى المارين ويأخذون منهم شيئا وفى ايام الملكة مارى كان العسس يستصحبون اجراسا يضربون بها للتنبيه والتحذير وذلك لقلة الانوار وفى سنة ١٧٦٢ وضعت الفوانيس واوقدت بالزيت فقلت اللصوص واول من جرب استخراج الغاز قسيس اسمه كلاطون وذلك فى سنة ١٧٣٩ الا ان تجربته هذه لم يعمل بها وفى سنة ١٧٩٢ تصدى لهذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك وفكر فى انه اذا صان الغاز المستخرج من الفحم او الحطب فى وعاء ثم اجراه فى قصب من الحديد يكون مغنيا عن المصابيح والشمع وفى سنة ١٧٩٨ اتم تجربته هذه واجراها فى بعض المعامل فى برمنهام الا انه كان يعرض لها بعض الخلل احيانا وفى سنة ١٨٠٢ انتبه الناس الى احكام ذلك وتعميم منفعته وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نور ملهى ليسيوم فى لندرة بنور الغاز وفى سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك دائرة مشروعه هذا فى منشستر وزعم الفرنسيس انهم هم مخترعوه الا ان هذا النور لم يعرف عندهم الا فى سنة ١٨٠٢ وكان ذلك فى باريس وقد عرفت ان مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين ومن سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢ اشتهر استعمال الغاز واعجب جميع الناس حتى ان رأس المال الذى جمع لتنوير لندرة فقط بلغ ازيد من ١٠٠٠ر٠٠٠ر١ ليرة وشغلت قصبات الغاز فى ايصال النور الى محال مختلفة مسافة ١٥٠ ميلا وبعد ذلك بسنين قليلة اشتهر فى سائر مدن المملكة لتنوير الطرق والحوانيت والديار وهو على بقائه وعدم نقصه خلافا لنور الشمع والزيت ارخص سعرا واخف كلفة فان رطل الشمع الدون مثلا يساوى ثلاثة ارباع شلين ومدة اتقاده لا تزيد على اربعين ساعة وان غالونا من الزيت يساوى شلينين وينير ما تنير

ستمائة شمعة في ساعة واحدة والشمع العال اغلى من الشحمي بثلاثة اضعاف والف مكعب من الغاز يساوي تسعة شليات فيحصل من ذلك ان ما قيمته مائة من الشمع العال يكون خمسة وعشرين من الشحمي وما قيمته خمسة من الزيت يكون من الغاز ثلاثة وبالجملة فانه من الزم الاشياء ولا يعلو عليه نور الا نور الشمس (١) واذا اوقدت نورا منه فلا ينطفئ الا اذا اطفأته وذلك بان تدير لولبه الى جهة الشمال واذا اردت ابقاده ادرته الى اليمين وادنيت النار من فوهته فيبقى كذلك الى ما شاء الله وكيفية تنوير الطرق في لندرة هو ان يرتقي الرجل في سلم الى الفانوس وفي باريس يجعل الرجل النور في عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون ان يرتقي اليه ولا يخفى ان ذلك اسهل واسرع * واما قوله بترفه الاعيان والعظماء واسرافهم فقد سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام على اخلاقهم واحوالهم وانما نقول هنا ان هؤلاء الاماجد يسكنون في حارات معلومة من المدينة فرارا من الزحام ومن اختلاطهم بالاوباش فترى بقعة فسيحة عظيمة في لندرة ليس فيها سوى ديار متصافة متصاقبة وهي بالنظر الى وسط المدينة موحشة اذ ليس فيها حوانيت ولا مطاعم ولا ملاهي لكنها نظيفة سالمة عن تكاثف الاوحال وضغط السائرين وقرقعة العجلات ومعما هم فيه من البحبحة فيها والنعيم والانفراد فلا بد وان يكون لكل منهم دار في الخلاء يسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجليل تسطع انوار السعادة من ابراجهم العلوية وهناك ترى الخدم والحشم والخيل المطهمة والعواجل النفيسة وهناك تميد الموائد بما عليها من الاطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان وهناك تتيه الكلاب على كثير من بني آدم ممن يتضورون جوعا ويهلكون من الوسخ والبرد والعري ومن اكل اللحوم المنتنة في ازقة لندرة القذرة فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والجحيم في الآخرة وهاك مثالا على سقر لندرة قال في بعض الصحف ان مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وامرأة وولد يسكنون في اربع وثلاثين حجرة وفي اخبار الكون

---

(١) في سنة ١٨٨٠ نور كثير من طرق باريس ولندرة وغيرهما من طرق مدن اوربا بالنور الكهربائي

كان يمكث فى حجرة واحدة من اربعة عشر نفسا الى عشرين ليلا ونهارا وكان يسكن فى حجرة اخرى رجلان مع زوجيهما وارملتان وثلاث بنات وعزب وثلاثة اولاد فجملتهم اربعة عشر نفسا قد جعلوا انفسهم عيلة عيلة كل عيلة تبوأت زاوية من الحجرة وفى موضع آخر يسمى ساحة فلانشر حجرتان لا تزيدان على سبع اقدام عرضا فى عشر طولا وقد اشتملتا على ثمانية وعشرين نفسا ما احد منهم يعرف القرآءة وليس تحتهم وطاء سوى التبن الا واحدا منهم ولا غطاء لهم فى الليل سوى ثيابهم التى يلبسونها فى النهار ومع ذلك فان هذين المحلين اذا قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة فانه وجد فيها ٢٠٨ اولاد قد ادركوا ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلاثين فقط وهم غارقون فى الفساد والخساسة والقذر والوباء وفى هى هوبرن ثلاثون بيتا يسكن فيها مائة وثلاث وثلاثون عيلة كل ثلاث عيال او اربع فى حجرة واحدة وقد تناهوا فى السكر والسفاهة وفى كل نوع من الرذائل اه • وكثيرا ما ترى النساء يمشين فى الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز وغير مرة رأيت رجلا على ذراعه طفل وامرأته بجانبه صفراء مجردة على عتبة احدى الديار فى اشد ليالى الشتاء بردا وفى كل سنة يبقى الوف من ذوى الحرف معطلين ففى سنة ١٨٤٩ كان ١٫٤٠٠ خياط و ٩٠٠ اسكاف بلا عمل وكان ١٫٧٠٠ اسكاف يعملون بنصف الاجرة وكذا الصاغة وصناع الجلود وقس على ذلك وفى لندرة ٢٫٢٦٠ دارا مشرفة على السقوط والحاصل انه لا فقير اشقى من فقير لندرة كما انه لا غنى اترف من غنيها وكما ان طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحضرة الكبراء كذلك كان طرفها الجنوبى مختصا باهل الضعة والخمول فلا ترى هناك شيئا يعجبك غير حسن النساء فان الله تعالى جعل لهن هذا النصيب عاما • واما قول الآخر انه ليس فى لندرة مطاعم انيقة الخ فهو فى محله الا انه لم يذكر سبب ذلك وهو جهل الانكليز بصنعة الطبخ اما فى البيوت فيمكن للواحد ان يعتذر عنهم بقوله انهم لا يتأنقون فى الطبخ حرصا على الوقت ان يضيع فى الحشو والتكبيب وما اشبه ذلك الا انه لا يمكن الاعتذار عن اصحاب المطاعم العمومية الذين لا شغل لهم الا اطعام الناس وما عدا ذلك فان المنتقد لم يذكر انه لا شئ فى لندرة مما يؤكل او يشرب الا وهو مغشوش مخلوط مشوب او ليس

من العار على اهل هذه المدينة مع كونهم اغنى الناس واقدرهم واتجرهم ان يرخصوا لواحد من الاجانب فى ان يفتح دكانا فى اعظم الطرق ويبيع فيه نحو الجبن ولحم الخنزير والخردل واللبن ولآخر فى ان يبيع المثلوج والحلوآء ولآخر فى ان يبيع الخل والزيت ولآخر فى ان يفتح محل قهوة تغنى فيه نسآء بلده ونحو ذلك مما يمكن لكل احد ان يصنعه فهل لهذا من تأويل آخر سوى انكم يا اهل لندرة خرق حمق او غشاشون غبانون وفى الواقع فان كل شئ يصنعه اهل فرنسا هو مفخرة للانكليز فان الحرير الفرنساوى للستات من الانكليز نصف جمالهن والنصف الآخر من الشريط والجوارب والكفوف والقيطان ونحوه ونصف ادبهن هو التكلم باللغة الفرنساوية والنصف الثانى العزف على البيانو وطباخوا امرآء الانكليز انما هم فرنسيس وكذا شرابهم وجل تحفهم واهل الحوانيت يكتبون على كل شئ انه فرنساوى كما مر ذكر ذلك فما معنى اتساع لندرة اذا وكثرة دكاكينها وسعة طرقاتها وتعدد مراكبها وزحامها وضجيجها وجلبتها وليس فيها من يحسن عمل الخردل وليس فى مطاعمها مرقة فى الشتآء ولا سلاطة فى الصيف ولا ارز ولا عدس ولا حمص ولا فول ولا مقر وانما هو الشوآء والبطاطس او شئ من البقل مسلوق سلقا ومن الغريب انهم اذا طبخوا البطاطس مع اللحم سموها اداما ارلانديا وملؤه من الفلفل والابازير حتى يحرق اللسان واذا جلس احد فيها للغدآء رأى بينه وبين جيرانه حاجزا من خشب حتى لا يقع التعارف بينهم وهو اشبه بحاجز الحيوانات التى يجمعونها فى بستان النباتات وترى كلا منهم قد جلس للطعام وبيده صحيفة اخبار يطالعها واذا اراد اخذ شئ من بين يديك تلقفه من غير ان يستأذنك فيه خلافا لما تفعل الفرنسيس وغيرهم على ان كثيرا من هذه المطاعم يأكل الناس فيها وهم وقوف فكأنما هم جماعة يهود يأكلون خروف الفصح فاما محال القهوة فاكثرها مجتمع الاراذل فترى فيها واحدا راقدا وآخر سكران وآخر وسخا واذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر فى محل لا تراه وقدموه لك هكذا فلا تدرى ما وضع فيه فيا الفى الف ونصف الف الف من الناس متى تعيشون فى هذه الدنيا الصغيرة عيشة مائتين ونصف مائة من سكان القرى فى فرنسا وايطاليا والشام وبر مصر

بان تأكلوا خبزكم غير مخلوط بالبطاطس والشب وجبس باريس ولحمكم طريئا سليما لا من حيوان اصابه دآء فذبح ولا مما يرد اليكم من اميركا موضوعا فى الثلج ولا مما خم وانتن فتحشون به المصارين والحوايا فلعمر الله ان كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقى فى العلوم فللجهل خير فان اهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيمياوية والاخلاط الغير المتناهية التى توجب على الشارى ان يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الاجزآء والمركبات فيما يؤكل ويشرب فى وطنكم هذا السعيد او ما كفى ان هواءكم مخلوط بالدخان وشتاءكم يدوم ثمانية اشهر تقضى بالاصطلآء على نار الفحم الحجرى وما ادراك ما الفحم الحجرى وبخوض الوحول ويستنشق الضباب حتى زدتم على هذا البلآء الطبيعى بلاء صناعيا تعافه الحيوانات فان الكلاب والسنانير تأبى اكل هذه الجباجب التى تحشونها بلحومهن ثم اقول او لم يكف ان نساجيكم وخياطيكم واساكفتكم وصاغتكم وصباغيكم وسائر اهل الصنائع منكم يغشون ويموهون ويلبسون ويشبهون ويضلون ويغوون فما يدرى الحرير عندكم من القطن ولا الجديد من القديم المصبوغ ولا المخيط من الملصق وان المومسات يتطاولن على الرجال ويشممنهم المسبت ثم يسرقنهم والمراد بالمسبت هنا الدوآء الذى يقال له كلوروفورم او اثير قيل ان خاصيته كانت معروفة عند الكيمياويين الاقدمين وذلك من سنة ١٦٨١ واول من عثر عليه فى التاريخ المذكور كنكل واول من عرف خاصيته فى الاسعاط توماس مرطون من بوستان فى اميركا ثم استعمله دكطر سيمصون فى ايدنبرغ ومن بعده دكطر جامس روبنصون فى انكلترة ثم شهر فى سائر الممالك ونشأ عنه الموت بعض الاحيان وفائدته تغييب الموجع عن حس ما يؤلمه حتى انه يمكن للجراح ان يقطع عضوا منه او يحرقه ولا يشعر به وقد استعملته الملكة عند ولادتها غير مرة وان منكم نباشين للقبور يسرقون اكفان الموتى ويبيعونها وان الاولاد يختلسون فى كل طريق مظلم وفى كل زحام وان سفلتكم عارون عن الادب والحيآء ودابهم التعدى على الغريب والاساءة اليه وان كثيرا من بيوتكم القديمة وحيطانكم العهيدة تتهدم وتسقط على الناس فتهلكهم وانه قد يمكث الانسان عندكم شهرا ولا يرى الشمس الا مرة او مرتين وان ربيعكم ابرد من شتائكم وصيفكم امطر من خريفكم وانه لا فرجة عندكم ولا مشهد ولا موسم

ولا ملهى الا ويغص باللئام الطغام والاوباش والاوغاد والسفلة الارازل حتى عمدتم الى افساد ما خلقه الله من الماكول والمشروب طيبا مريئا أفليست لكم ألسنة تذوق هذا الرجس وتنطق بالحق وحلوق تستبشع ذلك الخبيث من الطعام كما تستفظع حروف الحلق فان كان خلو لغتكم عنها هو مسبب من استطيابكم لهذا الخبيث فحاها الله بضعفى ما فى لغتنا منها أهكذا علمكم اهل الشرق ان تختبزوا الخبز مخلوطا باصناف شتى اهكذا علمكم اهل فرنسا ان تطبخوا هذه اللحوم المنتنة فى مطاعمكم وتخفوا فسادها بكثرة الفلفل والافحاء أهكذا علمكم باسكت الرومى فى سنة ١٦٥٢ ان تصنعوا القهوة مخلوطة بجميع انواع الحبوب فما معنى كثرة دكاكين الكتب والمؤلفات التى لا عدد لها عندكم فى كل فن وصنعة وانتم لا تحسنون ان تطبخوا بضيعة من اللحم بوبقة من البقل فكل لحم مشوى وكل بقل مسلوق ويا ليت كان ذلك اللحم لحما وذلك البقل بقلا فاعجب ايها القارى من ان هؤلاء الناس الذين يملكون ما ينيف على ٥٠٠٠ باخرة منها ما هو اكبر من فلك نوح كما زعموا وعندهم اكثر من ٢٠٠٠ صحيفة للاخبار منها ما يطبع فى كل يوم ومنها فى كل اسبوع لا يعرفون ان ياكلوا وليس لهم ذوق يعرفون به الطيب من الخبيث من الطعام ويرضون ان يأتيهم رجل من فرنسا او ايطاليا ليبيعهم الخردل والخل والجبن مما يجلبه من بلاده وليس منهم فى تلك البلاد احد يعلم اهلها شيئا من صنعة الطبخ فكل شئ دخل فى حلوقهم طاب استراطه وكل ما عرض للبيع فى حوانيتهم حل بيعه وشراؤه بحيث يؤدى عليه مكس للدولة وانى لاعجب كيف انهم لا يختبزون خبزا من البطاطس وحدها او من الشعير وحده او من الاسماك كما فى ايزلاند وكيف لا يحجرون فى طين الارض القريبة من المسكوب الذى يقال انه يختمر مع الدقيق • وقد حان لى الآن ان اختم الكلام على لندرة فيما يؤول الى الماكول والمشروب واذكر ما فاقت به سائر مدن العالم فى ما يطبع فيها من صحف الاخبار والكتب فاقول ان اول جرنال فى الدنيا باسرها هو الجرنال المسمى تيمس ومعنى هذه اللفظة الاوقات ومعنى الجرنال يومية وهى لفظة فرنساوية وهذه الصحيفة تحوى جميع اخبار المسكونة الا انى رأيت فيها عيبا كبيرا وهو عدم استقصاء اخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك الاسلامية فاذا كان فيها خبر عنها فانما هو مخصوص بالتجارة ولها عدة كتاب وكاتب جلها السياسية يعد من اعظم

ادباء الانكليز ومرتبه فى السنة اكثر من الف ليرة وهذا الجرنال هو لسان الامة والدولة ويليه الجرنال المسمى مورنن ادفرتيسر ومعناه معلن الصباح وهو لسان الرعية وكانه نقيض ذاك وفى لندرة اكثر من ٣٢٠ جرنالا للاخبار الطارئة والاديبات والعلوم ووزن ما يطبع منهـا فى كل يوم وكل اسبوع يبلغ فى الاسبوع من ٢٥٠ طنا الى ٣٧٠ وفى باريس ٣٥٠ صحيفة للاخبار الا ان كتابها مقيدون عن الجرى فى مضمار الكلام فليس لهم حرية كما لكتاب الانكليز فان هؤلاء يشهرون فى اخبارهم كل ما استحسنوه واستقبحوه وليست هذه الرخصة لاصحاب جرنالات فرنسا وكذلك يشهرون كل ما حدث فى مجلس المشورة من المذاكرات والمفاوضات بان يبعث كل رئيس جرنال كاتبه الى المجلس ويكتب ما يقال فيه حرفا حرفا ولهم فى ذلك طريقة غريبة يسمونها اليد القصيرة فان الكلام يكتب مختصرا بنوع من الاشارة ولولا ذلك لم يكن ممكنا للكاتب ان يستوعب جميع الاقوال وكلما حدث شئ فى قصر الملكة يطبعونه حتى انهم لا يتحاشون ان يكتبوا انها حبلى وانها تلد فى الشهر الفلانى وفى بعض هذه الصحف ان الملكة اهدت الى احد العسكر منديلا من حرير وفيه رقعة مضمونها انه مكفوف بيد ابنتها الكبيرة ولو كان مثل ذلك يشاع فى بلادنا لاصبح مشغلة للالسن كما سبقت الاشارة اليه وافحش ما يكون من تلك الجرنالات الجرنال المسمى پول برى قرأت فيه فى عدد ١٦ ما نصه ان كان الله قد قصد ان منحه فى هذا الامر تكون غير مستعملة فلم منحنا اياها وان كان انما قصد ان تكون مستعملة من المتزوجين فقط فلم آتاها غير المتزوجين ايضا ام يقول قائل لا خشية له من الله انه انما اعطانا اياها ليبلونا بها أبليس هذا يفضى الى ان نجعله ممتحنا الا انى لا ابرئ المتزوجين فى استعمالهم هذه المنح فى غير محلها اما الاقتران الطبيعى بين الرجل والمرأة وهما غير متزوجين وليسا من عائلة واحدة فحلال شرعى والحاصل ان شرائعنا الادبية حائدة عن الصواب وان الفضيلة على ما تفهمها العامة شين وتدليس » الى ان قال « فكل امرأة غير متزوجة يحل لها على مذهبى ان تخالط ايا شاءت من الرجال من دون خوف من ان توسم بالعار والفضيحة او الخروج عن الادب ولو جرت العادة بان تعيش الرجال مع النساء من دون زواج لاغنانا ذلك عن كثير من الشرور التى تحدث بين المتزوجين كالسم والقتل ونحوه بل عن كثرة

الموسات

الومسات وعما يقاسين من الموبقات والرذائل وفى بعض الجرنالات من بعض العامة الى كاتب الجرنال ما نصه اسمح لرجل مسكين ان يقول كلاما وجيزا على امر موجب لشكوى الانكليز فاقول انا معاشر اهل انكلترة ما برحنا معنيين بما لقينا من مصاريف الحرب الاخيرة ومن المكوس التى لاتطاق ومع ذلك فقد خطر الآن ببال بعض اهل الدولة طريقة اخرى لافقار الرعية وهى امداد مملكة اجنبية بمال سمى جهاز ابنة الملكة وناهيك ان ملكتنا لما تزوجت احضرت الى رعيتها رجلا لا ثروة له وان ملك البلجيك رتب له وظيفة تجرى عليه من اهل هذه المملكة وما ذلك الا لكونه تزوج بنت الملك جورج فصارت بلادنا موردا لصيادى البخت والجدة وانها لتبقى كذلك ما دام جلب المال هينا على طالبيه او ليس لملكتنا من الايراد الجزيل ما يقدرها على ان تقوم بمؤنة ذريتها ولو انها قترت على نفسها قليلا لامكنها ان تجهزهم ان كان لا يوجد من كرام الناس من يتزوجهم لمجرد المحبة وكيف كان فى الظلم الواضح ان يكلف اهل بلادنا اغناء بلاد اجنبية ألا ترى ان لى زوجة وعشرة اولاد وان ايرادى كله لا يزيدعلى ١١٠ ليرات اؤدى منها لتنظيف البلدة شيئا ولاجل الفقرآء شيئا وللكنيسة شيئا ولغيرها شيئا فهل اذا اردت ان ازوجهم يجهزهم اهل الشورى عنى الخ وثمن هذه الجرنالات كلها معما فيها من الاخبار والفوائد ومع حسن طبعها وورقها لا يفى بثمن الورق فقط وانما يكسب اصحابها من الاعلانات التى يطبعونها للتجار وغيرهم وعلى كل سطرين او ثلاثة من هذه الاعلانات خمسة شلينات واول طبع بالبخار ظهر فى مطبعة التيمس وذلك فى سنة ١٨١٤ واول جرنال طبع فى بلاد الانكليز كان فى اكسفورد وذلك فى سنة ١٦٦٥ وكان ديوان الملك يومئذ هناك لاجل الطاعون الذى وقع فى لندرة فلما رجع الى لندرة سمى ذلك الجرنال كازت وذلك بعد التاريخ المذكور بسنة واحدة وبقى هذا الاسم خاصا بالجرنال المشتمل على اخبار الدولة والمصالح الملكية فلا معول فى اخبارها الا عليه فهو بمنزلة المونيتور فى باريس واصل اسم الكازت انه فى سنة ١٦٢٠ طبع فى صحيفة فى فينيسيا اخبار مختلفة وكانت تشرى بقطعة من الدراهم تسمى كازتة فلزمها هذا الاسم وكان اشتهار الجرنال فى فرنسا سنة ١٦٣١ وفى جرمانيا سنة ١٧١٥ وفى دبلين سنة ١٧٦٧ واول جرنال اشتهر فى هولاند كان فى سنة ١٧٣٢ وفى اميريكا سنة ١٧١٩ وعدد جرنالات

هذه ٨٠٠ منهـا ٥٠ جرنالا تطبع فى كل يوم وجملة نسخهـا ٦٤ مليون واول ما يصح تسميته بجرنال لاشتمـاله على اخبـار عمومية فى بلاد الانكليز هو ما طبع فى سنة ١٦٦٣ وبقى كذلك نحـو ثلاث سنين ثم خفى بظهور الكازت وفى زمان الملكة اليصابت وذلك سنة ١٥٨٨ شهر ايضـا شىء مثله ولكنه لم يكن عـلى هذا النسق واعجب العجب كثرة اوراق التعريف والاعلان فى هذه المدينة فى كل موضع يباح فيه الصاقها وقد يستخدم بعض التجار خدمة مخصوصين ليطوفوا بها ويفرقوها على المارين مجانا وما احد يريد ان يأخذها ومنها ما يطبع بحروف فاحشة الكبر حتى يمكن قراءتها من مسافة بعيدة • اما صناعة الطبع فقد اختلفت الاقوال فى مخترعها فبعض المؤرخين نسبها الى منتز وبعضهم الى استرابورغ وهارلم وبعضهم الى فينيسيا ورومية وبعضهم الى فلورنسه وباسيل وفى رواية ادريان جونيوس ان مخترع الطابع هو يوحنا كستر من هارلم طبع على خشب كتابا فيه حروف وصور على وجه واحـد وذلك فى سنة ١٤٣٨ قال وفى سنة ١٤٤٢ انشأ يوحنا فوست مطبعة فى منتز وطبع فيها كتابا وزعم بعض ان اول كتاب طبعه كان كتاب المزامير وقال آخر لا شك ان الطبع على قطع الخشب كان معروفا عند اهـل الصين وذلك قبل تاريخ النصارى باحقاب عديدة وكذلك كان معلوما عند الرهبان فى بلاد الانكليز وفى غيرهـا من بلاد اوربا فانهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة الى اخرى على الخشب ولكن كان ذلك قليلا فاما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدا بعد واحد فلم يعرف الا فى متأخر الزمن قال ولم يكن احد فى الزمن القديم يشتغل بالعلم وبترجمة الكتب والنسخ الا الرهبان فهم الذين ادخلوا التمدن والمعارف فى بلاد الافرنج وكانت رومية وبلاد اليونان معدن الكتب والعلوم وكان الصكصونيون آباء الانكليز يسافرون مسافات بعيدة فى طلب العلم وتحصيل بعض تلك الكتب النادرة ويشترونهـا بثمن غال وعند رجوعهم يترجمونها الى اللغة الصكصونية وكانت الناس تتنافس فيها لندرتها غاية المنافسة وكان للاسقف ولفريد نسخة من كتاب الانجيل مكتوبة بحروف من ذهب على ورق ارجوانى فكان يضعهـا فى صوان من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة وما عدا الرهبان فلم يكن احد من العامة من يحسن الكتابة غير افراد قليلين وناهيك ان توقيع ويليترد ملك كنت على مجلة كان علامة الصليب وامر كاتبه بان يكتب تحتهـا ان الملك انما رسم تلك العلامة

بيده ·

بدلا من اسمه لجهله الكتابة ولولا تخريب الدانيزيين وتدميرهم لكان العلم بين الصكصونيين قد تقدم كثيرا الا ان ملوك البحر اولئك كانوا على جانب عظيم من الجهل والجفاء وكانوا وهم على اصنامياتهم ينظرون الى الصكصونيين المسيحيين كانهم مرتدة لانهم كانوا اولا مثلهم عبدة اوثان ولهذا كانوا يرون ان فروض دينهم توجب عليهم ابادة اديار الرهبان وكتبهم وما كانوا يعرفون شيئا من جهة السماء سوى انهم يشربون فيها المزر في جماجم اعدائهم وياكلون من مأكول لا ينقص الاكل منه شيئا مهما اكل فمن ثم اتلفوا كتبا كثيرة كانت كلفت الصكصونيين اتعابا عظيمة في تحصيلها ولو انها بقيت لنا لكنا ندري منها امورا كثيرة نجهلها في تاريخ جميع البلاد قال واتفق في القرن الخامس عشر ان شابا اسمه جون غانسفلايش ويعرف بغاتنبرغ من صقع سلغيلوش سافر الى استراسبورغ وكانت مشهورة حينئذ بانها سوق الكتب فاخذ يفكر في احداث طريقة لتكثيرها فخطر بباله انه اذا صنع حروفا تتركب وتنحل يبلغ بها اربه ثم رجع الى ماينس واجتمع برجل اسمه فوست فتواطآ على ابطال نسخ الكتب لما فيه من المشقة بطريقة الطبع بتلك الحروف فسبكاها كما خطر لهما وكان ذلك في سنة ١٤٤٠ الا ان عملهما هذا لم ينتج فائدة الا بعد عشر سنين ويظن ان تلك الحروف كانت من رصاص اضيف اليه بعض اجزاء كيماوية لجعله صلدا متحملا للعمل المراد ثم دخل في شركتهما بطرس شوفر ثم طبع غاتنبرغ عدة كتب من جملتها التوراة المعروفة الآن بتوراة مازارين وقد راج بيعها واشتهارها كثيرا حتى انه كان يقال ان طبعها من عمل الشيطان وفي سنة ١٨٣٧ نصب له مثال على قبره اكراما له وارسلت نواب من جميع دول الافرنج لتحضر مشهده ولما تفرق الذين كانوا مستخدمين في مطبعته ذهب بعضهم الى سوبياكر في ايطاليا فاشتهرت هذه الصناعة فيها في سنة ١٤٦٥ ثم سرت الى باريس وذلك في سنة ١٤٦٩ وبعد سنة اشتهرت في اسبانيا وبعد نحو خمسين سنة عمت جميع اوربا ويظهر مما قاله بادان احد مشاهير الطباعين في باريس في اوائل القرن الخامس عشر وكذا مما قاله شكولوكر الانكليزي ان الامهات والابهات في تلك الحروف لم تختلف كثيرا عن المستعمل منها الان وكانت العادة اذ ذاك ان سبك الحروف مختص بالطباعين فقط وفي سنة ١٦٣٧ صدر حكم من ديوان الانكليز بان لا يزيد

عدد الطباعين على اربعة نفر وانه اذا مات منهم احد لا يقوم آخر في محله الا باذن رئيس اساقفة كنتربرى وفى سنة ١٦٩٣ حين صدرت المجلة باقرار حقوق الاهلين بطل هذا الحكم وكانت الكتب سابقا تفحص قبل ان تطبع ثم يكتب على صفحة عنوانها « تطبع » وفى سنة ١٧٩٥ اطلقت الحرية فى الطبع من دون فحص وامر بان تطبع اسماء الطباعين فى اوائل الكتب واواخرها واول من شهر الطبع فى بلاد الانكليز كاكسطون وذلك نحو سنة ١٤٧٤ وكان قد سافر الى البلاد الواطئة وحصل معارف كثيرة واول كتاب طبعه كان تاريخ طروة ترجمه من اللغة الفرنساوية وكان جامعا لثلاث خصال جليلة وهى كونه مؤلفا وطباعا وناشرا وبسعيه ومعارفه حصل فى ادب لغة الانكليز تقدم عظيم الا ان هذه الصناعة الجليلة كانت غير عامة المنفعة عندهم وخصوصا انهم كانوا يشترون الحروف من بلاد اوربا القارة ولا سيما من هولاند الى ان قام كسلون فى اوائل القرن الماضى وسبك حروفا حسنة وكثر الادوات وفى سنة ١٧٣٠ استخدمته الجمعية المعروفة بجمعية انتشار المعارف المسيحية فى سبك حروف عربية ثم اشتهر صيته فى الآفاق حتى صار اهل البلاد القارة يستمدون منه فلما مات باعت زوجته ما كان عنده من الحروف لجمعية العلوم فى باريس فكانوا يطبعون بها اجل المؤلفات فى الادب والعلم ثم قام دكطر فرى وسبك حروفا فى جميع اللغات المشرقية ويقال انه سبك فى مسبك برسكبف اربعمائة شكل من الحروف الهجائية وان بروبكاندة رومية مع شهرتها ليس فيها اكثر من ذلك وسبك ايضا فى معمل ديدو فى باريس ابدع ما يمكن صوغه من الحروف فى العالم باسره حتى ان بعضها لا يمكن قراءته الا بالزجاجة المكبرة وكيفما كان فان طباعى الانكليز فى عصرنا هذا لا يعلو عليهم احد ثم ان احد النمساويين واسمه هركونك رأى ان الطبع بالبخار غير مستبعد فعرض رأيه على اهل بلاده فاعرضوا عنه فقدم الى بلاد الانكليز واسعفته جماعة منهم لاجراء ما قصده فصنع آلة صغيرة طبع بها الف صحيفة فى ساعة واحدة بمساعدة ولدين فقط فلما تحقق صحة استعمالها عزم على اتخاذ آلة كبيرة لطبع الاخبار فرآها صاحب جرنال التيمس فواطأه على ان يصنع له آلتين مثل تلك ولكن اكبر منها وفى سنة ١٨١٤ طبع فى ذلك الجرنال اعلان بانه مطبوع

بقوة البخار ثم قام جماعة وحسنوا هذه الآلة فكان يطبع بها على الوجهين في كل ساعة من ثمانمائة صحيفة الى تسعمائة وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة الفا واربعمائة صحيفة ثم قام مسترلتل واخترع آلة مزوجة يطبع بها في الساعة من عشرة آلاف صحيفة الى اثني عشر الفا وفي بلاد اميركا مطبعة تطبع في الساعة عشرين الف صحيفة ما بين جرنال وغيره وفي الحقيقة فان جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العالم هو دون صناعة الطبع نعم ان الاقدمين بنوا اهراما ونصبوا اعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خلجانا واقنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر الا ان صنائعهم تلك بالنسبة الى صنعة الطبع ان هي الا درجة ترق فوق درجات الهمجية فانه بعد اشتهار الطبع لم يبق احتمال لاضاعة المعارف التي ذاعت وشاعت اولفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالقلم وقد قيل ان المعرفة قدرة فان المتصفين بالمعارف وهم الاقل يتولون الامور ويسوسون الجمهور وهم الاكثر اه اما احداث الورق فقال فلتير انه كان في القرن الحادي عشر الا انه كان مشهورا في الصين من عهد لا يعلمه الا الله وهو ابيض رقيق يتخذونه من البمبو المغلي او من قصب السكر قال وقد عرف استعمال الزجاج عندهم من الفي سنة وقال آخر ان احداث الورق في الصين عرف في سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وفي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كان يصنع من القطن وفي سنة ١٣١٩ صار يصنع من الخرق واول من صنع الورق الابيض الخشن في بلاد الانكليز رجل نمساوي وذلك في سنة ١٥٩٠ وقبل وليم الثالث كان الانكليز يشترونه من فرنسا وهولاند فكانوا يصرفون كل سنة في ثمنه ١٠٠٠٠٠ ليرة فلما قدم بعض الفرنسيس الى هذه البلاد للاستئمان علموا الانكليز صنعة الورق وكانوا من قبل ذلك يصنعون ورقا خشنا اسمر وفي سنة ١٦٩٠ صنعوا الورق الابيض باليد واتخاذه بالآلة كان من مخترعات لويس روبرت ثم باعها لطباع اسمه ديدو فجاء بها هذا الى بلاد الانكليز ومن ثم شهر استعمالها وفي سنة ١٨٣٠ صنع بها طلحية بلغ طولها ١٣٨٠٠ قدما وعرضها اربع اقدام اما الورق المنقوش الذي يلصق على الحيطان فكان احداثه في اسبانيا وهولاند في سنة ١٥٥٥ فاما البابيروس وهو الورق المتخذ من القصب فكان يصنع في مصر والهند الى ان عمل الرق وذلك

فى سنة ١٩٠ قبل الميلاد وكان بتولومى قد منع اخراجه من مصر وعليه كتب تاريخ يوسيفوس وهى نسخة جليلة ثمينة اخذهـا نابوليون الاول من جملة ما اخذ وبعث بها الى باريس وفى سنة ١٨١٥ ردت الى موضعها •

﴿ فصل فى الستى ﴾

قد تقدم الكلام على هـذا الخط من حيث اشتماله على اعظم المبانى الكائنة فى لندرة فان البنك والبوسطة والبورس وديوان الضابط وداره ودار السكة وكنيسة ماربولس جميعها فيه وهو فى الواقع لندرة القديمة وما بنى من بعده فهو حادث وبقى الآن هنا ان اقول ان هذا الخط الفريد هو مركز الاشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لاغنياء تجار الانكليز فما من بناء فيه الا وهو مصدر للحركة والعمل وما احد يخطو فيه الا للكسب والشغل ولا يتحرك به لسان الا للنفع والفائدة ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور الا للسعى ولا يختلج صدر مخلوق خاطر الا للتحصيل والاقتناء فترى كل واحد من اهله فاتحا عينيه وفمه لاكل الدنيا وما فيها وكثيرا ما ترى فى مسالكه مصحبين يحدثون انفسهم فيما هم فيه من المباشرة للاعمال فهنا تجد الغلام شيخا فى معرفة الادارة والشيخ غلاما فى النشاط والاستعداد والشاب قبيلا وكيفما توجهت واينما سلكت رأيت نهم الخلق وحرصهم شاغلا لحواسهم الباطنة والظاهرة بالحرث والادخار وليس من قطر فى الدنيا الا ويمده اهل هذا الخط بالبضاعة والمهمات وهو وان خلا عن الحوانيت الرحيبة البهجة مما يرى فى سائر شوارع لندرة الا ان الارباح التى تجنى هنا فى يوم واحد لا تجنى فى غيره فى شهر لان العقود الخطيرة والمراسلات الجزيلة انما تصدر عن هذا المشغل الحافل ولا يخفى ان التاجر الذى يراسل تجار البلاد الاجنبية ويبعث لهم ويجلب من عندهم يربح اكثر من التاجر الذى يقعد فى حانوته وينتظر شارى شقة من الحرير او ثوب من الخز ومن هؤلاء التجار من يكسب فى السنة نحو مليون ليرة كذا قيل ومنهم من له عدة سفن تجرى فى البحر من بلد الى بلد ومنهم من يستخدم فى ادارة مصالحه مئة شخص وقد ذكرنا سابقا ان واحدا من هؤلاء له محل فى ارلاند فيه

ارضة

اربعة الاف من الرجال والنسـاء لعمل القمصان لا غير وان تاجرا مات و خلف سبعة ملايين ليرة ولابد لكل منهم من ان يكون له كتاب وحساب وصير فى وما اشبه ذلك والغالب ان يكون له محترف يشتمل على ثلاث حجرات احداهـا للاشـغال الخاصة به والثانية للكتاب والثالثة مشتركة لهم ولوضع الروامير والمتاع ونحوه ولا شك ان تجـار لندرة عموما وتجار هذا الصقع خصوصا اغنى من جميع تجـار اوربا الا انهم دونهم فى الظرف والكياسه وعبـارتهم ركيكة بخلاف تجار فرنسا فانهم مشاركون لذوى العلم والدرايه وعبارتهم وان تكن دون عبـارة علمائهم الا انها بالنسبه الى كلام تجـار الانكليز عاليه كما ان عبارة هؤلاء بالنسبه الى عبارة تجار بلادنا فى غاية الفصـاحه ولعمرى ان تاجرا يكتب لق اى لا وقضه اى الامضاء والسالسى اى الثالثه ومنقول اى نقول واعرض عن هذا الشئ اى عرض هذا الشئ والخصارة اى الخسارة ونبتدى بحسابا جديدا وبخيرا وعافية والساررة وغث علينا وحظونا على وفولابت ونحو ذلك لجدير بان يستحيي من حرفته ومن العجيب هنا ان العالم قد يسهو احيانا ويغلط و مثل هؤلاء التجار لا يغلطون ابدا فى تأدية عبارة واحدة على حقها فقد قرأت اكثر من الف رسالة وردت منهم فلم ار فيها ولا جملة واحدة تدل على فكر لهم ورويه فلمثل هذه الحـال يدخر قول الانكليز فى التوبيخ ألا تستحيي من نفسك نعم ان التاجر لا يطلب منه ان يكون شاعرا او رئيس ديوان الانشاء ولكن عار عليه ان يصرف ادراكه كله فى معرفة الثوب الخشن من ازفيع ويرتدى بلباس الغفول عن اشرف ما ميز الله به الانسان عن البهيمة وهو النطق بل ليت هؤلاء يكتبون كما ينطقون فانى لا احسب عجزهم فى الكلام بالغـا الى هذا الحد ولعمرى ان صاحب الذوق السليم يمكنه ان يكتب عبارة رائقة من دون ان يدرس كتاب سيبويه او فقه اللغة للثعالبى والمتفدح من هؤلاء من يخلط العربية بالتركية او الطليانية فيكتبون مركب بالكان وعلام مور و برمق وجنابير وماكنه و بريو ويا ليتهم يكتبونها على حقها فياليت شعرى ما سبب هذا العدول عن لغتهم الى لغة العجم وما سبب هذا القصور عن تأديه عبـارتهم بالفاظ متعـارفة اوعن سبك معانيهم فى كلام معجب مفصح وما عسى ان يقال فى تاجر فرنساوى يكتب رسـالة ويحشوها بالالفاظ القبيحة والاغلاط الفاحشة فى التركيب ورسم الخط

وما يكون قدره عند اقرانه ومعارفه وعند اصحاب الجرنالات وخصوصا ما يطبع منها للضحك والتهكم الا فليحمدوا البلاد التي خلت عن هذه الصحف وعن رعاية حرمة العلم ثم ان تنافس الانكليز في حصولهم في خط الستي سواء كانوا تجارا فيه او كتابا او غير ذلك هو كتنافس القبط في استخدامهم في قلعة مصر وقد ذكرت سابقا ان جميع الحوافل مكتوب عليها اسم البنك لانها جميعها ترد اليه الا ما ندر وبهذا تعلم ما يكون ثم من الزحام والتوارد وفي الحقيقة فان دوي المراكب في مسالك هذه البقعة لمما يذهب بالصبر وما اظن احدا من سكانها يمكنه ان يعمل فكره في شيء الا فيما هو بين يديه من الشغل وفي هذا المورد الوخيم قدر الله لي ان اولف هذا الكتاب لا في مروج ايطاليا النضيرة ولا في رياض الشام الانيقة فاخال ان بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا وظلاما متكاثفا وكنت كلما خرجت من حجرتي الى هذا الموضع اوجس ان يصيبني سوء اما من تزاحم الناس او البهائم او من رداءة الطعام الذي يوكل في مطاعمها فاذا عدت الى منزلي اجد نفسي كأني نجوت من خطر غرق او نار ومن يخرج من هذا الحبس الى جهة ريجنت ستريت كان كمن خرج من لندرة الى باريس لانه يرى هناك بعض الناس يمشي على مهل فيستشعر ان من الخلق من يخرج للتفرج والتنعم وبعضهم يدخن بالتبغ وهو ماش وبعضهم يتكلم وهو ضاحك او مبتسم وقد يسمع بعض آلات الطرب فيأنس بان هناك ما ينفس عن القلب ويوذن بالسرور وان من اوقات العمر ما يخصص للراحة واللذة بخلاف شوارع الستي فان الله تعالى لم يخلقها الا للسعي والشغل الشغل ليس الا الشغل العمل العمل ان دين القوم العمل فهم لا يستريحون منه الا اذا استراح هو منهم وناهيك ان فيه دارا واحدة تشتمل على خمسمائة محترف وعدة سماسرته تبلغ نحو الف ومع ان موقع هذا الخط سافل بالنسبة الى سائر اخطاط المدينة وطرقه ضيقة وبيوته حقيرة فان اجلاله عند الانكليز جعله ارفع واشرف من غيره حتى انهم اذا شخصوا منه الى محل اعلى منه يقولون انا نهبط الى موضع كذا وليس في هذا الخط كله ملهى ولا نزهة ولا شيء آخر يبسط النفس فلن ترى فيه الا وجوها كالحة وزحام عواجل وحوافل ومحامل وعجلات متبلة ومدبرة وطرقا ضيقة وحلة وجدرانا سودا ومسالك غاصة بالناس

تمت

تمت الطبعة الثانية من هذا الكتاب * بحمد الملك العلي ملهم الصواب *
ومجزل الثواب * اما الطبعة الاولى التي طبعت في تونس فلم تكن تامة اذ حذف
منها بعض اقوال سديدة * واخبار مفيدة * فلما رأينا ذلك اثبتنا في هذه
* الطبعة ما حذف من تلك واضفنا اليها ايضا اشياء اخرى من قبيل *
* الاحصائيات التي زادت اذ لا يخفى ان احوال اوربا تغيرت بعد *
* تأليف الكتاب وقد بذلنا الوسع في ضبط هذه النسخة وفي *
* تحريرها وتهذيبها على قدر الامكان * فجاءت بحمده تعالى *
* نموذجا على الاتقان * وكان الفراغ من طبعها في *
* اواخر شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٩ في ايام سلطاننا *
* المعظم * الخليفة الاعظم * مولانا وسيدنا *
* السلطان ابن السلطان * السلطان *
* الغازي عبد الحميد خان * ابد الله *
* سلطنته * وايد دولته وسلطته *
* والحمد لله رب العالمين *
* والصلاة والسلام على *
* نبينا سيد المرسلين *
* وعلى آله وصحبه *
* اجمعين *



﴾ معارف نظارت جليله سنك رخصتيله طبع قلنمشدر ﴿

مطبوعات الجوائب

﴿ هذه اسماء بعض من الكتب التى طبعت بمطبعة الجوائب ﴾

﴿ كتاب كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب اعتنى بجمعها مدير الجوائب ﴾

﴿ يحتوى على سبعة اجزاء ﴾

قرش

٣٠ ﴿ الجزء الاول ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الفصول اللطيفة و المقامات الظريفة و المقالات الادبية

٣٠ ﴿ الجزء الثانى ﴾ يحتوى على تفصيل ذكر حرب جرمانيا مع فرنسا من اولها الى آخرها

١٥ ﴿ الجزء الثالث ﴾ يشتمل على بعض القصائد التى نظمها محرر الجوائب فى الاستانة وهى التى ادرجت بالجوائب وهو جزء من ديوانه

١٠ ﴿ الجزء الرابع ﴾ يشتمل على القصائد التى نظمها افاضل العصر من العلماء والادباء فى مدح محرر الجوائب

٢٥ ﴿ الجزء الخامس ﴾ يشتمل على جميع ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية و الوقائع الدولية التى حدثت فى الممالك العثمانية وفى الدول الاجنبية من جملتها الاوامر والفرامين السلطانية و غير ذلك من المعاهدات التى صدرت فى الخطوب الشهيرة

٢٥ ﴿ الجزء السادس ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جملتها الاوامر والفرامين السلطانية التى صدرت فى الخطوب الشهيرة و غير ذلك من الفوائد التى يحتاج اليها كل اديب اريب و يرتاح اليها كل مؤلف لبيب

٢٥ ﴿ الجزء السابع ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جملتها الاوامر السلطانية التى صدرت فى الخطوب الشهيرة و غير ذلك من الفوائد التى حدثت من سنة ١٢٩٥ الى غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨

﴿ كتب اخرى طبعت فى مطبعة الجوائب ﴾

قرش

٢٠ غنية الطالب ومنية الراغب فى الصرف والنحو وحروف المعانى (طبعت فى مطبعة الجوائب)

٢٠ الموازنة بين ابى تمام والبحترى للشيخ العلامة ابى الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى (هذا الكتاب لم يطبع بعد فى غير مطبعة الجوائب)

٠٧ بديع الانشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات للشيخ الامام مرعى ابن الشيخ الامام يوسف بن ابى بكر احمد المقدسى

٠٢ لوعة الشاكى ودمعة الباكى

٠٢ تعليم المتعلم طريق التعلم للامام الزرنوجى

٠٤ ترجمة القانون الاساسى والخط الهمايونى الشريف الى اللغة العربية

٠٣ ترجمة نظامات مجلسى الاعيان والمبعوثان الى اللغة العربية

٠٢ رسالة فى المكايل والمقاييس العلية بالديار المصرية تأليف عزتلو محمود بك الفلكى

٢٠ الطبعة الثانية من مجلة الاحكام العدلية تحتوى على ستة عشر كتابا و ١٨٥١ مادة

٠٤ القانون الاساسى بالتركى والعربى

١٢ رسائل ابى بكر الخوارزمى

١٢ ديوان ابى الفضل العباس بن الاحنف اليمامى الشاعر المشهور وفى آخره ديوان جمال الدين يحيى بن مطروح المصرى

٠٥ سجع الحمام فى مدح خير الانام لشمس الدين محمد الصالحى الهلالى شيخ شهاب الدين الخفاجى على عدد حروف المعجم

٠٥ مقامات جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وهى ادبية طبية

١٢ رسائل ابى الفضل بديع الزمان الهمذانى

٠٦ مقاماته

٠٧ تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات للشيخ الرئيس ابى على الحسين بن عبد الله بن سينا وفى آخرها قصة سلامان وابسال ترجمها من اليونانى حنين بن اسحاق

قرش

٠٤ ثلاث رسائل احداها النقود الاسلامية للعلامة تقي الدين احمد بن عبد القادر المقريزي المؤرخ المشهور والثانية الدراري في الذراري للشيخ جمال الدين عمر بن هبة الله بن العديم الحلبي والثالثة مجموعة حكم وآداب واشعار واخبار وآثار وفقر انتخبها الكاتب المشهور ياقوت المستعصمي

٠٨ نثار الازهار في الليل والنهار للامام العلامة محمد بن جلال الدين الخزرجي الافريقي الملقب بابن منظور صاحب لسان العرب

١٠ نزهة الطرف في علم الصرف للشيخ الامام الاوحد ابي الفضل احمد بن محمد الميداني صاحب مجمع الامثال ويليه الانموذج للعلامة جار الله الزمخشري وقواعد الاعراب لابن هشام كلاهما في علم النحو وقد طبعت هذه المجموعة باحرف كبيرة على شكل حسن غريب بحيث لم يسبق لها نظير وقد ضبط كثير من الفاظها بالحركات تسهيلا للتعلم والتعليم

﴿ كتب اخرى طبعت في مطبعة الجوائب وهي من تأليف الشهم الهمام ﴾
﴿ الامير السيد محمد صديق حسن خان بهادر ملك بهوپال المعظم ﴾

قرش

١٧ لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان وفي آخرها خبيئة الاكوان في افتراق الامم على المذاهب والاديان

١٠ حصول المأمول من علم الاصول

١٠ البلغة في اصول اللغة

٠٥ غصن البان المورق بمحسنات البيان

٠٦ نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان

٠٤ العلم الخفاق من علم الاشتقاق

﴿ كتب تركية طبعت في مطبعة الجوائب ﴾

٠٥ حقوق مال مترجم من اللغة الفرنساوية

٠٤ اخلاق حميده للاديب محمد سعيد افندي

٠٦ ديوان المرحوم صبري شاكر الشهير

٠٣ تخميس قصيدة البردة للمرحوم نحيفي افندي

١٠ تاريخ امريقا وتفصيل اخبار كشفها

﴿ كتاب كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب اعتنى بجمعها ﴾

﴿ مدير الجوائب ﴾

قرش

٣٠ ﴿ الجزء الاول ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الفصول اللطيفة والمقامات الظريفة والمقالات الادبية

٣٠ ﴿ الجزء الثانى ﴾ يحتوى على تفصيل ذكر حرب جرمانيا مع فرنسا من اولها الى آخرها

١٥ ﴿ الجزء الثالث ﴾ يشتمل على بعض القصائد التى نظمها محرر الجوائب فى الاستانة وهى التى ادرجت بالجوائب وهو جزء من ديوانه

١٠ ﴿ الجزء الرابع ﴾ يشتمل على القصائد التى نظمها افاضل العصر من العلماء والادباء فى مدح محرر الجوائب

٢٥ ﴿ الجزء الخامس ﴾ يشتمل على جميع ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية و الوقائع الدولية التى حدثت فى الممالك العثمانية وفى الدول الاجنبية من جملتها الاوامر والفرامين السلطانية وغير ذلك من المعاهدات التى صدرت فى الخطوب الشهيرة

٢٥ ﴿ الجزء السادس ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جملتها الاوامر والفرامين السلطانية التى صدرت فى الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التى يحتاج اليها كل اديب اريب ويرتاح اليها كل مؤلف لبيب

٢٥ ﴿ الجزء السابع ﴾ يشتمل على ما فى الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جملتها الاوامر السلطانية التى صدرت فى الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التى حدثت من سنة ١٢٩٥ الى غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨